المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أجمل ٥٤ حكاية فى العالم

تأليف: نخبة

ترجمة: حماده إبراهيم



2096

أجمل ٥٤ حكاية فى العالم

المركز القومى للترجمة

تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2096
- أجمل ٥٤ حكاية فى العالم
- نخبة
- حماده إبراهيم
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة

لمختارات قصصية عالمية لنخبة من المؤلفين

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

أجمل ٥٤ حكاية
فى العالم

تأليف : نخبة
ترجمة : حماده إبراهيم

2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أجمل ٥٤ حكاية فى العالم/ تأليف: نخبة من المؤلفين،

ترجمة : حماده إبراهيم.

ط١ ، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣

٦٢٨ ص ، ٢٤ سم

١ - القصص - مجموعات.

(أ) إبراهيم، حماده (مترجم)

(ب) العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٤٠٧٧

الترقيم الدولى 978-977-704-976-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

اليابان

جامايكا

اليابان

أيسلندا

مدغشقر

نيوزيلندا

الصين

فيتنام

تقديم المترجم

تعد الحكاية نوعًا أدبيًا من الأنواع الصغرى؛ وذلك بمضاهاتها بالأنواع الكبرى مثل الرواية والمسرحية. والحكاية فى الوقت الحاضر فى حالة تهميش واضح، فلا تتضمنها الكتب المدرسية العامة، وقلّما ترد ضمن المقررات الجامعية. ولا نكاد نقرأ اسمها على أغلفة الكتب، بل يستبدل به كلمة رواية أو قصة قصيرة. وقد أدى غياب التغطية الإعلامية وتحفظ الناشرين والصحافة فى نشر الإبداعات القصيرة إلى انطواء الحكاية فى دائرة توازى دائرة الشعر، واختفاء جرائدها المتخصصة ومسابقاتها الخاصة وورش كتابتها. وقد زاد هذا الوضع سوءًا بسبب نظرة النقاد لها؛ بوصفها إنتاجًا أدبيًا لاستهلاك القارئ السريع على شاكلة وجبة الساندويتش.

حول كلمة حكاية

فى القرن السابع عشر، أطلق **لافونتين** كلمة أقاصيص على حكاياته الشعرية المعروفة.

وفى القرن التاسع عشر أدى امتزاج النوعين، وهو طابع الأعمال الرومانسية، إلى خلط الأوراق كما يقولون؛ فوجدنا حكايات **بالزاك** وحكايات **فلوبير** وحكايات **موباسان** وحكايات "ليسل آدم" لتدل على الغموض الذى يكتنف اصطلاحات الحكاية والأقصوصة والسرد.

نحو توصيف النوع:

على الرغم من التنوع فى المضمون وفى نمط الموضوعات، وتعدد الجماليات؛ فيمكننا أن نضع بعض المعايير أو الأسس الثابتة للحكاية. فمثلا يصفها قاموس "روبير" بأنها "نوع يمكن وصفه بأنه سرد موجز فى العادة، ذو شكل درامى (وحدة الفعل) من خلال عدد قليل من الأشخاص".

نظريات النوع:

جاء ازدهار الحكاية فى القرن التاسع عشر مواكبًا لكثرة النظريات التى ظهرت حولها فى كل من ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك فقد ظل تنظير هذا النوع محصوراً فى حدود معينة.

فيما يختص بالرومانسية الألمانية التى كانت وراء النظرة الجمالية الحديثة؛ فقد حاول الألمان وضع تحديد دقيق لهذا النوع. فهذا "جيته" فى كتابه (جماليات) يصف الحكاية بأنها قصة حقيقية، مأخوذة من الحياة اليومية، كما أنها حدث غريب وقع. أما "شليجيل" فيصف الحكاية باعتبارها حكاية لا تنتمى إلى التاريخ بسبب أسلوبها المتجرد فى التعبير والنقاء المشع والدقة فى بنائها.

وأما "إدجار ألان بو"، وهو أحد أعمدة هذا النوع ومن القلائل من كتابها الذين حاولوا وضع تعريف لها، فهو يضعها فوق الرواية من حيث القيمة الأدبية. وفى رأيه أن الكاتب لكى يحقق وحدة الانطباع وكلية الاهتمام، عليه أن يلتزم بعدة شروط.

أولاً: الإيجاز. فالحكاية ينبغى أن تقرأ دفعة واحدة **"at one sitting"** .

ثانيًا: حصرها فى "فضاء ضيق". وهذا الشرط القريب من شرط وحدة المكان عند أرسطو؛ يتطلب تشكيل الفضاء حول مركز وحيد.

ثالثًا: صب التفاصيل فى المجموع، بفضل خطة محكمة فيما يختص بالخاتمة والتأثير الذى تحدثه الحكاية، فـ "ينبغى على الكاتب ألا يكتب كلمة واحدة لا تؤدى - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - إلى تحقيق هذا الهدف الوحيد المقصود".

الفضاء فى الحكاية:

يأتى وصف الفضاء فى بداية الحكاية للتدليل على واقعية الحدث وعلى أنه يجرى فى العالم الحقيقى. إن البدء بعرض المكان الذى تجرى فيه الأحداث يعطى الانطباع بأن عالم الحكاية هو العالم الحقيقى الواقعى، وفى حكايات هذا الكتاب نجد ذلك فى الكثير من الحكايات.

ولوصف الفضاء دور كبير فى الفعل فى الحكاية. ومن الملاحظ فى الحكاية المعاصرة الميل إلى الأماكن العامة: قطار (الرجل الذى غير جلده)، حجرة فى فندق، مقهى (دين قديم)، مطعم (فى جلد الآخر)، شارع (الغرق، الشك)، باخرة (الصندوق، النور الخادع)، الشاطئ (شىء مخجل، شمس، الجنية الزرقاء).

ولعل هذه الأماكن العامة لا تحتاج إلى وصف طويل وذلك لمعرفة القارئ بها. وفى حالة الحكاية / الإطار؛ فإن انفتاح الفضاء أو المكان أو انغلاقه له تأثيره المهم فى تفجير عملية السرد. فإذا كانت الحكاية المغلقة توهم بشعور بالانغلاق فى الختام؛ فإن الحكاية المفتوحة تعطى الفرصة للعديد من المعانى برفضها الانغلاق فى معنى محدد، وتترك للقارئ مجال المشاركة والإضافة. ومن أمثلة النهايات المغلقة الحكايات التالية:

الأصيل يهبط على أورشليم، وفى مواجهة الموت، والفنان والطفل، ومرض الورق، والرجل الذى غير جلده، ومارى هيلين، والراهبتان، والصندوق، والعدو، أول الفصل. وفى جلد الآخر، والشك، والأب العملاق، ومشاركة .

ومن أمثلة النهايات المفتوحة الحكايات التالية:

"الببغاء الرابع، الجنرال، شىء مخجل، اللحن الرعوى، بمناسبة دييجو، وترومبا، لوحات معرض، الأستاذ التلميذة، القنطور".

كذلك فإن لوصف الفضاء دورًا على المستوى الرمزى. فالإطار الذى تجرى فيه الأحداث، والديكور والأماكن تنفتح كلها على معانٍ يمكن بها تأويل النص وفهمه. ومن أمثلة ذلك:

"مارى هيلين، الصندوق، شىء مخجل، العدو، اللحن الرعوى، أول الفصل، الشك، الفرار، دين قديم، الصيد بالشباك ".

بين الفضاء المادى والتجريد الفضائى:

يعطى الفضاء – فى أغلب الحالات – انطباعًا بالتضييق الدرامى حول الشخصية، وحصرها فى حدود مكانية مقيدة.

وقد يكون المكان المغلق أداة تعذيب يوحى بالسجن. كما هى الحال فى حكايات مثل: "مشاركة، الجسر المعلق، السمندل الذى اختار مصيره، أخى أخى، لا ميدالية من أجل مالورى، الحرب".

أما تجريد الفضاء فى الحكاية؛ فإنه ينقلنا من النظام الطوبولوجى إلى البنية الفضائية النفسانية الخاصة بالموضوع مباشرة. ومن أمثلة ذلك حكايات: "الأصيل

يهبط على أورشليم، فى مواجهة الموت، غابة فوق الرصيف، الجنرال، الرجل الذى غير جلده، المكسيكى الصغير، الأم والابن، مات الملك.

كذلك فإن عمارة النص توحى بأشكال هندسية مجردة، مثل **السرداب** عند الألمانى كافكا أو **المتاهة** عند الأرجنتينى خورخى بورخس. وعند كورتاثر تتخذ الحكاية من الدائرة تعبيرًا مجازيًا، "هذا الشكل المحكم الذى ليس فيه أى زيادة والذى ينغلق على نفسه تمامًا".

بين النظام الفضائى والنظام الزمنى:

يرى بعض النقاد أن الحكاية تبدو كأنها نوع من التوتر؛ بين ما هو شاعرى وبين ما هو سردى، بين النظام الفضائى وبين النظام الحركى. فهى تمضى فى بعدٍ زمنى من ناحية (طريق السرد ولقطات الفعل) ومن ناحية أخرى، فى بعدٍ لا تاريخى، آنٍ (المفردات، المجازات والاستعارات، وجهة النظر) تقرب الحكاية من اللوحة.

وحتى إذا كانت تقدمية السرد تدفع إلى عرض المشاهد والأوصاف فى الزمن، فإن الحكاية توحى بأنها تريد أن **تركز اللحظة الراهنة بكل أبعادها وثرائها**، أو خلق "وحدة انطباع"، كما هى الحال فى حكايات آلان بو.

الرواد المشاهير:

تنتشر الحكاية فى سهولة ويسر، ولعل ذلك بسبب حجمها الصغير، وأيضًا بسبب أصولها الشفاهية، حيث كانت تلقى إلقاءً فى المنتديات الأدبية وأمام الجماهير.

ومن أقدم وأشهر كتاب الحكاية فى العالم "إرنست تيودور ويلهيلم أمادوس هوفمان" - (١٧٧٦- ١٨٢٢). ذلك الموسيقار والروائى الألمانى الذى أدخل فى فرنسا

منذ ١٨١٧، أسلوب الفنتازيا بمجموعته المعروفة باسم "حكايات ليلية " وهى حكايات تدور فى جو من الرعب ومن الكوابيس.

وعلى ذكر الرعب والكوابيس يبرز الأمريكى الأشهر "إدجار آلان بو" (١٨٠٩ – ١٨٤٩) الذى افتتن به الشاعر الفرنسى الكبير "شارل بودلير" ونقله إلى الفرنسية. وهو يعتمد على أسلوب التأثير المبدئى الذى يظل يشد القارئ حتى النهاية.

وفى روسيا اشتهر "نيكولا جوجول" (١٨٠٩– ١٨٥٢) بعد نشر الجزء الأول من مجموعته بعنوان "سهرات فى القرية بالقرب من ديكانكا" (١٨٣١)، وتتميز حكايات جوجول بأسلوبها الدرامى، كما عرفت بشخصية "كوزاك" بطلها الجفول الشرس. ولعل معايشة جوجول لشخصية بطله الموظف المعذب ضحية الأزمات النفسية التى أفقدته هويته، لعل ذلك كان وراء إصابة الكاتب نفسه بأزمات عصبية حادة وصلت به إلى درجة الهلوسة، ولم يفلح فى علاجها بإقامته فى ألمانيا وإيطاليا. فمات قبل أن ينتهى من مجموعته بعنوان "النفوس الميتة ".

أما هنرى جيمس (١٨٤٣– ١٩١٣) فقد عرف بحكايته الشهيرة "صورة فى البساط". كما أنه نظّر للحكاية فى كتاب بعنوان "فن الخيال" عام ١٨٨٤"، ثم "حول موباسان" عام ١٨٨٨. وفيه يعقد مقارنة بين القارئ الإنجليزى الذى لا يميل إلى قراءة هذا النوع من الحكايات، وبين القارئ الفرنسى الذى اعتاد قراءة الإبداعات القصيرة، سواء فى الحكاية أو فى الشعر.

ومن أشهر كتاب الحكايات فى العالم نذكر الأرجنتينى "خورجى بورخس" ومجموعته بعنوان "ألف"، والإيطالى "ألبرتو مورافيا" ومجموعته "الفردوس". ومن اليابان نذكر "كاجى موتو جيرو" ومجموعته "الليمون"، ومن الهند "بانافول" ومجموعته "نادى المجنون"، ومن فيتنام "بوى مينه كوك" ومجموعته "فى لحظة، حياة". ثم الفرنسى "دانييل بولانجيه" ومجموعته "عرس الشحرور"، وأخيراً المصرى "نجيب محفوظ" بمجموعاته المتعددة، ومنها "خمارة القط الأسود".

هذه الحكايات

المرأة - الطفل - الحرب

ثلاث تيمات كبرى تتوزع فيها حكايات هذا الكتاب: المرأة والطفل والحرب.

المرأة هى الشخصية الرئيسية فى أكثر من نصف الحكايات:

ففى أكثر من نصف الحكايات تقوم المرأة بالدور الرئيسى. وفى عدد آخر من الحكايات تكون غائبة، ولكن الأحداث تدور حولها أو هى المحرك لها؛ فالمرأة هى البطلة المطلقة فى حكايات مثل: الراهبتان، وترومبا، فى الطريق إلى مون لايت، لوحات عرض، الفرار، شمس، ساحرة، الجسر المعلق، حكاية لم تنشر، كما أنها تشارك فى البطولة فى عدد آخر من الحكايات مثل: شىء مخجل، النور الخادع، الحرب، الصيد بالشباك، لحظات، الأستاذ والتلميذة، الأم والابن. ثم إنها فى بعض الحكايات تكون مدار الحكاية أو المحرك للأحداث دون وجودها الفعلى مثل: زهور وحب وحنين، مشاركة، أول الفصل، الصندوق، رجل متين البنية.

يأتى الطفل فى المكانة الثانية من حيث الشخصية الرئيسية أو المشاركة فى البطولة، كما فى الحكايات التالية:

غابة فوق الرصيف، لحظات، الفرار، الأستاذ، لحظات، الصيد بالشباك، عملاق فى لعبة الكريكيت، أول الفصل، شىء مخجل، رحلة إلى باريس، المكسيكى الصغير، الراهبتان، الأم والابن، الجسر المعلق.

أما الحرب وهى الثالثة فى ترتيب التيمات، فهى موجودة وجوداً مباشراً فى حكايات مثل: العدو، الغرق، لحظات، ساحرة، الجسر المعلق. كما أنها تخيم على الجو العام فى حكايات مثل: عودة الجندى، لوحات معرض، الجنرال، الأم والابن، الصندوق.

ولعل ذلك راجع إلى عالمية هذا الحدث وهو الحرب العالمية الثانية، من ناحية، ومن ناحية أخرى كون المسابقة التى شاركت فيها هذه الحكايات كانت فى مطلع الستينيات من القرن العشرين،أى أن الكتّاب المشاركين فى المسابقة إما عاشوا أحداث الحرب وإما عاصروها.

وهو السبب نفسه الذى جعلنا لا نجد معلومات كافية عن هؤلاء الكُتّاب الشباب الذين شاركوا فى المسابقة.

حمادة إبراهيم

أخـى! أخـى!

تأليف: نـورا بـوركـيـه Norah Burke

من إنجلترا

كان شقيق شيرسينج الصغير راقداً فى الكوخ. كان يشعر بألم فى بطنه. وكان لم يزداد شدة. كان شير نفسه لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. أما شقيقه فقد ان يصغره بعدة سنوات. وكان لهما أخوة كثيرون بطبيعة الحال، لكنهم ماتوا؛ ضهم بالكوليرا وبعضهم بالأنفلونزا أو بأمراض أخرى من هذا القبيل، أو بسبب ادث وقعت فى الغابة. ولم يبق سوى شيرسينج وأخيه الصغير كونوار.

وقالت الأم مخاطبة المريض:

– سأعصر بعض الخرق فى الماء المغلى وأضعها على بطنك.

لم تكن تبتسم ولم تكن تبكى. كان كل ذلك يحدث فى أغلب الأحيان. وسألها يرسينج الذى كان يشعر بألم شديد بسبب أخيه:

– ماذا ينبغى أن أفعل؟ سأذهب لإحضار بعض الأخشاب لنوقد النار، وبعض "الجلة"، وسأحضر الماء. دعينى أمزق الخرق.

وأسرع يعمل كل ذلك.

وألقيا بعض الحطب فوق النار. كثيراً من الحطب، حتى يغلى الماء بسرعة. ووضعا خرق الساخنة فوق بطن الصغير. ولكن بعد لحظة، قالت أم شير:

– يجب أن ننقله إلى مستشفى كالاجات.

حينئذ أدرك شير أن أخاه سيموت. عندما نطقت الأم بكلمة المستشفى فهم؛ لأن سكان الغابة جميعًا يعرفون أن المستشفى ليس سوى الأمل الأخير لمن فقدوا الأمل. وأصابه شيء في حلقه، ثم صاح قائلا:

– سأذهب لأحضر أبي.

– ستنفق الأيام قبل أن تعثر عليه.

كان باهادور والد شيرسينج مشهورًا في الناحية بسبب ما قام به من أعمال كثيرة. وهو يعيش في قرية لالدواني يرعى ماشيته ويزرع أرضه.. ولكن في كل مرة تأتي فيها بعثة للغابة أو عملية صيد كبيرة، سواء كان ذلك لقتل الصيد أو لتصويره، فقد كانوا دائما يحضرون باهادور الشجاع.

وهو يعثر على النمور حينما لا يعثر عليها أحد.. وهو يتأمل العشب الجاف ثم يخبر القوم بكل ما مر فوق هذا العشب.. وهو ينصت إلى الحيوانات ثم يقول: إن فهدًا قتل أحدها قبل قليل.

جسمه كله، من رأسه إلى أخمص قدمه، تغطيه الجروح والندبات. أثار مخالب تقول: إنه ذات يوم خلّص صديقًا له من مخالب نمر كاد يفترسه. وعلى إحدى ساقيه علامة من أثر لدغة ثعبان، مزّق مكانها وكواها بالنار.. فقد إصبعين من أصابع إحدى يديه في مثل هذه الأحداث. وذات يوم قطع مسافة ثمانية كيلومترات وهو يربط بطنه بقميصه ليمنع أحشاءه من الخروج من جلده الممزق. ذلك هو باهادور الهمام. كان اسمه أيضا شيرسينج باهادور.

وحاليًا، هو موجود بعيدًا في الغابة مع بعثة تصوير. وجميع رجال القرية هناك.

وفى الكوخ الذى بنى من الطين والأعشاب، كان يرقد كونوار المريض فوق الأرض.. كان يبكى، وأحيانًا يسعل من الدخان لكنه صموت جامد.

أما شيرسينج، الابن الحقيقى لوالده الشجاع؛ فقد جعل يتطلع إلى أخيه الصغير ويرى الموت فى عينيه، وقال:

– لا يوجد رجل واحد فى القرية.. سأحمله بنفسى.

كان يجب على الأم أن تبقى هى لكى تهتم بالماشية، وتفلح الأرض، وإلا ماتوا جميعًا من الجوع.. وكلاهما يدرك ذلك جيدًا دون أن يصرح به.. لكنها كانت امرأة من الجبل. تعرف معنى حمل الأثقال والسير بها. فلقد ترعرعت هناك فوق الجبال الشاهقة، فوق الهضاب المنخفضة التى تحيط بالقرية، وكانت تعرف طريقة حمل الثقل فوق الظهر عن طريق عصابة حول الرأس، حيث إن عضلات الرقبة القوية يمكنها نقل أحمال خرافية عبر الجبال والأودية طيلة يوم كامل دون شكوى.

وأخذت المرأة أحد ثوبيها "السارى" وجعلت منه عصابة يضعها شير حول جبهته وظهره، ثم حملت صغيرها كونوار الذى كان المرض قد ثناه على بعضه، فوضعته داخل العصابة.

وبدأ شير على الفور يشعر بحرارة جسم أخيه الصغير الملتهب، من خلال النسيج القطنى. كذلك شعر بالثقل، وتساءل كيف سيصل به إلى بر الأمان. وقالت الأم:

– ثقيل عليك جدا يا بنى!

قالتها بنغمة يائسة، ثم أردفت قائلة:

– لن تستطيع الوصول إلى هناك.

ولم يعقب شير بشىء، وسار فى الطريق.

***

كان الوقت مساءً، وكان جميع أكواخ قرية لالدوانى غارقًا فى نور برتقالى ساطع.. وحول القرية كانت ثمة قطع من الأرض المزروعة والمراعى التى يرعون فيها القطعان، والأسوار المقامة من أغصان الشوك المكدسة، والحظيرة التى يحبس فيها الحراس الحيوانات التى يجدونها ترعى فى المراعى الحكومية، بعد ذلك توجد منطقة مراعٍ واسعة تم إحراقها لحماية القرية من حرائق الغابة، بعد ذلك توجد الغابة.

أولا الدغل، وهو عبارة عن عشب جاف، تتخلله شجيرات شوكية، ثم بعض الأشجار التى تقطع منها فلنكات للسكة الحديدية فى الناحية.. والقطار لا يذهب بعيداً، نحو عشرين كيلو متراً من هناك. لكن شير كان يأمل، إن هو نجح فى اجتياز الدغل والنهرين اللذين يفصلان بينه وبين هدفه، فى أن يكمل بقية الرحلة فى عربة حيوانات أو ربما فى عربة قديمة.

لكنه كان لا يزال بعيداً.. وهنا الطريق ملىء بالحفر التى تركتها عجلات العربات. وبدأت أصابع قدميه تغوص فى الطين الناعم. كان وحيداً على الطريق الذى كان يتعرج من خلال الغابة فى عتمة الليل.

ومع ذلك، فلم يكن وحيداً تماماً.. إحساس معين بالغابة جعله يتردد بين خطوة والخطوة التى تليها، فثمة حيّة كوبرا تستدفئ فى آخر أشعة الشمس، فوق الطريق، انكمشت ثم انتصبت وهى تصدر فحيحًا مسموعًا؛ فانزاحت قلنسوة شير من فوق رأسه كاشفة عن أثر على شكل عدسة نظارة فوق ظهره، وتوقف شير وقد تجمد الدم فى عروقه.. ثم وبكل هدوء تراجع، وتمايلت الكوبرا وهى ترقبه، وجعل لسانها يروح ويجىء مثل العلقة التى تمص الدماء. ولكن هذه الحية الجميلة ذات الأصداف المعدنية والأسنان الملأى بالسم، لم تكن تريد إلا أن تذهب فى حال سبيلها، كالطفل نفسه. وولت الكوبرا واختفت داخل الأعشاب الكثيفة، وتنفس شير طويلا.. **وترك الخوف من الكوبرا ساقيه**، وأصبح قادراً على أن يستأنف طريقه.

أما كونوار الذى كان ينتفض ويئن فوق ظهره، فقد زاد ثقله. أوه! ماذا لو يستريح قليلاً، ويترك عضلاته تنبسط قليلاً من التوتّر ومن الجهد.. ولكن الوقت مبكر جداً لكى يفكر فى الراحة، واستأنف الطريق.

ومن حوله كانت الغابة البدائية تمتد حيث صراع النباتات وصراع الكائنات الحية يتواصل منذ بدء الخليقة. كان شجر البامبو اللامع يخرج من عقده. وأكداس من الشوك تبحث عن الهواء. وكانت هناك أشجار ونباتات كثيفة وأشواك وأعشاب.

فى هذا الدغل تعيش أيضًا حيوانات الغابة. القردة والنسانيس ذات الأصوات الحادة، والنمور والفهود والدببة والأفيال. ولما كانت الوعول قد انقرضت بفعل الصيد؛ فإن الحيوانات المفترسة تحولت إلى الفتك بالحيوانات الأليفة طلبًا للغذاء، وأحيانًا بالبشر.

وهبط الليل، وتحولت السماء إلى اللون البنفسجى.. وانتثرت النجوم.. وكان شير يتمتع بعينين قويتين، وكان لا يزال يبصر جيداً.. ثم طلع القمر.. وعلى الطريق آثار دببة فى التراب، بالقوائم الأمامية المربعة والقوائم الخلفية المستطيلة، وبالمخالب المتشابكة، جعلت شير يلقى حوله نظرة خائفة. وكان ذات يوم قد شاهد رجلاً فتك به دب وانتزع وجهه بكامله وحثّ الخطى.

وكان قد بلغ صخرة بارزة تشرف على مجرى أحد الأنهار، وشعر بأنه لن يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة. كان العرق يتصبّب على جسده المرتعد. وسند حمله على شجرة، ورفع العصابة التى تضغط على جبينه ووضع أخاه أرضا بكل ما استطاع من هدوء ورفق، وصاح المريض وهو ينتفض:

– أوه! أوه! أوه!

– ماذا أستطيع أن أفعل لك؟

قالها شير وهو يبكى.

لكن المريض كان يهذى، فردّ بجمل متهرئة.. وفجأة استرد جميع عضلات شير وضعه الطبيعى وبألم حاد.. حيث كانت العصابة تضغط، عاد الدم يجرى تحت بشرة شير. وانبسط تحت الشجرة وعيناه مغمضتان، واسترد عافيته.

هنا سمع ضجّة الأفيال وصياحها.

الحقيقة أن الأفيال قلما تحتاج إلى اجتياز الغابة فى صمت، ولعل هذا القطيع قد جاء من أجل أن يعثر على مراعٍ جديدة. وسعد شير حينما وجد نفسه خارج الوادى وفوق مستوى الأفيال.

كان مجرى النهر المتسع من تحته يلمع مثل العاج تحت ضوء القمر. وكان ثمة شاطئ من الحصى الأبيض تحفه الأشواك، يمتد على جانبى المياه العميقة المليئة بالأسماك النهرية. وبحذاء النهر، كانت هناك أيضًا رمال بيضاء هى التى تسير عليها الأفيال، تاركة خلفها آثارًا مختلطة كأنما هى آثار غابة تسير.

وكان شير يتطلع إلى إناث الأفيال وصغارها، وفيل كبير ذكر تسيل على خديه رغوة قاتمة لامعة، وكان معنى ذلك أنه على استعداد لصيد الإنسان وقتله.

كانت رءوس الأفيال تصطك وأذيالها تضرب، وكانت خيالاتها سوداء فوق الرمال البيضاء.. كانت قريبة جدًا حيث استطاع شير أن يشم رائحة الأفيال، ويسمع تكسر الرمال تحت أقدامها الضخمة، واحتكاك جلودها الغليظة بعضها ببعض.

كان يستطيع أن يرى تمايل رءوسها الضخمة وفِقر ظهورها السوداء، وكان الذكر يرسل خرطومه لكى يعلم ما تخبره به الريح.. وفجأة تردد.. واقترب الخرطوم من الصغيرين، وارتعد شير خوفًا.. إنه وهو يحمل أخاه فوق ظهره لا يستطيع أن يتسلق ولا أن يجرى، ولو صاح لكانت الكارثة.. وصعد دعاء ثم دعاء ثم دعاء ثالث.. صعدت الأدعية وطارت كالعصافير من ذهنه المضطرب.

وزمجر الذكر وزأر.. وهز رأسه. وفجأة راح يصعد مجرى النهر وهو يركض، كأنما بفعل الخوف، وتبعه القطيع بأسره ثم اختفت جميعها. وهمها شير فى زفرة بدعاء آخر، نعْمة وفضل هذه المرة، وتأهب للرحيل على الفور. جلس موليًا ظهره للصغير، وغيّر مكان العصابة حول جبهته.. ولم يقو على النهوض، وحاول بكل قواه ولكن بلا جدوى.. وفجأة، سمع من بعيد زئير الفيلة، فأنهضه على قدميه وهو يترنح تحت حمله.

وترك نفسه يتدحرج حتى مجرى النهر.

كان فى الماضى قد وصل إلى هناك فى منتصف النهار، وكان يعرف أن فى هذه الفترة من العام، قبل ذوبان الجليد فوق التلال، وقبل أن تهبط مياه الجليد الذائبة وهى تفور كاللبن الأخضر، كان من السهل عليه أن يجتاز النهر. كان الماء ممتدا، لكنه قليل العمق. كان من الممكن أن نتبين الأماكن التى يقل فيها العمق حينما يجرى الماء فوق الحصى والحجارة.. ومرقت سمكة صغيرة وانعكس القمر عليها كأنها مرآة.

ودخل شير فى النهر.. كان أشد برودة من المعتاد، مغطيًا بطبقة رقيقة من الثلج، وفى المنتصف كان أعمق من ذى قبل. وكان عليه أن يتقدم ببطء بسبب الطين والحجارة. كان عليه أن يتحسس بقدميه حتى لا ينزلق. كان الماء يصل حتى وسطه تقريبًا، فلعل ماء الجليد قد هبط قبل ذلك.

ولحسن الحظ، كان هناك جسر على النهر الثانى. جسر خفيف، لكنه على أى حال جسر.. حلقات من سيقان البامبو نقلت إلى المجرى الحجرى للنهر، وضم بعضها لبعض وملئت بالحجارة لتكون دعامات للجسر. ثم وضعت سيقان البامبو بين كل دعامتين، ثم ربطت إلى بعضها بالعشب الكثيف، ثم غطيت بحصى من النهر.

حينما وصل شير إلى النهر، كان الماء يلمع فوق بصمات قدميه قبل أن تمتصّه الرمال. كانت هناك بصمات أخرى لنمرٍ آتية من النهر، وكانت تلمع أيضًا، وقت مشاهدتها ثم تجف.

واستمر يتقدم.. كان عليه أن يستريح كل ساعة تقريبًا، وفى كل مرة يكون من الأصعب عليه أن يستأنف المسير. مع أنه اكتسب الآن فن إعادة وضع الحمل على ظهره. كان يلهث وينتحب على الرغم منه. ولكن عند منتصف الليل تقريبًا سمع النهر الثانى أمامه.. سمعه من بعيد.. وكان الذى سمعه هو الخرير المتصل للفيضان.. وحينما أصبح فوق النهر، رآه.

لا بد أن كتلة ضخمة من الجليد ذابت أمس، وكانت هناك. كان النهر يزبد ويرغى من شاطئ لشاطئ.. وبحث عن الجسر.. كان قد اختفى. كان هناك مرتفع من الماء يدل على مكانه المطمور.. وكانت هناك عنزة غارقة ملتصقة بالجسر بواسطة السيل، وكانت بعض الأغصان منتصبة مثل أذرع الموتى وسط الدوامة وتلتصق بالجسر وتنشر ما يشبه الريش على سطح الماء الهائج. وفى أسفل، كانت هناك كتل من الحجارة تتحرك. وسمع شير النهر وأسنانه تصطك، ثم ظهرت شجرة كاملة فى الشلال؛ وقد راحت تدور حوله ببطء وتزداد سرعتها ثم تتحطم على الجسر المطمور.

وفى منتصف السيل شقت الصمت على حين فجأة ضوضاء عالية؛ فقد تحرك الجسر كالوحش وتحطم وألقى فى الهواء بهيكله من البامبو مثل المروحة، ثم غطته موجة أخرى من الفيضان.. كيف السبيل إلى العبور؟ من المستحيل السباحة، حتى لو بمفرده.. لقد هلك شيرسينج. هل من الممكن أن يجد فى حطام الجسر معبراً؟

ووضع أخاه على الأرض وحمل فى يديه بعض الماء من النهر. وقال الصغير:

– أخى.

ثم شرب.

وجمع شير بعض العشب وجدل حبلاً. كان العشب حاداً قاطعًا فجرح أصابعه. وربط الحبل حول أخيه وحول جسمه حتى لا يفصل شىء بينهما. ثم دخل فى الماء، فوق الجسر بالضبط، وجذبهما النهر ولصقهما بالحطام.

لم يستطع – فى بادئ الأمر – أن يتحرك، ثم بدأ يتوجه فى الدوامة متعلقًا بأى شىء يقع عليه. متحسسًا فى عاصفة الماء ليعثر على شىء يتشبث به، فوقع على بعض سيقان البامبو المحطمة الحادة بما يكفى لشق بطن إنسان.

كان الطوفان يصم أذنيه؛ وقطع من الأخشاب تصطدم به وتخدشه. كان يشعر ببرد شديد حيث لا يكاد يصلب عوده، وكان لا يستطيع أن يسترد أنفاسه وسط زبد الرغوة.. كان الماء يضطرب من حوله ومن فوقه فى شلال طويل بارد، وكان لا يدرى إذا كان أخوه الصغير على قيد الحياة أو مات، لكنه كان يحافظ على رأس الصغير فوق مستوى الماء، ويتقدم بوصة بوصة. كان أصم وأعمى ومتجمداً وغارقًا. كان يتقدم ... يتقدم ... وانزلقا، وقاما. كانا يتعلقان ويلهثان فى معركة مميتة. ثم بدا أن النهر فقد من قوته.. لقد عبرا.

بعد ذلك، لم يدر شير ماذا حدث. كان غارقا بالماء وبارداً كالثلج، عاجزاً حتى عن عصر ثوبه. كان القماش يلتصق بساقيه ويجعله يرتعد، وكان أنفه يؤلمه بسبب الماء الذى يملؤه. تقدم وهو يترنح. كان يسير، يسير.. كانت ركبتاه تلتويان وترتعدان. واستسلمتا، وزحف. كان ثمة طريق. كان ثمة طريق أفضل.

ومن بعيد، من عالم آخر، جاءه نباح كلاب يعلن عن وجود قرية. وفجأة، لم ندر كيف أن، بعض الناس ... بعد ذلك، كل ما عرفه، هو أنه كانت هناك عربة ثيران، ثم عربة قطار.

– من أين جئت يا غلام؟

– من لالدوانى.

– هل حملته وحدك؟ عبرت النهر فى الفيضان؟

كانوا فى المستشفى.

كان شيرسينج لا يزال يشعر بالرهبة فى أحد البيوت. لم يدخل. لكن لم تكن معه نقود. إذا، حينما طلع النهار، نزل إلى طريق السكك الحديد ليعمل فى تحميل الفحم. لقد ظل يعمل طوال اليوم.. فى الضجيج، وحصل على بعض القروش فاشترى دقيقًا من النوع الرخيص وزيتًا وبعض الفلفل، وأعد وجبة على موقد من ثلاثة حجارة، وقد عثر على ركن صغير داخل المستشفى، حيث يعسكر أهالى المرضى الآخرين. حتى ذلك الوقت كان قد عمل بكل قوته مما جعله لا يشعر بالجزع. والآن بدأ يشعر به.

وناداه الطبيب. لم يرسل أحداً فى طلبه. بل خرج بنفسه إلى الشرفة ونادى:

– شيرسينج باهادور، موجود؟

– أبى ليس موجوداً.

قالها الصبى وهو يصعد إلى الشرفة، وكان يشعر بالخجل من الرعشة التى استولت عليه. وكانت على وجهه خطوط من الدموع؛ كانت تغسل غبار الفحم.. ولكن اسمى شيرسينج.

– أنت الصبى الذى حمل الصغير كونوار من لالدوانى؟

– نعم.

وهنا أضاءت ابتسامة رقيقة وجه الطبيب العريض الصبوح، حيث بدا كأنه قمر أسود.. وقال بصوت مرتفع:

– يا شيرسينج باهادور، أخوك سيعيش، تعال.

***

الأم والابن

تأليف: جواران هيزاءو Juran Hisao

من اليابان

تلقى مدرس الصف الأول بإحدى المدارس الابتدائية، الواقعة بالقرب من المعسكر الأمريكى، استدعاءً من الشرطة المحلية فى "أستوجى"، بصدد أمر يتعلق بأحد تلاميذه ... وحين كان فى حجرة الانتظار دخل المأمور، وتبعته سيدة تتألق عيناها بحيوية طاغية، أثارت دهشة المدرس... وقدمها المأمور إليه قائلاً، وهو يجلس فى مواجهته: "آسف لإزعاجك... الآنسة مشرفة اجتماعية فى إدارة إصلاح النشء فى المدينة... ولما كان قسم الشرطة التابع لنا قد أنشئ حديثًا، وليس لدينا قسم خاص بالأحداث، فقد طلبنا إلى الآنسة الحضور لمعاونتنا، وأودّ أن أخبرك بأن الموضوع الذى استدعيناك من أجله ليس خطيراً، فلا داعى لأن تقلق!".

وتدخلت المشرفة قائلة: "إن الموضوع كما ذكر السيد المأمور ليس خطيراً فى حد ذاته... فإن تلميذك لم يرتكب - فى الواقع - جريمة كبرى... كل ما هنالك أنه قام بإشعال النار فى حصن قديم، ولكن بعض المهمات المملوكة للأمريكيين كان مودعًا فى هذا الحصن، ونحن بالطبع نشك فى أن يكون هذا الغلام قد أشعل النار متعمداً... لا بدّ أنه كان يلعب لعبة القراصنة، أو أى شىء من هذا القبيل.. غير أنه يرفض بإصرار أن يفتح فمه، ونحن فى حاجة إلى أى عذر أو تعليل نذكره فى التحقيق!".

وقال المأمور: "إننا لا نريد أن نحتجزه هنا أكثر مما احتجزناه، ولكننا لا نستطيع أن نخلى سبيله ما دام التحقيق لم ينته، ولذلك طلبنا إليك الحضور، فأنت معلمه، ولا بد أنك تعرف عنه ما يزودنا ببعض المعلومات عن طباعــه، وعـن حياته العـائلية، وما إلى ذلك ... ومن ثم نستطيع أن نكتب تقريراً بنتيجة التحقيق، ونطلق سراحه".

فانحنى المدرس فى أدب وقال: "لا يسعنى إلا أن أشكر لك المشقة التى تجشمتها من أجل هذا الطفل ... فقال المأمور: "لندخل فى الموضوع".

وفتحت المشرفة ملفًا، وأخذت تقرأ بعض ما جاء فيه:

"ثارو تزوسى ... ستة عشر عاماً وشـهران... ولد فى (سابيان)، وهو الآن بالفصل الدراسى الثانى من السنة الأولى بمدرسة "سـان جوزيف" الابتدائيـة، ويتمتع بمنحة "أدان" الدراسية... كان والده يعمل خبيراً فى الأرصـاد لحساب مكتب الإدارة اليابانى، وتوفىّ عام ١٩٤٠، أما أمه فكانت موظفة فى شركة "نانيو كاهاتو"، ومن المرجح أنها لقيت مصرعها عند استيلاء الأمريكيين على (سابيان)...".

ثم وجـهت المشـرفـة الكلام إلى المدرس قـائلة:" كيف يكون " ثارو " فى مـثل هذه السن، ولا يزال فى الصف الأول؟ إنه متأخر، أليس كذلك؟".

فـقـال المدرس: "عند انتـهـاء الحـرب، أُرسل "ثـارو" إلى (هاواى) مع مـجـمـوعـة من الأيتـام، وأُلحق بإحدى المدارس الأمـريكيـة التى تكاد تكون مـعادلة لمدارسنا الإعدادية، وقد قضـى بـها ست سنوات، جاء بعدهـا إلى اليابان، وسُجل بمدرسـة "سان جوزيف"... وكان من المفـروض أن يلتحق بالصف الخامس، إلا أن معـرفتـه باللغة اليابانيـة لم تكن كافية...".

- ماذا تقصد بمنحة "أدان"؟

- إنهـا ليست منحـة بالمعنـى الدقيق ... كـان "أدان" ضـابط اسـتعلامـات أمريكيًا مـسـئـولاً عن الأيتام فى (سـابيـان)، فـاخـتـار منهم خمسـة تكفل هو شـخـصـيًا

بنفقات دراستهم، بشرط أن يتخصصوا فيما بعد فى علم اللاهوت... ولدينا ثلاثة من هؤلاء الأطفال فى مدرسة "سان جوزيف".

- عندما مات والد "تارو" كان الطفل فى الرابعة من عمره... فالأرجح أنه لا يتذكره، أما أمه، فهل تستطيع أن تحدثنا أى صنف من النساء كانت؟

- كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يمكن أن نسميه بالنساء المثقفات... فقد كانت حاصلة على شهادة من جامعة (طوكيو)، وكانت مديرة الموظفات بالشركة التى كانت تعمل بها فى (سابيان)... ولكنها بعد ذلك قامت بإنشاء مركز للترفيه عن الضباط، يسمى "هاللو"... وكانت جميلة جداً، بل لعلها كانت مفرطة فى الجمال... فكانت النساء يكرهنها".

- وهل كان الطفل يعيش فى هذا الوسط؟

- كلا، فقد ذكرت لك أن أمه كانت مفرطة فى الجمال، ومن ثم كانت فرص اللهو والمتعة كثيرة أمامها، فكانت مشغولة لدرجة لا تستطيع معها أن تهتم بالطفل، ولذلك عهدت به إلى مبشر فى إحدى جزر المحيط الهادى، كان يعيش هناك منذ أيام سيطرة الألمان على تلك الجزر.

- إذن، فالطفل لم يتأثر بالحياة التى كانت تحياها أمه؟

- كلا، بل إنه يجهل تماماً ما يمكن أن يعرفه شاب فى مثل سنه عادة ... فمثلاً لم يذهب إلى السينما مطلقاً... وهو مجتهد فى عمله، ولكنه يحيا حياة صارمة قاسية، إلى درجة تثير قلقى فى بعض الأحيان!

فقالت المشرفة، وهى تقلب صفحات الملف الخاص بالغلام:

- جائز... ولكن هل علمت أنه فى الثالث من مايو، تنكر فى زى فتاة، وراح يبيع زهوراً فى حى (جينزا)؟ لقد لمحته إحدى زميلاتى ووجهت إليه إنذاراً... وهل

تعرف أنه استدرج– فى يوم من الأيام – بعض الجنود الأمريكيين من أمام باب المعسكر، واصطحبهم إلى طوكيو؟ ومنذ أيام قليلة، وجدوه – فى الساعة الثالثة صباحا – بالقرب من محطة (أبربا) على خط قطار (سجانى)، وهو فى أشد حالات السكر... وكاد يدهمه قطار الصباح لولا أنه أُنقذ فى آخر لحظة؟

وسادت – بعد ذلك – لحظة صمت، لم يكن يقطعها سوى صفير الرياح التى كانت تعوى من خلال الأعشاب الجافة فى الحقول.

***

وما لبثت المشرفة أن قالت، محاولة أن تخفف من ألم المدرس:

– إنك تعرف الطفل منذ زمن بعيد، وأنا واثقة من أنك لم تكن تتخيله إلا فى أفضل صورة، وأنه لم يرتكب أمامك أبدًا ما يضطرك إلى أن تلومه أو توبخه... ولكن من الجائز أن تكون أخلاقه قد تغيرت فى الفترة الأخيرة... أصبح يتنكر فى صورة فتاة، ويسكر، ويلعب لعبة القراصنة، ويلهو بإشعال النار فى مكان من المحظور دخوله حظرًا تامًا... هذه الأعمال التى تختلف فى صورتها، ولكنها تشكل نهجًا واحدًا من السلوك، يبدو أنها تعبير عن التمرد على سائر الأوضاع، أو ربما كان الطفل مصابًا باضطراب نفسى... ولكن لا بد أن يكون هناك سبب أساسى لهذا التحول.. إن الشخصية لا تتحول هكذا بين يوم وليلة، ومن المحتمل أن تكون هناك ذكرى مؤلمة تدفعه لأن يتصرف على هذا النحو، فهل تستطيع أن تمدنا بأى معلومات فى هذا الشأن؟.

فقال المدرس، وهو يهزّ رأسه: "لست أعلم إن كان الحادث الذى أعرفه سيفيدك، ولكنه – بلا شك – قد أثر فى "تارو" تأثيرًا شديدًا... فقد حاولت أمه أن تقتله يومًا، وقد [illegible] عليه فاقد الوعى تحت إحدى الأشجار، فى هضبة (شيما لينا)، وقد التف حبل

حول رقبته ثلاث لفات، وكان يضغط على رقبته ضغطاً شديداً، حتى إننا لقينا مشقة فى فكه وإزالته، إذ كان مدهوناً بالصابون، ليسهل انزلاقه... ومع أننا أدركنا الدافع وراء هذه الجريمة؛ فإنها - من ناحية العقل والضمير - كادت تخرجنا عن وعينا، وقد تجشمنا مشقة كبيرة فى إعادة الحياة إلى "ثارو" حتى لقد كنا فى شك كبير من أن الروح ستعود إليه، ونقلناه فى سيارة "جيب" إلى المستشفى العسكرى، بعد أن أجرينا له عملية التنفس الصناعى... فى ذلك الحين - كما تعلمون - انتحر ثلاثون ألفا من اليابانيين المدنيين، إذ كانوا على ثقة من أن الأمريكيين سيقتلونهم على أى حال.. انتحرت عائلات بأسرها بالقنابل اليدوية... وهناك عائلات أمسك كلّ فرد من أفرادها بيد الآخرين، وألقوا بأنفسهم من فوق الجبال ليسقطوا فى البحر... ولكن، فى جميع هذه الحالات كانت الجثث توجد مجتمعة، أما حالة "ثارو"، فهى الوحيدة التى وجد فيها طفل واحد بمفرده!".

وساد الصمت هنيهة، ثم قطعه المأمور قائلاً:

"إنها قصة رهيبة!".

وأردف - بعد لحظة - قائلاً: "لا بد أن هذا الحادث كان ذا تأثير عميق فى نفسية الطفل!".

وتململ المدرس قليلاً فى مقعده، ثم قال: "وهل أستطيع أن أراه الآن؟ أودّ أن أوجه إليه بعض الأسئلة... وقد خطرت لى فكرة، قد تهدينا إلى الطريق"... فقال المأمور: "بكل تأكيد".

وقادته المشرفة إلى باب فى الناحية اليسرى، قائلة له: "من هنا لو سمحت!".

***

كان "ثارو" جالسًا على الأرض، فى غرفة ضيقة مظلمة، مخصصة للشبان الموضوعين تحت المراقبة، وكان يتأمل السماء من خلال نافذة صغيرة، كأنها فتحة فى قفص عصفور، وهو يفكر فى الأيام الأخيرة التى قضاها فى (سابيان).

كان الظلام الخافت، والرطوبة اللزجة، والسماء المعتمة، والصمت الشامل، والإعياء الشديد ... هذه كلها كانت تذكره بمغارة (سابيان)، قبل سنوات ... حيث كانت الصخور مغطاة بالطحالب، والظلمة والرطوبة يجثمان طوال النهار والليل ... فلم تكن الشمس تعرف طريقًا للمغارة إلا قبيل أفولها إذ ترسل بصيصًا منها، فينير جدران المغارة، ويكشف وجوه المختبئين فيها... كانت هناك فتاة لم يبق منها سوى الجلد والعظم، وقد راحت تبحث – بين الصخور– عن بعض حبات ساقطة من الأرز، فتلتقطها وتفركها ثم تأكلها واحدة بعد واحدة ... وكان خلفها جندى زائغ العينين، أخذ يسدّ رمقه بالعشب البرى، وقد سالت عصارة خضراء على زاويتى فمه... ثم لم يلبث هذا المشهد أن اختفى فى أدراج الظلام.

وفى أحد تلك الأيام، قال "ثارو" فى نفسه: "حان وقت الذهاب لإحضار الماء"... كان ينتظر هذه اللحظة نافذ الصبر، فمنذ أن أقام فى المغارة وهو يشعر بسعادة غامرة لوجوده بصحبة أمه، وقيامه بخدمتها... كان ينتظر منها كلمة، وقد تعلقت عيناه بمحياها الجذاب... ولم تلبث أن قالت له: "اذهب لتحضر لى ماء يا ثارو"... كان حين يسمع صوتها ينتفض حبًا وحنينًا، وكان على استعداد لأن يعمل أى شىء من أجلها.

وكان نبع الماء العذب على مسافة خمسين مترًا إلى أسفل المغارة، فكان لزامًا عليه أن يتدلى على طول الصخرة المدببة كل هذه المسافة، مما كان يسبب له الدوار، ولو أنه لم يكن يحمل إلا زجاجة فارغة ... فضلاً عن أن الجنود الأمريكيين الواقفين فوق الصخرة، كانوا يطلقون النار على كل شىء يتحرك ... ولكن "ثارو" لم يكن خائفًا على الإطلاق، ولم يكن مدركًا للخطر بأى حال ... وإنما كانت السعادة تطغى على قلبه، إذ يشعر بأن فى وسعه أن يقدم إلى أمه شربة ماء!

وحدّث نفسه قائلاً: "كم كان عمرى حينذاك؟"... ثم راح - وهو يحكّ رأسه فى جدار "الزنزانة" - يتلو عن ظهر قلب: "أيها العابر، اذهب وقل لِلآسِيديين، إننا تنفيذاً لأوامر الملك، نرقد هنا"... وكانت أمه قد لقنته القصيدة، وجعلته يكررها مراراً حتى حفظها.

وقالت له أمه: "(لاسِيديون) هى (إسبرطة)... وقد تصدّت حفنة من جنودها - قبل ألفى عام - لجيوش الفرس، وأوقفت زحفها، فى مكان يسمى (ترموبولين)... وماتوا جميعًا فى المعركة، فأقيم - فى ذلك المكان - نصب كتبت عليه هذه الكلمات... ألم يكن أولئك الإسبرطيون شجعانا؟ يجب ألا ننساهم!".

***

كانت أمه تحاول - بالأحلام الجميلة - أن تنسيه قسوة تلك الأوقات الرهيبة... ولكن الكارثة لم تلبث أن حلت أخيراً ... وإنه ليتذكر كيف أن الآباء والأبناء كان كل منهم يمسك بأيدى الآخرين، ثم يلقون بأنفسهم من أعلى الجبل متعانقين، أو مربوطين جميعًا بحبل متين... وكانت مياه البحر تتلقاهم ... وفى كل يوم، كانت تختفى مجموعات أمام عينيه بهذه الطريقة... وكان "ثارو" يتصور أنه سيرتمى فى البحر - فى النهاية - وهو ممسك بيد أمه، ولذلك لم يكن يشعر بأى خوف أو حزن على الإطلاق.

وكانت الشمس الآفلة تصبغ السماء بلون وردى شاحب، فى تلك الأمسية الهادئة التى تناولت فيها أمه حبلاً، وطلبت منه أن يخرج معها من المغارة وهى تقول له: "إنك لا تحب أن أفعل بك هذا على مشهد من كل هؤلاء القوم، فتعال إلى الخارج".

وفى تلك اللحظة، لم يكن "ثارو" يتصوّر أنه سيموت بمفرده... ولكنه حين أدرك أنها تنوى أن تخنقه، أذعن لإرادتها، وسار وراءها حتى أعلى الجبل، مبديًا لها وجها مشرقًا باسمًا... كى يسعدها.

***

(٢)

أقبلت المشرفة فقادت "ثارو" إلى الغرفة المجاورة، حيث جلس - على المنصة - المدرس الذى كان يعرفه "ثارو" ورفاقه باسم "سان جان".

وكان "سان جان" رجلاً من (أوكيناوا)، يعمل مديراً لمزارع قصب السكر فى (سابيان).

وتقدم منه "ثارو"؛ فراح المدرس يعظه بطريقته المعتادة التى كانت تبعث على الضيق ... وبينما كان "ثارو" يصغى إليه، وهو مطأطئ الرأس وقعت عيناه الشاردة على المسدس المتدلى من حزام شرطى كان جالسًا يكتب على منضدة بجوار الجدار... فقال فى نفسه: "هذا المسدس من النوع نفسه"... وقد خطر بباله مسدس كان أحد ضباط البحرية قد سمح له - حين كان فى المغارة - بأن يلعب به.

وواصل المدرس لومه، قائلا: "إنك تنكرت فى زى فتاة، ورحت تبيع الزهور فى حى (جينزا)... فتساءل "ثارو" - فى نفسه - عمن يمكن أن يكون قد أخبر المدرس بهذه الأمور... أهى المشرفة! أم "توناكو" زميله فى الدراسة، الذى أعاره رداء الفتاة؟

واستطرد المدرس متسائلاً: "إنك لا تحب أن تكون عالة على غيرك، ولذلك فكرت فى أن تكسب عيشك بنفسك، أليس كذلك؟ وإننى لأحترم نزوعك إلى الاستقلال، ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتنكر فى زى فتاة، وتبيع الزهور؟".

قال "ثارو" فى نفسه: "أما فى هذه فإنك أخطأت!"... لقد ارتدى زى بائعة زهور حقًا، ولكنه لم يكن يبيع زهوراً... إن المدرس لم يكن يدرى شيئًا.

كان "ثارو" قد سمع فى (هونولولو) أن أمه تدير حانة فى (جينزا) ... فما أن وصل إلى طوكيو حتى بحث عن الحانة... واهتدى إليها، ولكن دخول الحانات محظور على

الأحداث، فيما عدا بائعات الزهور، وعازفات "الأكورديون"... والجميع يعرفون ذلك... فما كان من "تارو" إلا أن استعار رداء بائعة زهور، ولبسه فى أمسية يوم من أيام الأحد - ثم توجه إلى الحانة التى كانت أمه تديرها... ولم يكن بها روّاد كثيرون، وكانت أمه منحرفة المزاج، فما أن رأته حتى صرخت فى وجهه فى غضب: "يا لك من وقح ... كم مرة حاولت أن تدخل هنا... إن روّادى لا يرغبون فى زهورك!"، وفى مرة أخرى، أمسكت خادماً بثوبه، وألقت به إلى خارج الحانة... ومع ذلك فقد عاد ثانية.

ومضى المدرس (سان جان) فى توبيخه قائلا: "... وكنت تصطحب - فى سيارات الأجرة - أناساً ممن يأتون من (كوريا) فى أيام السبت، وقد جلب عليك هذا العمل بعض المال؛ ولكننى أشعر بالأسف حين أتصور أنك تستغل معرفتك باللغة الإنجليزية فى هذه الأغراض الوضيعة؟".

وهنا قال "تارو" فى نفسه: "وهذه المرة أيضاً، لم تفهم شيئاً يا (سان جان)... فأنا لم أكن أسعى لكسب النقود لنفسى، وإنما رأيت أن رواد الحانة - التى كانت أمى تديرها - قليلون، فحاولت أن أجيئها بمزيد من الروّاد"!

لقد أراد أن يساعد أمه دون أن تعلم، ولكنه أرتكب خطأً جسيماً، ذهب يوماً إلى حانة صغيرة، بالقرب من معسكر (فيزقام) - الذى يعتبر ملتقى لسائقى سيارات الأجرة - كى يطلب سيارة، فبادره أحد السائقين قائلا: "إن صاحبة الحانة التى تتحدث عنها هى أمك، أليس كذلك؟ إنك حقاً ولد بار جداً، ولكن هل تعلم أيها الصغير ما تفعله أمك مع الرجال الذين تذهب بهم إليها؟".

وإذ سكت "تارو" أردف السائق قائلاً: "إذا كنت لا تعرف، فسأتيح لك معرفة ذلك". ثم استدعى سائقاً آخر وأشار إليه نحو "تارو" وأسر فى أذنه كلمات.

فى تلك الليلة، عاد "تارو" متأخراً إلى عنبر نومه فى مدرسة "سان جان" وارتمى فوق سريره وهو يتلوى من الألم... إن أمه لم تعد أمه... إنها ليست سوى امرأة... ولم تعد

لديه رغبة فى هذه الحياة التى أفاق فجأة، فوجدها بهذا القدر من القسوة والخسة.

وأراد أن يموت فى تلك الليلة بالذات، فأخرج من خزانته كل صور أمه وخطاباتها، ومزقها وألقى بها فى وعاء القمامة بالمطبخ، وتطلع حوله خشية أن يكون قد نسى شيئًا منها، ولكنه لم يكن قد نسى شيئًا على الإطلاق... وحين أدرك أن كل ما بقى عليه أن يفعله، هو أن ينام قليلاً قبل مرور أول قطار، صُدم لقِصر الفترة التى بقيت له فى الحياة، فانفجر باكيًا.

***

واستطرد المدرس "سان جان"، بلهجة التأنيب والاتهام قائلا: "... ولقد انتقلت من سيئ إلى أسوأ... هذا طبيعى... ويبدو أنك كنت تسير مخمورًا تمامًا، على طول خط السكة الحديد، وكان مصرعك وشيك الحدوث ... ما كنت أظن مطلقًا أن من الممكن أن تنحدر إلى درجة أن تشرب الخمر وتسير مخمورا!".

فقال "ثارو" فى نفسه: هذا صحيح، ولكنه فى الوقت نفسه خطأ!، فأنا لم أكن قد شربت خمرا، ولكن من المحتمل أننى كنت أترنح كالمخمور... كان الفجر وشيكًا، والمصابيح الكهربائية ترسل نورها على طول رصيف المحطة، وعلامة الإشارة مفتوحة إيذانًا بأن قطار الصباح لن يلبث أن يمر بين لحظة وأخرى، فخلعت سترتى، وألقيت بها فوق العشب، ثم استلقيت منبطحًا بين قضبان السكة الحديد، أنتظر أن يمر القطار فوق جسدى، ولقد مرّ القطار، ولكنه لم يمسنى، وسمعت العامل الذى أخذنى إلى ناظر المحطة، يقول له: "لو كان يرتدى سترة، لعقت أطرافها بالقطار، وقضى عليه، إذ كان ينام بين القضبان... ولكنه لم يكن يرتدى إلا قميصًا، وهذا هو الذى أنقذه!".

بيـد أن فكرة الموت ظلت تسـيطر على "ثارو". وفى ليلة من ليـالى الخـريف سـرق بعض البتـرول من المطبخ، واجتـاز الحقل المترامـى خلف عنبـر النوم، ودخل خندقـًا متهدمًا... ثم سكب البترول فوق جسمه، وأشعل النار فى أكمامـه... ولكن الاشتعال كان ضعيفًا، فإن البترول الحديث لا يلتهب بسرعة كالبترول القديم ... وسرعان ما أطفأت الرياح اللهـب الضعيف، فحاول مستميتًا أن يشعل النار - من جديد - فى أماكن أخرى من ملابسه، ولكن الاحتراق كان بطيئًا، وقد تصاعد دخان لفت الأنظار، ولم يلبث الناس أن حضروا، فوجدوا "ثارو" مختنقًا من الدخان، وقد فقد وعيه.

وقال له رجل الشرطة: "لماذا أشعلت النار فى مهمات الجيش الأمريكى؟ سنخلى سبيلك إذا قلت الحقيقة، وإلا فستلقى عقابا!".

ولم يكن "ثارو" يعرف أن بالخندق مهمات... فضلا عن أنه لم يفلح فى إشعال النار فى نفسه.

ووجد نفسه يصرخ فجأة: "اقتلونى... اقتلونى...".

فصاح "سان جان": "اسكت"... ثم نهض وغادر الغرفة مسرعًا، كما لو كان قد تأكد أن "ثارو" قد أصيب بالجنون.

ولم يلبث أن دخل ضابط شاب، فنزع حزامه وألقاه على المنضدة والمسدس فى جرابه، ثم استلقى وأغمض عينيه.

ونظر "ثارو" إلى المسدس طويلاً... وكان الشرطى الآخر لا يزال منهمكًا فى الكتابة، على الكتب الملاصقة للجدار، موليًا ظهره نحوه... فقال "ثارو" فى نفسه: "هذه هى الفرصة!".

وفى حذر، اتجه نحو حزام الضابط النائم، وأخرج المسدس من جرابه وتحسس زر الأمان، ثم جذبه إلى الخلف، ونهض فجأة، وضغط الزناد، فإذا بقطع من الجبس تتطاير من الجدار المقابل.

وقفز الضابط النائم مطلقًا صرخة مدوية، واختبأ تحت المكتب. أما الشرطى الآخر، فقد ألقى بنفسه وراء المكتب، وأخرج مسدسه، وأطلق النار على الصبى الذى كان يمسك المسدس، والدخان يتصاعد من فوهته!

وتهالك "ثارو" على الجدار الذى خلفه، وأطلق زفرة طويلة، وقد تفجرت الدموع من عينيه... ثم سقط على الأرض!.

***

فى الطريق إلى مون لايت

تأليف: دارسى نيلاند D'Arcy Niland

من أستراليا

"هو اسم أكثر منه مكان"، ذلك ما يقولونه وما يقولونه منذ زمن بعيد؛ لكنه بالنسبة لى مكان يخصنى، وهذا هو السبب الذى يجعلنى آتى إليه والسبب الذى من أجله أنا هنا.

أبى هو الذى ربّانى.. كان يحمّينى فى أنهار الأدغال ويقدم لى الطعام فى طبق من الصاج، وكان يقول لى: "ستأتين معى فى كل مكان.. فى كل مكان من بومراغ. ستكونين دائما حيث أكون"، وكنت أجلس إلى جواره حول نيران المخيّم.. وكنت فى الخلاء ألتصق فى حرارة جسمه.. لم أرتد فى حياتى ثوب امرأة.. كنت أرتدى ثياب الأولاد، وكنت أبدو فى صورة ولد.

كان يروى لى الحكايات، وكنت أوجه إليه الأسئلة. كان يقول لى إن العالم يدور كالعجلة.. ولكنه لم يكن يدرى لماذا.. كان يقول إن الشمس خصيبة جدًا، حيث لو أن الناس عرفوا كيف يستغلونها، لباعوها. كان يصطحبنى معه إلى السقيفة التى تجزّ فيها الحيوانات، وإلى مزارع الكروم، وإلى مقاطع الأخشاب، وإلى محاجر التّلك، وإلى حقول القصب، وإلى مزارع الموز. هكذا كبرت وأنا أصبح رفيقته وامرأته التى تصلح لكل شيء.

كان قاسياً كالسوط.. لم أتحقق كم كان صغير الحجم إلا يوم أن حملوه ميتاً فوق نقالة. كان قد سقط فى عتمة الليل وهو عائد من جلسة شراب عند التاجر.. لم يكن يملك شيئًا؛ فقط قطعة من حجر كريم. كان عمرى حينئذ عشرين عامًا.. وواصلت الحياة هناك، استغل محجره وأعمل فى بئره.

وجاء غريب؛ فأخبرته كيف يتصرف. لم تكن لديه نقود، ولا أى أمتعة، ولا حتى مكان ينام فيه. فأعطيته ركنا صغيراً خلف كوخى. أحيانًا كان يأتى ويأكل معى. وفى المساء كنا نلعب الورق، وكنا نلعب لعبة القبلات. أنا لم أكن أريد القبلات، وقد أخبرته بذلك، فضحك.

– أراهن على أن الوقوع فى غرامك مثل الوقوع فى سلك شائك.

كان صغير الحجم عريض المنكبين، قوى البنية، ذا عينين حادتين. وذات يوم أطلق لحية سوداء. وفى إحدى الليالى دعانى فأسرعت إليه، كان جالسا فوق منامته منهمكًا فى خلع حذائه. فرفع نظره نحوى وقال:

– هل تتزوجيننى؟

ثم نهض وعانقنى، وهمس فى أذنى.

– أنا أريدك.. لا تستطيعين أن تعرفى كم أريدك.

– يجب أن أفكر فى الأمر.

– فكرى فيه الآن. أنت لا يمكنك أن تظلى تعيشين هكذا وحدك. لا بد لك من رجل إلى جوارك يومًا ما.

كان على حق. لا بد لى من رجل.. سأدرك ذلك حينما أراه.. وهل سأدرك ذلك حقا؟ بوسعى أن أظل أنتظر طوال حياتى.. يمكن أن أنتظر أيضًا لو كنت أعرف، لكننى لم أكن أعرف، وحينما أتصور أننى أشبه أميرة فى حكايات الجنيات، تنتظر

أميرها الساحر، أدرك فجأة أننى بلهاء ووحيدة؛ لأننى لم أكن أميرة، والنساء اللائى على شاكلتى لا ينتظرن أمراء ساحرين.

يمكننى أن أعيش إذن بجانب هذا الرجل. قال لى، فى المرة المقبلة، حينما يذهب إلى المدينة، سيعمل الضرورى، ومع ذلك فهو لا يجد غضاضة فى أن يبقى معى وأن يعاملنى كزوجة، فرفضت ذلك. ومع كلٍ فقد تركته يعانقنى ويقبلنى.. لكننى دفعته، اجتهدت فى أن أجعل بينى وبينه حاجزا.. كان الأمر صعبًا بالنسبة لى، وأصبح عبوسا نفورا، ثم بدأ يضحك ويقول: "ما أشبه المرأة بالعذاب المقيم!".

كنت أشعر بالقلق.. كنت أشعر بالاضطراب.. وحينما ذهبت إلى الدكان سألنى صاحبه عن موعد الزواج. وكانت النساء يقلن إننى أحسنت الاختيار، وأن زواجنا سيكون زواجًا ناجحًا.. كنت فخورة وسعيدة بذلك.. كنت أشعر بأننى لست وحدى، وبأننى أنتمى إلى رجل.

بعد ذلك، تعقدت الأمور، ليس بسببى.. ولكن امرأة جاءت إلى القرية ومعها أبوها، لقضاء خمسة عشر يومًا هى العطلة. كانت امرأة من المدينة، لها حركات. وأنا أعرف الرجال، على الأقل بعضهم. بالنسبة إليهم الوقت دائمًا وقت الحب، فرحل مع هذه المرأة حينما سافرت.

فكرت فيها.. لم تكن لى يدان بيضاوان رقيقتان كيديها. ولم يكن لى جسم طرى لين مثلها.. صحيح أن شعرى كان أسود مثل شعرها، لكننى لم أتمكن يومًا من تمشيطه كما كانت تفعل.. كان صوتها رقيقًا؛ وقد حاولت أن أتكلم مثلها، لكننى لم أفلح.

ومرت الشهور، وعاد نحيلاً وكامد اللون. وطرق بابى كأنه لا يزال فى داره. وقال لى:

– لقد أوحشتنى.

– صاحب الدكان يمكن أن يتصرف ليدبّر لك مكاناً تنام فيه.

ذلك ما يقال للغريب: وقد أصبح غريبا بالنسبة لى. فقال:

– لقد ارتكبت حماقة.

هكذا تصور. ثم قال:

– لم تكن علاقة دائمة.. لم تكن علاقة قوية كعلاقتى بك.. لم تكن رفيقة.. لنعد إلى الحياة معا، ما رأيك؟

كنت أفكر فى كل ما فيه من جميل وطيب، وما كنت لا أزال أحب فيه، كما يحب المرء قطًا من أجل ما فيه من ظرف.. كان يريد أن يعيش معى.. كان يريد أن أكون له، أن أكون امرأته، دون قيد دون خاتم، هكذا ببساطة.. بعد كل ما جرى، لم أستطع أن أستسلم.. فلو جاءت امرأة أخرى، فلا شك أنه سيطير معها بلا تردد.

وأشرت له بإصبعى نحو الدكان وقلت:

– هناك فى نهاية الناحية، تجد الدكان. وسيعثر لك صاحبه على شىء مناسب.

فهز كتفيه وذهب.

وجاء رجل إلى المخيم.. كان طويلاً قوياً، وكان وجهه لطيفا.. وكان صوته القوى يسمع من مسافة كيلومترين تقريبًا. حينما رأيته، قلت فى نفسى: "هذا لى.. سأعمل اللازم حتى لا يقرب أى امرأة هنا".. وقابلته فى المقهى، وسألته أن يأتى ليشرب الشاى معى. وبعد الظهر، خرجت واصطدت أرنبًا وأعددته من أجله، وأخذت له أفضل الأجزاء. وجاء، ولعبنا الورق بعد الشاى، ثم عرضت عليه أن نلعب لعبة القبلات.. فظهرت عليه علامات الاندهاش، وبعد لحظة جعل يضحك. وقال لى أنه لا يريد.. فطلبت منه حينئذ أن يخرج؛ من يظننى إذن؟

ورفع يديه وقال:

– لحظة.. أنت التى عرضتِ الاقتراح، ما معنى ذلك؟

أنا ما كنت أتصور فى حياتى شيئًا من هذا القبيل.

– كنت على وشك أن تأخذنى عنوة.

– طبعًا، أى رجل يفعل ذلك.

– وهل تتصور أنك يمكن أن تملكنى بسهولة؟

– بهدوء.. ليس أنا.. لو أردت أن أقبلك لقبلتك، ولا يكون ذلك بلعب الورق.. أنت دعوتنى عندك، وأنا جئت كرجل محترم بنوايا محترمة. والآن، انتهى المزاح. اجلسى لنلعب.

أصبحت متأكدة الآن.. كان يعود كل مساء ليلعب الورق ويتسامر.. كان قد جاء من ناحية "سنوى ريفر". مارس جميع الأعمال، من ترويض الخيول إلى العمل فى المدينة. وقد شبع من المدينة.. كان يحب الأدغال.. كان يستغل منجمًا للأحجار الكريمة يدرّ عليه المال الوفير. حينما جاء فى ذلك المساء وأحضرت الورق، قلت له: يمكننا أن نلعب لعبة القبلات، فرفض بقوة. فقلت:

– أنا جادة فيما أقول.

فنظر إلىّ ثم جذبنى وأجلسنى على ركبتيه، وقال:

– أنت متوحشة صغيرة.. يمكننى أن أطاردك وأصيبك.

فقلت:

– من الأفضل أن نلعب الورق.

وأصيب فى ساقه، واعتقد أن عظمة ساقه انكسرت، فذهب إلى المدينة وغاب ثلاثة أسابيع.. وأرسل إلىّ رسالة يقول فيها:

"أشعر برغبة مجنونة فى أن أراكِ.. أريد أن أنظر إليك بشعرك المسدل على كتفيك ويغطى جزءاً من وجهك.. أشعر بالرغبة فى رؤية عينيك".

حينما قرأت الرسالة شعرت بفيض حب لهذا الرجل، لكننى تطلعت إلى يدى الجافتين مثل أيدى الرجال، وإلى التجاعيد الدقيقة حول عينىّ. كان باطن قدمى مثل النعل الجلد.. كانت تفوح منى رائحة العرق والتراب.. كان جسمى خشنًا وثدياى صغيرين يابسين.. لم أكن جديرة بهذا الرجل.

وسمعت رجلاً يغنى فى الليل.. كنت أعرف أنه ليس جيم.. وفتح الباب بركلة من قدمه، واستقر وسط الحجرة.. كان قميصه مفتوحًا حتى بطنه.. وكان صدره مبللاً بالماء. دخل حاملاً زجاجته.. لم أشعر بالخوف منه، فقد شاهدت رجالاً مخمورين وآخرين أقوياء.. رأيت ما يصنع الرجال وأساليبهم فى ذلك، لأنهم رجال.. وكان مثلهم.

– هل تظنين أنه أفضل منى، هه؟ تطردننى وتجعلينه مكانى.. سأثبت لك من هو سيدك.

لم أشأ أن ألحق به الأذى؛ فقد كنت أعرفه حينما يكون مخموراً.. كنت أفهمه جيداً.. لكننى لم أكن أشعر نحوه بأى شعور، ولا حتى الشفقة. واجتاز الحجرة وهو يترنح وحاول أن يمسك بى، فنهضت وواجهته. فقال وعيناه تحملقان وشفتاه مبللتان:

– أنا أريدك. يا إلهى، كم أرغب فيك. وسأمتلكك. لن تستطيعى طردى كالكلب. لقد كنت طيبًا معكِ.

فقلت له بكل هدوء:

– عد إلى كوخك يا ماك.

فتغير وجهه وقال:

– هل تتصورين أن باستطاعتك أن تتخلى عنى هكذا من أجله.. ما أنتِ إلا عاهرة.

فذهبت إلى الباب وفتحته، وأنا أقول له:

- اخرج الآن.

فانقض عليَّ وأمسكنى. وهو يقول:

- لقد أمسكتك.. سأمتلكك، حتى لو كان هذا آخر شىء بالنسبة لى.

فانهلت عليه بضربة برأسى على قمة أنفه، وأنا أعرف أين تؤذى ضربة الركبة الرجل.. فضربته ركبة فى أحشائه، فهوى على الأرض يئن ويصرخ ؛ فجثوت على ركبتى وعدلته على ظهره، وقلت له:

- اسمع يا ماك.. ولا كلمة.. سيقتلك جيم لو عرف ما حدث.

وحاول أن يتكلم، لكنه لم يستطع.. كان يرتعش ويشعر بالرغبة فى التقيؤ. ونهض على قدميه وهو يترنح، فابتعدت عنه ونظرت إليه، فالتفت نحوى وهو يبكى ويقول:

- عليك اللعنة! لقد عرفت نساءً أفضل منك مئة مرة.. نساء حقيقيات.. لسن مثلك، ولد فاشل.

وقال من ذلك الكثير، لكننى كنت أعرف أنه ما قال ذلك إلا لأننى أصبته فى الصميم.

عاد جيم.. وعانقنى.. كان كمن غرق وانتشلوه من قاع البحر حياً على الرغم من كل شىء.. أفرغ حقائبه أمامى.. تنورات وأوشحة ومناديل.. لو كان حمل معه جبلا من الماس لما تأثرت أكثر من ذلك.. لم أدر ماذا أقول.. لم أجد كلمة لطيفة مناسبة.. كنت أريد أن أقول كلاماً لطيفًا، لكننى أشعر بأننى بلهاء.. لم أمتلك فى حياتى ثيابا بهذا الجمال، كنت سعيدة، لكن شعرت بخيبة الأمل.

- إذاً أنت لا تحبنى كما أنا؟

- طيب، طيب، إلى النار كل هذا!

وحمل جميع الثياب، وألقى بها فى المدفأة. ولكننى صحت به قائلة:

- كلا.

فعاد مبتسماً. وقال:

- أنت مثل الصقر البرى.. لقد اشتريتها لمناسبة خاصة، انظرى!

وأخرج من جيبه علبة صغيرة، وكان بداخلها خاتم.

- أنت جاد فى هذا الموضوع؟

- يا إلهى.. ماذا أفعل لكى أقنعك! هل كنت تتصورين أننى سأتركك هكذا؟ وأننى لن أعود؟ وأننى سأنساق وراء امرأة من المدينة؟

ذلك ما كنت أتصوره، وأنا خائفة.

وجذبنى نحوه وهو يبتسم وقال:

- اسمعى! لن نقضى شهر العسل هنا.. ولكن أين؟ وليس فى المدن الملعونة!

- لا.

- لا. سنقضى شهر العسل بعيداً عن الناس.. مون لايت.. نعم سنقضى شهر العسل فى مون لايت. وأنت تستطيعين ارتداء هذه الثياب لهذه المناسبة.. القس الآن فى جولة؛ وقد أخبرته، وهو يقوم باللازم.

كل ما استطعت أن أفعله هو أنى ضممته بكل قوة وقلت:

- أنا سعيدة لأن هذا سيكون قريباً.

كان بعض يرون أن هذا شىء غريب، وكانوا يضحكون من الفكرة.. وطلبوا منى أن آخذ حذرى وأن أنزل فى أفضل فندق فى الناحية.. كنت أشعر بأننى غريبة فى الثوب النسائى هذا، لكن النساء كن يتأملنني ويقلن إننى أنيقة جدا. وأعددنا حاجيتنا، ورحلنا فى سيارة متواضعة، الوحيدة فى الناحية، عبر التلال قبيل الغروب.

ونصبنا خيمتنا فى شارع مون لايت الكبير؛ كان أخضر ومليئًا بالعشب. وألقينا نظرة على المستودع القديم.. كان منهارًا لا نوافذ ولا أبواب.. سكنته الخفافيش وتضرب فيه تيارات الهواء من كل ناحية.

ذلك كان مون لايت، لم يكن سوى منخفض بين التلال. فيما مضى كان المنخفض أبيض بخيام مثل عيش الغراب.. كان هناك شبان قاصرون ببنطلونات من القطيفة وقمصان حمراء يصيحون، وكانت بعض بنات الهوى يجئن من المدينة لتسليتهم مقابل مبالغ ضخمة.

الآن، لم يعد هناك شىء من ذلك، ومع ذلك فقد بقيت بعض أشجار التفاح المزهرة فوق التلال، والنهر يلمع فى الشمس وأشجار ضخمة. وكان هناك الدخان الأزرق الذى يتصاعد من نار موقدنا ورائحة شوائنا.. كان هناك القمر الساطع عند الشفق، والنجوم التى تنير مثل نيران المخيمات.

كان يعض أذنى وشفتى.. لم يكن يؤلمنى.. أما أنا فكنت أضع أسنانى فوق صدره الأسمر ولكن دون أن أعضه، كنت أضعها هناك فوق جسده كالكلب الأليف.

كان طيب الرائحة، رائحة الرجل الطيبة القوية.. وكان هناك سطح الخيمة الأبيض وظل شجيرة.. كانت هناك الريح وأصوات الليل، ذئب يعوى فى الناحية وشدو الطيور. كان هذا الرجل يحبنى هنا فى هذا الجو البدائى، وكنت أحبه.

لم يكن فى العالم أحد سوای أنا وهو، ودم واحد كان يجرى فى عروقنا. كانت بالنسبة لى سعادة كبرى خاصة أننى أصبحت أدرك أننى امرأة أنا أيضًا، مثل الأخريات.

لم يكن قد مر على مجيئنا يوم حتى رأيت أحدهم يتحدث مع جيم؛ فأسرع إلى كوخ ماك وجرّه إلى الخارج.. وتجمع خلق كثير.. لم يكن ماك يريد أن يتشاجر.. اكتفى بأن قال: "كنت مخمورًا يا جيم. لم أكن أدرى ماذا أفعل".

وتعاركا، ومزقه جيم إربًا، فسقط فى الوحل. لم يتحرك أحد من الحاضرين، ولا حتى امرأة واحدة.. وركعت وسندت رأسه.. كان الدم يسيل من فمه.. واختلط التراب بالدم الأسود الكثيف فوق وجهه. وقال جيم:

- دعى هذا الوغد وشأنه.. إلا إذا كان يمثل شيئًا بالنسبة لك.

فتطلعت إلى جيم قائلة:

- هو لا يهمنى فى شيء، يا جيم، لكنك عاملته معاملة الكلاب، لقد أشبعته ضربا. لقد صُفيت حساباتنا.. وانتهى الأمر.. أنت رجل.. احمله إلى الداخل.

فقال جيم بقسوة:

- ابتعدى أنت.

وحمل ماك إلى كوخه، وساعدنى فى غسل رأسه وفى تضميده، مع أنه كان هائجًا وكان يدمدم طوال الوقت بكلام غير مفهوم.

فى تلك الليلة أخبرنى جيم بأننا سنرحل. قال لى إنه لا أمان فى الناحية، فقلت:

- طبعا يا جيم.

كنت أنظر إليه من طرف خفى، وكنت أعرف أن ماك كان وراء هذا القرار. ورحلنا الأسبوع التالى. وساعة الرحيل جاءنا ماك وقال:

- ما حدث حدث. إلى اللقاء، وحظا سعيدا!

ورحلنا بعيداً على صهوة جواد حاملين متاعنا خلفنا.. عشنا أول الأمر فى خيمة، ثم شيدنا عشة من الخشب.. كنا ننصب الفخاخ وكان جيم يحمل إلى المدينة الفراءات كل شهر.. وكان يرحل ثلاثة أيام، لكنه يسافر مباشرة ويعود على الفور بعد أن يشترى التموين للبيت.

ووصل "دافى" مثل كلبة تلد فى جوف صخرة، هكذا أنجبته.. كان جيم بعيداً. وحاولت أن أصل إليه ولكننى لم أستطع فسقطت تحت شجرة.

هكذا ولد "دافى" فوق أديم الأرض، فوق فراش من أوراق الشجر. وجاء جيم وقال إنه كان يسمع أنينى.. كان طيبًا.. كان يعرف ما ينبغى عمله، وكنت راضية كل الرضى.. الصغير ينام بجوارى.. ولم أستطع أن أتصور أننى أنا الذى صنعته.

ومضت السنون وكانت هناءً بالنسبة لنا، وكان جيم يأخذ دافى إلى الغابة وكان دافى يعود حاملاً بعض الأرانب والحمام من صيد يديه.. كنا نحصل من الغابة ومن الحقل الذى نزرعه على ما نعيش عليه. لم نكن نطلب أكثر من ذلك.. كان جيم يقوم على تربية دافى ويوضح له أن عليه أن يتعلم الكثير من الكتب، ولكن ليس بمقدار ما يجب أن يتعلم من الحياة، ومن مخالطة الناس رجالاً ونساء.

كان الطفل يحب أباه.. كان طويلاً أصهب الشعر، بعينين واسعتين لامعتين، وابتسامة لطيفة. كنت أريد أن أنجب آخرين مثله وبنتًا.. وفعلاً فقد أنجبت طفلة، لكنها ماتت فى أثناء الولادة.

كان الجو شديد الحرارة فى شهر سبتمبر من هذا العام، وكانت الريح تحمل الأتربة الحمراء والشمس تلهبنا بأشعتها القاسية.. وأصيب دافى بالمرض.. كان فى

العاشرة من عمره.. وكان قويًا.. ولم نكن نتصور أن الأمر خطيرًا، لكنه بقى فى الفراش غارقًا فى عرقه، وأراد جيم أن يأخذه إلى الطبيب، لكننى رفضت مؤكدة أننى سأخرجه وحدى من هذه المحنة.

وفى صباح اليوم الثالث بدأ دافى يهذى، ثم انخفضت حرارته وراح فى نوم عميق.. ظل نائمًا أكثر من ساعتين، وحينما ذهبت لأراه حينما حان موعد الشاى؛ كان قد استرد لونه وفتح عينيه ونظر إلىّ وقال:

- أماه أنا جائع.

حينئذ عرفت أنه يتحسن، وأسرعت إلى المطبخ.. كان الباب الخلفى مفتوحًا.. كان جيم راقدًا على الأرض، فعدلته على ظهره.. كانت عيناه مفتوحتين، وكان دلو الماء الذى جاء به من النهر يسيل فوق الأرض.. ماتَ؟ كيف مات؟

وأسرعت إلى دافى بكوب الشاى، فشربه دفعة واحدة، وعاد إلى النوم.. قلت له وأنا أنظفه إننى سأعود لتغيير فراشه.

كلا، جيم ليس طريحًا فى الخارج، بل سيعود بعد لحظة ويعانقنى ويقبلنى ويهمس فى أذنى.

لماذا مات؟ رجل مثله، قوى كالشجرة؟

لم أستطع أن أذهب إلى المدينة.. لم أكن أستطيع أن أترك دافى فى الحالة التى كان عليها.

وسويت فراشه وانتظرت حتى نام، ثم أغلقت الباب.. وتناولت جاروفًا ومصباحًا، وخرجت من البيت.. وحفرت حفرة ؛ ونقلت جيم وأنا أجرّه وأدحرجه، ولففته فى غطاء ووضعته فى الحفرة بكل هدوء ورفق.

وفتح الباب وظهر نور.. كان دافى على عتبة الباب.

– ماما، أين أنت؟ ماذا تفعلين؟

فأسرعت نحوه قائلة:

– دافى، يجب أن تبقى فى الفراش.

وكدت أقول له:

– هل تريد أن تموت أنت أيضا؟

– أين بابا؟ ألا يأتى لكى يلعب معى الورق؟

– خرج للصيد.. عد وابق فى فراشك. حينما أنتهى، سآتى لألعب معك الورق.

ودفنت جيم. وحينما عدت، كان دافى جالسًا فى الفراش.. لم أكن أراه، كنت أسمعه فقط:

– لا تبكى يا أماه.. أنت لا تبكين فى العادة.. سأشفى من مرضى قريبًا. صحيح!

وضممته إلى صدرى ولم أستطع أن أقول شيئًا.. لم يكن هناك ما يقال.

كنت مضطرة لأقول لـ "دافى" إن أباه سافر إلى المدينة، وسيبقى فيها فترة أطول من المعتاد.. وحينما عاد إلى تمام صحته، أخبرته بالحقيقة. فخرج إلى الغابة، وظل غائبًا عدة ساعات.

وحينما رأيته، كان جالسًا فوق حجر يتأمل القبر، وظل فترة طويلة قليل الكلام. وذهبنا إلى الشرطة وجاءوا وأخذوا جيم، وقاموا بالتحقيق.. وبعد ذلك تم دفن جيم فى مقبرة البلدية.

وواصلنا حياتنا هناك. وكبر دافى. كان طويلاً عريضًا كأبيه وهو فى سن الثامنة عشرة، وحينما سافر للاشتراك فى الحرب، بقيت لاهتم بفلاحة الأرض، وكان يرسل

إليَّ الخطابات الرقيقة اللطيفة المسلية. وفى أحد خطاباته، قال إنه بدوره سيقوم بتربية الخراف، لكنه لم يعد.

لم يكن يبغى شيئًا إلا أن يكون معى، يصطاد الأرانب ويعمل فى الأرض.. كنت أحلم به وقد اتخذ زوجة وأنجب أطفالاً. ولكن انتهى الأمر الآن.. جزء منى مات بعظامه فى مستنقع الغابة، هو الذى ولد تحت شجرة فى هذا البلد.

واشتريت جوادًا وعربة، وانطلقت على الطرق.. الطرق تؤدى إلى كل مكان. جمعت فاصوليا وحصدت قمحًا وجنيت فواكه. أقمت بين أشياء أمضيت وسطها حياتى كلها. ثم عدت إلى مون لايت، سأبقى فيها.. ما هى الحياة؟ الظل والنور يتواليان. لا بد من اختبار الاثنين لمعرفتها. لقد ظللت فى صحبة جيم عشر سنوات.. دخل حياتى أنا من بين جميع حيوات الأرض.. وكان من الممكن ألا أقابله، كنت سعيدة الحظ، كذلك ليس الجميع مثلى عندهم طفل مثل دافى.

لم تكن لى أم سوى البلدة والأرض اللتين عرفتهما. كانت الفصول مثل الصديقات القديمات يأتين إلى بابى.. لم أعد أرغب فى شىء أكثر، السنوات الخضر والسنوات العجاف تتعادل.. الحياة مستمرة.. لن أذهب إلى الملجأ.. لقد شاهدت صورة لهؤلاء الناس فى دارٍ للعجزة، ولوحة تصور سفينة كبيرة فى قاع البحر، مع السمك يدخل ويخرج من الطاقات.. ليس هناك فارق كبير.

سأعمل حتى النهاية.. سأموت ودمى ساخن مثل أبى، مثل جيم، مثل دافى.. المرء يسقط فوق الأرض ويموت.

***

لا ميدالية من أجل ماللورى!

تأليف: أ. ف. بيبيس A. V. Piesse

من أستراليا

أعلن ماللورى لبرج المراقبة أنه فهم الرسالة. وحرك أنف طائرته بكل حيطة، حتى أصبحت موجهة مباشرة نحو الخط الأبيض الأوسط للممر رقم ١٥، وقاد طائرته فى جلبة نوافذها وأرض الهبوط. ثم أكره نفسه على الاسترخاء فوق مقعده. كان الخوف يضغط على معدته مثل الماء المثلج. ماذا قالت له إذن الطفلة – ماذا كان اسمها، هيلدا؟ أو هيلجا؟ أو هيلين؟ فى أثناء السهرة، الليلة الماضية؟

"أوه، يا كابتن ماللورى.. ما أسعد حظك أن تكون طيارًا! لكم تمنيت أن أكون رجلا! أتصور أنك تعـ ـ شـ ـ ق الطيران".

كان شريط الممر الرمادى يتأرجح فى بطء أمام عينيه.. لم يكن هناك إحساس بالحركة، كأننا معلقين للأبد بين الأرض والسماء. فقط العقارب المتذبذبة الخاصة بمؤشر السرعة والارتفاع، كانت تبين أن الأرض تندفع نحوك بسرعة مئة وستين كيلو مترًا فى الساعة تقريبا.

أعشق الطيران؟ وماذا كان ردّه؟ هو الرد الأبله الذى نجيب به دائما عن هذا السؤال الأبله.. ذات يوم قال الحقيقة.

"تسألينني إذا كنت أعشق الطيران، يا آنسة؟ كلا، إننى أبغض ذلك. يا إلهى، لو كنت تعلمين كم أبغض الطيران، كم أشعر بالخوف... هل تظنين أننى أجد متعة فى ترك الأرض الطيبة الخضراء، يوماً بعد يوم، وفى أنفى هذه الرائحة الكريهة، الكئيبة، رائحة الدورالومين والسيرفيكس؟ هل تظنين أننى أجد متعة وأنا أشعر بأمعائى تتلوى فى كل مرة أهبط فيها أو أقلع؟ هل ترين من المتعة أن نتوقع أن يتعطل أى شىء صغير فلا يلف، أو أن خطأ صغيراً يتسبب فى كارثة تحولنى إلى رمة فى سفح جبل؟

ذلك ما يمحو الابتسامة الساذجة من على وجهها الأبله.. "لماذا أنا أفعل ذلك يا آنسة فلانة؟ إيه حسنا، أنا فى الثانية والثلاثين من عمرى، منها ست سنوات فى الحرب وست سنوات فى الطيران المدنى.. هذا كل ما أعرفه.. هل بإمكانى أن أتنازل عن ألفى جنيه فى العام وأقبل وظيفة فى مكتب بخمسمئة؟ كلا، يا آنسة، هذا لا يكون مع وجود زوجة وطفلين".

تلك هى الإجابات المقحمة التى تُبهت تلك البلهاوات اللائى يعرض عليك أجسامهن فى خبث، فى مقابل زوج من الأجنحة النحاسية الزائفة، وشريط من قصب مذهب.

- فتيات لعينات! فتيات لعينات!

وقالها ماللورى مراراً وبلا ملل دون أن يفكر فيها، وذلك حتى صُرّت عجلات الطائرة عند احتكاكها بالقار حينما تشبثت الطائرة بالممر.

وما أن أصبح ينطلق على الأرض فى اتجاه مبانى المطار، حتى بدأت معدته المنقبضة تنبسط، وترجمت هذه الراحة فى شكل رشح خفيف فى راحة يديه على عجلة القيادة.

وتحقق ماللورى من أوامر المراقبة فى الكابينة، وجمع أوراق الرحلة أولاً بأول حسب نزول الركاب.. وكان هو دائمًا آخر من يغادر الطائرة.. وقد حقق له ذلك شهرة باعتباره رجلاً دقيقًا، وترك لساقيه الفرصة لاستعادة قوتهما.. كان يقال دائما عنه

حينما كان يعمل على قاذفات القنابل: "كن ضمن طاقم ماللورى، لن تكون هناك ميدالية من أجل ماللورى، لكنه دائما يصل إلى الهدف، وهو دائمًا يقود طاقمه إلى بر الأمان".

واجتاز ماللورى ببطء مبانى المطار، وهو يسوّى قبعته فوق شعره الأشقر المتناثر. كانت مشيته تنم عن التعب، ولم يلتفت خلفه ليلقى نظرة أخيرة على طائرته. لقد انتهت علاقته بها لمدة يومين كاملين.. يومين رائعين، راحة، وفلاحة حديقة، ونزهات وطعام فى الهواء الطلق على البلاج مع زوجته جوان وولديه.. يومين سعيدين من الحياة العادية.

وأشر على استمارة الشحن، وفحص أوراق الرحلة مع موظف الحركة، واقترح القائد عليه أن يذهبا إلى المدينة ليشربا شيئًا، لكن ماللورى رفض الدعوة وأسرع نحو سيارته.

لم تعد معدته الآن منقبضة، وبدأ يشعر بالاسترخاء، وأشعل سيجارة وألقى بأعواد الثقاب فى طفاية سيارته الفورد الصغيرة، واستنشق الدخان المعطر باستمتاع. وهمَّ بتشغيل المحرك، حينما سمع من يناديه:

– ماللورى، لحظة يا ماللورى!

كان ذلك هو كورتيس رئيس الوردية الذى كان بقامته القصيرة المتعاظمة يعبر الطريق خببًا. وقال وهو يلهث ويميل على شباك السيارة:

– ماللورى! أنا آسف جدا. لكن الأمر يتعلق برحلة طبية عاجلة، وليس هناك أحد.

وشعر ماللورى بالدم يتجمد فى عروقه، وبأمعائه تتلوى من جديد، وسأل بلهجة جافة:

– أوليس ويلسون فى الخدمة؟

فهز كورتيس رأسه قائلاً، وهو يفسح الطريق للطيار ليخرج من سيارته:

- ويلسون غائب.. أصيب فى قدمه وهو يلعب الجولف صباح اليوم.

وعلى الرغم منه، انتزع ماللورى نفسه من السيارة.. وفى غيظ سحق سيجارته بعقبه، وقال:

- إلى أين ذلك؟

- إلى المشروع الزراعى فى منطقة الآبار الثلاث، لقد تلقى رجال الإسعاف قبل قليل نداءً عن طريق الإذاعة، وقد طلبت من أجلك الأرصاد الجوية للاستعلام عن تنبؤات الطقس.

وطأطأ ماللورى رأسه، وقد بدأت معدته تتلوى وتخنقه.. وقام تلقائيًا بحساب المسافة والوقود:

- ٣٥٠ كيلو مترا. سأحتاج للتزود بالبنزين هناك.. ماذا عندهم كوقود؟

- عشر صفائح كما يقولون.. السماع لم يكن واضحًا جدًا، لكن رجال الإسعاف سمعوا جيداً هذا الجزء من الرسالة. اسمع، أنا آسف جدا بشأن يوم راحتك. ولكن ليس باليد حيلة.

وبعد عشرين دقيقة، أخرج ماللورى الطائرة الإسعاف على الممر بكل حيطة وحذر. وأقلع. كان يدندن بلحن دون كلمات، لكى يقاوم فى حلقه طعم الخوف المر.. كانت تلك اللحظة الحرجة.. اللحظة التى تتضاءل فيها فرص النجاح حينما تسوء الأمور، اللحظة التى ينبغى فيها الضغط بعمق على المحركات لتحرير الطائرة من الأرض التى تقبض عليها.. لم تكن أمامه أشرطة كثيرة.. وكانت الطائرة تشير إلى انحناء كبير صاعد يرفعها فوق مستوى البحر، ثم داخل الأراضى فى اتجاه الجبال التى تحجبها الغيوم المتسببة عن حرائق الغابات، تلك الكارثة الأسترالية التى تحدث فى الصيف.

كان الضغط الذى يجمد ماللورى يتضاءل كلما ارتفعت الطائرة، ففى الارتفاع العالى، من الممكن عمل شىء لو ساء الوضع.. واستدعى رجل الإسعاف الذى خرج من الكابينة الصغيرة وهو يبتسم، وكانت الطائرة تتقدم بلا صعوبة فى جو مستقر. وكان الرجل الأسمر بادى السعادة. فالوضع أفضل بكثير من التعرض بسيارة الإسعاف للخطر فى الريف ولاحتمال الموت. وجلس القرفصاء على الأرض بجوار الطيار، وأخرج لفافة تبغ، فى حين جعل ماللورى يسأله عن الشخص المريض.

– إنها مدام أوفين، زوجة مدير المشروع الزراعى. لم نستطع الحصول على معلومات كثيرة عن طريق الإذاعة، ولكنها على وشك الوضع، ولا بد أنه وضع قبل الموعد. كان جيم أوفين الزوج نفسه هو الذى يتحدث.. كان يبدو قلقًا لكن الاتصال انقطع قبل أن يستطيع أن يدلى بتفصيلات.

فسأله ماللورى:

– والبنزين؟ هل أنت متأكد أنه موجود؟

فأشار رجل الإسعاف برأسه علامة الإيجاب.

– سمعتهم بنفسى يقولون توجد عشر صفائح.

فى الرابعة والنصف، كانت مبانى المشروع الزراعى تتماوج فى تكاسل أسفل منه. وأرسل ماللورى إلى قاعدته إشارة بالهبوط. وكان تقرير الأرصاد الذى تلقاه ليس مطمئنًا. فهناك غيوم كثيفة بسبب الحرائق تتقدم نحو المدينة، ومع المساء وانتعاش الجو، ربما تتحول الغيوم إلى الوادى وتعلو المطار.

وهبط ماللورى بطائرته على ممر الهبوط الوعر الذى أنشأه حراس الحيوانات فى الغابة. وفيما كان ماللورى يقوم بحساب سطح الممر، متفاديًا الحفر والأشجار المختفية، انصرف عن قلقه الجسدى الذى لم يظهر فى ذلك الوقت إلا على شكل توتر شديد فى عضلات المعدة، وهو توتر خفّت حدته حينما توقفت الطائرة محدثة هزة.

وفتح جيم أوفين باب الكابينة، وساعد رجل الإسعاف فى الخروج. وقال:

- هى فى السيارة.

كان وجهه القاتم يحفره القلق. والتفت إلى ماللورى بينما رجل الإسعاف يتوجه إلى السيارة على وجه السرعة.

- الحمد لله لأنك جئت.. السيدة تعبانة. كان الاعتقاد أنك لن تستطيع الحضور دون وجود بنزين.

- ماذا؟

وتوقف ماللورى وقد خرج نصف جسمه من الطائرة.

- قالوا إن لديهم هنا عشر صفائح.

- عشر صفائح من المازوت لسيارتى النقل.

وانفجر ماللورى يسب ويلعن، حينما تصور أنه من الممكن أن يظل مقيد الحركة لمدة أسبوع حتى يرسلوا إليه البنزين. وقفز على الأرض وتقدم نحو سيارات النقل، والمزارع الضخم يمشى متثاقلا بجواره.

وكان رجل الإسعاف جاثياً فى سيارة النقل يفحص المريضة، وكانت شفتا المرأة مضمومتين مضغوطتين فى خط مستقيم أليم. وكان رأسها يميل يمنة ويسرة بلا انقطاع؛ وكانت خصلات من الشعر الرمادى تلتصق برقبتها وجبينها فى حلقات صغيرة مبللة بالعرق. واستعمل رجل الإسعاف معها المورفين المخدر فاسترخى الجسد المسكين المتألم.. وندّت عن الزوج زفرة ارتياح أشبه بهمهمة أفلتت من بين شفتيه. والتفت ليدارى انفعاله.. وحكّ ماللورى نحره. وقال رجل الإسعاف:

- لا بد من نقلها إلى المستشفى بأسرع ما يمكن.

كان يعالج حقنة، وكانت علامات القلق تظهر فى تجاعيد صغيرة على جبهته. وألقى نظرة على أوفين الذى كان منهمكًا فى تسوية الأغطية حول زوجته بكل رقة، وخفض صوته وهو يقول :

– إذا نجحنا فى نقلها الليلة إلى هناك، فهناك احتمال بنسبة خمسين فى المئة فى خروجها من هذه الأزمة.

صنّارات متجمدة كانت تنهش أحشاء مالورى. وفكر فى نفسه فى لحظة استبصار قائلا: "هاهو ذا! هاهو ذا ما ينتظرنى بعد كل هذه السنوات!" وقال بصوت محايد:

– لا يوجد بنزين هنا. يوجد فى الخزانات بنزين يكفى لوصولنا إلى القاعدة، وكذلك لعشر دقائق طيران أخرى. ولكن إذا زاد دخان الحرائق....

وهز كتفيه فى حركة معبرة.

أما رجل الإسعاف، فقد أعاد بكل عناية حقنته إلى صندوقها، وترك الغطاء يسقط، فأحدث صوتًا مكتومًا. وقال دون أن ينظر إلى الطيار:

– إذا بقيتْ هنا فهو الهلاك الأكيد.

فقال مالورى بلهجة اليقين الجافة.

– أعرف ذلك.. لننقلها على الطائرة.

وأطلقت طائرة الإسعاف ذيلاً طويلاً من العفار الأحمر على المزارع الذى بقى وحده بجوار سيارته النقل.

وتركزت عينا مالورى على البوصلة التى كانت تتمايل متكاسلة داخل وعائها. وكان خيال الطائرة يتبعها فوق مستوى الأرض الجافة الحمراء والغابة الرمادية الخضراء، يلحق بها ويتجاوزها راكضًا أمامها.

وألقى ماللورى من فوق كتفه نظرة فى الكابينة، حيث كان رجل الإسعاف قد فرغ من تسوية الأغطية من حول المريضة، وبدأ يرتب زجاجات السائل الدموى فوق رف مخصوص مثبت فى السقف. ثم تناول الميكروفون وبدأ الاتصال بقاعدته. وجاء الصوت المعدنى المحايد، صوت المذياع يعلن قائلاً:

– حالة الطقس، سحابة الدخان تزداد.. الرؤية على بعد ميلين تتضاءل.. المراقبة تنصح بقضاء الليل فى الآبار الثلاثة.

وبسط ماللورى أصبعه السبابة، ورفع بنقرة من ظفره الزرار. كان الخوف قد استقر فى ألم مكتوم ينهش يصاحب الطيران على ارتفاع كبير، أما عض الصنارات الحاد فلا يظهر إلا عند الهبوط.

وقال فى الميكروفون:

– خطورة الحالة تمنع من التوقف ليلا.

شعور غريب بالأمر المحتوم محا كل نبرٍ من صوته.

– أطلب التصريح بالاستمرار.

وجاء رد السماعات بصوتها المحايد:

– مفهوم. يمنح التصريح بالاستمرار على مسئولية الطيار. حالة الجو....

وأغلق ماللورى السماعات، ونظر أسفل منه على بعد شاسع، أسفل، رأى خطاً متماوجاً بلون أخضر قاتم يشير إلى مجرى نهر، وظهرت مبانى مزرعة "بتل بند".

ودخل رجل الإسعاف الكابينة ولبث، واقفاً، صامتاً ينظر من فوق كتف الطيار، فى حين ضلّت المزرعة وممر الهبوط فيها حيث اختلطت حدودها بفعل الغيوم التى تزداد كثافتها. وظل الرجلان صامتين.

كان قد مر على الليل خمس وثلاثون دقيقة، حينما قدّر ماللورى أنهم لا بد أن يكونوا فوق قاعدتهم. وفوقهم كانت قبة السماء السوداء تتناثر عليها نجوم كما فى كتاب مصور عن الطيران، وكان قوس القمر الجديد الرقيق معلقًا من طرفه أشبه بسلطانية مائلة.

وأسفل منهم، كان ضباب الدخان يغطى الأرض مثل طبقة من الجلاتين تزداد سمكًا كلما غاص معه برد الليل فى الوديان، ماحيًا أنوار الناس السعداء المرتبطين بالأرض. وجاء صوت السماعات المحايد ليعلن:

– الرؤية على بعد ٥٠٠ متر، تتضاءل فى بطء، المراقبة تنصحك بالتوجه إلى مطار آخر.

فأجاب ماللورى:

– لا يوجد بنزين كفاية، أرجو رفع كفاءة الإرسال.

وحدّث نفسه قائلاً: "الآن، وأنا أعرف أن الوضع ميئوس منه، ينبغى أن أكون هادئًا ومستسلمًا، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فأنا أشعر برعب يعجز عنه الوصف".

وألقى نظرة على رجل الإسعاف الذى كان منصرفًا إلى الاهتمام بالمريضة. "يا له من رجل بارد عديم الشعور! هل هى شجاعة أم مجرد انعدام تصور؟".

وجاءت السماعات تعلن:

– رفع زيرو، تسعة، زيرو .. أعط الرفع المعاكس واضغط المحور على اثنين، ستة، ثلاثة، مفهوم؟

"ما أشجعه وما أسعده! جالس على مقعده فى برج مراقبة صغير لطيف. يا إلهى، كم أنا أحسده. فليست فى معدته صنارات داخلية".

وتساءل هل أعدت "جوان" القهوة. غداً هو يوم إجازتك يا ماللورى، وا أسفاه، يا ماللورى، رحلة طيران عاجلة! لا يوجد أحد غيرك! ولكن أنا موجود، للأسف!".

- نحن نسمع محركات من فوقنا، هل أنت ترى إشاراتنا؟

- الإجابة بالنفى.

- اضبط نفسك على زيرو، ثلاثة، خمسة، وابدأ فى الهبوط؛ وأعلن عن رصيدك من البنزين.

- مفهوم، بقى عشر دقائق بنزين.

ووجه ماللورى أنف الطائرة إلى أسفل، فى اتجاه غطاء الدخان. دستة من الأيدى الخفية تشد على الصنارات داخل معدته. وتشكلت نقطة عرق باردة فوق شفته العليا وسالت فى زاوية الفم. ولم يلحظ طعمها المالح.

عشر دقائق بنزين - يتبقى دائما بعض اللترات حينما تعلن الساعة "فارغ". أين يا تراه قرأ ذلك؟ فى "آخر الكلمات المشهورة".

وصعدت سحب دخان تحيط بالطائرة بأصابعها الطويلة الرمادية.. وامتلأت الكابينة برائحة نفاذة حلوة، مرّة، رائحة أوراق الأوكالبتوس المحترقة، فجعلت شاغلى الكابينة يسعلون مختنقين.

كانت مفاصل ماللورى المتقلصة على عجلة القيادة، تلمع بيضاء تحت نور الكابينة. وكان العرق ينعقد على شفته العليا وجبهته؛ ليلهب عينيه.

"الهضبة، يا ماللورى! الهضبة خلف المطار.. خمس مئة قدم من الجرانيت وجذوع الشجر المقطوعة تنتظرك لتحطم طائرتك الصغيرة. لا تنس الهضبة يا ماللورى!".

وبزغت من العدم كرة نور لامعة مقطّنة، كان يبدو عليها أنها تنقض على الطائرة كشظية من قنبلة عملاقة. وكبح ماللورى جماح طائرته مثل المطية وجعلها تغير اتجاهها نحو اليسار، وتسربت من أسفل منه ظلال سوداء.

"الفنار يا ماللورى، فنار المطار! لا تغفل عنه. ولا تبارحه عيناك يا ماللورى. هذه مسألة حياة أو موت. مسألة حياة يا ماللورى".

وأدار ماللورى الطائرة كأنها مقيدة بخيط إلى النور، وبالكاد حك طرف الجناحين بالأشجار التى بحذاء المطار من ناحية البحر.. وتسربت أنوار خضراء مختلطة، فى مدخل المطار، من خلال بربريز الطائرة.. وعالج ماللورى أنف الطائرة حتى جعله يتجه مباشرة نحو خط الوسط فى الممر رقم ١٥. كان الخوف فى فراغ معدته أشبه بالكرة المثلجة. وحكت العجلات الكاوتشوك أسفلت الممر، فى حين كاد ماللورى يكره نفسه على الاسترخاء فوق مقعده.

وترك الطائرة تنطلق قبل أن يكبح السرعة. وبينما كان يتجه إلى الأرض نحو مباني المطار، بدأت العقدة في معدته تنحل.

وتحقق ماللورى من أوامر القيادة فى الكابينة، وجمع أوراق الرحلة، فى حين كان رجال الإسعاف ينزلون المريضة. كان هو دائمًا آخر من يغادر الطائرة، وقد حقق له ذلك شهرة باعتباره رجلاً دقيقًا وترك لساقيه الفرصة لاستعادة قوتهما.

لحظـــــــــــات

تأليف: بافو فوسّـى Paavo Fossi

من فنلنـدا

كان الرجال يحفرون مقبرة جماعية بالقرب من أحد المستنقعات، وكانت السنون قد سطحت التل بالكامل تقريبًا.. وكان أحد الحفارين ويدعى جوهانس، موجوداً حينما أهالوا التراب فوق المقبرة. مر على ذلك ثلاثون عامًا؛ مرت السنون، ثوانى، ودقائق، وأيامًا.

كان جوهانس وهو طفل يفكر دائمًا فى الزمن، فى مرور اللحظات. كان يتوقف، ويفكر: "الآن، فى هذه اللحظة، أنا أوجد هنا، حيث غصن هذه الشجرة يتحرك، وحيث أنا أثنى أصبعى أمام عينى"، هذا الزمن لن يكون موجوداً، هذه اللحظة بالتحديد ستكون قد مرت ولن تعود أبدا. الآن، هو أصبح رجلا عجوزا، يعيش لحظات تمضى بلا نهاية، وتتركه كل منها وقد تقدم قليلاً فى السن عن ذى قبل.

كان من الضرورى نقل الموتى من المقبرة الكبرى تحت التل، إلى أرض نصرانية. كان الرجال يحفرون فى صمت، جوهانس يفكر فى هذه الليلة، فى هذه اللحظات حيث حفرت هذه المقبرة فى المستنقع المتجمد قبل ثلاثين عامًا. كان بإمكانه أن يرى بقايا هذه الكومة من جذوع الشجر التى ارتعش خلفها بينما كان ينظر ويفكر: "أنا" الآن" أعيش، "الآن" أرى...".

مضى الزمن وأصبح رجلاً عجوزًا، لكن أخاه – وقد فوجئ بهذه اللحظة من الماضى – راقد تحت التل.

انتهوا من تخليص طبقة من العشب ثم بدءوا من جديد فى الحفر فى الطَّفل اللين باهتمام وعناية فائقين. ومست الفئوس شيئًا صلبًا، وظهرت كتلة قاتمة وسط الطَّفل. حينئذ جعلوا يحفرون بأيديهم برقة، وخلصوا من التراب الرجال الذين كانوا قد رقدوا فى هذه المقبرة. نفضوا الطَّفل عن وجوه الموتى وملابسهم. كان الطفل هشًا لا يتماسك، وكذلك لا يبقّع ؛ كان يغلّف الموتى بحرارة، لكنه كان يتقشر كقالب من الجص، تاركًا الوجوه عارية ونظيفة. كان الطَّفل قد حافظ عليها سليمة لم تمس، تحت طبقات العشب والجليد. وعاد هؤلاء الموتى إلى الحياة تمامًا كما كانوا حينما وضعوا هناك، قبل عدة سنين. كانوا راقدين فى صف على حافة المقبرة، شبانا بالثياب نفسها وبالأحذية نفسها التى كانت فى ذلك العصر. بالنسبة لهم، الزمن لم يتقدم. **بعض اللحظات عادت**.

وفتح جوهانس عينين شاردتين. **ها هم من جديد**، ها هو ذا أخى الأكبر.. يرتدى فى قدميه الحذاء الذى كان "هيكّى" الإسكافى قد صنعه له، والجورب الذى كانت أمه، المتوفاة، قد شغلته له بالإبرة. والأخ الأكبر لا يزال شابًا فى العشرين من عمره ؛ أما هو، الأخ الأصغر، فعجوز.

بالنسبة للأخ الأكبر، الزمن لم يتقدم. ساعته فى جيبه، وهى تشير إلى وقت متقدم بثلاث ساعات تقريبًا عن، **تلك اللحظة التى**.

وعاش جوهانس فى خياله من جديد تلك اللحظات.

كانت الحرب الأهلية على أشدها، وكان الموت يحصد الشباب حصداً، لكن الأخ الأكبر وقع أسيراً. ومن الكوخ الذى كانوا يسكنونه فى قرية بعيدة، أرسلت الأم جوهانس ليحمل إلى الأخ الأكبر شيئًا من الجبن والخبز وجوربًا جديداً.

هاهو ذا جوهانس وحيد فى محطة القطارات الخالية، يكاد يبكى من شدة الخوف ويشعر بالضياع. كان الوقت ليلاً وكان المكان معزولاً مهجورًا كما يمكن أن نتصور محطة قطارات فى الريف. وكان ثمة مصباح يتمايل فوق قمة عمود، وبالقرب من التحويلات نور شاحب يضيء ضعيفًا كأنه آت من مصور بعيد. وكان جوهانس يحدث نفسه قائلا:

"هو موجود **هنا الآن**، يعيش **هذه اللحظة**، وهناك المصباح ينير بالضبط **الآن**".

الوقت ليل، ولا يوجد أحد فى المحطة، لكن الأخ الأكبر موجود فى مكان ما هنا. لقد قالت الأم إنهم نقلوا السجناء إلى المحطة، وقالت أيضًا إن الجنود لن يكلفوا أنفسهم إطلاق النار على طفل صغير، بشرط أن يخلع جوهانس قبعته ويحييهم بكل أدب.

وأخيرًا، ومن عتمة الليل، خرج رجل يعلّق على كتفه بندقية. فقال جوهانس فى نفسه "هذا أحدهم"، واستولى عليه الخوف فجأة. ثم استرد شجاعته. لعلهم فعلا لا يكلفون أنفسهم مشقة إطلاق النار على طفل صغير.

وسأله جوهانس قائلاً:

– هل فيل فيوريستو هنا؟

قالها جوهانس وهو يرتعد، ويجرجر قدميه، وهو يحيى كما قالت له أمه.

فرمقه الرجل طويلاً، ثم قال:

– كيف تخرج فى مثل هذه الليلة وأنت طفل صغير.. **ألا** تخاف أن تأكلك الذئاب أو يذبحك "الجزارون؟".

أوه، أجل، جوهانس خائف، لكنه حاول أن يبتسم بأدب وقال:

- لا، لست خائفا، ولكن معى طعامًا وجوربًا جديدًا من أجل فيل فيوريستو.. طلبت منى أمى أن آتى بهما إلى هنا.. إذن، لو يتكرم السيد ويخبرنى أين يوجد فيل؟

فرد الجندى قائلاً:

- فيل فيوريستو، نعم، أعرف أن هناك شخصًا بهذا الاسم فى مخزن الآلات، خلف الفناء. ولكن يا صغيرى، فيل ليس بحاجة إلى طعام ولا جوارب "الآن". فهو واحد من المحكوم عليهم بالإعدام؛ وفى المساء... هيا، من الأفضل لك أن تلوذ بالفرار إلى بيتك....

- لكن أمى طلبت منى أن أعطى هذه الأشياء لفيل.

قالها جوهانس وقد غُصّ حلقه بالبكاء.

وتأمله الرجل فى صمت. وانتظر جوهانس، وتطلع إلى البندقية بعين خائفة. إذن ببنادق كهذه يطلق الناس النار ويقتلون من مسافات بعيدة، ثم تفكر من جديد: "هى بالذات **هذه اللحظة**"، ونظر إلى البندقية. قبل وقت قصير، كان يتطلع إلى المصباح. لكن **تلك اللحظة كانت قد مضت وولت**.

وأخيراً قال الرجل:

- حسنا، يمكنك أن تعطى لفافتك لفيل. تعال معى.

واجتاز قضبان القطارات وفناء المحطة الصغير، ورأى جوهانس المكان الذى يخزنون فيه آلات صيانة المحطة. كان بادى الأسى والعزلة، وكان مذعورا. وكان جندى يقوم بالحراسة على الباب، فقال لرفيق جوهانس:

- غير مصرح لأحد برؤية السجناء.

- لكنه طفل صغير، لا يمكن أن نعتبره أحدًا.. يمكن أن نتركه يحمل الطعام والجورب لفيل.

وقبِل الحارس:

- مثل هذا الطفل الصغير لا يمكن اعتباره أحداً، فلنتركه يعطى لفافته لفيل، ما دمنا سنرحل بعد نصف ساعة.. من يدرى لعل فيل سيحتاج إليها فأمامه رحلة طويلة؟

وفتح الرجل الباب، ودخل جوهانس مذعوراً. كان دستة من الرجال يجلسون القرفصاء فوق نسيج مشمع مبسوط فوق الأرض. وانتفضوا حينما فتح الباب وتطلعوا بعيون جاحظة. لكن الجندى أغلق الباب خلف جوهانس وتنفس السجناء بارتياح.

بهر المصباح الكهربى المعلق فى السقف جوهانس، ولم يتمكن من رؤية شىء للوهلة الأولى، ثم اعتادت عيناه النور، فرأى الألواح المعفرة، والنوافذ العالية ذات القضبان الحديدية القريبة من السقف، وعربة الأمتعة المقلوبة على الجدار، والأغطية الخيش المشربة بالقار المعلقة فى العروق الخشبية، والفئوس والمعاول فى الركن.

رأى الرجال جالسين القرفصاء فوق المشمع. وعرف "روجونين" صاحب البيت المجاور لهم، و"جوفونين" الذى تعود أن ينشد حينما يعمل الرجال ليحفزهم على التقدم والسرعة. وكان هذان وحدهما هما المتقدمان فى السن. أما الآخرون، فكانوا شباناً. ولكن أين فيل؟ آه، ها هو ذا هناك. هو ذلك المنطرح ووجه إلى الأرض. عرفه جوهانس من حذائه الذى صنعه له هيكّى الإسكافى.. لا أحد غيره يمكن أن يصنع أحذية كهذا. إن المرء يلاحظها فى أى مكان.

ومع ذلك فقد سأل جوهانس للتأكد:

- هل فيل فيوريستو هنا؟

ونهض فيل على الفور وتأمل جوهانس مندهشاً:

- جوهانس، ماذا تفعل هنا؟

- أمى قالت لى أن آتيك بطعام وجورب جديد.. هاهى الأشياء.

وبسط جوهانس اللفافة إلى فيل.

وهنا تهكم رجل ضئيل الحجم وهو يدق بقبضته على فمه وقال:

- طعام وجورب جديد!

وأخذ الأخ الأكبر اللفافة وتأمل جوهانس بطريقة غريبة. وفتحها بطريقة خرقاء، ونظر إلى الخبز الطازج والجبن والجورب الصوفى الجديد الذى شغلته أمه. ونظر الآخرون بفضول، ومرة أخرى تهكم الرجل الضئيل من تحت يده، وقال:

- الأم الغالية! انظروا كيف تهتم بفيل.. ارجع إلى أمك وقل لها إن فيل سرعان ما سيزرع الأقحوان الأبيض.

وصدّه الآخرون، غاضبين. وخفت تهكمات الرجل لكنه عاد يقول:

- نعم، فيل سيصاب بمغص شديد، بحيث.

لكن الآخرين لم يتجاوبوا مع دعاباته. وصاح ريجونين فى الرجل الذى لزم الصمت، لكنه استمر فى التهكم من تحت يده.

وأحس جوهانس بالحقيقة الرهيبة.. وبدأ يرتعد وأسنانه تصطك، لكنه ناضل ليسترد شجاعته.. خشى أن يظهر خوفه أمام الرجال، وتظاهر بأنه لم يفهم شيئًا. ومرة أخرى وردت بخاطره فكرة كأنها لمح البرق: "الآن يحدث هذا: والعربة مقلوبة على الجدار، والمصباح يلقى ظلاً على حذاء فيل".

وفى الخارج، كانت أسلاك البرق تئن كالمعتاد فى محطات القطارات الخالية؛ غير أن صوتًا أقوى، وأعتى، وأشد ذبذبة كان يشير إلى أن الريح تهب. وأنصت المحكوم عليهم إلى الأنين. وقال أحدهم:

- لا بد أن عاصفة ثلجية ستهب غداً مما يجعل الأسلاك تشدو على هذا النحو.

وتهكم الرجل الضئيل الحجم من تحت يده:

- إذن، ستهب عاصفة ثلجية غداً؟ ها! ها! ها! ماذا أدرانا غداً.. أنا أتساءل إذا كانت هناك عواصف ثلجية في جهنم.

وغضب الآخرون، وركل ريجونين الرجل الضئيل حيث جعله يسقط، وظل جوهانس أمام أخيه.. صامتا، لكن الرغبة كانت تدفعه إلى أن يصيح من الخوف.. وكان الأخ **الأكبر** يبدو غريباً كالآخرين. يوجد شيء رهيب في هذا الانتظار.. كان جوهانس يشعر بذلك، وكان يود أن ينقذ "فيل" والآخرين، لكنه لا يستطيع. كان يشعر بأنه مثبت بمسامير من الثلج إلى هذا المكان وإلى **هذه اللحظة**.

- ودمدم "جوهانس" يقول:

- ولكن الطعام، والجورب؟

وقسّم أخوه الخبز والجبن إلى قطع صغيرة وزعها على الجميع، ورفع الرجال قبعاتهم وشرعوا يأكلون بشراهة، حتى الرجل الضئيل الذى كف عن التهكم.

حينئذ خلع فيل حذاءه وارتدى الجورب الذى شغلته له أمه وتطلع إليه، وحرك أصابع قدميه داخله. وقال لجوهانس ببطء وبصوت جاد:

- جميل جداً هذا الجورب ودافئ جداً، مضبوط تماماً، لقد أجادت ماما صنعه. أنا سعيد جداً به. سنكون في شهر إبريل بعد قليل، لكن الجو يكون بارداً في الليل. انظر إلى هذا الحذاء، لقد اخترقت إحدى الطلقات الكعب، ومع ذلك فقد تحمّل.. كان من الممكن أن ينخلع الكعب بالكامل لولا أنه حذاء صنعه هيكى الإسكافى.. إنه حذاء جيد.. وكان ينبغى أن أعطيه لك، ولكننى لا أستطيع أن أفعل ذلك حقًا. **والآن**، يجب أن تذهب وقبّل لى ماما.

الأخ الأكبر يبكى **الآن**. ولكن فى تلك اللحظة، فتح الباب وارتفع صوت القائد يصدر أمراً:

- الجميع إلى الخارج بالفئوس والعتلات.

وأطاع الرجال وشرعوا فى النهوض بصعوبة، وكثير منهم خر ساقطاً على ركبتيه. وأسرع فيل بارتداء حذائه وساعد ريجونين فى إنهاض الضعفاء.

وصاح الرجل الذى بالباب وقد نفد صبره:

- هيا، بسرعة، احملوا الفئوس والعتلات.

كانت ثمة غريزة بالطاعة تدفع الرجال، ونظروا أمامهم مليًا، وأيديهم ترتعش لكنهم يبحثون عن أدواتهم يتحسسونها فى الأركان، وخرجوا جماعات وقد جعلت أدواتهم تصطك محدثة جلبة وصريراً.

وفى الخارج نظم الجنود السجناء فى صفوف وبدأ النداء على الأسماء. وحشر جوهانس نفسه بين سيقان الكبار، وهو يحاول مذعوراً أن يلحق بأخيه. لكنهم لمحوه وصاح بهم أحدهم:

- من أين خرج هذا الغلام؟

- اهرب بسرعة.

وتسلل جوهانس خلف المخزن تحت الأسلاك التى تئن. وسمع أمراً وجلبة المجموعة التى تبتعد، واختفى الجنود والسجناء فى عتمة الليل.

وحينما جرؤ جوهانس على إلقاء نظرة عليهم، لاحظ أنهم رحلوا جميعًا؛ واجتاز الفناء جريًا حتى الرصيف. وهناك، كان المصباح الوحيد يتأرجح فوق قمة العمود؛ وبجوار التحويلات كان هناك نور شاحب كأنه آت من مصدر بعيد. كل شىء كما كان

قبل قليل تمامًا حينما كان جوهانس موجوداً. ولكن، الآن تلك اللحظة انقضت، ولن تعود أبدا، وجوهانس يمزقه قلق وخوف يخنقانه. لقد أخذوا فيل.

وأنصت فسمع من مكان في الناحية الأخرى من كومة الأخشاب، جلبة الفئوس والعتلات، وبدأ جوهانس يجرى.. سيأخذ بيد أخيه ويجرى معه إلى البيت.

ورأى صفًا أسود من الرجال يمشون بحذاء طريق القضبان، بعضهم يحمل بنادق، وبعض الآخر يحمل أدوات. ثم قطعوا الطريق وتوجهوا ناحية المستنقع من خلال الحقول المغطاة بالجليد، ثم تجاوزوا الحطام السوداء لبيت محترق.

وفي أثناء النهار، جعلت شمس مارس الجليد أكثر ليونة، لكن الليل الهابط والصقيع كونا طبقة صلبة ليست من السمك الكافي لاحتمال أقدام الرجال بمشيهم الثقيل، فكانوا يغوصون ويتقدمون بصعوبة، لكن جوهانس كان يجرى بخفة كالأرنب البرى، فلحق بهم بسهولة.

كانت ليلة حقيقية من أوائل ليالى الربيع. ومن خلال غلالة خفيفة من السحاب، كان القمر البدر ينشر نورًا خفيفًا بلا ظل على الريف.

وتقدم جوهانس خفيفًا خائفًا كالفأر.. كان يخشى أن يراه الجنود فيطلقوا عليه النار.

وتوقف الرجال بجوار المستنقع الكئيب العارى.

لم يلمح أحد منهم الظل الصغير الذى كان يتسلل خلف كومة من جذوع الشجر.

واصطف الجنود وأمسكوا بالبنادق، وأخرج قائدهم مسدسه من غمده وصاح قائلا:

– إلى العمل. هيا ارفعوا هذا الجليد!

وأمسك الرجال الفئوس، وضحك الرجل الضئيل ضحكة غريبة كما أصدر الآخرون أصواتًا عجيبة، أو بمعنى أصح، ترنحوا كأنما سيغشى عليهم. ومع ذلك فقد حاولوا جميعًا رفع الجليد بالجوارف؛ لأن صوت القائد كان أشبه بطرقعة السوط.

ورفع السجناء سطحًا مستطيلاً، والآخرون يرقبونهم والبنادق على أكتافهم. ثم أخذ ريجونين وفيل العتلات وشرعا يتعاملان مع الأرض المتجمدة. كانت الأرض المتجمدة صلبة كالحجر حيث لم تنزع منها سوى قطع صغيرة تحت ضربات الأدوات الحديدية. وترنح بعض الرجال، والتفتوا إلى الجنود. ومن آن لآخر كانت الآلة تسقط من يد أحدهم، وتمنى الرجال لو تصاب أيديهم بالشلل فى هذا العمل الأخير....

واعتمد قائد الفرقة على كومة الجذوع.. وسمعه جوهانس يدمدم قائلاً:

- "ما هذا الذى تفعله؟ لا شىء سوى الدماء!".

لكنه حرك بندقيته وصاح قائلاً:

- هيا بسرعة، أتمّوا هذا العمل.

حتى الذين يستطيعون بالكاد أن يقيموا أنفسهم، بدءوا فى الحفر. كان الرجل ذو البندقية أشبه بالقدر الذى لا يرحم. كان فيل وريجونين يعملان بطريقة منهجية. كانا يضربان بدقة وتقنين؛ لأن الآلة كانت أليفة لديهما. لكن الآخرين الذين يبدو عليهم أنهم من المدن، كانوا يضربون ضرب عشواء، وفى كل لحظة يرتعش الفأس ويرن مثل آلة قياس الصوت.

وانشقت الأرض الجليدية ببطء، وحاول أحد الجنود أن يساعد الرجال؛ لكن الرئيس نهره وأمره بالانسحاب.

ودمدم ريجونين العجوز قائلاً:

- الأم الوطن قاسية جداً. حقًا لا يمكن أن نزعم أنها تتلقانا بأذرع مفتوحة.

وسمع جوهانس فيل يقول:

– هيا، أيها الرفاق، لنتم العمل.. إنه آخر عمل لنا.

فقال ريجونين:

– نعم، إتمام العمل، كان ذلك دائمًا ديدننا. ولكن أنشدنا شيئًا إذن يا جوفونين. لا تنس أن تؤدى واجبك أنت أيضا.

كان جوهانس قد سمع جوفونين ينشد للرجال الذين كانوا يعملون ضمن فريق فى حفر أو تثبيت الركائز، حينئذ كانوا يعملون معًا على إيقاع النشيد. وكان أخوه قد أخبره بأن العمل يكون أسهل حينما نتبع الإيقاع. وفى بعض الأحيان كنا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الضحك حينما يضيف جوفونين كلمات من عنده فى سياق الأغنية. وكانت هناك بعض الأغانى لجوفونين لا يسمح لجوهانس بالاستماع إليها.

وتسلق جوفانين بكل خفة كتلة من الجليد وبدأ لحنًا بطيئًا.

"هى جوجا جونتان بو..".

"كيرى كيرى بانكوم أووتا جو..".

الآن ترتفع الفئوس وتضرب على الإيقاع، كأنما أسدل على الحقيقة أستار النسيان. وأخيراً انشقت طبقة الجليد وظهر العشب غير المجمد. واستبدلت الفئوس بالعتلات، وبدأ الرجال فى نزع العشب..". **والآن**، شرعوا يعملون بهمة وحماسة فى مهمتهم الأخيرة وحفر الطَّفل السميك؛ وأصبحت المقبرة أكثر عمقا. ومن مخبئه، لم ير جوهانس سوى رءوس الرجال التى تتجاوز الحفرة، ثم تختفى بدورها؛ وأصبح التراب المتطاير إلى أعلى يشير وحده إلى أنهم لا يزالون يحفرون.

وأصبحت الحفرة معدّة. وبسط الجنود أيديهم إلى الرجال ليساعدوهم فى الخروج، **والآن** هم جالسون لاهثين بالقرب من مقبرتهم.

وقال ريجونين:

- يا له من عمل شاق! لأدخن سيجارة **الآن**.

وبادر الجنود بالبحث فى جيوبهم وأخرجوا منها علب السجائر وقدموها إلى السجناء، وجعل الجميع يدخنون فى صمت، وكل منهم يتطلع إلى الآخر. وهمّ الرجل ذو البندقية أن يقول شيئًا لكنه أكتفى بالتلويح بيده، وبدأ يدخن هو أيضا.

ولمح جوهانس نقاط السجائر المنيرة. وأصبح كل شيء الآن هادئًا حيث تشجع وهدأت حدة خوْفه. من المؤكد أنهم سرعان ما سيعودون جميعًا إلى محطة القطارات، هذه المقبرة ليست بالتأكيد سوى حفرة أخرى تضاف إلى حفر الأرض؟ وسمع جوهانس رئيس المجموعة يجدف بصوت خفيض.. فتبادل الجنود والسجناء النظر، وقال ريجونين:

- هذا دخان من نوع مشهور؛ هذا طيب بعد عمل قاسٍ. شكرًا.

وتحرك الجنود وقال أحدهم:

- لا تظنوا بنا شراً، ما كنا نرغب فى ذلك، لكنكم سمعتم الحكم. لعل القضاة لا يكونوا كذلك فى العالم الآخر ولعل أثقال موازينهم تكون غير أثقال الأرض. إذن، لا تظنوا بنا شرًا كثيرًا.

ومضت الدقائق وظلت السجاير مشعلة حتى النهاية. وبرد العرق فوق جباه الرجال، وانتفض القائد وأعطى أمرًا:

- السجناء فى صف أمام المقبرة.. فرقة التنفيذ!

الآن، جوهانس يرى بكل وضوح، فى نور مفاجئ. لن يكون هناك عفو. سيطلقون النار على فيل والآخرين. وأراد أن يخرج ويتوسل إلى القائد، يجرى لكى ينقذ فيل

الاخرين، لكنه لا يستطيع أن يتحرك ولا أن يصيح.. لا يستطيع إلا أن ينظر ويسمع ما يجرى.

وعلى نور القمر الذى يلمع الآن، رأى الرماة مصفوفين، والسجناء يرتعدون من الخوف. ولكن لا برودة. اللحظات الأخيرة أصبحت بصورة رهيبة قريبة، لا ترحم. أوه! يوم اخر! حفر مقبرة أخرى فى الأرض المتجمدة قبل الدخول فى الأبدية. إلهنا، ارحمنا! هبنا بضع دقائق أخرى!

وصاح القائد:

– قفوا. اصطفوا فى هدوء ... جماعة، استعد!

ولكن، مرة أخرى، ينقطع صف السجناء. فبعض جعلوا يخفون عيونهم وينكمشون كأنهم يخشون إطلاق النار، وبعض الآخر خاروا فوق الأرض وهم يئنون. فقط، ريجونين العجوز وقف معتدلاً ينظر إلى الرماة بهدوء. كذلك فيل وقف معتدلاً، لكنه أخفى وجهه بيديه.

وغضب القائد وصاح:

– ألا تستطيعون أن تجعلوهم يقفون لحظة فى هدوء؟ يا إلهى!

الأمر ليس سهلاً بالنسبة لنا نحن أيضا!

وشرع ريجونين يشد الجالسين على الأرض من ياقاتهم. وساعده فيل فى ذلك. وسألهم جوفونين:

– هل أغنية تملك أن تساعدكم ؟

وشرع فى الإنشاد. وانضم لصوته ريجونين القوى. وأثر فيهم الإيقاع، فاستأنفوا السير بخطوة موزونة. حتى الضعفاء انضموا ينشدون لحن التحدى:

كلا، لن يناله الشيطان، كلا، لن يغلبه.

لأن الذى فى السماء عنده التدبير.

وأصدر القائد أمراً، وارتفعت البنادق فى بطء وعلى مضض. أما جوهانس فكان لا يزال ينظر من مخبئه.. لا يستطيع أن يرفع إصبعه الصغير حتى ولو اتجهت البنادق صوبه بعيونها المستديرة. ومن جديد، استولت عليه فكرة: "أنا أعيش هذه اللحظة، الآن...".

وضغط غصن شجرة على ظهره، لكنه لا يستطيع أن يتحرك. يجب عليه فقط أن ينظر. وراح النشيد بإيقاعه البطيء الحزين يدوى من خلال المستنقع الكئيب. وأحذية السجناء ترتفع وتنخفض على الوزن ... والبنادق لا تتحرك. كثافة هذه اللحظة قصوى. ورفع القائد يده، وجعلت البنادق تنظر إلى السجناء بعيونها السوداء، عديمة الإحساس، فى حين يرمقها السجناء على لحن التحدى؛ يدندنون وهم محلك سر:

"سيرقص الصعاليك على أبواب السماء،

ويعزف الوجهاء على آلات الكمان".

– اضرب!

وتدفقت من أفواه البنادق سحابة من النيران.. ودوى إطلاق النار الجماعى فى موجات مكتومة فوق المستنقع، ودوّى وزمجر فوق التلال البعيدة وعاد إلى المستنقع كموجة على الشاطئ. ولكن جوهانس غاص فى اللا وعى. ثم عاد إلى رشده وقد خدره البرد، لكنه استطاع أن يزحف بصعوبة بعيداً عن كومة الجذوع. نهض ونظر إلى الموقع الذى كان به قبل لحظات قبر عميق.. الآن، أقاموا مكانه تلاً، ولا شىء يتحرك فى أى مكان. المستنقع والعالم اللذان كان القمر ينيرهما أصبحا خاليين صامتين.

رأى فى الجليد الأبيض الآثار التى خلفها الجنود عند رحيلهم، لكن آثار أخيه والآخرين ليست ظاهرة، والأخ الأكبر والآخرين تحت التل.

وصاح جوهانس وألقى بنفسه فوق التل، وحاول أن يحفر بأصابعه الأرض التى كانت قد بدأت تتجمد.

كانت سهرة حقيقية من سهرات مطلع الربيع. وتوالت سهرات أخرى ومباهج أخرى صارت سنوات وعشرات من السنوات؛ **لحظات كانت، ثم ولت ولحظات جديدة جاءت. ولكن الآن تلك اللحظات عادت.**

الأخ الأكبر والآخرون هنا. ريجونين يضغط على علبة كبريت فى يده. والأخ الأكبر يرتدى الحذاء الذى كان يرتفع وينخفض فى مسيرته نحو الموت، كذلك هو يرتدى جورباً جديداً صنعته له أمه المتوفاة.. أما هو، الأخ الأصغر، فهو الآن رجل عجوز، لكن الأخ الأكبر لا يزال فى العشرين من عمره.

وشعر جوهانس باضطراب. وتحسس وجهه وتطلع إلى يديه المتجعدتين. إنه رجل عجوز، لكن الأخ الأكبر شاب، لأن الزمن، بالنسبة له، لم يتقدم منذ اللحظة التى...

واضطر جوهانس إلى أن يغمض عينيه لكى يعود **إلى اللحظة الحاضرة**. كلا، لم يعد يعيش تلك الليلة من الربيع، ربيع الماضى. وكل ما فعله الأخ الأكبر هو أنه عاد من السرمدية، والآن الشمس تشرق، بعد ثلاثين عاماً، على وجهه.

إنهم يرقدون هنا، هادئين. وخيل لجوهانس أنهم سيبتسمون ويقولون له:

"اللحظات التى تمضى ليست لحظات، حتى أكثرها إيلاماً. الحزن والفرح، رعشة الانتصار، ومرارة الهزيمة، ليست سوى وهج السرمدية. السرمدية وحدها هى الحقيقية وهى وحدها التى تدوم..".

فصل الحب

تأليف: أوبرى هودس AUBREY HODES

من إسرائيل

لقد كلفنى ذلك وقتًا طويلاً، لكننى استطعت فى النهاية أن أتدرب على النهوض من النوم تماما فى الوقت الذى يكون فيه المنبه على وشك أن يوقظنى. ليس بالأمر الهين أن يضطر المرء جهازه العصبى ليصدر ردود فعل تبعًا لفصول السنة المختلفة.. الساعة الثالثة فى فصل اللبن، الساعة الرابعة فى شهور الصيف التى نقود فيها القطعان إلى المراعى، الساعة الخامسة فى أيام الخريف الأقصر طولاً. وفى النهاية، تحولت إلى نوع من المنبهات البشرية.

وصرّ الحذاء المرصّع بالمسامير فوق الخرسانة. يا لها من متعة أن يشعر المرء بأنه حى وذهنه صاف.. على الفور قفزت من فراشى بالضبط فى اللحظة التى كان المنبه يهم بإيقاظى، قائلاً:

– يا يعقوب! الساعة الرابعة!

وبسرعة، خلعت البيجامة، وخرجت عارياً فى ضوء القمر. وسألت:

– من فى الخدمة الآن؟

– شافيفا.

حينئذ عرفت أن فى انتظارى سلطانية من القهوة الثقيلة الساخنة، والخبز والحلوى؛ هذا بالإضافة إلى ابتسامة عينيها السمراوين اللتين تجعلاننى أرتعش من السعادة، لكن الوضع لا يكون كذلك دائمًا. من ذلك عندما تكون القائمة بالخدمة إحدى النساء العابسات المتكدرات اللائى لا يفكرن إلا فى همومهن الخاصة، وحينئذ لا ينتظر المرء منها حتى عبارة صباح الخير، ليبدأ بها يومه الجديد.

لكن "شافيفا" وأنا كنا فى تلك الفترة التى يطلق فيها الحب جناحيه، حينما يكون للنظرة وللحركة معنى مزدوج، ويمكن ترجمتها بألف طريقة. إن القرب منها يجعلنى أشعر بتيارات كهربائية تتخللنى، وانفعالات لذيذة تسرى فى أوصالى. وقلت لنفسى:

– إلى الأمام.

وطوّقت رقبتى بـ"الكوفية"، ذلك الشال العربى. وفى صمت تقدمت وسط الصخور حتى المقصف، واحة من النور وسط عالم نائم.

كانت شافيفا جالسة إلى منضدة كالملكة على عرشها. ويبدو أن السهر لم يرهقها بالمرة، بل على العكس كانت تبدو أكثر انتعاشًا وأكثر قوة أيضًا. كانت وهى تغطى رأسها بشال أزرق تصب سلطانية من القهوة ثم قالت:

– خذ، هذا لك. وهناك الخبز فى الطبق مع الحلوى. خذ ما تريد.

فقلت لها:

– أنت رائعة يا شافيفا.

ودون مناسبة ظاهرة، استطردتُ قائلاً:

– لماذا تكون القهوة دائمًا أفضل فى السلطانية؟

فأجابت:

– فى الحقيقة لا أدرى.

ثم صبت لى سلطانية أخرى بكل رقة وهدوء.

فقلت:

– غريب، حقًا. هل تعرفين يا شافيفا أنك نبات فريد؟ لا نعثر على مثلك بين عشرة آلاف نموذج "صابرا"(*) دون مثيل. أينما تمسك اليد لا تجد سوى رقة وعذوبة. شجرة عوسج دون أشواك.

فقالت:

– لا تبالغ!

ثم غابت فى الحجرة المجاورة.

وهززت كتفى. وأكلت آخر قطعة من الحلوى مع آخر قطرة من القهوة، وحملت المسدّس خوفًا من وجود عرب فى الناحية. وهو ما يحدث أحيانًا. وصعدت حتى حظيرة الخراف حيث يظل الضوء منيرًا طوال الليل لتخويف ابن آوى.

كان أفضل وقت للتزاوج.. فالكباش أكثر نشاطًا، والشياه أكثر رقة. ولم تكن حرارة الريح الجافة قد هبت بعد. كانت عمليات التزاوج منضبطة بعناية فائقة. فأفضل الكباش الأصلية مخصصة لأفضل الشياه، والهجين للهجين. وفى نهاية فصل اللبن، تتم جدولة جميع الشياه بعناية، طبقًا لما تدرّه من اللبن، وكفاءتها للتكاثر. كل واحدة عليها علامة تحدد الكبش الذى يخصّبها. وهكذا، فى كل صباح نأخذ كبشًا نجعل حول حوضه خرجًا أو قطعة من القماش على شكل حزام عفة، ثم نطلقه وسط القطيع. هذه العملية تحدد لنا الشياه الساخنة، فنفصلها عن غيرها لتركبها الكباش التى خصصت

(*) يهود الجيل الثانى الذين ولدوا فى فلسطين.

لها تبعا للجدول، وتظل الكباش بقية النهار محبوسة فى حظيرة قوية الجدران بعيداً عن الشياه. ونظل طوال النهار نسمع ثغاءها وصوت قرونها تقرع الحاجز المعدنى؛ وهى تحاول عبثًا أن تفر من حياة الرهبانية.

فى ذلك الصباح حان الدور على أفضل كبش بين كباشنا.. رأس رائع أسمر وجبهة سوداء أبنوسية، وجسم قوى، وقرنان ملتويان بصورة رائعة. كنت أمسكه بيدى وأنا أثبت الخرج حول حوضه. ودفعت الباب وتركته يخرج، وشعرت بأننى أشبه أحد مروّضى الثيران من الدرجة الثالثة.

وانطلق الكبش وقفز ونط أشبه بجواد حقيقى، وتوقف فجأة ورأسه مصوّب نحو الأرض. ثم شرع يدق الأرض بقدمه، هائجًا، ثم تشنج. ورفع رأسه الضخم بقرنيه فى تعبير ينم عن شهوانية وشره بالغين. وفتح شفتيه ليكشف عن أسنانه اللامعة على الرغم مما بها من سمرة بسبب ما أكل من حب وتبن، قبل قليل. كان منخراه يرتعشان. وقبض على شاة بقدميه الأماميتين وفى هذه اللحظة تحول إلى التجسيد الحقيقى للشهوة والشبق الحيوانى الخالص. وجعلت عيناه الحمراوان تدوران فى محجريهما، اختنقتا من فرط المتعة.

وسمعت ضحكة حقيقية من ورائى، فالتفت فإذا شافيفا تتطلع إلى المشهد بصورة تعبر عن صراحة كاملة واهتمام شديد فى الوقت نفسه.

وقلت فى نفسى: "ما أروعهم، يهود صابرا هؤلاء، دائما على سجيتهم فى جميع الأحوال.. إننى أغبطهم على بساطتهم. غبطة الحيوانات الأليفة للحيوانات البرية...".

– هل ستنامين؟

فقالت:

– ربما. لست أدرى. لقد طلب منى ميشيل أن أذهب لأسبح معه قليلاً.

– اسمعى، هل تأتين معى حيث سأذهب بعد الغداء؟ هناك الجو لطيف. ويوجد رمّان وعنب وتفاح... وسنكون وحدنا.

وتجرأت وأحطتها بذراعى، لكنها تخلصت منى ورمقتنى بنظرة قاسية وقالت:

– شجرة عوسج بـ"أشواك".

ثم انصرفت.

إلى الجحيم عزة نفس الصابْرا! إلى الجحيم جميع النساء! إلى الجحيم تحفظى الأنجلو ساكسونى! إلى الجحيم هذا النهوض فى الفجر! إلى الجحيم الخراف! إلى الجحيم... كل شىء.

ورجعت إلى كبشى، وأبعدته عن الشاة، وحبسته فى الحظيرة. وقلت فى نفسى بمرارة وأنا أرفع الخرج الذى كان لا يزال حول حوضه: "أنا مثلك أيها الذكر الخالد ذا السروال الذى يدارى عورته، ولكن فى حالتى، ليس مجرد حذر، إنها بشرة تخنقنى، مضغوطة كقفاز من الكاوتشوك، إنها بشرة ثانية صيغت من الضغوط ومن التقاليد الإنجليزية. وأنا لا أنفك أعمل ما لا ينبغى. دائما يخدعنى قصورى عن الفهم، وأعتبر الحياء بروداً، والحرارة عاطفة، وهى لا تفتأ تسخر منى، وراء جدار عينيها الخاليتين من التعبير".

وطرحت جرابى فوق ظهرى، وأخذت عصاى، وفتحت الحظيرة لطوفان الخراف المندفعة.

وفى غسق النهار المنعش الذى يشرق، لم يعد الراعى سوى جزء لا يتجزأ من القطيع. علاقته بالقطيع محددة بكل وضوح، أقرتها قرون من العادات والغرائز. فنحن بالتحديد نمثل الحامى، وهى خدمك. وقد أدى ذلك إلى هذه المساواة التى تنتج عن قوة عليا معترف بها. وتقدمت بضع خطوات إلى الأمام، أنا ألوّح بعصاى وأصيح من آن

لآخر: هرّ... هرّ... هرّرّرّ! دون ضوضاء عالية؛ بطبيعة الحال، لأن الصياح المرتفع يدل على الراعي المبتدئ. ونعاجي تسير ورائى، أربعات أو خمسات فى نظام حربى. وإذا لفتت نظرى للوراء رأيت أربعمئة زوج من العيون تحملق فىّ، منتبهة لأقل حركة تصدر عنى. هذه الحيوانات تثق ثقة كاملة فى راعيها. إذا سقتها إلى طريق لا تعرفه، فإنها تتوقف لحظة، ثم تتطلع إليك من تحت رموشها الطويلة، ثم تواصل السير بلا تردد كأنها تقول لك: " لا شك أنك تعرف ماذا تفعل.".

ذلك روتين كل يوم. كان القطيع يتبعنى على الطريق حتى الوادى. وعند المرعى تتقدم الخراف علىَّ مثل قصاصات الحشيش، وفكوكها فى حركة دائمة. بعد ذلك علينا أن نقدم لها الحب وإذا بصوت المضغ اللين الذى كان خلفية الصوت، منذ ساعات، يتحول إلى طقطقة جافة من اصطكاك الضروس بالحبوب مع فرقعات مفاجئة تشبه فرقعات الرشاشات. وكلما ارتفعت الشمس، تجمعت الحيوانات، حتى إن أكثرها جرأة، التى غامرت وشردت بعيداً خارج الدائرة، لا تبتعد الآن عن أخواتها. ثم، وبكل هدوء، حتى لا أتعبها أقودها إلى النبع وإلى ظل أشجار الخروب، فتشرب وتعبّ من الماء عبًا، قبل أن تنطرح فوق الأرض مشكلة دائرة بصورة غريزية ورءوسها نحو الداخل.

وتستمر القيلولة ساعتين، يمكن للمرء أن يتناول ما معه من سندوتشات يبلّعها ببعض قطوف من الفاكهة التى تتدلى فى متناول يده، عنب وتين ولوز. ولكن علينا أن نفرق بين الأشجار المرة وغيرها.

وهناك الماء أيضًا، الماء الذى يلهب الحلق من شدة برودته. بعد ذلك، نفكر فى استرداد القوة من أجل ما ينتظرنا من عمل بعد الظهر. ما من أحد يعرف كيف يستريح مثل الراعى.. ليس سكان المدن بكل تأكيد.. إن الراعى يعرف كيف يرقد بكل

راحة فى قلب حقل محروث، بين جذع شجرة وكومة تبن، والكوفية فوق وجهه، والجسم متمدد طلبًا للراحة.

حينئذ يتأمل الحقول الزمردية والبنفسجية، ويشعر كأن قلبه يشدو بالغناء بين الحيوانات، وعلى مرمى البصر جرار يقطع محراثه الحصاد.. وينام تحت شجرته، ولكن عينيه دائما نصف مفتوحة، لإبعاد ابن آوى أو غيره من الدخلاء.

كذلك، يمكن أن يقرأ، لكننى فى ذلك اليوم لم تكن بى أى رغبة فى القراءة. بل كنت أشعر بالنقمة على القدر؛ لذلك فقد نمت نومًا مضطربًا.

حتى اللحظة التى صحوت فيها تحت يديها المرتعشتين، يداها اللتان تداعبان جبينى، وركبتاها وكتفاها تمس ركبتى وكتفى.

إنها المتعة أن يصحو المرء من النوم، ويفتح عينيه للشمس، وأن يطرح عنه الهموم، وأن يكف عن الشعور بالخجل. وكانت شفتاى تعانق شفتيها.

كان القطيع ينظر بكل فضول إلى هذه الطرائق العجيبة، وينتفض للضوضاء، ويضرب الأرض بأقدامه.

- ما أجملك يا حبيبتى.. أنت رائعة.. فراشنا هو العشب الأخضر.

ثم استرحنا مليًا. وكانت النسمة التى تأتى من الوادى تهب على خدودنا. ولزمنا الصمت، سعيدين بالفرحة التى يهبها لنا اليقين.

كانت النسمة تداعب جسدينا وتجفف عرق الحب، وفجأة ضحكت شافيفا ضحكتها الجادة العميقة. وقالت:

- تعرف يا يعقوب:

ثم عادت إلى الضحك العالى، بحيث اضطرت إلى تحويل رأسها.

- لقـد فكرتنى، الآن بالذات، فكرتنى بـ.. هل تعـرف بماذا؟ بكبش الصـبـاح!

بالضبط، التعبير نفسه.

ومن جديد أطلقت شلالاً من الضحكات.

ودفنت وجهى المحمر خجلاً فى بشرتها النضيرة المنعشة.

مات الملك؟

تأليف: ف. أتيرتون V. ATHERTON

أستراليا

فى ذلك اليوم وصل جرانت متأخراً، دفع باب الفصل متضايقًا بسبب تأخره، مرهقًا من حرارة الجو ومكتئبًا بسبب الخبر الذى وصله أثناء الليل.

قال فى جفاء:

– قيام!

ونهض الأولاد فى جلبة مثل الحيوانات التى تطيع السوط. وقد لاحظ جرانت ذلك، وتساءل فى مرارة كيف تأتّى له أن يعلم الهجاء لزمرة من صغار الزنوج والمهجنين فى مركز لتربية الحيوانات فى الغابة.. "عمل لا طائل من ورائه، ليس له أى هدف".

وتطلع إليهم، حانقًا لابتسامتهم البلهاء، ولحكهم الأرض بأقدامهم العارية، ولصف الوجوه الثمانية الصغيرة السوداء والبيضاء والقهوة بالحليب، وجوه أبناء المراقب، وأولاد صاحب الدكان، و"أومى" من مخيم النهر و"روزا" ابنة الطباخ الإيطالى.

قال:

– قبل أن أبدأ اليوم، عندى لكم خبر سيئ جدا.

ثم لزم الصمت.

وظلت النظرات مسلطة عليه، على وجهه الطويل الحزين وعينيه المصابتين بقصر النظر خلف عدستين سميكتين. وقال فى نفسه والغيظ يأكل قلبه: "من الممكن أن يتزلزل العالم، ولا يتحرك هؤلاء الأطفال الملونون. مادامت الشمس تشرق، ومادام فى النهر سمك، وفى الغابة طرق تسلكها القطعان. كيف يمكن أن تتأثر هذه المخلوقات البدائية لخسارة قومية؟ بل لقد شك أن من الممكن أن يشعروا بشىء من الحزن.

– لقد مات الملك.

قالها جرانت بهدوء، وشعر بأن الانفعال يلهب عينيه.

– مليكنا العزيز... مات... أثناء نومه. سنقوم الآن بالوقوف دقيقتين حداداً، ونفكر فى جلالته قبل أن نبدأ الدرس.

كانت حرارة الجو خانقة. لم يكن هناك ما يعكر الصمت سوى نعيق بعض الغربان وراء المجزر. كانت القرية محمصة من الجفاف، وكانت تمثل تناقضات صارخة لمنظر يابانى من صخور بلون النحاس على سماء بنفسجية. ولم يكن جرانت قد ذاق النوم طوال الليل، فقد كانت ثمة أصوات أنين تصدر من مخيم النهر، نواح غير طبيعى ظل يسمع ساعات وساعات حتى بدأ كلب الحراسة يعوى تحت ضوء القمر الاستوائى.

ظل جرانت يتقلب فى فراشه، لاعنًا هذه الأصوات الليلية ومتمنيًا أن يجد نفسه فى منطقة متحضرة، إذا أصيب فيها المرء بالقلق وجد فى الشراب ما يغيبه عن الإدراك. ولما ظل يقظًا، فقد تذكر نفسه وهو طالب مرموق فى الجامعة، وانحلاله بسبب الشراب. كان يعلم أيضًا أن هناك عودة جديدة للإدمان تنتظره، كما يحدث دائمًا بعد عدة أشهر من العمل، وشعر بألم حاد خلف رأسه.. وهاج الأولاد، وضرب جرانت على المكتب؛ وقال بلهجة حادة:

سنبدأ حينما تتكرمون بالسكوت. سننتظر واقفين.

كان الأولاد يعرفون الروتين؛ فعم الصمت على الفور.

– اعلموا أن الملك كان والدنا، وأننا مثل أبنائه.. أريد منكم أن تفكروا فى ذلك.. أن تفكروا فى حظكم السعيد الذى جعلكم تحت حمايته.

ثم عاد إلى الصمت من جديد.. واشتد غيظه أشبه بعاصفة فى جو الحرارة التى لا ترحم، وبرود الأولاد، وعدم اهتمامهم. شعر بأن كلامه لا يصل إليهم. وعيل صبره. تمنى لو يصيح بهم قائلا: "كان رجلاً عظيماً. أنتم لا تقدرون الخسارة التى يسببها موته، أيها الأغبياء، ثم لماذا أقول لكم ذلك.. أنتم لن تفهموا ذلك حتى لو ظللت أكرره عليكم شهراً كاملاً، ماذا يهمكم الوفاء للتاج؟".

لم يكن جرانت يتمتع بفضيلة التسامح التى تضع الزيت فى تروس الحياة. لم يرث سوى فكرة مبالغ فيها عن قيمة تدريسه، مما كان يفقد هذا التدريس كل فرصة للنجاح.

ومرر منديلاً على قفاه وتحت ذقنه، ثم طواه مبللاً بالعرق. كان التلاميذ يراقبونه مندهشين من الثورة التى أصابته بسبب موت رجل بعيد عنهم، خارج نطاق عالمهم. وقال:

– رددوا معى: "لقد اختفى رجل عظيم، لن نرى له مثيلاً!".

وردد التلاميذ بلا همة وبعيون مندهشة. وفجأة، رفع جرانت يده لهم علامة السكوت.

– لماذا لا تردد مع الآخرين، يا "أومى"؟

ورفع الغلام رأسه الكث الشعر، ونظر بعينين مفزوعتين بدتا ضخمتين فى وجهه القاتم.

– أنا، تكلم، أستاذ.

– حسنا. ارفع رأسك! رددوا جميعاً.

وسقطت رأس "أومى" على صدره. كانت أسرته وهى من بلدة "أرنهم" قد اختلطت ببعض صيادى اللؤلؤ من جزر الشمال. قوم أحرار. لكن "أومى" لم يكن حراً. لقد تم اصطياده فى عالم البيض. وفى ذلك اليوم كان فريسة حزن شديد لا علاقة له بموت الملك. ذكرى أليمة كانت تشغل فكر هذا الغلام ابن الحادية عشرة؛ ذكرى مأساة وقعت ليلة أمس فى مخيم النهر، وكانت هذه الذكرى توحى إليه بنوع من التعاطف مع معلمه الذى يعذبه الحزن أيضًا، كان يريد من كل قلبه أن يواسى الرجل؛ بل لقد فكر فى طريقة لعمل ذلك حينما نبهه جرانت إلى النظام.

تسللت يده الصغيرة خفية فى جيبه، وهو الشىء الوحيد الذى كان يعجبه فى الزى الرسمى المفروض من المدرسة. كان يقبع فى جيبه سحلية صغيرة يسميها "عباس"، فنهضت السحلية مذعورة، وفرت هاربة من خلال أصابعه الصغيرة. ولما بلغت أعلى الجيب، توقفت متشبثة بالقماش، مخرجة لسانها البنفسجى.

وحاول أومى فى اهتياج أن يمسك بها، لكن السحلية فرت منه وسقطت على الدرج محدثة جلبة خفيفة مكتومة. وانطلقت على طول بروز المقعد ووصلت إلى يد "روزا" الممتلئة. وفى اللحظة التالية، قفزت فوق ذراعها واختفت داخل كمها.

وبدأت "روزا" تصيح، وجعلت تنتفض وهى تهز ثوبها، فوقعت، وأوقعت معها المقعد. فانحنى أومى عليها وتمكن من الإمساك بالسحلية.

مثل هذا الضجيج فى وقت غير مناسب، كان بالنسبة لجرانت النواة التى قصمت ظهر البعير، أو النقطة التى جعلت الكوب يفيض.

– اسكتى يا روزا. وأنت يا أومى، تعال هنا.

وتقدم الغلام، جاحظ العينين، شاحبًا من الخوف. وبذل جرانت جهداً لكى يتكلم فى هدوء.

- ماذا فعلت؟

- أنا... أمسك... سحلية.

ولزم الصمت. كيف يصرح عن نيته فى أن يهدى الحيوان الصغير لمعلمه لكى يسليّه ويروّح عنه، لأن أباه، الملك، مات. وهو حزين لذلك. وردد وهو يتلعثم.

- أنا... أمسك سحلية.

- نحن نفكر فى الملك، يا أومى، الذى فتح لكم أبواب المدرسة. الذى أعطاك الفرصة كالأطفال البيض، الذى أعطاك كل هذه الأشياء التى لم يكن آباؤك يمتلكونها بعد. ولا تريد مع ذلك أن تضيع دقيقتين فى التفكير فيه. يجب أن تشعر بالخجل. ابق هنا، أمامى.. ورد كلامى.. قله لجميع الفصل: "الملك كان أبًا لنا، أعطانى جميع الأشياء التى أمتلكها".. هيا، اثبت لنا أنك تستطيع أن تقول هذا كما يجب.

وظل أومى صامتًا مرتعدًا، لأن تلك كانت كلمات لا يستطيع أن يقولها. وراح وقلبه ينبض بسرعة يرمق الرجل خلف مكتبه، وفمه مطبق، ووجهه المتجمد شاحب من الغيظ. ثم حوّل الغلام عينيه وضغط قبضتيه وهو يفكر فى صدمة الليلة السابقة والرعب الذى أصابه الذى سيظل قلبه يحمل جرحه حتى آخر يوم فى حياته. واستطاع أن يتلعثم بهذه الجملة المهترئة:

- أنا لا أقول هذا، أستاذ.

وانقضت يد جرانت على المكتب، وزمجر قائلا:

- ستقول.

- أنا لا يقول(*).

(*) الطفل لا يجيد اللغة الفرنسية.

وتحطم شيء ما في عقل جرانت. ونهض المعلم كالزنبرك. وخرج من الفصل بخطوات واسعة. وبقى أومى وحيداً أمام صف التلاميذ المندهشين. وساقاه ترتعدان ووجهه بلا حياة. وشعر بالرعب يستولى عليه من شيء بدائى يهدده، ينتظر أن يحدث فى الفصل، مدركًا لهذا الشيء بكل غريزة الطفل البدائى، الموزع بين الخوف من الهرب وبين الرهبة فى البقاء حيث هو:

وعاد الرجل يحمل عصا بامبو.

لم يصرخ أومى كثيراً، بل تحمل بكل جَلَد سيل الضربات الحانقة، بينما الآخرون ينظرون بكل عيونهم، و "روزا" تنتحب باكية. كل الغيظ المكتوم فى قلب جرانت، والغضب من المهانة التى يشعر بها، وخيبات الأمل التى تراكمت عليه منذ شهور، كل ذلك تفجر فى ذراعه المجنونة. كان يحاول بلا أى تبصر أن يفرض إرادته على الغلام بالضربات، وينصرف كالحيوان الأعجم، مادامت كل محاولة أخرى باءت بالفشل. وسال العرق على وجهه، وانتشرت الرائحة النفاذة التى تتسرب من جلود الأولاد السود داخل الحجرة.

وأخيراً ألقى بالعصا فى أحد الأركان، وهو يسب ويلعن. ثم، وبكل عنف، دفع الغلام العاجز نحو الباب. وصاح قائلاً:

- اخرج من هنا. وأنتم أيضاً... اخرجوا جميعاً.

وانصرف تلاميذ الفصل فى هرج ومرج. وفى ظرف لحظات، كان المكان خاليًا. وتكدس التلاميذ فى الفناء، ورأوا أومى يبتعد وهو يعرج، حاملاً شق قميصه الممزق، وقبضته الصغيرة مضمومة فوق ردفه. لم يتوقف إلا حينما أصبح بعيداً عن الأنظار، وراء الصخور الصفراء التى تشرف على النهر.

وهناك، جلس فى ركن ظليل. وإذا بيده، التى كانت لا تزال منقبضة، تترك القميص لكى تجفف طرف أنفه المبلل. لكنه كان مازال مصراً على ألا يبكى، مع أن الضرب الذى تلقاه كان يؤلمه ويترك خطوطاً ملتهبة فى جسمه.

كان كلبه الأليف فى انتظاره على باب المدرسة. وجلس بجواره وقد تدلى لسانه. كان أومى يعتبر نفسه شقيقاً لجميع الحيوانات، فذلك كان طوطم قبيلة أمه. كان يحبها جميعاً وكانت هى صديقة له. أما اليوم فهو منصرف عن التفكير فيها لشعوره بالهوان والمذلة، لأنه ضُرب ظلماً وعدواناً. ومع كل فعليه أن يتغلب على هذه المأساة، لقد آلمه الرجل الأبيض لأنه هو أيضاً لديه ما يؤلمه. كانت تلك طريقته للتغلب عن ألمه؛ عن طريق عمل تضحية. لقد فكر أومى فى ذلك بكل اهتمام. يمكن أن يكون الدواء ناجعاً حينما يكون الألم فوق الطاقة.

وتحركت السحلية الصغيرة فى جيبه، فدس الغلام يده فى جيبه ليمسكها، لكنها فرت فوق الصخرة الملتهبة. وبينما كان يقبض عليها إذا بحكة ذيلها الحادة تخدش إبهامه.

وجاء رد فعل أومى مفاجئاً كرد فعل جرانت، وعنيفاً أيضاً وبلا رحمة. فقد التقط حجراً وسحق السحلية فى الصخرة، مزقها إرباً إرباً على السطح الخشن، حيث لم يبق منها شيء البتة. ثم انطلق باكياً ومن خلفه الكلب يحك فى هياج شديد التراب الملوث ببقايا السحلية.

وعاد أومى إلى المخيم الذى أصبح خالياً فى الناحية الأخرى من الوادى. فقد ىغير المكان منذ الصباح. لأن السود دائماً يتركون المكان الذى يموت فيه أحدهم، فراراً ىن الروح الطليقة التى يمكن أن تضرهم فى الصيد. كان أومى يفضل أن يعود إلى المعسكر القديم، فلعل أن تصادفه فيه روح الرجل الذى مات ليلة أمس بسبب لدغة ثعبان؛ أبوه هو الذى كان يحبه أكثر من حبه للآلهة وللملوك.

القنطـــــور

تأليف: أن كامبيون Anne Campion

من فرنسا

قبل معرفة سيندون، عشت قصة حب كبيرة، قذرة بعض الشىء، مقززة خاملة أشبه بمفرخة الشحاتين الهندوس. كان يسكب الدمع ببعض أبيات شعرية بقواف مختلفة التقطها من هنا وهناك، من نشيد الإنشاد، أو من خرافة من خرافات لافونتين، أو مقتبسة من حكمة من حكم الأقدمين.

كل شىء كان يبتسم لحبيبى.. الحب، الصحافة، الشهرة، الناشرون. وأنا لم أكن على مستوى عبقريته. وقد أسهمت مدخراتى كطالبة فى انطلاقه فى طريق الشهرة. والآن، وقد أصبحتُ على الحديدة، لم تعد كرامته تسمح بمثل هذا الانحطاط فأخبرنى بنيته فى قطع العلاقة بكل أنانية وسادية متصوراً أننى سألجأ إلى انتحار استعراضى، وهذا حتماً سيخدم شهرته ومجده الصاعد.

وقد شاركته قناعته ووجدت أن الطفيليّن من أمثالى يُتخذون قرابين فى سبيل تأليه الرب الشاب! كما كان يحدث عند الإغريق القدماء.

وتطلع فى المرآة المشروخة المزينة، المعلقة بعظمة فى المقهى الذى كنا نجلس فيه. ثم تركنا، الصحيفة وشخصى المتواضع، فوق المقعد المشمع. وقال وهو يتنبأ بما سيكون من أمرى بطريقة جنائزية:

- أنت تعرفين ما بقى لك عمله.

وتطلعت إليه وهو ينصرف، وأنا محطمة القلب، ومعدتى كالبوتقة، كما هى العادة فى مثل حالات الفراق الشهيرة.

وأمضيت ساعة أفكر فى طريقة للخلاص من همى وكربى. وجعلت أحلل الوسائل المختلفة غير أن غريزة المحافظة على النفس كانت تفند بالحجج والبراهين كل وسيلة. كان الانتحار احتمالاً كبيراً ومغرياً للباقى على الحياة الذى سينسب إليه السبب، لكنه سيعود بالوبال على من يهمه الأمر وهو أنا. غير أن صاحبة البيت، قطعت عنى الغاز لتأخرى عن دفع الإيجار، إذن فلن أستطيع أن أنتحر عندها. وهناك نهر السين وهو يرحب بالكثيرين غيرى من المكروبين. ولكننى إذا كنت أشعر بالتحمس للموت، فإننى لا أشعر بهذا التحمس للماء البارد. وهناك القطارات ذات الأحمال الثقيلة وهى تستقبل تحت عجلاتها الكثيرين من البائسين من الحياة. ولكن التشويه الذى سيصيب جثتى، جعلنى أحجم عن هذه الوسيلة، خاصة أن حبيبى السابق سيرفض الاعتراف بضحية يصعب عليه التعرف على هويتها.

ومع مرور الوقت وتبخر رغبتى فى الحياة، فكرت فى أن أنضم إلى النجوم الجديدة المبتدئة فى مجال الفن، أو أن أجد السلوى فى أحضان أفضل أصدقائه!

ومع الأسف، صدمت رغباتى بالواقع الأليم. فالمنتجون الذين لديهم فائض كبير من الوجوه الجديدة، لن يترددوا فى رفضى بسبب قصر قامتى وأنفى. أما بخصوص أفضل الأصدقاء، فقد كانا اثنين هما توءم من الناحية الجسدية، مرتبطين ببعض مثل أصابع أيديهما.

كانت الصحيفة اليومية هى التى قدمت لى طوق النجاة... إعلان صغير يختبئ بين طلب عمل كمربية لأطفال رضع (٦٥٠٠ فرنك شهرياً) وعرض دراجة بخارية للبيع. كان الإعلان يقول: "شيندون يطلب فتاة فرنسية لرعاية طفل".

وفى الحال، بدا لى أن النفى هو مشتق لطيف من مشتقات الانتحار. كان "شيندون" مقيمًا فى أيرلندا، فكتبت إليه على الفور برغبتى الشديدة فى التعرف على بلده. وللوهلة الأولى كنت سأفضل الطلب المغرى بالزواج من لورد، واثق من نفسه ومن دخله، يهدى لى أرضًا للصيد فى اسكتلندا، وشاليه فوق منحدرات أرلبيرج، وفيللا فى سان تروبيز، مع شاطئ خصوصى ويخت يرسو فى هدوء فى البحر. ولكن من الوهلة الثانية، كان إعلان "شيندون" طوق نجاة لطالبة الانتحار.

وبعد قليل، بدأت مراسلة بينى وبين شيندون. وقمت بجمع معلومات حول جغرافية أيرلندا الشمالية التى وصلتنى منها رسائل تهنئنى بأننى وضعت يدى على أحد أفراد أسرة شيندون فى أيرلندا الذى كان يتكلم الإنجليزية بطلاقة، خاصة أننى حاصلة على الليسانس فى اللغة الإنجليزية.

ومن ناحية أخرى، حذرنى بعض الأصدقاء من أمّة مولعة بالخرافات والأساطير وخاضت حربًا ضد إنجلترا. وحينما خاب ظن حبيبى السابق حينما وجدنى مازلت على قيد الحياة، حاول أن يعيد العلاقات القديمة.

وكان رحيلى إلى أيرلندا. ولم يكن شيندون قد حدد جنسه ولا عدد أبنائه. لكنه أرسل لى شيكًا سخيًا لرحلة بالدرجة الأولى مع خدمة خاصة.

وأرسلت برقية بموعد وصولى وأبحرت إلى إنجلترا، وفى أثناء الرحلة حاولت أن أطرد من فكرى باريس وتفاهاتها، وأن أكرس نفسى للحياة الأسرية مع الأيرلندى شيندون.

وعلى ظهر السفينة كدت أجن، بسبب عدم فهم البحارة الذين كانوا يتحدثون لغة هى خليط من اللهجة الصلتية متبلة برطانة عالمية، الأمر الذى لم يكن يساعد فى تهدئة الآلام المبرحة التى كنت أشعر بها فى بطنى.

وفى دبلن، وأنا فى حالة يرثى لها، وقد تخففت من حقيبتى، اكتشفت قطاراً محطم المقاعد أخذ راحته لكى يفرجنى على موارد بلد يحقق إنتاجًا غزيراً من الصوف والقنب

والخراف اللطيفة، وفيه الكثير من القرى الكئيبة التى ترجع إلى ما قبل التاريخ، والتلال التى تركتها الرياح صلدة. وكلما اتجهنا شمالاً لا يتغير المنظر، حيث يظن المرء أنه فى متاهة أو أصيب باضطرابات بصرية!

وكان شيندون قد أرسل لى رسمًا تخطيطيًا، واسم المحطة التى يجب أن أنزل عندها، وهى فى أقصى شمال الشمال الأيرلندى؛ حيث أصابنى الدوار.

... وأربعة أيام تأخير.

ومع ذلك، فقد كان ثمة مخلوق فى انتظارى. وعوضًا عن لغة الكلام، كان شديد الذكاء حيث عرف أن الإنسانة الوحيدة فى المحطة، المحطمة، المنهكة، الشعثاء الشعر، بلا أهل، وبلا وطن، التى كانت تنتظر على المحطة، هى... "فتاة فرنسية لرعاية أطفال".

كان هذا المخلوق يرتدى صدرة بحرملة من نوع العباءة كالتى كان يستعملها فى بعض الأحيان الرعاة الجبليون عندنا، وكانت الصدرة المذكورة تنسدل على حذائه الضخم، وتحت القلنسوة وجه جامد لا يدل على شىء. وكله على بعضه يشبه قمعًا أو زجاجة تعلو فلينة.

وهذا المخلوق لم يقل شيئًا وحمل حقيبتى الباقية على قيد الحياة، وألقاها على ظهر عربة يجرها بغل، وطرح منديلاً مربعات على ساقى. ولم يفتح فمه طوال المسافة التى لا نهاية لها، حيث جعلت المركبة تترنح طوال طريق تحت الإنشاء؛ هذا إن لم يكن خارج الطريق.

وتوقف المخلوق مرة أخرى أمام البحر، وسبقنى إلى باخرة لم تكن تنتظر غيرنا. كان الليل حالكًا، وأكثر منه كان عقلى المشتت الذى ظل يرتطم بجدران الجمجمة. كنت قد فقدت الإحساس بالزمن وجعلت أترنح داخل الكابينة على إيقاع الباخرة وأقسم أغلظ الأيمان ألا أقبل عملاً فى أيرلندا لرعاية أطفال شيندون.

وبعد ساعات وساعات هبطنا على جزيرة بدائية تأتيها الرياح من جهاتها الأربع فتلهب الشجر وتثير الرمال. لم أشعر بمثل هذا البرد فى حياتى.

ولم نكن إلا فى شهر سبتمبر.

وتمتم أحد الرجال قائلاً: إنها رحلتهم الأخيرة، ودون أن يضيع الوقت، نزع الهلب الذى كان يحجز الباخرة فى الميناء ليستأنف رحلة العودة.

كنت سجينة فى جزيرة شيندون.

وطوال الشتاء لم أعرف من هو شيندون. لم يكن بالجزيرة سوى دستة من الأطفال، وجوههم طويلة، كانوا يتكلمون بأدب، ولا يعملون إلا ما تمليه عليهم رءوسهم، وليس لديهم أى رغبة فى تعلم اللغة الفرنسية.

وحينما غادرنا الميناء، تابعت المخلوق فى طريق مشقوق بين أشجار الصنوبر دون أن يتكرم بالالتفات نحوى. ووصلنا المنزل وهو قصر طويل مفروش بحشيشة البحر مهيأ لمواجهة أى تغيرات فى الجو. وكان أولاد شيندون قد أوقدوا ناراً فى غرفتى. فشكرتهم كثيراً. وقال أحدهم وهو ينحنى احتراماً:

– لقد علمنا أنك لا يمكن أن تقيمى هنا دون نار! وسيأتى أحدنا كل صباح لكى يشعلها.

كنت أتناول الوجبات وحدى. كانوا يأتوننى فى حجرتى بصينية عليها الكثير من اللحم والحساء والخضار وأحياناً السردين بالزيت. وكان أطفال شيندون يشاهدوننى بفضول وأنا آكل.

ولما لم يكن لدى شىء أفضل أعمله، فقد كنت آكل.

كان المخلوق يشغل المطبخ دائماً ويمنعنى من دخوله. وفى المساء كنت أجلس إلى نافذة غرفتى التى كانوا يغلقونها بالمفتاح. وفى بعض الأحيان كان يخيل لى أننى

أستمع إلى أصوات غريبة. مثل صهيل الجياد المتواصل والعدو، عدو مجموعة تمتطى صهوة الجياد، وكان ذلك يبدو مستحيلاً فى تلك الساعة التى يكون فيها أولاد شيندون نائمين، وكذلك الجياد الصغيرة التى كانوا يغلقون عليها الحظائر.

لم أكن أدرى طبيعة عملى. فلا أحد هنا يحتاج لى.

كان المخلوق يوقظ الجميع منذ الصباح الباكر.. الأطفال والجياد قبل أن أنهض أنا من النوم. وبعد ذلك يبلبطون فى مياه الجزيرة المتجمدة.

وفى نهاية الشهر، وجدت تحت بابى الأجر المتفق عليه مع شيندون. ولم أستعمله فى أى شىء. فقد كنا وحدنا فى الجزيرة وكان أولاد شيندون يرتدون ملابسهم بلا عناية على طريقة الأرستقراطيين المهملين، ولم أكن أستطيع التمييز بين الذكر والأنثى.

لقد ضقت بهذه الحياة المملة، وزاد وزنى وسمن جسمى، حتى أصبحت كالخنزير الصغير، غير أن الحياة فى الجو البارد بيضت بشرتى.

وذات صباح ربيعى، جاءنى أولاد شيندون فى فراشى لكى نذهب لاستقبال شيندون فى الباخرة.

بعضهم كان يقول: "أبونا" وبعض الآخر يقولون "إشبيننا". لا تهم التفصيلات. المهم أن شيندون وصل، وقد أثار ذلك جواً من البهجة.

كان المخلوق يسير وراءه على بعد خطوات كالخادم المطيع. وكان يعيد الهدوء والنظام بالضرب بالسوط حينما يضرب الأطفال الأرض بأرجلهم تعبيراً عن نفاد صبرهم.

هل كان شيندون يرجع فى موعد محدد، وإلا فكيف بلغهم نبأ عودته؟

كان البحر هادئًا، وقد كان بالأمس ثائرًا. وكانت الباخرة تتمايل بين المصباحين. وكما حدث يوم وصولى، كان البحار على عجلة من أمره ليبدأ رحلة العودة. وفى البداية هممت بأن أسافر معه، ولكن، حينما قفز شيندون على رصيف الميناء، شعرت برغبة شديدة فى البقاء إلى جواره. لم يكن حبيبى السابق سوى صورة مزرية للرجل الذى كنت أراه أمامى.

كان قد صحب معه طفلين، فاستقبلهما الآخرون على الفور بالترحيب. وما كادوا ينتهون من تحية الرجل حتى انصرفوا إلى الحقائب يتنافسون على حملها. أما المخلوق؛ فكان يجيب بأصوات تناسب المعنى عن أسئلة سيده الذى كان يتحدث لغة لا أفهم منها شيئًا. وأخيرًا اتجه نحوى ومد يده لمصافحتى قائلاً:

– شيندون، يسعدنى أن أتعرف عليك؟ هل أنت مسرورة هنا؟ أظن أن فصل الشتاء لم يطل كثيرًا؟

كان يتحدث ببطء، حيث كان يحاول اختيار الكلمة المناسبة. وجعلت أشجعه على الكلام، وشكرته لأنه كان يتحدث بالفرنسية.

– سأتحدث بالفرنسية دائما ما دام ذلك يسرك.. ولكن علينا ألا ننسى الإنجليزية، لأنك، حسب معلوماتى، كتبت لى بأنك تحضرين لشهادة الليسانس.

اللعنة على الليسانس! يمكنه أن يتحدث كما يريد، حتى باللغة السنسكريتية لو كان فى ذلك ما يسره. فسأستطيع أن أفهمه.

وحاولت معرفة فترة إقامته فى الجزيرة فغشيت وجهه سحابة قاتمة كأنما يخشى النساء الفضوليات، ثم قال مراوغًا:

– لا أدرى. فذلك يرتبط بأمور كثيرة.

وانتظمت حياتى بصورة مختلفة مع عودة شيندون. لم أدر أين كان الأطفال يتناولون طعامهم، لكننى كنت آكل أمامه. وحاولت أن أعبر له عن مخاوفى. فكان يطمئننى. ولم أكن أريد أكثر من ذلك.

لم أقابل فى حياتى رجلاً مثله. كان هو أيضًا مثل الأطفال وجهه طويل، وملامحه دقيقة وحدقتاه واسعتان وفى مجموعه كان جذابًا.

واختفى المتبل من على مائدة الطعام. كان المخلوق مواظبًا على تغيير ألوان الطعام. غير أن سيده كانت شهيته للطعام ضعيفة، كان يكتفى بالسلاطة والجزر المبشور والبطاطس والخضار المسلوق، وكان يشرب أكوابًا كبيرة من الماء البارد، ويقضم قطعًا من السكر يحملها وهو يضحك على راحة يده.

كان الربيع فى الجزيرة شيئًا رائعًا. الأشجار مزهرة والأرض مكسوة ببساط أخضر. كنت فى حالة عاطفية رومانسية.

وكنت أنا وشيندون نقوم فى أثناء النهار بنزهات وسط أشجار الصنوبر. وكان لطيفًا معى، يسألنى عن حياتى، وعن ميولى، وكان قليل الكلام عن نفسه، وحينما يحل المساء كان ينسحب إلى مكتبه حيث، كما كان يقول، لديه أعمال كثيرة.

كان الأولاد يمرون بعيداً أشبه بالأشباح على صهوة الجياد. وكنت لا أراهم كثيراً، وكان المخلوق يغلق باب غرفتى بالمفتاح.

وقد شكوت ذلك إلى شيندون.

- هذا شىء غير معقول. هل تتصورون أن أحداً يمكن أن يقوم باختطافى؟

فأجابنى بطريقة غامضة:

- من يدرى؟

ثم أردف بابتسامة رقيقة:

– أنا لا أريد أن أفقدك. قد يكون فى ذلك مبالغة فى الحرص، لكن كون الباب مغلقًا عليك، هذا يطمئننى للغاية!

وتأثرت للعناية التى يولينى إياها.

– ولكن إذا اشتعل الحريق فى البيت فستلتهمنى النار.

فأجاب حازمًا:

– لا تخشى شيئًا.

الحقيقة أننى كنت لا أخش شيئًا بجوار شيندون. وتركت أمرى لله. وفى شهر مايو طلب يدى.

– للأسف أنا مضطر للرحيل مرة أخرى. هل لديك الشجاعة لتعيشى هنا عامًا آخر؟

وتوسلت إليه أن يصحبنى معه. فرفض رفضًا باتًا.

– سنرى فى العام المقبل، الأمر سيتعلق كثيرًا بك أنت! أما هذا العام فقد انتهى الأمر.

كان رقيقًا وحبوبًا، لكن مع حزم يحير.

– لا تستسلمى لعواطفك وعواطفى. أنت لك مطلق الحرية. حكمى عقلك. سأتزوجك وتبقين هنا؛ أو نغادر الجزيرة معًا وأتركك فى اليابسة ولا نلتقى أبدًا.

لا مجال للمعارضة. وقررت البقاء.

وبعد أيام جاء رجل دين ملتح لكى يعقد قراننا فى القاعة السفلية. ولم أفهم منه كلمة واحدة. غير أن شيندون طمأننى وهمس لى وهو يبتسم:

– اللغة الغيلية، لغة شمال اسكتلندا. هذه هى التقاليد.

ولم أجرؤ على أن أسأله إذا كان زواجنا سيكون سارياً فى فرنسا، ومددت له يدى بكل ثقة، فزينها بدبلة من الماس.

استغرق الحفل وقتًا طويلاً. وكان الأطفال يلهون بخشاخيش أحضرها لهم شيندون من الرحلة.

ولم يغير الزواج من عاداتنا. كنت مجنونة من السعادة. وكان شيندون يعمل حتى ساعة متأخرة فى مكتبه ويطلب منى أن أنتظره فى الفراش.

وطلبت منه أن أنتظره خارج الحجرة ولكنه أصر على رأيه. وكان النوم يغلبنى فأستسلم له. ولا أدرى متى كان يجىء بالضبط، وكنا نثرثر قليلاً ثم ننام.

وجاءت الرغبة فى التقيؤ والغثيان لتقطع شهر العسل. فقد كنت أنتظر مولوداً. ولم يخف شيندون سعادته. لكنه تحدث عن الرحيل:

- لقد أجلت سفرى أكثر من اللازم. لا تغضبى. أنا أحبك. فلا تتركى عندى ذكرى زوجة تبكى! هيا، ابتسمى. وغداً ستوصليننى إلى الباخرة.

- ولكن متى ستعود؟

- حينما تمتلئ الحقول بزهور النرجس.

- ألن تكون هنا عند ولادة الطفل؟

فابتسم وأكد أنه مهما حدث فسيكون هنا بعد أحد عشر شهراً.

وعلى رصيف الميناء بكيت بغزارة. وناشدنى أن أقفل على نفسى الحجرة بالمفتاح.

- ستحصلين منى على كل ما تريدين، لكننى أناشدك بألا تخرجى من حجرتك مساءً.

وضمنى إلى صدره، وقفز إلى الباخرة التى ابتعدت به على وجه السرعة.

وأعادنى الأولاد إلى المنزل، وراحوا يسلوننى ويحاولون تبديد حزنى بكل الوسائل. وكان المخلوق يحمل إلىّ الطعام الفاخر بكل رقة وأدب.

وعلى الرغم من آلامى، مرّ الصيف سريعًا، ثم أقبل الخريف. وفى الشتاء كنت محل عناية الطائفة، لم أكن أرغب إلا فى شىء واحد، وهو أن أظل متكورة فى ركن المدفأة، وسواء كان الجو ممطرًا أو تهب الرياح، فقد كان الأولاد يضطروننى إلى القيام بنزهات فى الأراضى الجرداء.

وقتلاً للوقت، طلبت منهم صوفًا لكى أغزل قماطًا للمولود. وقد تطلع الأولاد إلىّ دون أن يفهموا شيئًا، لكنهم عرفوا من المخلوق. وعادوا حائرين بدعوى أن البيت فيه الكثير والكثير من الملابس حيث إن المولود لن يكون فى حاجة إلى شىء.

ومع ذلك، فقد وجدت من المنطق تجهيز سرير مهد، وإعداد أشياء صغيرة كثيرة ضرورية فى مثل هذه الحالات. ولكن، لما كانت خبرتى فى هذا الشأن قليلة، فلم أحاول أن ألحّ عليهم.

كنت أعد الأيام فى التقويم. وكان الربيع يقترب. وكنت قد أصبحت ضخمة ثقيلة الوزن، وكذلك شعرت بالقلق. ثم عاد شيندون وكان كما توقعت باسمًا قويًا لطيفًا.

– أرأيت؟ لقد أوفيت بالوعد، وعدت قبل الوضع. هيا، لم يبق إلا أيام.

كان واثقًا من نفسه، حيث إننى نسيت شهرىْ التأخير. وفى كل مساء، كان يحيطنى بذراعيه بطريقة أخوية، ويغلق الباب دونى، وينزل إلى مكتبه ليعمل طوال الليل.

وفى بعض الأحيان كان ينظر إلىَّ بعينين قلقتين. وذات مساء وفى اللحظة التى كان يهم فيها بالانصراف، سمع صهيل جواد تحت النافذة فقال لى:

– لحظة، سأذهب لأرى ما هناك.

وانتظرت طويلا. لم تكن بى رغبة فى النوم. وقصرت شمعتى وتضاءلت، ثم لم تعد سوى نقطة من الشمع يتراقص فيها لهب أصفر ثم انطفأت تماماً.

وناديت شيندون وذهبت نحو الباب... وكان شيندون قد تركه مفتوحا بسبب عجلته. ومرت بخاطرى ذكرى غامضة حينما قال لى: "أنا أناشدك ألا تخرجى ليلاً من حجرتك!".

وحينئذ قلت له: "لا تخف يا حبيبى، فسآخذ حذرى".

لم يكن هناك نور فى المكتب. كان هناك فقط مصباح فى الدهليز. وكان الباب مفتوحًا على مصراعيه فى الظلام.

وتذكرت صهيل الجياد. لا شك أن شيندون أسرع إلى الحظيرة. وشعرت برغبة عارمة فى رؤيته على الفور، على الفور شعرت بحاجة ملحة فى وجوده.

وأخذت المصباح وذهبت إلى مرابط الجياد. واعترضتنى نسمة خفيفة تدعونى إلى العودة إلى البيت. لكننى تقدمت صماء عن زمجرة البحر القريب، وعدو الجياد المنطلقة فى الظلام... فأنا لم أكن أحلم.

ولكى أتأكد، دفعت باب الحظيرة، واستعرضت بالمصباح جميع جوانبها، فوجدت جميع الخانات خالية ... كلا، كلا، ليست خالية تماماً.

وتحولت عيناى من الرعب، وقد أصابنى الذعر، إذ اكتشفت على الجدران، فوق معالف معلقة رءوس جياد حية مقطوعة عند الرقبة وآذانًا منتصبة ومناخر مرتعدة، وعيونًا جاحظة تتفرسنى وهى حانقة... وأسفل من ذلك شاهدت، ويا لهول ما شاهدت، الأجزاء السفلية من أولاد شيندون جالسة فوق مقاعد فى انتظار عودة القناطير والدماء تنزف منها... أجزاء سفلية من أبناء شيندون بنفس عدد رءوس الجياد المقطوعة... وأخيراً، وفى آخر مربط شاهدت رأس جواد بالغ، جعلت عيناه ترمقنى وهى فى حالة يأس وحزن. لقد فقدت الوعى. ولم أر شيندون بعد ذلك.

بعد ذلك بزمن طويل، أفقت فوجدتنى فى مستشفى بباريس. وكان الصيف قد تقدم كثيراً . وعلمت أننى أصبت بجلطة فى المخ، ثم بفقدان الذاكرة. وشيئًا فشيئًا استعدت ذاكرتى وتذكرت... ولكن هل كان ذلك ذكرى فعلاً، أم شريحة من الكوابيس التى رأيتها فى أثناء مرضى؟

وشعرت بالقلق بسبب مصروفات المستشفى، غير أن الممرضة قالت لى:

– تم تسديد جميع الحسابات ... الشخص الذى جاء بك هنا ترك لك هذا!

وسلمتنى شيكًا باسمى وخاتمًا "سوليتير" جميلاً لبسته فى إصبعى.

– وهناك أيضًا هذه الرسالة.

وأسرعت بفض المظروف فوجدت بداخله بطاقة زيارة تقول: "عزائى الخالص. شيندون".

كما يحدث عند تشييع الجنازات.

– هل هذا كل شىء؟

– أعتقد. كلا، هذا الشخص اتصل بالهاتف مراراً ليطمئن عليك، حتى اليوم الذى عدت فيه إلى حالتك الطبيعية. ومنذ ذلك الوقت لم يتصل.

وظللت فترة فى خمول، آكل وأشرب وأنام، وعاودنى الكابوس. وذات مساء، سألت الممرضة، هل أنجبت طفلاً؟

فرمقتنى بعينها وهى مندهشة، معتقدة أننى مازلت أعانى من الجلطة، ولم تجب عن سؤالى. ثم دخلت فى دور النقاهة.

وبعد فترة طويلة قابلت حبيبى السابق الذى خبا نجمه فى أفق نجوم الفن. لم يجد فى الجماهير من يقدر موهبته ولا فى النقاد. وجردنى من الخاتم الماس ومن ملابسى الراقية، وعاد لحبه القديم. وقال لى:

- أرأيت ما حدث لى؟

وفتح يديه الخاليتين على راحتين قذرتين. وأردف قائلا:

- كل ذلك بسببك، لأنك تركتنى.

وحين لمح فى عينى وميضًا من الشفقة، اعتقد أنه استردنى، وبدأ يلومنى لأننى سخرت منه واختلقت قصة شيندون. ثم أخرج من جيبه مظروفين أرجعهما إليه البريد لعدم الاستدلال على المرسل إليه. مع أن العنوان هو العنوان الذى سبق أن كاتبت عليه شيندون.

- شيندون! دعك من هذا! أولاً شـــيندون اســـلاندا هذا لا وجـــود لـه. وقد قتلت الموضـــوع بحثًا ولم أجد لـه أثرًا. أنت تتمتعين بخيـال خصـب. لـم أكن أظنك على هذا القدر من الخيـال.. هل هو الجـواد الشبح الذى أدخل ذلك فى رأسك؟

جـ..واد...شـ..بح!

- ماذا؟ ألا تذهبين إلى حلبة سباق الخيول؟ ألا تعرفين شيندون الجواد الأصيل الذى يحقق المعجزات.

فسألته وقد ضقت بتعليقاته:

- ماذا أيضًا؟

- هل الموضوع يهمك؟ هذا كل ما أعرفه يا فتاتى.

وكنت قد انصرفت عن الاستماع إليه. فليدبّر حاله بدونى. أريد أن أكون وحدى، لكى أفكر. لكى أتذكر.

وجعلت أبحث فى صحف السباق بحثًا محمومًا. وفى ذلك اليوم، سحبت من البنك كل مدخراتى، وذهبت إلى حلبة السباق. ولم أهتم بأمر الغد وما يمكن أن يحدث لى. لم يكن يشغلنى سوى شىء واحد هو شيندون.

وسألت عن الخيول وأرقامها وصفاتها، وتذكرت كل شىء... كل ما وقع لى.. وكنت أرتعد من الخوف، وظهرت الخيول.

ومكثت على حافة الحلبة. وجعل المنادون يعددون أسماء الخيول وأصولها: هذا إسبانى، وهذا عربى، وهذا فارسى، وهذا أيرلندى.

وتراجعت خطوة وأنا أكاد أسقط... فقد لمحت شيندون... بالضبط نسخة من شيندون الذى أعرفه حيث إننى شعرت بالاختناق. كان يضرب الأرض بأقدامه، مما أثار خوف الصبى الذى يمسك بلجامه، فابتعد عنه ليتجنب ثورته.

وسمعت بعض الرواد من حولى يقولون:

- ماذا أصاب شيندون؟

وهدأ الجواد حينما اقترب منى، وجمد فى مكانه، رافضًا أن يتقدم، مما أعاق تقدم الجياد الأخرى. ورأيت عينيه حزينتين، مليئتين بالعتاب. وبكل حياء ورقة، وضعت يدى على رأسه، وهممت أن أعطيه قطعة سكر، حينما توقف الصبى.

***

طائر السعـــد

تأليـف: ديسبينا ديتزورتزيس Despina Detzortzis

من اليونان

ضـوء سـاطع فى الممـر. ظل سـاطـعًا طـوال الليل، وطوال الليل كـان الممـر خـاليًا تمامًـا. وفى الجـهـة الأخـرى، وخلف باب مـدهون باللون الأبيض، يوجـد الدهليـز المربع غارقًا فى الظلام، وثمة باب آخر يفضى إلى الحديقة. الليل شديد الرطوبة. والشجيرات الغارقة فى النعاس تنشر أريجًا من أوراقها المختلفة.

كل ذلك لم ألحظه إلا فـيـمـا بـعـد. هذه الليلة – ليلتى الأولى– لا أعـرف من هذا البيت سوى ممر لا نـهاية لـه يسطع فيه ضوء يصل ضـعيفًا من خـلال الزجاج، ليضىء الحـجرة التى أرقد فيـها. وأشـعر على وجنتيّ بمس الأغطيـة الصـوفيـة الخشنة. الضـوء صاف رائق.

شخص ما يستعد لقضاء الليل بجوار فراشى، وجاءنى صوت يقول:

– سيكون كل شىء على ما يرام.. لا تقلقى.. فليس الجو باردًا.

وسـمـعت حفيف ثوب، وطوال الليل، ظللت أشـعـر بوجود هذا الجسم الذى يتلفت ويتحرك فى وضـع غير مريح.

أما أنا فجامدة لا أتحرك. رأسى مسند فوق بعض الوسائد. لا أفكر فى شىء؛ لا أرغب فى شىء. كل ما أرجوه هو أن تمضى الساعات بسرعة وأن يتقلص الزمن الذى يفصل بين الفجر وبين أصيل اليوم التالى، وسائر الأيام المقبلة. لا أفكر فى شىء، وأنا جامدة أشعر بالساعات تمضى ببطء شديد. وأنا لا أشعر بمضيها إلا من خلال تغيير الأشياء التى تحيط بى، كأن نفساً غير محسوس يمسها وهو عابر.

ربما أكون قد نمت لحظة. من الباب المغلق يتسلل طيف أبيض إلى الحجرة حتى فراشى، ويضع فوق جبهتى يداً نديّة. وتمتم الطيف يقول:

- الليل طويل. والساعات أحياناً تشرد، فتنسى أن تمضى فى هذه الحجرات الصامتة. سأمنحك بضع ساعات من النوم؛ سيكون الليل أقصر بالنسبة لك.

ونمت.

مضى منتصف الليل منذ فترة طويلة.. لم آت أى حركة منذ ساعات. رأسى فوق الوسائد. فى الليلة السابقة، عاش جسمى المهمل تحت الأغطية دون ضغط، وكان يختار على هواه وضعه.. كم من الزمن يلزم لكى يتمكن الجسم من الاسترخاء وينسى وجوده.

هدوء.. هدوء.

الشخص الذى قضى الليل فوق كرسى موسد بجوارى، يتحرك، وينهض. يقبل نحوى ويميل على الوسائد.

- هل نمت قليلا؟ هل تشعرين بتحسن الآن؟ هل تحبين أن أفتح النافذة؟ المفروض أن يكون النهار قد طلع.

ورفعت الستائر، وفتحت النافذة دون ضوضاء؛ فإذا مربع من الضوء الرمادى يغير ملامح العالم الذى يحيط بى. ثم أقبلت نحوى وتأملتنى. ليس فى وجهها ما يدل

على التعب، بل يصدر عنه صفاء جميل ينتشر فى كل كيانى وينعشه. كانت قد فكت شعرها الذى كان مضموماً بالمشابك وانسدلت خصلاتها البيضاء العديدة على جبهتها وصدغيها ثم حول شعرها فيضفى عليه سحراً مريحاً. كلا، إن هذا الوجه لا ينم عن أى تعب. وفضلاً عن ذلك، فمنذ العصر البعيد الذى كان العالم يلوح لنا من خلال عينيها، فلا بد أنها اعتادت أن تقضى الليل فى كراسى ضيقة ترطب بيديها أو بشفتيها حياة تلتهب بالحمى. وها هى الحياة التى فصلتنا لحظة تنمحى ويعود كل منا لصاحبه مرة أخرى كما كنا من قبل. ثم تبتعد عنى قليلاً، وأتطلع أنا من النافذة. بعض أشجار الصنوبر الرشيقة، ومبنى هائل مظلم.. كل شىء هادئ.. السماء لا ترى، وفى المبنى المجاور نافذة واحدة مضيئة فى الطابق الثانى. الوقت لا يزال ليلا. ضوء يتلألأ بين أشجار الصنوبر. من يا ترى يسهر فى هذه الحجرة؟ لا بد أن شخصا ما هناك، قضى الليل فى كرسى موسد. شخص ما الآن يميل على فراش، ويتمتم بشفتين رطبتين كلمات مطمئنة على جبين يلتهب بالحمى:

– كيف حالك؟ هل ترغبين فى شىء؟ ألا تحاولين أن تنامى قليلا؟

هناك، نافذة مضيئة.. وهنا نافذة مفتوحة، والليل.

ها هو ذا الصباح. اليوم الذى يولد يعد وعداً حسنا، حيث هو فجر الغد بالنسبة لليوم الذى كان أمس. شخص ما يعدل وسائدى؛ فأجلس. يغسل وجهى بطرف المنشفة المبلل. ها أنا ذى أصبح طفلة صغيرة، أتركهم يمشطون شعرى دون اعتراض؛ لعله سيحبس شعرى فى ضفائر.. من أنا؟ من أين جئت؟ حجرة الفصل بمقاعدها الخضراء المصفوفة.

– لماذا شعرك منكوش هكذا؟

– أمى مريضة وأنا لا أرضى أن يمسّ شعرى شخص آخر.

يفتح الباب لتدخل ممرضة الصباح:

– صباح الخير.. إذن لقد نمنا قليلاً؟ ها نحن قد تماثلنا للشفاء.. والآن سنقيس حرارتنا ثم نشرب اللبن.

أوه! إذن فقد طلع النهار، مادامت تقول "سنشرب اللبن". طوال ليلة أمس، كنت أشعر بأنه النهار، كأنما الزمن توقف فجأة فى اللحظة التى جئت فيها من حجرة العمليات إلى حجرتى. حتى المساء ظل الضوء نفسه يغمر كل شىء.. الحجرة البيضاء، النافذة، الطريق الغائم بين أشجار الصنوبر، المبنى المقابل، كل شىء كان هادئًا ساكنًا.. لم يتحرك شىء من مكانه. ضوء النهار حل محل الشفق، دون فترة انتقال.

أنا الآن وحدى.

اهدئى.. اهدئى.. أنا لا أتحرك.

حينما يصيبنى مرض وأنا فى بيتى، يأتى عادة شخص لزيارتى. بعض الأصدقاء الذين يذكروننى فجأة، يأتون ومعهم بعض باقات الزهور التى تذبل فى حرارة الحجرة.

الجرس يرن.. شخص ينزل ليفتح للزائر.

توجد عدة حجرات فى كل جهة من الممر، وعلى كل باب رقم؛ فما هو رقمى؟ هنا الأبواب تفتح بلا ضوضاء. رجل يقف على عتبة الباب. هل من المعقول أننى لا أحلم؟ يبدو من غير المعقول أننى أراه هنا ... أجلس وأشعر بأننى بخير، بإمكانى أن أستقبل الذين يأتون لمعرفة أخبارى، لكنه يميل نحوى؛ ويضع يديه فوق كتفى، ويدفعنى دفعًا رقيقًا لكى أعود إلى الرقاد.

– كيف أنتِ الآن؟

ماذا يمكن أن يقول لبعضهم أشخاص انفصلوا فصولا عديدة؟ يسحب نحوى الكرسى الموسد ويجلس. الرجل الذى اختفى ذات ليلة على الجبل، فى ضوء القمر.

حينما عاد فى الفجر، كنا نولد من جديد. شـــعور حنان لحيـاة تولى، ومع ذلك فهـــى لا تزال شابة. قلت:

- كنت آمل فى أن تأتى، ولكن ذلك كان يبدو لى احتمالاً ضعيفًا.

فقاطعنى وقال:

- صحيح؟ كنت تتصورين أننى قد آتى؟

ونظرنا لبعض، ثم نظرنا من النافذة إلى أشجار الصنوبر. على الواجهة الأخرى، الحجرات تغمرها الشمس الآن. قليل من الشمس نغمر فيه أيدينا، فتتورد الأصابع....

تكلمنا، ثم حل الصمت بيننا مرة أخرى. وجاء معه "الجو" الخاص بشخصين يعرفان كيف يتكلمان عن سنواتهما الجميلة، فى حين أن آخرين لا يعرفون إلا أن يعيشوها. شعور بالود من ناحيته، صفاء رائع، رغبة تلقائية أن أقبض على يدى الرجل براحتيه المفتوحتين وأن أذود عنه. وجلس فى وضعه المعتاد؛ ووضع قفازه على ذراع الكرسى، وملأت صداقتنا الكبرى الصمت. ومع ذلك فأنا اليوم أشعر بشىء مختلف؛ فالعبارات القليلة التى تبادلناها تخلف وراءها ما يشبه الصدى، شعورا يصعب تعريفه على وجهينا وربما أيضًا فى نظرتنا. ومع ذلك فإن الكلمات لا تتجاوز حدود معناها المعتاد. هل هناك حقا شىء مختلف؟ وشعرت فى أعماقى بأننى على استعداد لقبول هذا التغيير الذى لا أجرؤ على تعريفه والذى سبق أن واجهته، وعشته فى الخيال. فهل فهمته؟ هل سيتحدث اليوم؟

وتأهب للانصراف. نهض وداعب بيده شعرى. أنا أعرف فيم يفكر. السنوات العديدة التى فصلتنا تسمح له بالقيام بهذه الحركة الأليفة.. لم يقل شيئًا، ثم أقبل نحوى ووجه لى سؤالاً يبدو أنه لا يتطلب أى إجابة:

- سمعت أنك تنوين القيام برحلة، هل هذا صحيح؟ ستوحشيننى.

ماذا تبقى من لقائنا؟ اللحظة القصيرة التى أغلق فيها الباب والتى شعرت فيها بأصابعه تتلكأ على المقبض لا تفتأ تعيش بداخلى. كما لو كانت هذه اللحظات ستظل معلقة فى الانتظار.. وابتعدت الخطوات. لم يتغير شىء. كانت نفس الصداقة الودية المشوبة بالحنان والشفقة من أجل كائن فى مقتبل العمر يرقد على فراش فى المستشفى. لا شىء يمكن أن يتغير. لقد افترقنا منذ فصول عديدة، ومع كل ما من الممكن أن يتألم لغيابى.. لو كنت تكلمت؟ ربما كان يتعين علىّ أن أقول له إننى أنا أيضًا أتحسر على اللحظات التى عشناها معا. وأشياء أخرى كثيرة.

وغرقت الحديقة فى ضوء الشمس، وأستطيع أن أتكهن بأن العشب قد أصبح أخضر. إننى أشعر بشىء يتحرك بداخلى، شىء يصعب تحديده.

وفى الظهيرة، بدأت أشرب اللبن. أحضرت الممرضة لترًا ونصف اللتر من اللبن. وعدّلت من وضع الوسائد، وتبادلنا الابتسام. وشربت لبنى ببطء.. كان باردا.. تنتشر فيه رائحة خفيفة. شعرت ببعض الصعوبة فى البلع. لا أكاد أتذوق له طعمًا إلا إذا مررت لسانى على شفتى. بماذا يذكرنى هذا؟ النافذة غارقة فى الشمس، والكرسى الموسد خال عليه كتاب كبير مذهب الأطراف. كم سنة مرت على ذلك؟ أنا طفلة تقرأ راكعة فوق السجادة. قصة الأولاد المشردين الذين يهيمون فى الجبال والوديان يعزفون على الهارب لكسب قوتهم، وحينما كان يتوقف الأولاد للراحة على الطرق الخالية، حينما كانوا ينطرحون على العشب على شاطئ النهر الذى يحمل السفن بعيدا، كانوا يناقشون أشياء عجيبة كانوا يعرفونها. أحدهم تحدث عن الوقت الذى أمضاه فى المستشفى وهو مريض.. كانوا يسقونه لبنًا فيه نكهة ماء الورد، لكن أصغرهم كان يجد صعوبة فى تخيل طعم اللبن، لأنه لم يشربه فى حياته. وكان يحب أن يعرف طعم اللبن بنكهة الورد. وسأل رفاقه قائلاً:

- هل يحدث هذا فى جميع المستشفيات؛ هل اللبن دائما برائحة الورد! حسنا، إذا مرضت ذات يوم.

هنا الأبواب تفتح دون ضوضاء. تفتح كأبواب سرية في مملكة تذوب فيها الأيام الماضية والأيام التالية، ومع ذلك فتظل الحياة معلقة على العتبة، لا تعرف أين تنتهى اليقظة وأين يبدأ الحلم. الرجل الذى جاء لزيارتى يحمل فى يديه بعض أغصان من الصنوبر، وجهه ليس سوى حب ووحدة.

- إذن سنحتفل برأس السنة هنا؟

ووضع الأغصان فوق السرير.

ودسست يدى فى أوراق الصنوبر الخشنة، وشكرته بنظرة لأننى لا أستطيع الكلام.

- فيم تفكرين؟ هل أنت مسرورة؟

وأخرجت يدى من تحت الغطاء وأخذت يده وسحبتها حتى وجهى، قريبًا جدًا من وجهى ونظرت إليها.. إنها يد بسيطة وقوية وحاسمة، ومسها شىء مألوف بالنسبة لى. ربما لا تكون جميلة، لكنها يد تبحث عن دفء يدى.. هل صحيح أن الأشياء تحدث فى الوقت الذى لا نكون فيه متهيئين لها، هل صحيح أنها تتغير وتنمحى دون أن نعى ذلك؟ إن اليد القوية التى تحبس يدى هى يد تتوسل وتسأل.

وجعل يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا. وعدل وسائدى ونظر من النافذة. فى اليوم الأول؛ حينما جاءت بى العربة من حجرة العمليات، كان موجودًا ينتظرنى ووضع بعض زهور البنفسج فوق الطاولة الموجودة على رأس السرير، وقال:

- يستحسن أن أغير الماء.

وأخذ وعاء الزهر ووضعه تحت صنبور الحوض.. حركاته واثقة جدًا.. فهو يعتقد أنه فى بيته.

وجلس بجوارى وأمسك بيدى تحت الأغطية.. ولم نتكلم.. يده تضغط على يدى تحت الأغطية، وحول نظره نحوى. ولم أحول نظرى لرؤيته لكننى أستطيع أن أتكهن بأفكاره صغيرها وكبيرها، وبوضع جسمه دون أن أحتاج للنظر إليه. فيم يمكن أن نتكلم؟ وماذا أقول له؟ الزمن يمضى فى الصمت الذى يفصل بيننا، مغلقًا عيوننًا، باسطًا علينا يديه المهدئة لتصلح بين أفكارنا المختلفة.

الباب يفتح، هذه المرة صديقاتى هن اللاتى يأتين لزيارتى؛ وكل منهن تحمل هدية وأغصانًا من الصنوبر. لقد هجمن على الحجرة وجعلن يتحدثن معًا فى وقت واحد، ثم بدأ الهدوء يسود شيئًا فشيئًا؛ وبدأن يتكلمن بالدور. وفكرت فى الزمن الذى كنا نلهو فيه معًا ونجرى فوق التلال ونسقط ونضحك ونصاب بالجروح كلنا فى مكان واحد، فى الركبة.

الباب يفتح من جديد.. الأطباء.. أصوات وديّة.. نظرات هادئة.. هل أعرفهم منذ مدة طويلة؟ قال الجراح:

– حسنًا، هل قررنا أن نحتفل برأس السنة فى البيت؟ ما أجمل هذا الصنوبر!

ولزمت الصمت.

– حسنًا، هل هذه الفكرة تزعجك كثيرًا؟ إذن، سنحاول أن نطردك لتذهبى إلى بيتك.

فقلت:

– كلا، أنا أفضل أن أبقى هنا.

– عجبًا، لماذا؟

ففكرت لحظة ثم أجبت ببطء:

– أريد أن أرى كيف يتم الاحتفال برأس السنة هنا؟

- آه، هذا إذن!

فأطلق ضحكة عالية وتفرسني لحظة وقال:

- عظيم، سنحتفل برأس السنة معًا.

غادروا الحجرة. وأغلق الباب وراءهم. نعم، سنحتفل برأس السنة معًا، فربما سيكون هناك ما يبعث عليَّ المتعة هذا العام. وطفقت أتفرس وجوه الذين يحيطون بي. في العصر سيذهبون إلى المستشفى ويحتفلون برأس السنة معي.. أعرف أنهم سيأتون هذه السنة، سيكون من السهل عليهم أن يدركوا كم أنا في حاجة إليهم، لذلك ستواتيهم الشجاعة للحضور، ويتفرغون لذلك من مشاغلهم، كما أفعل أنا، لكي يعطوا شيئًا من أنفسهم لأولئك الذين لا يعرفون فرحة رأس السنة.. ولكن، وحتى لم يأتوا، فإنني سأقضي هذه الليلة مع الممرضة التي لم تعرف منذ الرابعة من عمرها، سوى جدران ملجأ الأيتام.

ما هذه الريح التي تهب فجأة على البحار وتأتينا بالأيام البعيدة التي اعتقدنا أننا نسيناها؟ من قال إن الزمن قد ولّى، وأننا تغيرنا؟ لم يتغير شيء.. لم يصمت أي صوت من الأصوات البعيدة، وكذلك الأقدام التي نسير بها في الدرب المعزول بصحبة رفيق آخر، لم تمح بعد، على الرغم من أمطار العديد من فصول الشتاء.

وفتح الباب دون أن أتنبه له، ودخل طبيب.. طبيب شاب في مقتبل العمر.. وبينما هو يقترب من فراشي، عرفت فيه أحد أصدقائي.

- أنت، هنا؟

وتصافحنا. متى رأينا بعضنا للمرة الأولى؟ كانت شلتنا كثيرة العدد.. شبان وشابات، وكنا أصدقاء، وسحب الكرسي وجلس على رأس الفراش؛ وثرثرنا.. حدثني عن حياته خلال السنين الأخيرة.. كم من الأشياء حلمنا معًا بتحقيقها لكنها ظلت دون تحقيق. حينما سافر بالبحر لم يأت لوداعي، ولم يرسل لي رسالة؛ ومع ذلك كنت

أنتظره. كنا ننتظره جميـــعًا مع أنه كان مقتنعًا أنه لا يوجد إنسان فى هذا العالم ينتظر منه رسالة.

يا له من صفاء.. لاحظت أن الباب أغلق.

كل واحد منا يشعر ويتصرف بطريقة مختلفة فى ظرف واحد، ومع ذلك يحدث أحيانًا أن يفهم شخصان بعضهما.

الأصوات البعيدة تقترب، وهى الآن تمر تحت نافذتى. الممرضات يذهبن إلى الكنيسة أو يتنزهن فى ممرات الحديقة، وزيهن الأبيض يغنين.. ليس رأس السنة بالنسبة لهن سوى حجة لكى يغنين للمرضى، يساعدنهم فى التذكر أو إذا شئن، على النسيان.

كم من الوقت ظللنا صامتين ويدنا فى يد بعضنا؟ لا نجد شيئًا نقوله. ومع ذلك من الممكن أن تكون أفكارنا واحدة، لماذا لم نحاول أن نحقق أحلامنا؟ وفجأة بدأ يتكلم. يستخدم الكلمات نفسها التى تدور فى رأسى، لكن الصوت مختلف. من هذا الرجل الذى يجلس عند رأس فراشى؟ ماذا يقول؟ هل نهض شخص ما ليغادر الحجرة؟

ووقف بالقرب من النافذة ينظر إلى الحديقة، ثم جاء نحوى. الأشياء التى يريد أن يقولها لى هى من الأشياء التى ننطقها بصوت خفيض. لكنه لا يفتأ يذهب من النافذة إلى الفراش. وكلما رأى الساعة تتقدم لكى يرحل، اقترب منى ومال علىّ. يقول شيئًا، ثم يميل أكثر.

من هذا الرجل الذى على رأس فراشى؟ ماذا يقول بالكلمات التى تطن فى رأسى؟ حينما كنا أطفالاً، كنا نلعب بجوار البحر وما زلنا نتذكر الصخور التى كانت بحذاء الشاطئ واحدة واحدة، وغطيت وجهى بيدى؛ ثم نهضت وجلست. وابتسم لى الرجل وقال:

– هل تريدين شيئًا؟

- أريد أن تصنع لى شيئًا.

- أى شىء؟

- أى شىء، اصنع لى لعبة.

ونظر إلىّ واستمر يبتسم؛ ثم أخذ من فوق المنضدة علبة ورق صغيرة بيضاء وفردها ثم بدأ يرسم عليها شيئًا.

وظللت بجواره، وحدى. هل أنا أتذكر؟ هل أنا أحلم؟ وأغمضت عينى وجعلت أستمع إليه وهو يتعامل مع علبة الورق؛ ثم تحولت بأفكارى إلى أشياء أخرى.

- ألا تريدين رؤية ما صنعته لك؟

والتفت نحوه وابتسمت. فرأيت فوق المنضدة سفينة صغيرة بيضاء بأشرعتها مفرودة.. إلى أين نذهب بهذه السفينة؟ هناك من ينتظرنا فى مكان ما.. بلاد جديدة فى انتظارنا.. بلاد لم تُكتشف بعد.

نهضت هذا الصباح، خرجت من حجرتى وتقدمت خطوات فى الممر. وفجأة وجدت نفسى أمام نافذة مفتوحة فتوقفت. هذا الجانب من الحديقة كان مزروعًا بالريحان وغارقًا فى الشمس، ومكثت جامدة بلا حراك لحظة طويلة؛ وحينئذ فقط تبينت أننى طوال الأيام السابقة كنت أنظر إلى الحديقة من خلال نافذة مغلقة.

***

القـــريـــان

تأليف: نرجس دلال Nargis Dalal

من الهند

انطلقت السيارة ناشرة ضوضاءها فوق طريق وعر يغطيه الحصى، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنحتها وغطاءها وسائر أجزائها التى كانت تتلألأ قبل قليل.. وامتدت الحقول القاحلة الجرداء فى كل الجهات، فى أخاديد متكلسة، حتى سفوح الجبال التى لفتها غلالة من وهج الحر.. غلالة خفيفة كالدخان، مائلة إلى الزرقة.

ولم يكن السيد "تريانا" يكف عن التطلع - وهو فى جلسته المريحة - إلى ما حوله من مناظر تلك المنطقة. لقد قام برحلته هذه كى يرى بلاد الهند، وقد عقد العزم على أن يشاهد منها بقدر ما أنفق على الرحلة.. فرأى المراعى الغنية والروابى الخضراء فى الشمال، وشاهد مزارع الشاى فوق المنحدرات، وزار بعض المعابد والأطلال، ورأى السدود التى أقيمت حديثًا. وها هو ذا يرغب فى زيارة المنطقة التى تجتاحها المجاعة.. وكان حريصًا على التقاط بعض الصور لبعض النسوة الهزيلات، بأثدائهن المدلاة كالقرب، ولبعض الأطفال الذين ضمرت أعضاؤهم هزالاً، وانتفخت بطونهم فى بشاعة تستحق التسجيل. فسوف ينشر هذه الصور فى صحيفته لدى عودته مباشرة.. ولسوف يكون لهذا دوى صحفى مثير، ومن ثم فقد حرص على أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح.

أما ركاب السيارة الآخرون، فلم يبد عليهم أنهم يشاركونه قدراً يذكر من حماسته.. على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد "تريانا" على الإطلاق، فما من شيء يستطيع أن يصرفه عن غرضه، وكانت الحرارة تنقض عليهم - بلا هوادة - من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة.. حرارة لا تكاد تطاق.. وكانت الأتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية - في السيارة - فتنتشر فوق جلد المقاعد الفاخرة.

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق من فوق جبينها، وهي مستلقية في استرخاء على مقعدها الوثير، كانت ذات وجه نضير أملس، على الرغم مما تركه الإرهاق على ملامحها من علامات.. سوداء الشعر، يتراقص في عينيها فيض من الأشعة الذهبية.. ولعلها كانت في الثلاثين من عمرها.

أما السيدة الأخرى- وهي شقيقة السيد "تريانا"- فكانت أكبر سنا، وقد تهالكت في أحد أركان العربة، فاغرة الفم، متجهمة، تغفو في نعاس مضطرب، وقد علتها طبقة رقيقة من الأتربة غطت شعرها ووجهها، وعينيها، وتراكمت فوق حاجبيها وأهدابها.. وكأنها أحد مقاعد العربة.. ولم يكن يلوح عليها أنها تدرك شيئًا مما حولها!

وأما السائق، فكان شابًا هندوكيًا، ذا رسغين نحيلين مرنين، وقد أمسكت يداه الرقيقتان، بيسر، بعجلة قيادة السيارة الضخمة، وأخذتا تواجهانها دون جهد واضح. وكان هو الشخص الوحيد الذي لم يعان من وطأة حرارة الجو. ولقد كان يعمل ضابطًا من قبل، وقد أعير للسيد "تريانا" طوال فترة الرحلة على أن يقوم - في الوقت نفسه - بدور المرشد والمساعد، ولم يكن يفتح فمه على الإطلاق، اللهم إلا ليشير في عبارات موجزة إلى ما هو مثير في تلك المنطقة، من مواقع!

ومال نحوه السيد "تريانا" قائلاً:

- اسمع يا "بريتام"! ابحث لنا عن ركن نستطيع أن نتوقف فيه لتناول الغداء. أحب أن أصيب شيئًا من الطعام.

وأومـأ "بريتـام" بحـركـة من رأسـه توحى بأنه قـد سـمـع، وإن لم يحـول عـينيـه عن الطريق.

وأحذق ذلك السيد "تريانا" الذى لم يكن يحب الهندوكيين، لا سيما الصموتين منهم.. كان ميالاً إلى الثرثرة، وكان قصير القامة، ضخم الجسم، ذا عضلات قوية ثقيلة، نحاسى البشرة، وكان شديد الزهو بإعلان جنسيته الإنجليزية، لا يكف عن التلويح بجواز سفر بريطانى ليؤيد دعواه.. وربما كان هناك خطأ ما، فإن جواز السفر البريطانى - الذى كان السيد "تريانا" يحمله - لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة "بريتام" أو أن تكون عيناه صغيرتين سوداوين براقتين، أو أن يكون ذا شعر طويل أسود، يلمع بفضل ما كان يعلوه من مادة "البريانتين".. كان حريصاً دائماً على العودة إلى طرق هذا الموضوع ما أمكنه ذلك، شأن من يريدون أن يؤكدوا انتماءهم إلى أصل مشكوك فيه! وما أشد ما كان ينتابه من حنين حين يتحدث عن "وطنه" - بريطانيا- وتفوق هذا الوطن على غيره من الأوطان - كانت الشعوب الملونة جميعًا - شعوب ذوى البشرة الصفراء والنحاسية والأبنوسية - لا تعدو فى رأيه أن تكون سلالات زنجية اعتاد أن يختصها بمختلف أنواع الازدراء، وكان دائم السخرية بكل ما يراه، وينتقده بلسان حاد.. وكم امتلأت بالغبطة الخبيثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب والجدب، حتى إنه كان يفرك يديه إعلانًا عن سعادته.. ولعله كان يتصور، وهو يحشر نفسه فى زمرة الأوروبيين، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه!

كان السيد "بريتام" - الضابط السابق بسلاح المدفعية يتساءل ساخرًا عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد " تريانا ". لعله ولد تحت سماء فى مثل زرقة هذه السماء، وفى مناخ أشد حرارة من هذا المناخ.. بيد أن "بريتام" كان حريصًا على أن يقف موقفًا سلميًا، وكان ما يتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أى فرصة لإظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة فى مظاهر تعاظم السيد "تريانا" وادعائه!

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل إلى تل كان يبدو - من بعيد - كأنه كومة من الأحجار. وهنالك، اكتشفوا حصنًا مهجوراً، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذًا من وطأة الشمس، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستريح فيه النفس من شر هذا الهجير.

وخرج الجميع من السيارة يتمطون فى اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة.. وتثاءبت الفتاة، ورفعت ذراعيها.. فوق رأسها، كقطة صغيرة كسول. وأخذ السيد "تريانا"- الذى لم يكن يحوّل عنها عينيه - يمرر طرف لسانه فوق شفتيه الغليظتين، ويدنو منها ليمسك بذراعيها العاريتين بين أصابعه الضخمة.. ثم قال لها فى تلطف: "أسرعى إلى الظل يا هيلين!".

وقرص ذراعها، وهو مستمر فى مزاجه: "كيف نصبح، إذا أصابتك بضربة شمس.. هه؟".

وابتعدت عنه الفتاة فى فتور، ودخلت إلى الحصن وراء السيدة الأخرى. الواضح أنها لم تكن تحب السيد "تريانا" ولكن كونها مرافقة للسيدة "جوردان" شقيقته - كان يحتم عليها أن تحتمل الكثير مما لا يروقها منه.. ولكن الوقت كان قد فات للندم على ذلك!

وتوقفت خلفهم عربة نقل صغيرة، كانت تتبعهم على مسافة كافية، ونزل منها خادمان وأخرجا منها سلال، وبسطا بعض المفارش، وأعدا المائدة فى حرص ومهارة ينمان عن خدم مهذبين مدربين.

وما لبثت السيدة "جوردان" التى ظلت فى أثناء هذه الاستعدادات صامتة، وإن راحت تتأمل الغداء بعين نهمة - أن انقضت على كومة الشطائر بيد متلهفة، وراحت تلتهم منها بنشوة وشره.. بينما كانت "هيلين" ترقبها بشعور من الشفقة والاشمئزاز، وانتحى "بريتام" جانبًا، وقد بدا على سجيته، فى قميصه الأزرق ذى الياقة المفتوحة..

وتجلى على وجهه ذلك التعبير الذى ظل يلازمه، والذى كان ينم عن البرود واللا مبالاة، وكأنه كان يرجو بذلك أن يقيم حاجزاً بينه وبين الباقين.

لم يكن السيد "تريانا" يكف عن إثارته طوال فترة الرحلة، وقد ظل يضايقه بالملاحظات المحرجة عن عادات الشعب الهندوكى ومعتقداته، ولكن "بريتام" ظل - من ناحيته - ثابت الجنان لا يتأثر. وكان موقفه هذا مما أثار حيرة "هيلين"، فقد كان عدم اكتراثه يحنقها تارة، ويحملها على الإعجاب به - تارة أخرى - لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس.. سيطرة تفوق كل تصور! وقد دفع هدوء "بريتام" السيد "تريانا" إلى ذروة السخط، فصاح فى النهاية يعلن بازدراء:

- بلد رائع! يمكن أن يقال إنكم قد بلغتم درجة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال... أو بتعبير آخر، يمكن أن يقال إنها تبيح لكم الحق فى أن تموتوا جوعاً فى سلام... دون أن يؤذن لأحد بالتدخل فى شئونكم!

ولكن: "بريتام" ظل على صمته... وهنا انتابت السيد "تريانا" نوبة حنق بارد، وكأنما عقد العزم على أن يفعل أى شىء من شأنه أن يحدث استجابة لإثارته... كان يريد أن يرى الغضب يزيح ذلك القناع - الذى لم يكن يملك أن ينفذ من خلاله إلى ما فى نفس الرجل - ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته، ويشعل الشرر فى هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ أثراً من الإهانة. لذلك طوح بذراعه فى اتجاه القرية القاحلة، وفى اتجاه الأرض التى كانت تتشقق جدباً تحت الشمس قائلا:

- فيضانات، مجاعات، فساد، رشوة، زيادة فى السكان، نتيجة رائعة! هه؟ إن أحداً لم يستطع - منذ غادرنا هذه البلاد- أن يفرض أى قدر من النظام... ليس لديكم من معنى كلمة الحكومة سوى الثرثرة الفارغة ينساق إليها بعض الساسة الذين أسكرتهم نشوة السلطان! كيف تجرءون على الاشتراك فى جلسات مجلس الأمن؟ كيف تتأتى لكم القحة لتقدموا للعالم النصائح

والتوجيهات.. أنتم يا من تتخبطون فى أبشع ألوان الفوضى؟ يا لها من وقاحة لا تطاق؛ أن يندفع أناس فى إبداء النصح والدعوة للنظام، وهم لا يعرفون كيف يوجهون دفة أمورهم!

وفى لمحة خاطفة كأنها وميض البرق، لاح أن "بريتام" يوشك أن ينقض على السيد "تريانا" فيقبض بأصابعه الطويلة على عنقه، ويضغط بكل قواه.. ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة، وقال بلهجته الإنجليزية التى لا تشوبها شائبة:

– أظن أن وقت الرحيل قد حان، إذا أردنا أن نصل إلى الشاليه " قبل حلول الليل!

وكانت السيدة "جوردان" تنقّل بصرها بين الرجلين، والقلق يرسم على وجهها تعبيراً يزيد من معالم البلاهة التى تعلو أساريرها.. وما لبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة:

– سيد "بريتام" أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا عليها، بشأن هذا الحصن؟

وتطلع إليها "بريتام" ثم ابتسم قائلاً:

– إنه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ.. على أنه من المعلومات الطريفة أن لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر، تتمثل فى أن يقدم السكان إلى إله المطر قرابين بشرية.. وبما أن القانون – فى أيامنا هذه – يحرم بالطبع مثل هذه العادات، فإن كثيراً من الفلاحين – من سكان المنطقة – يعتقدون اعتقاداً راسخًا، أنهم ما كانوا ليواجهوا هذه المجاعة لو أنهم قدموا إلى إله المطر قربانا!

فأطلقت السيدة "جوردان" صيحة خفيفة، تنم عن الانفعال والرعب، وهتفت:

– أتعنى أنهم كانوا يتقربون إلى آلهتهم بمخلوقات بشرية حقًا!

وأردفت هيلين قائلة: "يا إلهى!.. هذا غير معقول؟

فهز "بريتام" كتفيه، وهو يجلس إلى عجلة القيادة، وقال:

– عجبا! هذه ليست سوى وسيلة من الوسائل لمواجهة الأمور. إنهم يضحون بكائن بشرى فى سبيل إنقاذ حياة المئات من الآدميين.. وفى الوقت ذاته، نحن هنا نرى أن من البشاعة إرسال الناس إلى بلد أجنبى بهدف قتل أناس آخرين لا يكنون لهم شيئًا من العداء! وعلى أى حال، فإن هذه العادة قد انقرضت منذ عهد بعيد.

وصرخ السيد "تريانا" بلهجة غاضبة:

– هل تتطاول فتقارن تلك الشعائر الوحشية، التى تؤديها قبيلة بدائية جاهلة، بالحملات التى تنظم تنظيمًا دقيقًا فى الحروب الحديثة؟

وقال "بريتام" فى نفسه، وقد بلغ به الضيق مبلغه:

"ها هو ذا يعيد الكرة!" ثم بذل جهدًا جبارًا للسيطرة على نفسه.

كانت السيارة تسير ببطء فى طريقها المرسوم، فصرف ذهنه إلى تأمل روعة الآلات الحديثة.. فقد لا تواتيه الفرصة – بعد اليوم – ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة. وراح – وهو مقطب الجبين – يركز كل اهتمامه على الطريق.. ترى بالله، ماذا سيتاح لهذا الكائن المترهل أن ينشر فى صحيفته؟

كانت الحقول العارية – التى ألهبتها الشمس وأجدبتها – تتتابع فى خط واحد، على مدى البصر.. وعلى مسافات متباعدة، كانت الأبصار تلتقى عند هيكل شجرة وحيدة، تمتد أغصانها إلى السماء، أو بمجموعات صغيرة من الأكواخ المتناثرة، عبر

تلك المساحات المترامية الموحشة.. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشرى، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء أن يخاطر ويتوغل فى هذه الصحراء.

وأخيرًا بلغوا "الشاليه"، وعند عتبة الشرفة ظهر كهل بادى النعاس، وراح يتأمل السيارة الفارهة وركابها فى بلاهة.. كان المسكن نموذجًا لمأوى كلاسيكى: أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت. وحشيات يسمع صرير زنبركاتها المحطمة. وأسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة قبل الشروع فى اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء.

وأقبل على المكان بعض الأهالى الشاحبين، النحاف، فى أسمال بالية وقد اجتذبتهم أنوار المصابيح والضوضاء والحركات غير العادية. فراحوا يحومون حول "الشاليه".

وكانت "هيلين" أول من رآهم، فأطلقت صيحة قصيرة، تنبه بها رفاقها. ولمحوا بعض الأطفال.. كائنات صغيرة تثير الشفقة، إذ ضمرت أعضاؤهم، وانتفخت بطونهم، وراحوا يتأملون الغرباء بنظرات ثابتة، لا تشير إلى شىء..

نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة، ذوى بهاؤها!

وغمضت "هيلين" وقد غص حلقها: "أواه! ... يا للصغار المساكين!". لكن السيد "تريانا" أخذ يفرك كفيه، وقد بدت عليه علامات الاغتباط.. وقال:

– أنا على يقين من أننى سأحصل على ما أبتغيه من صور مثيرة!

والتفت إلى "بريتام" قائلاً: "أخبرهم بأننى أريد أن يحضروا غدًا، لألتقط لهم بعض الصور؛ وقل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة وأشدهن ضموراً.. نسوة يعطين الإحساس بالموت جوعًا... إنك تفهم ما أعنــى.. قل لهم سأمنحهم بقشيشًا طيبًا".

ونطق "بريتام" ببعض الألفاظ السريعة مخاطباً أكبر الرجال سناً، فاتجهت نظرات الشيخ إلى السيد "تريانا" وظل يتأمله محدقا فيه لحظات طويلة حتى اضطرب السيد "تريانا" وأحس بالارتباك، فأخذ يردد: "ماذا أصابه! ألام تفهم؟ أم ماذا؟

ودمدم المواطن مخاطباً "بريتام" بشىء ما، فقام هذا بترجمة حديثه.

- صباح غد، عند شروق الشمس، عليك أن تذهب إلى أكواخهم وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ما تحب أن تراه.. هل تحب أن توجه أسئلة أخرى؟

فقال "تريانا" بلهجة مفعمة بالاغتباط: "قل لهم إننى أحب أن أشهد عملية تقديم قربان بشرى ما... وراح يطلق قهقهة صاخبة... فرمقه "بريتام" فى صمت أخرس ضحكته فى حلقه، بينما تسلل الأهالى فى طيات الظلام.

وعندما أعد العشاء، اتخذ أفراد الجماعة الصغيرة أماكنهم إلى المائدة. كانت وجبة رائعة، تشهد بما لصناعة الأغذية المحفوظة من أفضال.. وتناولوا بعدها أكواباً من القهوة المسكرة، الممزوجة باللبن.

وكانت "هيلين" - خلال الغداء - تأكل بطرف شفتيها، وحين رفعت عينيها، لاحظت أن "بريتام" لم يمس أى طبق من الطعام، بل انصرف إلى احتساء قهوته فى رشفات صغيرة، غافلاً عما حوله، وقد شردت نظراته بعيداً من فوق رءوس الموجودين... وكانت السيدة "جوردان" تشعر بالقلق، فأخذت تقضم الطعام دون إقبال عليه، وهى تتلفت نحو النوافذ - من آن إلى آخر - بنظرات قلقة، تسائل الظلام الذى كان يلف "الشاليه"، كأنها تخشى ظهور عينين لامعتين فى وجه هزيل!

أما السيد "تريانا" فأخذ يأكل بارتياح تام، متذوقاً كل الأصناف، مجففاً شفتيه بمنشفة ناصعة البياض، ملتهماً كميات ضخمة من الطعام.

وعندما بدت طلائع الفجر الجديد، كان السيد "تريانا" على أهبة الاستعداد... وكان الجو ينذر بيوم قائظ الحرارة، والسماء شديدة الزرقة، وعلى البعد، كان الناظر يميناً يلمح مجموعة من الأشجار قرب بئر جافة، وكانت الأبصار ترتد دائماً إلى هذا المكان، تجذبها إليه قوة خفية لا سبيل إلى مقاومتها.

وقام السيد "تريانا" بإعداد آلة التصوير، وعلقها على عنقه بسير من الجلد، ثم قال:

– حسناً... قم معى يا "بريتام".

وأجاب "بريتام" فى برود: "كلا! لن أذهب!".

ولو أن أحداً رأى السيد "تريانا" – إذ ذاك – لخيل إليه أنه لن يلبث أن يصاب بسكتة قلبية. وكرر الشاب، باللهجة اللا مبالاة نفسها، قوله: "لن أذهب! إننى أتقاضى أجرى لأريك البلد فحسب... وهذا هو كل عملى".

مكث السيد "تريانا" مسمراً فى مكانه، وقد أخرسه الذهول، وغاب عن وجهه كل إشراق... وكان الجهد – الذى راح يبذله كى يكتم غضبه – يزيد من انتفاخ شرايين أوداجه. ثم وضع قبعة فوق رأسه دون أن يضيف كلمة واحدة، وسط الضوء الباهر الذى كان يغمر السهول.

وانقضت عليه حرارة الجو دفعة واحدة، فى قسوة لا ترحم، ولكنه لم يعرها أى اهتمام... كان الحنق والسخط يهدران فى داخله!... وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثراً، والمحاصيل القليلة توشك – تحت لفح الشمس – أن تذبل فى حقولها. وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكمت فيه الرمال. وأخذ السيد "تريانا" يتعثر فى مشيته – من وقت لآخر فيتناثر السباب خافتاً مكتوماً من بين أسنانه، وشعر بأن ثيابه – على رقتها – ثقيلة لا يطيق تحملها، مع حرارة الجو، فقد أخذ العرق يتفجر من

جسمه غزيراً ويملأ سترته بقعًا مبتلة. وعلى مقربة من القرية، أخرج من جيبه منديلاً مضمخًا بالعطر، فجفف به وجهه.

كان ثمة رجال ونساء راقدين أمام الأكواخ، أو على عتبات الأبواب، وكأنهم غابوا فى سبات مخيف... ولم يكن من اليسير- للوهلة الأولى- أن يميز الإنسان بين الشبان منهم والشيوخ من فرط ما فعل العذاب والجوع بوجوههم... ولم يأت أحدهم بأدنى حركة، عند اقتراب السيد "تريانا"، وإن بدت عيونهم جاحظة، محمومة، وقد اتجهت نحوه تحملق فيه!

واتخذ السيد "تريانا" ألطف مظهر له، إذ كان بإزاء موقف فريد تمامًا. وكانت سحنهم تبعث على الذهول، يا لها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها فى صحيفته دويًا هائلاً!

وفى رقة مصطنعة، مال السيد "تريانا" على سيدة شابة منبطحة فوق التراب، شبه عارية، وهى تحتضن طفلاً وليداً، وازداد السيد "تريانا" انحناءً عليها، وأخذ يتفحص الطفل بعناية... كان ميتًا! وكان لا يزال فاغراً شفتيه، وكأنه كان يصر – حتى بعد الموت – على طلب الزاد!

ووضع السيد "تريانا" يده الغليظة فوق كتف الأم الهزيلة البادية العظام. كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة الظل، كى يلتقط لها صورة فوتوغرافية. ولكن حركته فجّرت فى ذلك الجو الساخن ما يشبه الصدمة الكهربائية، فتراجع إلى الوراء خطوة، وتطلع إلى ما يدور حوله...

كان الرجال والنساء جميعًا قد نهضوا فى حركة واحدة مرنة، وفى صمت، كأنهم أشباح فى كابوس مزعج... كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة... أما الضلع الرابع، فكان المخرج الوحيد من القرية... وعند هذا المخرج تجمع القوم كشخصيات فى إحدى " الرقصات " الأسطورية، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد

"تريانا"... وأخذوا يتقدمون نحوه فى صمت رهيب! ورأى السيد "تريانا" عشرات النظرات المتقدة المسلطة عليه... نظرات تنم عن تصميم لا يرد. ومضوا يقتربون، ويقتربون، ويزدادون اقترابًا!

وسرت فى أوصاله رعشة رعب... وراح يتراجع - وقد استسلم للخوف- بدافع غريزى- حتى أحس بجدار ساخن خلفه، فاستند إليه. محال أن يمضى إلى أبعد من ذلك! ومن كل الجهات حوله، ظلت ترمقه عيون قريبة، يصليه بريقها ويحطمه... عيون داكنة فى وجوه داكنة، غامضة، قاسية، ملتهبة.

ها هو ذا يشتم رائحتهم! كان كمن يترقب نهايته، دون أن يأتى بمجرد حركة يدافع بها عن نفسه، وبيد مرتعدة، فتح سترته، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد... وتلعثم قائلاً، وهو ينزع حفنة من الأوراق المالية التى بسطها:

- خذوا... هذه لكم!

وسقطت الأوراق من يده، وديست بالأقدام، وأجهز هذا الاحتقار - الذى قوبل به المال - على أعصابه وحطمها نهائيًا، فانهار ... وصرخ: " النجدة "!

ولكن صوته ارتد إليه مرتعشًا، بالغ الضعف!

- النجدة.. النجدة!

العيون... الوجوه... كل شىء ضده! وبغتة برزت أطراف الخناجر تومض شررًا تحت أشعة الشمس، صرخة مكروب، حادة ومتصلة! وفى السماء ذات الشمس الحارقة، شرعت العقبان تحوم... بلا عجلة، بل فى هوادة.

وفى "الشاليه" انقضى النهار ببطء، ولم يظهر السيد "تريانا" وقت الغداء، ولكن أحدًا لم يسرف فى القلق عليه، وإن كانت دقات الطبول الأولى قد أثارت فى نفوسهم

شعوراً غامضًا بعدم الارتياح... إذ كانت دقات الطبول تتصاعد – وسط وهج القيظ – بطيئة فى البداية، كأنها وجيب قلب هامد.

ثم أخذت تزداد سرعة وشدة، حتى أصبحت تدوى بوحشية ضارية.. وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الظافرة، يصاحبها ترنيم رتيب، رهيب!

وتناهت كل هذه الضوضاء إلى الجالسين فى "الشاليه"، فأخذ تتابعها السريع يلقى فى قلوبهم رعبًا لا سبيل إلى وصفه!

وحينما قرروا– أخيرًا– أن يخرجوا للبحث عن السيد "تريانا"، وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه... شعروا بها أمامهم وخلفهم... وكانت تدور، تدوى، فى نشوة عاطفة بدائيةٍ هوجاء!

ولم ير أحد السيد "تريانا" بل اصطدمت أبصارهم بوجوه خالية من كل تعبير... وجوه جامدة، لا سبيل إلى النفاذ إلى ما ورائها... وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى، فلم يكونوا يبصرون... وبالصمم، فلم يعودوا يسمعون!

ولم يلح الأغراب فى سؤال القوم... وكانت بهم حاجة إلى السؤال. إذ إن المخاوف التى خامرتهم، سرعان ما تجسدت أمام أبصارهم.. جسّدها منظر الطيور السوداء تحوم فى السماء، ثم تحط على مكان قريب... وسعوا إلى ذلك المكان، فانزعجت الطيور الجارحة، وطارت... وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة السيد "تريانا"... والحق أنهم لم يتعرفوا على الجثة إلا بالحدس... أو ما يشبه الحدس!

ودثروه فى ملاءة بيضاء، ورفعوه إلى سيارة النقل الصغيرة.. وكانت السيدة "جوردان" تئن بصوت واهن مبحوح.. وراحت "هيلين" تتطلع، وقد نضبت دماء وجهها – إلى "بريتام" وكأنها تهم بأن توجه إليه سؤالاً ما.

ولم يكن "بريتام" قد فقد شيئًا من هدوئه، مما مكنه من أن يُعجل باتخاذ التدابير للرحيل..

وعندما هموا بمغادرة المكان، بدأت الأمطار تهطل.. نقاطًا ضخمة ثقيلة، وأخذت تزداد غزارة، حتى تحولت إلى سيل تدفق فوق سقف السيارة، بينما كان قصف الرعود يتتابع فى هدير!

وتطلع الثلاثة الذين كانوا فى السيارة، كل إلى الآخر، فى صمت..

ومن خلال خرير المياه المتدفقة، وهزيم الرعود، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة، الظافرة، وكأنها تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها.. الأرض الجائعة، التى أخذت قوتها تعود إليها من جديد، فى تلك اللحظات.

***

الأستاذ والتلميذة

تأليف: بورشوتام دوربهال Burshutam Durbhal

من الهند

قال الأستاذ: "أرونا" إنني أشعر بالتعب.

فأجابت "أرونا" بنبرة حنان في صوتها: لقد أسرفتَ في العمل يا أستاذ.

فاستطرد الأستاذ وهو يلتفت إلى الفتاة: وأنت أيضا يبدو عليك الإرهاق.

فأجابت الفتاة وهي تبتسم لتطمئنه: لا أهمية لذلك مطلقًا.

كانت "أرونا" تنحدر من أسرة ثرية، وهي منذ طفولتها تدرس الموسيقى والرقص والرسم. ومع أنها لا تكاد تبلغ العشرين من عمرها؛ فإن موهبتها الموسيقية حققت لها نوعًا من الشهرة. وكان مدرسها الأستاذ "كومول"، مدير أكاديمية الموسيقى التي تحمل اسمه، يشعر بحنان بالغ نحو هذه التلميذة الصغيرة اللامعة. وكانت "أرونا" تشعر ببالغ السعادة إذ ترى أنها تحظى بتقدير مثل هذا الموسيقار الشهير.

كان الأستاذ الزاهد وتلميذته يكوّنان وحدهما فرقة تتمتع بإعجاب شديد من قبل الجمهور. وكانا عائدين لتوّهما من حفل موسيقى استطاعا فيه أن يحققا نجاحًا مرموقًا. ومع أن عددًا كبيرًا من الموسيقيين المشهورين شاركوا في هذا الحفل، فإن الحفاوة التي قوبل بها الأستاذ وتلميذته كانت أكثر حماسة مما قوبل به سواهما. لقد

غنت "أرونا" وعزفت على آلة "الفينا"، ورقصت بفن وبإحساس. وكان "كومول" فى مصاحبته لها قد استسلم لذلك الصوت، وشاعرية تلك الحركات الرشيقة التى حملته إلى قمم من السحر والفتنة يعجز عنها الوصف. ولقد رقص هو نفسه رقصة "شيفا". كان فناناً عظيماً، وكانت أرونا تحبه وتبجله.

وبعد عودتهما بقليل، أعلنت "أرونا" أن العشاء جاهز، ولاحظ الأستاذ قائلاً: إننا لا نجلس إلى هذه المائدة أبداً، قبل أن نكون قد شكرنا "شيفا". أيمكن أن تنسى ذلك يا "أرونا"؟.

فتمتمت أرونا قائلة: إننى أسألك المغفرة يا أستاذ... وقامت فى الحال بتقديم الشكر.

أشعلت مصباحاً صغيراً من الفخار، ووضعته فوق صينية من الفضة، ومعه كمية من البخور وبعض الزهور. وأمام هذه القرابين، قام الأستاذ بتلاوة الصلاة للإله "شيفا". وكان صوته يهتز من شدة الانفعال والتأثر. وكان قلبه يفيض بنشوة عجيبة.

شيء غريب، لقد تمنى لو أنه اقترن بـ "أرونا" ثم بكى مثل الطفل الصغير. ورمقها مرة أو مرتين بنظرة خاطفة. ولكنها كانت غارقة فى شكرها، مضمومة اليدين، مغمضة العينين؛ فلم تلحظه، ولم تدرك ما يعتمل فى نفسه.

كيف يمكن أن يخطر ببال "أرونا" أن الأستاذ كان فريسة اضطراب عميق؟ إن مكانته بالنسبة لها، كما هى بالنسبة للآخرين، هى مكانة الوالد العظيم.

وما أن انتهت من الشكر، حتى جلسا أمام وجبتهما الخفيفة. وأكل الأستاذ بطرف شفتيه، ثم نهض، وحذت "أرونا" حذوه وبعد انصراف التلاميذ، وصل الأستاذ إلى حجرته وجلس جلسته المفضلة، ساقاً على ساق، يفكر ويتأمل أن أحداً من التلاميذ، خاصة عند هبوط الليل، لا يمكن أن يدخل محرابه أبداً. ولكن "أرونا" التى بدأت تلاحظ

الغرابة على أستاذها، لم تستطع أن تتركه بمفرده. وعندما ظهرت عند عتبة حجرته، رفع "كومول" عينيه، وسألها بصوت مبحوح.

- لماذا جئت يا "أرونا"؟

- سامحنى، يا أستاذ، لقد خيل لى أنك تتألم.

- إننى أتألم فعلا، ولكن...

وعجز "كومول" عن تكملة جملته.

- لماذا تتردد فى الإفصاح لى عن دخيلة نفسك يا أستاذ؟

- أنت لا تستطيعين أن تفهمى يا "أرونا".

- ولكننى قد أساعدك إذا قبلت أن تطلعنى على سبب آلامك.

فهمهم الأستاذ بنبرة يائسة:

- إننى أشعر بأننى مقبل على حالة من الجنون.

- لماذا يا أستاذ؟

- أتريدين أن تعرفى سبب ما أعانى.. عذاب.. اذهبى هذا أفضل.

ولما لاحظت "أرونا" فى صوت أستاذها شيئًا من القسوة، عادت إلى حجرتها فى هدوء.

لقد كرس الأستاذ حياته بأسرها للفن، أكثر من عشرين عامًا، سالكًا حياة الناسك، متبعًا نظامًا صارمًا. ولم يسمح أبدًا بأى شعور دنيوى أن يعكر صفو روحه أو حواسه، كان الرقص وتعليم الرقص يمثلان حياته ذاتها. ومع ذلك فمنذ اليوم الذى اجتازت فيه "أرونا" عتبة الأكاديمية، طرأ عليه تغيير غريب، فقد راح عقله، وقد أفلت من كل نظام، يهيم فى طرق مجهولة. كان تفكيره فى "أرونا" قد بدأ يزداد شيئًا فشيئًا،

فعندما تكون بالقرب منه، لا يستطيع أن يحول عينيه عنها. وفى غيابها، فإن صورتها لا تبارحه. وكانت هذه الصورة تأتى لتقلقه حتى فى أحلامه.

كانت "أرونا" تجهل هذا كله. كانت تجهل أنها مسئولة عن اضطراب أستاذها. ومع ذلك، فقد ساورها القلق من أن تكون قد ارتكبت خطأ ما، ربما أحفظ عليها قلب أستاذها.

وفى غمرة دهشتها وحيرتها، لم تكن تدرى ماذا تصنع لتعينه على استعادة هدوء نفسه وطمأنتها.

ونامت نومًا عسيراً، وقد صممت أن تبحث حتى فى نعاسها عن أخطاء فى سلوكها الشخصى... واستيقظت فى ساعة مبكرة مضطربة. ولما لم تقو على النعاس مرة أخرى، فقد غادرت حجرتها.

العـــــــــدو

تأليف: نيرمال كومار مصطفى Nirmal Kumar Mustaphi

من الهند

ضجيج مكتوم لوقع أحذية طويلة. كان الجنود ينصرفون من الطوابير ونسى (هيرمان) أن يخرج من الصف، وظل بين المجموعة التى كانت تتفرق فى المعسكر ومازال حديث القائد يدوى فى أذنيه:

"لقد أعدّكم الجيش من أجل هذا الهدف النبيل، وهو الدفاع عن شرف الوطن، وطنكم. وهو ينتظر من كلٍ منكم ألا يطلق رصاصة إلا ليقتل بها واحداً من الأعداء. وألا يطعن طعنة بالسلاح الأبيض إلا ليمزق بها قلبه. أرجو لكم جميعاً عيوناً صائبة وأيادى ثابتة موفّقة".

"عيوناً صائبة وأيادٍ ثابتة موفقة.. عيوناً صائبة وأيادٍ ثابتة موفقة"، هكذا ظل (هيرمان) يردد هذه العبارات. وضغط على أسنانه واجتاز بخطى ثقيلة ساحة المعسكر.

كان الفصل خريفاً والوقت قبيل الغروب وألقى هيرمان نظرة أخيرة على المعسكر. كانت المعسكرات تحيط به من كل مكان. وكانت سحابات الدخان تعلوها. هذا المكان لا شك أنه يختلف تماماً عن بيته. ولكنه، وقد تلقى الأوامر بالذهاب إلى الجبهة، كان يشعر بالأسف لمغادرته. وقد أخبر رفاقه بهذا الشعور، فقال له (بيللى):

- الأسف الوحيد الذى يمكن أن تسمح لنفسك بالشعور به، هو ألا تقتل عدوك. فى الجيش لا يوجد مكان للمشاعر.

ولاح أن الآخرين متفقون على ذلك.

وتمتم هيرمان بشيء من الأسف والحرج قائلاً:

- أحيانًا أكون عاطفيًا، ولكن هذا الشعور لا يستمر.

ونظر فى ساعته.. لم يبق على الرحيل سوى ساعتين تقريبا، فقال:

- حان الوقت لكى نستعد.

وانطلق الآخرون فى أثره نحو القشلاق.

كان هيرمان مستعداً. كان يشعر فى عتمة الليل بجلبة محمومة من حوله. وأمعن النظر، فاستطاع أن يميز سيارات النقل كتلاً أكثر ظلمة وسط الظلام. وكان الليل به لسعة برد خفيفة؛ فأخرج قفازه الجلدى ولبسه؛ وشرع يقترب من سيارات النقل ببطء، ومكث لحظة بالقرب منها. ومن بعيد، جاءه صرير بعض عجلات السيارات، فعرف أنه الرحيل.

توجه إلى إحدى السيارات فوجدها قد اكتظت قد مُلئت تمامًا بالجنود. وكان قد تمنى أن يكون السفر مريحًا، كأن يكون بالسيارات سعة من المكان ليستطيع أن يمدد ساقيه. ولكن ها هو ذا يجلس مضغوطًا وقد جمع أعضاءه إلى جسمه. وسمع محرك السيارة التى شرعت فى الانطلاق.. وهبت نسمة باردة لتصفع وجهه؛ فجعل يدلك جبهته.. وبدأت بعض نقاط من العرق تسيل على وجهه.

شعر هيرمان ورفاقه بأن الأمور فى الخط الأول لا تجرى على النحو الذى يحدث فى المعسكر. فلم يعد ثمة ميل إلى التفاصيل كما كان الأمر فى مرحلة التدريب، فالحياة فى الجبهة مقتصرة على الحياة المحضة، إلا من غريزة المحافظة على النفس، تلك

الغريزة البدائية، بل والحيوانية تقريبا، وهى فى أشد صورها. كانوا منهمكين فى تناول عشائهم البسيط فى أحد المخابئ، دون أن يتبادلوا الأحاديث التى كان يحفل بها اجتماعهم على الطعام فى المعسكر.. وسمع صوت صفير حاد.. وانفجرت قنبلة بالقرب منهم فسقطت بعض الأتربة من جدران المخبأ. واستمر هيرمان يأكل فى الظلام.. وكان الأكل فيه طعم التراب، لعله التراب الذى سقط من الجدران. وشعر بالقرف، لكنه استمر فى إصرار وعناد فى ازدراد الطعام. كانت تلك هى الحياة فى الجبهة؛ أو على الأقل جزء من هذه الحياة.

وتوقفت شظايا القنبلة، وتلقت جماعة هيرمان الأمر بالتقدم وهى تحيط بالعديد من جيوب العدو. فتقدمت.. وفجأة ارتفع ضوء خرج من خطوط الأعداء وانتشر. وأصبح فى الإمكان رؤية كل شيء واضحًا. وشرعت مدافع العدو فى القذف بصورة مكثفة: "مدفع من اليسار، ومدفع من اليمين..." وتذكر هيرمان أنه قرأ هذه العبارة فيما قرأ؛ وقال لنفسه: "إذن لم يكن الأمر مجرد إبداع شاعر". كان (بيللى) بجواره، فضغط على أسنانه وقال:

– لو أمسكت بهم، هؤلاء الأوغاد، لكنتُ... لكنتُ....

وأصابته رصاصة فى صدره فأوقفت سيل رغباته الانتقامية. وجثا هيرمان على ركبتيه بسرعة؛ وتحسس جسم بيللى.. ما من رد فعل.. وفى وميض نور رأى كم أن الموت حقود لا يرحم. وسمع فى أذنيه طنينًا ضعيفًا يقول: "لا تطلق رصاصة إلا لتقتل واحداً من الأعداء" ونهض، وجعل يجرى بصورة عشوائية.

وكانت السماء من حوله تمتد إلى ما لا نهاية، تتخللها نجوم تعد فلا تحصى، وكذلك الأرض تمتد إلى ما لا نهاية، الأرض التى دمرتها القنابل. وراح هيرمان يزحف فوقها الآن. وبين لحظة وأخرى، كانت تسقط القنابل فتمزق الجو من حوله. وتضيء فوهات المدافع، وتطلق المدافع الهاون.. ووسط هذا الدوىّ تُسمع همهمات وصيحات يائسة. كانت ركبتا هيرمان ممزقتين حتى العظام؛ لكنه لم يكن يأبه بذلك. فلم يبق

سوى ثلاثين متراً بينه وبين الأعداء الذين كانوا يستخدمون الرشاشات. وكان يقترب منهم شيئًا فشيئًا، وهو يزحف على الأرض. وأصبح فى مقدوره الآن أن يراهم، وكانت بيده قنبلة يدوية جاهزة. وفجأة شوهد نور آخر أضاء كل شىء، وفتح الأعداء عليه النار. فاندفع وابل من الطلقات. وعلى أثر ذلك، وفجأة، انفجرت القنبلة فى مجموعة رجال المدافع الرشاشة، لقد أصابت القنبلة هدفها. فإما هو إما هم. وشعر برجفة لم يشعر بها من قبل. وقال فى نفسه: "عمل عظيم!" وقد شعر بالرضا عن نفسه. وتوقف ليسترد أنفاسه. وبعد لحظة، شرع فى السير؛ لكنه تعثر بعد خطوات قليلة، وسقط فى أعماق فوهة إحدى القنابل. سقط سقطة ثقيلة ووجهه فى الطين. وشعر بأنه أصيب فى ركبتيه إصابة شديدة، ومن المحتمل أن تكون بهما كسور. وابتلع الصرخة التى كانت تهم بالخروج من حلقه، وضغط على ركبتيه ليرى إذا كان فى ذلك ما يهدئ الآلام. فأحس بشىء يبلل يده، فقد كانت الركبتان تنزف دماً؛ وتمكن ببطء شديد من أن يستند على جدار الفوهة. فسقط تراب رطب كأنه سقط من كرّاكة، فامتلأ فمه بلعاب مالح. وبدأ كل شىء يدور حوله.

حينما استرد وعيه، كان الصباح قد طلع. ولما فتح عينيه أراد أن يتحسس ركبتيه، فوجدهما فى حالة سيئة للغاية. وحاول أن ينهض، لكنه لم يستطع إلا أن يحرك قدميه بالكاد. وشعر بالرغبة فى البكاء من اليأس، وقال فى نفسه: "بالأمس فقط !..." وبحث بعينيه عن البندقية، كان طرف السنكى يظهر من فوق رأسه.

كانت البندقية قد سقطت فى الحفرة حينما هوى فيها، وكانت على بعد سنتيمترات من يده المبسوطة. لو يستطيع فقط أن ينهض. ولما لم يكن هناك شىء أفضل يفعله، فقد فتح علبة طعام (جراية). كان يريد أن يأكل شيئًا. لكنه توقف عند أول قضمة، فقد سمع ضوضاء خفيفة مسترقّة تقترب منه، وتقترب.

وما هى إلا لحظات حتى ظهر له وجه إنسان، أعلى حافة الفوّهة. ورأى هيرمان خوذة الرجل وعرف أنه من العدو. وأراد بطريقة غريزية أن يقبض على بندقيته ناسيًا

تماماً ركبتيه المصابتين، وفيما كان يبذل جهده، سقط فى قاع الحفرة وندّت عنه صرخة تثير الشفقة.

حينما أفاق من غيبوبته، رأى وجهًا قلقًا مهموماً يميل عليه. كان هو الوجه الذى أطل عليه من فوقه فوهة القنبلة. رآه وتذكر كل شىء. وأخرج العدو زجاجة وقدم إليه بعض الماء ليشرب. فنظر إليه هيرمان مفزوعًا. فما كان من الرجل الذى يرتدى سترة العدو إلا أن قال:

- نعم، يا أخى العزيز !

وفى حنان بالغ، راح يسند رأسه بيده اليسرى. وتطلع هيرمان إلى ساقيه، فوجدهما ملفوفتين بكل مهارة وعناية فى قطع من القماش. وقال الرجل:

- هل تشعر بألم شديد يا أخى العزيز؟

كان من العسير على هيرمان أن يصدق أن المتحدث كان واحداً من أعدائه. ومهما حاول أن يبدو متجهمًا خشنًا، إلا أن عينيه دمعتا ثم امتلأتا بالدموع:

- ساقاك فى حالة يرثى لها. لا بد من إحضار طبيب(*).

فسأله هيرمان قائلاً:

- كيف يمكن ذلك؟

- ألا تستطيع أن تخبرنى أين يوجد الإسعاف الخاص بكم؟

وظن هيرمان أن الرجل يمزح، فقال بنبرة حادة:

(*) وردت الكلمة العربية هكذا: "toubib"

- أنت تعرف جيداً ما يمكن أن يحدث لك، لو أنك..

فقال العدو باسماً:

- نعم، سيقبضون علىّ أو يقتلونني، ولكنني أكون قد قمت بعمل عظيم. "عمل عظيم!".

وتذكر هيرمان أنه استخدم هذه العبارة. تذكرها وشعر بالخجل.

ونزع الرجل خوذته فى حركة حاسمة. وجعلها على طرف سلاحه الأبيض (السنكى) ورفع بندقيته فى الهواء؛ ومكث على ذلك لحظات، ثم أنزل البندقية.. وألقاها على الأرض، ثم ارتدى الخوذة من جديد. وقال بنبرة رقيقة:

- والآن، يا أخى العزيز، أخبرنى أين الإسعاف الخاص بكم.

فقال هيرمان مندهشاً:

- ماذا تنوى أن تفعل؟

فقال الرجل مبتسماً:

- أخبرنى وستعرف كل شىء.

- ابحث عن جرس الكنيسة ناحية الشمال؛ فإسعافنا بالقرب من الكنيسة.

وبكل حذر، نهض الرجل وألقى حوله نظرة فاحصة. كان يلزمه عدة دقائق ليبلغ الكنيسة. فقد كانت على بعد مسافة طويلة بين خطوط العدو. وجثا على ركبتيه بجوار هيرمان وقال:

- ربما ستتألم، ولكن ليست هناك وسيلة أخرى.

ورفع الرجل هيرمان بسهولة ويسر، وجعله على حافة الحفرة. ثم اعتدل وتمدد بجوار هيرمان وقال له:

– والآن، تسلق فوق ظهرى ببطء.

وراح الرجل وعلى ظهره هيرمان يمضى نحو الكنيسة البعيدة. وتقدم مليًا وهو يجرح ركبتيه وكفيه ووجهه، ونزف منه الدم بغزارة. ولكن هيرمان أيضًا كان يتألم، لكنه شعر بالسعادة وهو يقترب من الإسعاف. وترك نفسه ينزل على الأرض ببطء شديد.

أما الرجل الذى كان يحمله، فقد جلس مبتهجًا على الرغم من الدماء والطين التى كانت تغطى جسمه. وشعر هيرمان لحظة بأنه عرف معنى الملاك الحارس. ولكن آلامه المبرّحة عاودته من جديد. واحمرت أربطة ساقيه من الدماء. وحاول أن يقابل ذلك بابتسامة عرفان وشكر، لكن الألم غلبه وراح فى غيبوبة.

وحينما عاد إلى الوعى، رأى حوله بعض الرجال.. لم يكن يتذكر شيئًا.. فحاول بصعوبة أن يجمع حواسّه ويتذكر ما حدث، وفجأة سألهم:

– أين الرجل؟

فقال له أحدهم:

– لا عليك. لقد كاد يحقق هدفه، لكننا، لحسن الحظ، وصلنا فى الوقت المناسب وقضينا عليه... القذر! يجرؤ على أن يأتى حتى هنا ويحوم حول المستشفى!

وشعر هيرمان بفؤاده فارغًا. وأشاح بنظره وأراد أن يبكى؛ لكنه لم يبك. وحطت عيناه على جرس الكنيسة وكان الجرس يلمع تحت الشمس وقد أصابه دمار الحرب.

***

الأصيل يهبط على أورشليم القدس

تأليف: ويرى كيسّارى Ouiri Kessari

من إسرائيل

نزع الضابط غليونه من فمه واجتاز الحجرة لكى يفتح النافذة. ذلك أن العمل الذى كان يقوم به بدأ يصيبه بالقرف. وكان رئيس المخابرات العامة هو الذى كلفه به، حيث قال له الكولونيل:

– هذه مسئولية كبرى يا صغيرى، أنت وحدك الحكم هنا، سيكون عليك أن تحكم على التاريخ، بل أكثر من ذلك على إمبراطورية: "الإمبراطورية البريطانية".

وابتسم الضابط أرمسترون فى هذا الهواء المنعش فى ليلة من ليالى شهر أبريل الذى يغشى مدينة القدس ويبدو أنه يتقدم حتى إفريز النافذة.

كانت هناك حزم عالية من الوثائق فوق المكتب، ومن حوله مئات من الاستمارات من كل الأنواع وبجميع الأحجام، منها الطويل ومنها السميك ومنها الرفيع، وعلى كل منها بطاقة خاصة. يبدو أن رائحة الإمبراطورية تخرج منها أو ربما هذا ما أراده الضابط. تراب ثلاثين عامًا تراكمت فوق الملفات. روح الجنرال ألمبى الحازمة، القائد البريطانى وقد بُعثت هنا من جديد، فى عام ١٩٤٨، قابعة فى قلب هذه الوثائق وكأنها، إن لم يحدث شىء مضاد، ستظل قابعة إلى ما شاء الله.

كانت الأيام الأخيرة من الانتداب البريطانى على فلسطين بعد واحد وثلاثين عاماً من استيلاء قوات ألمبى على القدس، وهاهى القوات الإنجليزية تستعد لمغادرة المدينة.

كان الضابط أرمستورنج يحلم بأن يكون شاعراً أو يكتب روايات. وقد وافق لأسباب قاهرة، على الالتحاق بالمخابرات العامة. لكنه لم يكن فى يوم من الأيام فى أى مناسبة عنصراً نشطا. حينما استدعاه الكولونيل مع نحو دستة من الضباط لكى يتولوا فحص الوثائق، ليقرروا أيها يجب أن يعدم، حينئذ شعر بالغثيان.

كم تضم هذه الوثائق من رجال وأشياء وأحداث.. أسماء عربية وعبرية وإنجليزية. نوعيات من الأماكن، والأبنية والمواريث؛ من المؤامرات والخيانات والجرائم ومعلومات شرطة عليا وشرطة أقل درجة، كل ذلك محرر بكل دقة داخل هذه الملفات.

وعلى حين فجأة، لمع فى عينى الضابط بريق الاهتمام. كان قبل قليل قد فتح ملفا صغيراً يحتوى على خطابين من عدة صفحات مكتوبة على الآلة. وكان الغلاف الرمادى يحمل بيانات بسيطة؛ تاريخان: ١٩١٧-١٩٣٢، وفى أسفل الملف: الجاويش "أندرو ماك لين" الفرقة ٢١ رماة. لواء ١٥٥ وسالومون اليهودى.

وشرع فى قراءة الملف:

لقد بدأ الموضوع نحو عام ١٩١٧- بمجرد أن استولى ألمبى على القدس، صدرت الأوامر إلى جميع القادة بتطهير الجيوب التركية التى من الممكن أن تكون موجودة فى جنوب البلاد - ففتحت جميع المدافع النيران يوم العشرين من ديسمبر على المواقع التركية فى كانكادرا، وفى مساء اليوم التالى قام اللواء ١٥٥ من الفرقة ٥٥ الاسكتلندية بعبور نهر عوجه فوق الرموث استعداداً للهجوم.

واتخذت الجبهة موقعها فى الشمال، وانسحبت القوات التركية نحو الجنوب. لكن ظل هناك بعض جنود المقاومة وبعض القناصة المنفردين. وعلى الرغم من ضعف المقاومة؛ فإن القوات البريطانية كان عليها أن تهيئ المنطقة للمشاة، وجعلت دواب

الرماة تدوس فى طريقها جثث القتلى والمصابين، ولم تكن الحوافر الغليظة لتفرق بين الأموات والأحياء وسط حرارة الملاحقة.

فى ذلك اليوم كان الجاويش أندرو ماك لين - وهو من جلاسجو - على صهوة جواده على رأس مجموعة من الجنود. وعلى حين فجأة، ظهر فوق الأرض كومة من الجسد الحى الذى كان يتلوى من آلام الجراح، و التفت فى حركة تشنجية، وإذا بعينين على سعتيهما فى وجه دام تتوسلان إلى الجندى فى تضرع صامت يوجز كل ألم. العينان! وفى لمح البصر، وفى اللحظة التى كانت حوافر الدابة تهم بالانقضاض على رأس الطفل، جذب أندرو ماك لين العنان، فانتصب جواده على قائمتيه الخلفيتين وانعطف. ونزل أندرو؛ وإذا بنظرات الطفل تمزق قلبه. فجثا على الأرض وهدهد الجسد الصغير الذى يئن تحت الخرق البالية.. كانت الدماء تنزف بغزارة من الساقين والذراعين.

وكان العريف أرشى جوردون خلف أندرو ماك لين، فأوقف جواده ونظر إلى الطفل وقال:

- مجروح. يا لهما من عينين براقتين!

فسأله الجاويش قائلاً:

- ماذا سنصنع به؟

فأجاب العريف قائلاً:

- اللعنة! فلنحمله أولاً ثم نفكر فى أمره بعد ذلك.

فقال أندرو وهو يجذب الطفل الذى كف عن أنينه:

- حسناً.

وانطلق الرجلان عدواً، فى أثر الجماعة التى كانت قد اختفت فى الأفق.

وقام الرجلان بعد ذلك بعلاج الطفل، كان فى نحو الثامنة من عمره وكان يتحدث لغة ألمانية ركيكة. كان فى الصباح فرداً فى أسرة يهودية. ولكن حينما التقطه أندرو كان قد أصبح يتيماً. كان اسمه سالومون وكان اسم العائلة صعب النطق فلم يحاول الرجلان النطق به. وأصبح الطفل يعرف باسم سالومون فقط.

واسترد الطفل قواه شيئًا فشيئًا. كان مظهره لطيفًا ومحياة أشبه بالملاك. كان فى بادئ الأمر باروكة بالنسبة لمجموعة الجنود الصغيرة، ثم للفرقة كلها. ولم يلبث أن أصبح يتكلم الإنجليزية قليلاً. وكبر واسترد خداه لونيهما وأصبح لونه برونزياً.

وذات صباح لمحه الكولونيل فدمدم قائلاً:

– ما هذا؟ هل نحن فى مدرسة حضانة هنا؟

ووبخ الماجور الذى نقل التوبيخ إلى الكابتن، وتدرج التوبيخ إلى أن وصل الموضوع إلى أن صدر الأمر بالتخلص من الطفل. فليس هناك مكان للأطفال فى معسكرات الجيش فى أثناء الحرب. فكان لا بد من أن يعهد به إلى السلطات المدنية.

– أى سلطات مدنية يا سيادة الكولونيل؟ لا توجد سلطات مدنية. ليس هناك سوى السلطات العسكرية.

– حسناً، إذن سلموه للجالية اليهودية.

– لكنهم يا سيادة الكولونيل فقراء معدمون كفئران الكنيسة، عفواً، فئران المعبد. ثم، التخلص من جوهرة كهذه ! هل رأيته عن قرب يا سيادة الكولونيل؟

فنظر إليه قائد اللواء عن قرب، وتمتم قائلاً:

– هوم ! صحيح. وجهه جميل. ينبغى حمايته.

قال الكولونيل تقريبًا: "ينبغى حبه"، وأرسل فى طلب الجاويش والأنباشى، ذانك المجذوبان. فبادر أندرو قائلاً: "إن وحدات أخرى لديها الباروكات الخاصة بها من حمير

وماعز وقردة. كلنا يعرف ذلك، فلماذا لا يكون سالومون باروكتها هى؟ ولم يقل الكولونيل نعم، لكنه لم يقل لا. وفى اليوم التالى، وجه بعض العبارات إلى الطفل اليهودى الذى أجاب على كل ما قيل له بـ "نعم، يا سيدى". وفى اليوم التالى مسح على رأسه. وتم تفصيل بدلة على مقاسه، زى عسكرى، عن طريق خياط الفرقة. كما سلموه زوجًا من الأحذية، ثم دربوه على ركوب الخيل، فكأنه خلق من أجل ذلك. وبعد أربعة أشهر، حينما انتقل اللواء إلى الشمال، كان سالومون يمتطى صهوة جواد خلف الكابتن فى أثناء الدوريات التى تتنقل بين المدن والقرى التى تم الاستيلاء عليها.

ومضى الزمن. واستمر صعود اللواء مع الدواب والمستلزمات نحو الشمال، دائمًا إلى الشمال. وفى سبتمبر من عام ١٩١٨ شارك المجند الصغير مع الفرقة فى الاستيلاء على أطلال الإمبراطورية العثمانية.

وفى أثناء إحدى المعارك فى الجليل قتل الأنباشى أرشى فبكاه سالومون بكاءً مريرًا، ثم كفله أندرو ليعوضه عن خسارته ويذهب عنه الكرب.

ولكن حتى الحروب تنتهى فى مناطق معينة وفى وقت معين. وهذه المرة كانت بيروت بالنسبة للواء ١٥٥. كانت وسائل النقل فى الميناء فى انتظار لحظة ترحيل الجنود العاملين إلى مسقط رءوسهم. وقال أندرو لسالومون وهو يداعب شعره:

– لن أتخلى عنك يا صغيرى.

وذهب لمقابلة الكولونيل وتوسل إليه أن يصرح له بأخذ الطفل معه. غير أن الكولونيل هذه المرة كان حاسمًا. فهناك لوائح وتعليمات لا يمكن مخالفتها. ثم إن الأمر لم يعد فى حدود صلاحياته. فكيف ينقل الطفل إلى إنجلترا، بأى صفة؟ كأسير حرب، أو غنيمة، أو ماذا؟

واتفق على أن يلحق الطفل بإحدى المدارس.

– سنرى فيما بعد، لعل القدر يخرجنا من هذه الورطة.

وهكذا ودع سالومون الجنود، الضباط، الجياد، الخيام والأعلام، الكولونيل، الجاويش أندرو ماك لين، الذى بكى بكاءً حارًا واحتضن الطفل بكل عطف وحنان وقبله فى عينيه وضمه إلى صدره بكل قوة ثم بكى. فقال له رئيسه مؤنبًا، وهو يمسح أثر الدموع تحت عينيه:

– كفى! أنت جندى أم امرأة؟

وأرسل سالومون إلى الشمال، إلى يافا، حيث ألحق بالمدرسة. وعاد أندرو ماك لين إلى إنجلترا.

وقطع الكابتن أرمسترونج قراءته؛ فقد كان يشعر بانقباض فى القلب، ربما من الحزن. يا لها من حكاية جميلة. كان من الممكن أن تنتهى عند هذا الحد فى عام ١٩١٨، لولا أن جاويشا اسكتلنديًا كان لا يزال متعلقًا بالطفل اليهودى. فقد حدث ذات يوم، بعد نحو خمس عشرة سنة، أن تلقت المخابرات العامة رسالة من جلاسكو. "هل يمكن أن نعرف أخبارًا عن شاب اسمه سالومون ألحق بمدرسة يافا عام ١٩١٨ ومن المفروض الآن أن يكون فى الرابعة أو الخامسة والعشرين من عمره". وقال أندرو ماك لين فى رسالته: "أرجوكم اسألوا سكان فلسطين أن يساعدونى فى العثور على الشاب الذى كان قد انضم إلى الفرقة ٢١ رماة، وصاحب لواء يافا إلى بيروت.

وطوى أرمسترونج الصفحة. ولكن لم يصل شىء عن سالومون أو عن أحد يعرفه. وأرسلت رسالة ثانية مختصرة قبل شهر من اندلاع حرب ١٩٣٩ كتب فيها أندرو يقول: "أخبرتمونى فى ردكم على رسالتى بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٣٣ أنكم تهتمون بالموضوع المذكور. فهل فشل البحث حتى الآن؟ أنا الآن فى الخمسين من عمرى. ولن أنساه ما حييت. أرجوكم، اتعبوا معى قليلاً".

وبعد شهر، كان هتلر يكتسح أوروبا. وجاءت حرب جديدة فمحت موضوع أندرو سالومون، وقامت المخابرات العامة بمحاولات جديدة واهتمامات جديدة، وعادت إلى ملفات جديدة. حقًا، كان الاهتمام بمثل هذا الموضوع التافه يعد ضربًا من الجنون.

وأغلق أرمسترونج الملف وألقاه جانبًا بطريقة آلية فوق كومة الملفات "المطلوب إعدامها" وتثاءب وتمطى. كانت الساعة السابعة وكان ضوء الصباح قد تسلل من النافذة وعضه الجوع، فنظر من النافذة إلى الحواجز الحديدية المنتشرة والمحيطة بمنطقة الأمن الإنجليزية لحمايتها من اليهود المتعصبين المتطرفين. وفكر فى سالومون الصغير وابتسم وقال فى نفسه: "الحياة لها سخرياتها".

وشد حزامه وسوى شعره بالمشط ونادى فى الممر على الطباخ وهو من جنوب إفريقيا:

- قهوة ساخنة وبيض بالخنزير.

وعاد إلى تأملاته، وعلى حين فجأة، وكأنما بدافع داخلى، مدّ يده إلى الملف الأخير الذى كان قد ألقاه قبل قليل على الملفات المطلوب التخلص منها. ورجحه فى يده لحظة وهو يبتسم فى عاطفيته ثم وضعه فى أحد الأدراج.

والتهم طعامه بشهية الرجل السعيد الواضح السريرة. وقبل أن ينام شعر بأن عليه أن يفعل شيئًا آخر. فقام ونادى فى اتجاه أحد المكاتب فى الممر:

- أمباشى مارتان، ممكن تأتى لحظة؟

وبعد أن حياه الأمباشى قال له:

- مارتان، عندى تقارير ممتازة عنك. أنت نموذج جيد وتعرف أشياء كثيرة. أنت تعرف اللغة العربية واللغة العبرية.

- نعم، يا سيدى.

– يبدو أن هذه اللغات السامية تستهويك.

– ليس بالضبط يا سيدى، لكن هناك أسبابًا خاصة لكى أتعلم اللغات المحلية.

– فهمت. حسنًا. أخبرنى إذن، ومن فضلك سامحنى على تطفلى. هل أنت متزوج؟

– ليس بالضبط يا سيدى، لكن.

– لكن لك صديقة.

– نعم، منذ ست سنوات.

– عظيم. صديقتك يهودية، أليس كذلك؟

– نعم، يا سيدى.

لننتقل الآن إلى سؤال أخير. أنت تابع للقطاع العربى؟

– كلا يا سيدى، للقطاع اليهودى.

– هذا ما أريد أن أسمعه. هل لديك كثير من الأصدقاء اليهود؟

– أصدقاء، هذا كثير فى هذا القطاع. ولكن يمكن أن نقول "علاقات".

– فى هذه الحالة، أيها الأمباشى، فأنت الرجل الذى أحتاجه. سأكلفك بمهمة خطيرة. أوه ! لا تقلق هكذا. أريد فقط معلومات عن شخص اختفى منذ عام ١٩١٨.

فعاد الأمباشى إلى ابتسامته من جديد.

– أنا حتى لم أكن ولدت بعد فى هذا العام.

– طبعًا، وأنا نفسى كنت فى العاشرة. أبى عاد من كوت العمارة بصليب النصر فوق صدره. لكن هذه قصة أخرى.. اليوم الموضوع مختلف.. خذ هذا الملف ستجد فيه قصة رائعة، لكن تنقصها الخاتمة السعيدة وعليك أن تجدها.

– نعم؟

– نعم، نعم، يا أمباشى. القدر آلة هائلة لكن تحتاج لمن يدفعها.

وبعد نصف ساعة دخل الأمباشى مارتان حجرة الكابتن أرمسترونج .

– رائعة، يا سيدى، فعلا رائعة.

– حسنًا، إذن عليك أن تعرف ما جرى لسالومون الذى بلغ الآن أربعين سنة. يمكنك أن تطلق على هذا الموضوع "العملية القدر". أنا أديرها من تلقاء نفسى. حينما أعود إلى بيتى أريد أن أحمل هذه الهدية إلى ذلك الاسكتلندى ذى القلب الكبير أندرو ماك لين. إنهم أناس مثله الذين يذكرونك بأنه لا يزال فى العالم جمال. هل ستمد لى يد المساعدة ؟

– بكل تأكيد يا سيدى.

وفى يوم ١٢ مايو تذكر أرمسترونج أنه لم يتلق أخبارًا من الأمباشى مارتان باستثناء مكالمة هاتفية. أخبره فيها مارتان بأن الآثار قد محيت وأنه من الصعب العثور على أول الخيط. وأخبره أرمسترونج أن الوقت ثمين، إذ عليهم أن يغادروا البلاد فى منتصف شهر مايو. والآن لم يبق سوى يومين أو ثلاثة على ١٤ مايو، وهو اليوم المحدد لمغادرة آخر إنجليزى لأرض فلسطين.

وبينما أرمسترونج غارق فى أفكاره، ظهر مارتان على الباب. أدى التحية وأثنى على رئيسه كالمعتاد، ثم أخرج من جيبه بطاقة صغيرة.

– لم يكن الأمر سهلاً يا سيدى، ولكن القصة هنا.

- عظيم. اجلس أمام هذه الآلة.

فنفذ الأمباشى الأمر وبدأت الآلة تتحرك من اليمين إلى اليسار. وبعد لحظة قاطعه الكابتن بصوت حاول أن يجعله رقيقًا.

- ربما يكون من الأفضل أن تلخص لى الموضوع. بعد ذلك يمكنك أن تنتهى من كتابة التقرير.

- كما تريد يا سيدى ... لقد درس سالومون فى مدرسة الجزويت الفرنسية فى يافا التى كان قد التحق بها عام ١٩١٨. بعد ذلك انتقل إلى حيفا، ثم صفد. وتعلم مهنة وصار ميكانيكيًا في عام ١٩٢٨. وفى نحو العشرين من عمره، تزوج سيدة وأنجبت منه توءمًا، ولدًا وبنتًا.

وبسبب انتشار البطالة، سافر سالومون إلى أستراليا ليجرب حظه. وفى البداية كان يكتب إلى زوجته بصفة منتظمة ليخبرها بأن الأمور تسير على ما يرام وأنه سيرسل إليها نقودًا لها وللابنين. ثم كتب إليها بأنه سيعود، ثم كف عن الكتابة. وبعد ذلك لم نعرف عنه شيئًا.

وهنا سأله الكابتن وقد خاب ظنه:

- هذا كل شىء يا أمباشى مارتان؟

- ليس تمامًا. هذا كل ما يخص سالومون. لكننى عرفت زوجته، فهى تسكن فى طبرية في المنزل نفسه الذى أمضت فيه السنوات الأولى من زواجها. وبالمناسبة هى جميلة جدًا يا سيدى. وقالت لى إنها لا تعتقد أن زوجها سيعود مرة أخرى.

فسألتها: "هل تعتقدين أنه لا يزال على قيد الحياة؟ فرفعت عينيها كما يفعل الجميع هنا فى الشرق كى تقول "الله وحده الذى يعلم"، وقد أطلعتنى على صورة

فوتوغرافية للجاويش مع سالومون وهو صغير. وعليها مكتوب: "إلى ابنى العزيز سالومون، أندرو ماك لين، سبتمبر ١٩١٨".

– قلت لى إن له أبناء. ولد وبنت. ماذا تعرف عنهما ؟

– البنت ماتت وهى صغيرة، أما الولد فقد انضم إلى اليهود المتطرفين، جماعة Irgun Zevai Leumi وقد قبض عليه مع اثنين آخرين فى هجوم قاموا به ضد قافلة عسكرية.

وتردد صوت الأمباشى ثم استطرد يقول:

– قدم إلى محكمة عسكرية وحكمت عليه بالإعدام. ونفذ فيه الحكم مع زميليه فى سبتمبر ١٩٤٧. كان إبراهيم سالومون فى التاسعة عشرة من عمره. وقد أطلعتنى أمه على صورته وهو فى العاشرة. كانت تضع الصورة بجوار صورة زوجها حينما كان فى السن نفسها. وقالت لى: " أنظر ألا يتشابهان كنقطتين من الماء؟".

وكانت على حق، يا سيدى.

وهنا قال الكابتن أرمسترونج:

– أشكرك أيها الأمباشى. أنت قمت بالواجب، ويمكنك أن تنتهى من تقريرك الآن.

وعاد مارتان إلى الآلة الكاتبة، وراح الكابتن ينظر من النافذة.. كانت أصوات أجراس تسمع من بعيد كأن جميع كنائس القدس، القدس الشريف، تقرع أجراسها معًا بصوت واحد.

ونهض الأمباشى مارتان قائلاً:

– لقد انتهيت يا سيدى

وأعاد قراءة التقرير، وذهب إلى المكتب وضمه إلى حزمة الملفات.

فقال الكابتن وهو يوقفه:

– لحظة. أعطنى الملف.

وأخرج ولاعته وأشعلها وببطء شديد جعل يحرق أوراق الملف ورقة ورقة. وقال:

– لقد أردت أن أقدم هدية للأمباشي؛ لكن أندرو ماك لين ولد لكى يواصل على الأرض مهمة الأسباط الاثنى عشر. كان رجلاً يؤمن بالله، ومن الأفضل أن نتركه مع أوهامه.

وبدا كأنه يكتم غصة وأخيراً قال بصوت حازم:

– أيها الأمباشى. أرجو أن تعدنى بأن تظل هذه الحكاية مدفونة فينا، وإذا تصادف ووجدت نفسك فى جلاسجوف فحاول ألا تضعف وتحكى مغامراتك، الرائعة، أو الحزينة كهذه المغامرة.

وطرق الباب ضابط صغير ثم دخل وأدى التحية ثم قال:

– السفر فى الخامسة صباحًا يا سيدى.

وتهكم ودار على عقبيه وتمتم قائلاً:

– الحمد لله.

وقال أرمسترونج وهو يشد على يد مارتان:

– أتمنى لك حظًا سعيدًا وسعادة فائقة.

– شكرًا يا سيدى، وأنا كذلك.

كان الأصيل قد بدأ يهبط على أورشليم القدس.

***

فـى مـواجـهـة المـوت

تأليف: هـورسـت جيـرانـوالـد Horst Grunwald

من ألمانيا

منذ فترة وجيزة تمت إجراءات حصرهم، فكان هو سادس من فى الصف، وتطلع إلى العُمد الثلاثة المثبتة فى الأرض على بعد عشرين خطوة منه، ثم حطت عيناه على الوجوه غير المكترثة، وجوه الجنود. ثم حدث نفسه قائلاً:

- ما هى إلا لحظات حتى أموت.

وعاد بذاكرته إلى الوراء، باحثًا عن شىء يأسف عليه، أو عمل يندم على إتيانه، لكن ذاكرته لم تسعفه ولم يجد شيئًا، كل ما هناك أنه استيقن أن حياته كان من الممكن أن تكون أكثر ثراء، وأنه كان من الممكن أن يعمل أكثر مما عمل.

وتدفقت الذكريات، وتزاحمت أشلاءَ حياةٍ فى نظرةٍ منه خاطفة. وتذكر عندما كان طالبًا بالكلية الحربية ثم ضابطا.. أجل! كان على حق عندما ترك الجيش. إن الحياة فى نظره يجب أن تكون شيئًا آخر غير تلك. ومنذ تلك اللحظة الماضية، لم يستطع أن يتخلص من الشعور بالقلق والسخط. كان يريد أن يمسك بالحياة؛ فكان يتشبث بها بكل ما أوتى من طاقة وقوة. وكان يقف ملتاعًا مضطربًا أمام لجج نفسه، متأملاً فوضاها تلك التى كان عليه أن ينظمها.

عندئذ بدأ يكتب، كتب صفحات وصفحات. وظل يكتب حتى نسى الجوع الذى كان يصرخ فى أحشائه. وشيئًا فشيئًا تكشف له مصيره فى وضوح وجلاء. فإذا شخصيته الحقيقية تتراءى له، ويرى أمامه نورًا باهرًا يأخذ ببصره، وينفتح أمامه الطريق الجديد، طريقه؛ لقد عاهد نفسه على أن يجعل من شخصه المدافع عن جميع الأذلاء والمستضعفين على وجه الأرض. فأخذ يكتب ويكتب بلا انقطاع. كان يضيف السطور إلى السطور، وكان كل سطر ينبثق من سيل حياته العارم الذى كان يتدفق فى أعماقه، كان أشبه بالموج الذى طال احتباسه. فانتهى الأمر إلى تحطيم جميع الحواجز التى كانت تحول دون انطلاقه.

لم يعد هناك ما يروّعه، لا القانون ولا العرف، كان فى صراع أشبه بصراع الملاك والشيطان وكانت ساحة القتال هى نفس الرجل.

وذات يوم أدرك أنه نال الوطر، وأنه بلغ درجة الحب المجرد عن الغرض، المستعد لجميع ألوان التضحيات المتأهب لجميع أنواع النضال. وجعل يبحث عن أمثلة سابقة فوجدها فى المسيح، وأدرك أن الذى صنعوه به كان عملية لا يمكن تجنبها. ومع ذلك فقد واصل السير فى الطريق الذى خطه لنفسه.

وذات يوم طلب إليه الناقد (بيلينسكى) أن يمر عليه فى مكتبه. وكان هذا الناقد قد قرأ مخطوطاته. وكان صاحبنا يتوقع منه كل سخاء، من هذا الناقد المعروف بذكائه وتشدده وقسوته، كان يتوقع كل سخاء إلا ما حدث فعلا.

- "آه... هذا أنت يا صديق... هل أنت مدرك تمامًا ما كتبت؟ أمن الممكن أن تفهم كل هذا وأنت فى سن العشرين؟ إن (ديفرسكين) الموظف بطل روايتك، قد تحول إلى آلة متحركة. ولقد قطع فى هذا الطريق شوطًا كبيرًا؛ حيث إنه وهو فى قمة المذلة والمسكنة لا يجرؤ على مجرد التفكير فى أنه بأس، ويعتبر أبسط الشكوى دليلاً على التفكير الحر المنطلق، والوعى الثورى.

"لقد وضعت يدك على الداء من الوهلة الأولى. ونفذت إلى قلب المشكلة. يجب أن تظل كما أنت صريحًا نحو نفسك، ولسوف تصبح كاتبًا عظيمًا".

تذكر المحكوم عليه بالإعدام كلام الناقد الشهير فأحس بآخر شعور بالعزة والافتخار، فساعده ذلك فى التغلب على الخوف والفزع، وأقسم أن يظل صريحًا نحو نفسه حتى أمام الموت، وألا ينهار وألا يخضع، كانت تلك رسالته، وكانت تلك الرسالة تستحق أن يضحى من أجلها بحياته.

لم يكن يجهل الجريمة التى قادته إلى هذه الساحة التى ينتظر فيها الإعدام، صباح يوم قارس البرد من أيام ديسمبر. فقد جرؤ على الثورة ضد نظام يتصرف فى البشر وكأنهم قطيع من الأبقار. وحاول أن يتصور أنه بعد دقيقتين أو ثلاث، سيصبح شيئًا هامدًا لا حياة فيه. كان من العسير عليه أن يصدق ذلك. وتساءل:

- "إلام يصير حالى بعد إعدامى؟ هل هناك حقًا ما يستحق المعرفة فيما وراء هذا العالم؟".

وعلى مسافة مئتى متر تقريبًا، كان يلمح أمامه إحدى الكنائس، وكانت قبة الكنيسة مغطاة بطبقة ذهبية اللون تعكس أشعة الشمس، فطفق يتأملها فى إمعان واهتمام كأنما هذه الأشعة تمثل فجر حياة لن يلبث أن يسفر من أجله، أو كأنما عليه أن يذوب فيها بعد لحظة من الزمن.

وصادف صعوبة شديدة، إذ حاول أن يصرف نظره عنها، وعندما حطَّت عيناه على الجنود، نزلت فى قلبه سكينة كبرى، فكرة واحدة هى التى كانت تضايقه: "آه لو لم يكن مقضيًا علىّ بالموت بعد لحظة، لو أُرَدُّ إلى حريتى، فما أعظم ما كنت سأقوم به من أعمال. آه لو حدث ذلك، لجعلت من كل لحظة قرنًا من الزمن، ولأحصيت كل دقيقة من عمرى كما يحصى البخيل أمواله، ولوعيت قيمتها وأدركت عظمتها، فلا أضيّع منها ذرة واحدة".

لو قُدِّر له أن يعيش ... لو قدر له أن يعيش لاستطاع أن يقرأ من جديد (بوخين)، و(جوجول) وسائر الكُتّاب الآخرين الذين كان يحبهم، ولاستطاع أن يحتسى نبيذ القوقاز، ويتسكع فى شوارع (بيترسبولاج)، وعلى رصيف (نيفا). ولاستطاع أن يقرأ على وجوه الناس بؤسهم وعذابهم.

الحياة! أن يكون الإنسان على قيد الحياة أفضل بكثير من أن يرقد جثة هامدة بلا حراك ولا فائدة تحت التراب... أن يفتح عينًا شغوفة على الأحداث والناس.

إن الإنسان وهو على قيد الحياة، يشعر بأنه يعضد سائر البشر ويساندهم، ويأخذ على عاتقه مسئولية أعمالهم، ويشاركهم تبعة جرائمهم.

وعندما تصور كل ما سيسلبه الموت إياه، انتابه غضب شديد، وقال لنفسه: "آه! ليتهم يسرعون بإعدامى". ولكن سرعان ما روعته هذه الفكرة.

وضغط قبضتيه فى قوة خارقة حيث إن أظافره آلمت راحة الكفين. واضطر إلى بذل جهد كبير لكى يكتم غضبه، كان هو سادس من الصف، إذن فالثلاثة الماثلون عن يمينه (كان لا يجرؤ على النظر إليهم) سيموتون أولا.

وأرهف السمع، فبلغت أذنه الطقطقة التى تُحدثها أحذية الجنود فوق البلاط الذى يبس بتأثير الجليد، فالتفت إلى الجهة التى كانت تنبعث منها الضوضاء، فرأى جنوداً أربعة يجتازون الميدان ويتجهون نحو المذنبين، فى بطء وهدوء، بلا أدنى انفعال أو تأثر.

وما أن أصبحوا على بعد خطوة منهم. حتى توقفوا وصاح أحدهم قائلاً: "رقم واحد واثنين وثلاثة... اخرجوا من الصف" كان يتحدث من أنفه، وكان صوته كريهًا بغيضًا.

وغامت نظرته قليلاً عندما رأى الصف يقصر. وسار الرجال الثلاثة يحوطهم الجنود الأربعة. كان يتبعهم بعينيه، فشعر كأنما يجرون أقدامهم جراً. وعندئذ أدرك

الخوف المريع الذى يستولى عليهم. ولقد شعر هو أيضًا بالخوف أمام عجز هذه الأجسام التى لن يلبث الرصاص أن يغوص فيها دون أدنى مقاومة أو عائق.

ولقد اضطرب لهذا المشهد أيما اضطراب، فأغمض عينيه وطأطأ رأسه، واجتهد فى أن ينسى ما رآه.

ماذا سيقول التاريخ عن هذا الطالب الذى دفعه الفقر إلى الانصراف عن الدراسة وقتل عجوزٍ مرابية بالبلطة؟ ومن ذا سيتحدث عما اعتمل فى نفسه من تبكيت وصراع عندما تساءل إذا كان قد فعل فعلته كأى قاتل مجرم، أو أنه فى ذلك كان ينتمى إلى أشباه نابليون، إلى تلك الصفوة من الناس التى تملك حق التصرف فى أرواح البشر ومقدراتهم؟

ومن ذا سيصور العواطف التى تعتمل فى أعماق المقامر عندما يسمع طقطقة الكرة فوق طاولة اللعب، وعندما يقبض بإصبعه فى حركة محمومة على أول مكسب له؟ ثم عندما تتوالى المبالغ المدفوعة، وتختفى تباعًا. فيزداد عناء المقامر، ثم لا يبقى له شىء سوى تلك الكرة التى تتراقص فوق الطاولة. وعندما ينتهى ويغادر مائدة اللعب ولا يبقى له شىء حتى ولا ذرة من نفسه، فيخرج الابتسامة على شفتيه، يحيى الحارس تحية عابرة قائلا له: "إلى اللقاء غدا"؟

ومن ذا سيهتم بمصير الأطفال الذين ألقى بهم بلا رحمة ولا شفقة فى عالم تعد الدماء الجارية فيه مشهداً معتاداً، عالم لا تعد الرذيلة فيه مصدر خجل وعار، وإنما تنتشر فيه وتستشرى فى حرية تامة.

وانبثقت فى رأسه رؤيا زاهرة ... رأى نفسه عندما كان فتى جميلاً أشبه بالأمير... كان نبيلاً كريمًا. وكان يقدم للعالم الدليل على طيبة قلبه وحبه الغامر وإيمانه العميق بعظمة الإنسان. كان ينتمى إلى عائلة كريمة وكان الوحل الذى يتمرغ فيه بقية الناس من حوله لا ينال من طهره وعفته. أجل.. كان ذلك الفتى سيلقى الاحتقار والازدراء من

أترابه... لكنه كان سيظل يعطف عليهم بل إن وجوده نفسه فى نظر الجماهير كان أمراً شاذاً. كان بالنسبة لها أشبه بتبكيت حى، فاكتفت بإدانته وحكمت عليه بالإعدام، كان كل من يصادفه يضعه أمام التجربة، وعندما وجد الناس أنه يقدم لهم الحب بدلا من السوط، أشاحوا عنه ووصفوه بالأبله المعتوه.

كان المصير الأليم الذى يتعرض له هذا الفتى يسبيه ويفتنه؛ حيث إنه أنساه لمدى لحظة كل ما كان حوله، وقال يحدث نفسه: "أجل، هذا موضوع كنت أحب أن أعالجه بالقلم".

وبلغته صرخة مروعة انتزعته من أفكاره، وما أن رُدَّ إلى واقعه الحاضر، حتى شعر بأن العرق كان يتصبب من جبينه وصدغيه ورقبته، وأن حبات العرق كانت تتسرب إلى ظهره من فتحة الياقة.

واضطر إلى فتح عينيه على سعتيهما، لكنه شعر بسعادة غامرة عندما وجد أن ستاراً رقيقاً معلقاً أمامه يحجب عنه المشهد الذى كان يجرى فى الميدان على بعد خطوات منه. ومع ذلك فلم يحوّل عينيه. وعندئذ شاهد الجنود وهم يقبضون على ذراعى المذنب الأول ويجذبانهما خلف ظهره فى قسوة ووحشية، ثم يقيدون قبضته تقييداً محكماً، ثم يضغطون ويضغطون حتى اضطر الجسم الذى أضناه الألم والإرهاب إلى أن ينتصب معتدلاً، ولاح أن الرجل ينصب قامته عزةً وافتخاراً، ولقد تكرر هذا المشهد ثلاث مرات، ورأى أن الجنود يعصبون أعين المذنبين ثم يسحبونهم إلى العمد فيقيدونهم إليها فى إحكام شديد حيث لا يستطيعون أن يتزحزحوا قَيْدَ أُنملة.

حتى ذلك اليوم، لم يكن قد فكر فى أنواع الموت المختلفة، ولقد فات الأوان الآن، فلن يسعفه الوقت لذلك. والرصاصة التى كتب لها أن تضع حداً لنهايته، قد صُهرت منذ وقت طويل، كان يراها داخل الجراب الجلدى الذى يعلقه الجنود على صدورهم، قطعة صغيرة من المعدن، مستديرة مصقولة فى مهارة وبراعة.

وعلى حين فجأة، سمع شخصًا يسعل وشاهد الضابط الذى قام قبل ربع ساعة بقراءة حكم الإعدام، يبتعد عن الجنود ويشير بيده إلى القس بالابتعاد عن العمد.

وفى الحال سمع صوتًا، صوتًا كان يبدو أنه يخرج من عالم الأموات، يأمر الجنود بالاستعداد وأخذت الطبول تدق خفيفًا فى بادئ الأمر، ثم تشتد شيئًا فشيئًا، فاعتقد أن رأسه لن يلبث أن ينفجر.

وإذا بضوضاء الطبول تصم الآذان. وفى هدوء حوّل رأسه خشية أن يصاب بالجنون لو طال أمد هذا الانتظار.

وخيل إليه أن الضابط ينحنى على أحد جنوده، وخيل له أنه رأى شفتيه تتحركان، لكنه لم يميز أى صوت. وشاهد الجندى يندفع نحو المذنبين المقيدين إلى العمد، لكنه أدرك أن الهلوسة تعبث به، وأنه يجب أن يثوب إلى رشده بأى ثمن، ليته فقط يستطيع أن يكف عن سماع ضوضاء الطبول.

ورأى الجندى وهو ينزع العصابة من فوق عينى المذنب الأول، ثم الثانى، أخيرًا عصابة الثالث، وبعد ذلك حل القيد الذى كان يربطهم فى العمد والقيود التى كانت فى معاصمهم ودفعهم أمامه، واجتاز بهم الساحة فى اتجاه مضاد. ثم عاد الرجال الثلاثة إلى أماكنهم فى الصف. لم يعد يحاول أن يفهم، ومكث جامدًا فى مكانه، وقد حلت محل عقله فتحة كبيرة سوداء، وكان قد فقد القدرة على الاندهاش، بل حتى على التألم، ولم يفكر حتى فى الصياح أو الهروب وهو لا يزال قادرًا على ذلك.

وفجأة كفت الطبول عن القرع، وكأنها فقدت كل قوتها، ولم تطلق أى رصاصة، الأمر الذى لم يزد من دهشته.

ثم سمع اسمه متبوعا بكلمات لم يفهم منها شيئًا لحظة سماعها، وعندما تحرك طابور المذنبين، و انتظم فى صفين، وأدار ظهره للميدان، واتخذ طريقه إلى السجن،

استعاد صاحبنا جزءاً من عقله، وفيما كانوا يمهلون السير لينخرطوا فى منعطف الطريق، لمح رأس أول المذنبين، ذلك الذى كتب له أن يكون أول الراحلين، والذى كان يسير أمامه، وعندئذ كفت ركبتاه عن الارتعاش. وإذا به يستعيد الكلمات التى سمعها قبل قليل فكانت: "فيودور ميكايلوفتشى" ينال عفو القيصر، ويقضى أربع سنوات فى سيبيريا".

***

الببغاء الرابع

تأليف: ليسلى ميلر Leslie Meller

من أستراليا

بوصفى رجلاً سليم الذوق، أزعم أن الهلوسة شيء عادى جدا؛ بالنظر إلى أنها تنجم عن تعاطى المخدرات والعقاقير التى يُحشى بها جسم مرهق. وأؤكد أن العاملين فى المستشفيات يصرفون هذه العقاقير بتسيب شديد، مع أن الممرضة التى كانت تقوم بعلاجى، وقابلتها بعد ذلك، كانت دائمًا تؤكد لى عكس ذلك.

هذه الهلوسات كانت بكل تأكيد ناتجة عن العقاقير؛ وهذا بالنسبة لى شيء مؤكد لا يقبل الشك. ولكن لم أكن أستطيع الاستغناء عنها إلا ببذل جهد خارق.

ومع ذلك فهى تُحدث عندى نوعًا من الإثارة، والمتعة أحيانًا، ونادرًا ما تُحدث قلقًا حقيقيًا.

كنت على سبيل المثال أشاهد عزفًا لحفل موسيقى بالآلات الوترية، ذات الحركات البطيئة النبيلة، تجربة مثيرة مع أنه لم يصل سمعى أى نوتة من النوتات الرقيقة بلا أدنى شك. وفى الوقت نفسه كان بوسعى، ولكن غالبًا ما كان يضايقنى ذلك، أن ألتفت إلى الممرضة وهى خارجة من منطقة العازفين، وأجيبها عن سؤال حول موضوع عادى مبتذل.

كنت أشاهد، وما زلت أتذكر جميع التفصيلات والألوان، مسيرة موكب عربات تجرها خيول ملكية من أرقى درجة، أو كنت وأنا فى فراشى، أستعرض هذه الكتيبة التى تجتاز الحجرة من النافذة إلى الباب. كنت، باختصار، موزعًا، وكنت على الرغم منى أخلد إلى النوم، وبدلاً من مثل هذه الطقوس أكتفى بأحلام غامضة ملؤها المرارة. وسأحدثكم عن هلوسة "لعبة الورق".

مكانها فوق المدفأة؛ أمّا أشخاصها فهم بالضرورة كانوا مختصرين بسبب ضيق المكان. ومع ذلك فقد كانوا محتفظين بملامحهم الإنسانية الواضحة. وقد بدأ ذلك بباقة الزهور البيضاء التى وضعتها الممرضة بطريقة جميلة كما تفعل ذلك أى امرأة. ولا بد أنها استعملت المقص، لأنها حينما انصرفت، رأيت الزهور تتخذ مظهر طيور؛ وبالضبط رءوس طيور. أربعة منها على الأقل حدث لها هذا التحول؛ وكان أكبرها ببغاء أبيض اللون، وهو من النوع الذى لـه عُرف بلون الكبريت الذى ينتشر لأقل خطر. هذا الطائر من عادته أيضًا أن ينصب ريش جناحيه حول منقاره، مما يضفى عليه مظهر الخطورة والدهاء. وكيف لا يكون كذلك بعينيه المستديرتين الثابتتين ونظرته المستخفية؟ ومع ذلك فلم تدم هذه الرؤيا أكثر من لحظة؛ لأن الذى حدث، وهو ما يروقنى كثيرا فى مثل هذه التقلبات الهلوسية، أننى أصبحت أشاهد أمامى أربعة رجال يلعبون لعبة الورق.

ثلاثة من بين الأربعة، كانت ملامحهم عادية. متوسطى العمر، فى ثياب محترمة وطبقًا للنظام السائد. ولا يمكن أن نقول عنهم أكثر من ذلك. أما رابعهم، فكان به شىء آخر. فقد كان الببغاء يلوح من خلاله. ومعنى ذلك أن الأصل الببغاوى فيه لم يختف تمامًا. ولعلكم تحبون مثل هؤلاء الأشخاص، أما أنا فكنت طوال حياتى أبغض مثل هذا التشخيص الببغاوى بشعره الأبيض وعينيه المستديرتين اللاهيتين ومن ورائهما دهاء واضح تحول إلى شراهة ونهم، وبشرته الوردية وكراسى الوجنتين الأبيضين المصبوغين، مثل هؤلاء الرجال عادة ما يكونون ذوى نفوذ ويشغلون فى المجتمع مكانة

مرموقة، وهم يستغلون ذكاء الآخرين وقدراتهم، يستغلون كل ضعف تقع عليه نظراتهم الباردة.

ونحن لا نعرف لهم ضعفا، على الرغم من أن ما يختفى وراء هذا المظهر ليس سوى طفولية واهية. إنهم طائفة من المخادعين والمتطفلين لا ضمائر لهم، يتسمون بالجشع الشديد والشراهة الفائقة التى لا نجدها إلا فى الشيطان نفسه. مثل هؤلاء الأشخاص، فى رأيى، يمثلون أبغض ما فى الوجود من خسة ودناءة.

ولم ألحظ هذا النموذج إلا وأدركت فيه خصلتين، أولاً، فى أثناء لعبة الورق كان ينفصل تمامًا عن حياته العامة ومكانته الاجتماعية؛ ثانيًا، أنه كان يغش فى اللعب. ولم أستطع أن أتبين كيف يفعل ذلك، لكننى مع ذلك كنت ساخطا لأن زملاءه لا يدركون ذلك. لن أطيل الوقوف عند مشهد اللعب هذا الذى طال أمده حيث إن الزمن لم يدخل فى حسابه. ورق على الطاولة، وورق فى الأيدى، دون أى ضوضاء. لم يكن لعبهم يهمنى. لكن انتباهى كان مركزاً على وجه بعينه، وكان حنقى يزداد شيئا فشيئا. كانت الطريقة التى يمسك بها الورق، والتى يضعه بها بخفة، ولون خديه الوردى، والبياض الفضى الذى يشوب شعر رأسه. كل ذلك، بالإضافة إلى اعتداده بهيئته ومظهره المهم، أثر دون شك فى طبيعته المرضية.

وهنا يجب أن أسجل شيئًا مهمًا، وهو أننى حتى ذلك الوقت لم أكن قد أدركت أن هناك من يراقبنى أنا. فحتى ذلك الحين لم يكن أحد من اللاعبين قد ألقى نظره على شخصى، بل ولا حتى كان مدركًا لمجرد وجودى بأى حال من الأحوال. ولكن، على حين فجأة، إذا بالسيد ذى الشعر الفضى يرفع عينيه من على الورق، وإذا بى أرى أنه ينظر إلىّ أنا. أنا بشخصى ولحمى؛ وجود ينتمى لعالم آخر غير عالمه. باختصار عرف أننى موجود، وعلى الفور، أدركت أنه شعر بالبغض الذى كنت ألاحظه به. فنظر كل منا فى عينى صاحبه حتى خفض هو عينيه على الورق الذى بيديه. آه، هكذا، يا صديقى العزيز! لكنك ستنظر إلىّ أيضا وسيتعين عليك أن تبتلع جرعة أخرى من البغض.

وفعلاً، نظر إلىّ، وبأسرع مما توقعت، وقابلته نظرتى التى كانت تنتظره بكل جرأة ووقاحة.

بدأت حينئذ أفكر أننى على الرغم من مرضى، فلم أكن أقل واقعية، وأننى مخلوق من لحم ودم، فى حين أنكم أنتم أيها الجالسون فوق، أيها المنافقون والمخادعون، لستم سوى أشباح وهلوسات. كذلك فقد كان ذلك "واقعًا" هزيلاً لم يمكنه أن يلغى اللا واقع. واستمسكت بهذا الوضع بكل قوة وتركيز.

سوف تذبل وتتبدد وتنوى، أيها السيد المعتبر، ذو القنبرة المشرعة. هكذا قلت لنفسى، ومنذ تلك اللحظة لم أسمح لنفسى بأن أرمش بعينى حتى لا تفوتنى أى نظرة من نظراته المستخفية.

هذه اللعبة الرشيقة التى سمحت لنفسى بالشروع فيها طواعية وعن طيب خاطر، والتى كنت فيها السيد الوحيد، بدأت تجرى بسرعة من شأنها أن تؤدى بها إلى نهاية ممتعة.

ومع مرور الوقت، تزايدت نظراته شيئًا فشيئًا - تشوبها خشية ممتعة بالنسبة لى - حتى أومأ لرفاقه بحركة فهموا منها أنه يطلب فترة استراحة. بالنسبة لهم، كان الأمر يتعلق بشخص - وهذا يحدث - يريد أن ينظر فى الفراغ لكى تهدأ أعصابه، أما بالنسبة لى، فقد كان هذا يعنى تحدى اليأس، القرار الأخير بالمجازفة بكل شىء من أجل كل شىء، أى الوجود المضبب الذى هو وجوده. فيما يتعلق بى، لن تخرج النتيجة عن هزيمة شخصية، وعلى أكثر تقدير، شىء من الحزن. أما بالنسبة له هو، فإن الأمر يتعلق بوجوده كله. أولاً، صار الوجه الملون بملامحه الفضية صارماً، والعينان ثابتتين جامدتين. لا يهم! فأنا أعرف النهاية؛ لقد لاح الإرهاب، والتصفية والجمود، على الملامح التى أرادت أن تكون معتزة بنفسها متفاخرة؛ وانتصب شعر رأسه وشعر كراسى الوجنتين إلى الحد الذى صار فيه أحد اللاعبين، دون أن يدركوا ذلك وهم ينتظرون،

صار مجرد مظهر مضبب لببغاء أولاً، ثم زهرة أقحوان ضعيفة ذابلة فوق مدفأة، الزهرة الوحيدة المائلة فى هذه الباقة المتغطرسة.

حينما جاءت الممرضة، نبهتها إلى أن إحدى الزهور التى وضعتها، وهى الببغاء، كما قلت لها، قد سقطت، فحاولت أن تقيمها. وقالت:

– الصغيرة المسكينة، لقد انتهت! لا بد أنها مريضة.

ثم وضعتها جانباً، لكى تلقى بها حينما تخرج من الحجرة.

فقلت:

– لقد انحنى على القدمين وسقط على الأرض. لقد انحنى على القدمين وسقط على الأرض.

– عمَ تتحدث الآن ؟

فقلت:

– هذا مجرد شاهد من الكتاب المقدس. أرى أنه يناسب المقام هنا.

أما الذى سأقصه الآن، فليس له أى علاقة بالهلوسة، لأنه يتعلق بمرحلة النقاهة، صحيح أن جسمى وأعضائى كانت لا تزال متعبة، غير أن ذهنى كان صافيا، فى أحسن حالاته.

فى المستشفى، وهو مؤسسة شبه دينية، كان هناك عدد من الزوار المنتظمين اللطاف الظرفاء الذين يسمح وقت فراغهم بالاهتمام بشئون الآخرين. أحد هؤلاء بالذات، سمعت عنه الكثير من عبارات الإطراء والتعظيم مثل "الأستاذ بالمر العزيز" أو "إنه ملاك حارس" وغير ذلك من عبارات المديح كأن يقولون: "الأستاذ بالمر جاء اليوم.. كيف، ألم تشاهده؟ ألا يسرك أن تراه؟". إلى الدرجة التى أصبحت أشعر معها، إن لم يكن بنوع من الغيرة الغامضة؛ بالحساسية من هذا الاسم. وذات يوم،

سلمتنى الممرضة رسالة كانت بالذات من هذا المصدر وهو السيد بالمر - وانظروا إلى الوقاحة التى جاءت فى الرسالة - لما كان قد سمع عنى الكثير فإنه يشعر نحوى بنوع من الاستلطاف الأليم، وأنه يتحرق شوقًا ليقدم لى كل ما يستطيع من سلوى وعزاء. هل سمعتم وقاحة أكبر من هذا النوع؟ وقلت للممرضة:

- قولى له أن يذهب إلى الشيطان، واجتهدت حتى ألا أبصق.

ويومًا آخر، مرة أخرى تسلمت الرسالة نفسها، ومرة أخرى، رفضت بعنف. فحاول للمرة الثالثة. ما من شك فى أن هذا الرجل يتمتع بصبر لا يمل، وسعة صدر لا تنفد.

ولم أرد على هذه الرسالة الثالثة. واكتفيت بأن أنظر بتركيز شديد إلى حاملة الرسالة. بالنسبة لها، لم أستطع أن أحرجها، فقد كانت أيام هلوستى مع الببغاوات قد ولت؛ لكن كان بوسعى على الأقل، وفى صمت، أن أجعلها تخرج من الحجرة بتقطيبة من حاجبى. وبعد انصرافها وكنت قد تعبت من القراءة، فقد تركت الكتاب واستسلمت لساعة من القيلولة. وافترضت أننى ظللت على هذا النحو عشر دقائق تقريبًا، حينما سمعت وقع أقدام تقترب من فراشى وتساءلت إن كانت هذه المرأة المنتشرة فى كل مكان قد جاءت مرة أخرى لتزعجنى. غير أن وقع الأقدام توقف، وسمعت صرير قوائم كرسى. ثم كفت هذه الضوضاء أيضًا، وبلغ سخطى مداه حينما وجدتنى وجهًا لوجه أمام رجل لا أعرفه يجلس بالقرب من فراشى.

كان جالسًا فى حجرتى، هذا الرجل، المندوب الممثل لنوع غريب من البشر. الله وحده يعلم من أى مغارة خرج وبخديه اللامعين وبعينيه البراقتين المستديرتين المثبتتين على شخصى، ومشروع ابتسامة تحت شاربه الأبيض المقصوص. لم يكن الوضع يتعلق بهلوسة، كلا. بل كان موجودًا فعلاً، وجالسًا.

فما كان منى إلا أن قلت له وأنا أحاول أن أكون مهذبًا:

- من أنت ؟

فراح يسلك حنجرته، وهى عادة يمارسها الناس الذين من نوعه قبل أن ينطقوا أى كلمة:

- اسمى بالمر. عرفت أخبارك، مثل أخبار العديد من المرضى هنا، فى مقر الألم المبارك هذا.

فحاولت أن أجيبه قائلاً:

- يبدو لى أن اسمك ليس مجهولاً بالنسبة لى. الألم المبارك؟ هل قلت المبارك فعلاً؟

ولم يجب عن سؤالى إلا بحركة من رأسه، لكننى لاحظت أن كل أثر للابتسام تبدد على الفور من وجهه.

وكان سؤالى التالى هو:

- هل الممرضة هى التى دعتك لزيارتى ؟

وهز رأسه مرة أخرى، لكنه تكلم هذه المرة، فقال:

- أوه! كلا. لقد أخبرتنى الممرضة بأنك غير مستعد لاستقبال أى زيارة، ومع ذلك، وبكل تواضع فإننى أهنئ نفسى إذ نجحت مجهوداتى الجبارة لتجعلنى فى موقف أستطيع فيه أن أعبر عن تعاطفى. فقد كنت أعلم على الرغم من رفضك المتواصل إنك ستغير رأيك.

لا أذكر طوال حياتى أننى شعرت بغيظ لا طاقة لى بكتمانه أو السيطرة عليه كما حدث لى فى هذا الموقف. وقد نشأ هذا الغيظ لمجرد رؤية هذا الرجل الجالس أمامى. ومع ذلك فقد وجدت من رباطة الجأش ما مكننى لأن أقول له:

– إذن، لم يطلب منك أحد أن تأتى؟ ومع ذلك فـأجدنى وبلا دفـاع مـضطراً إلى الاستماع لخطب أخلاقية من شخص لم أره فى حياتى؟

وهنا توتر وصارت عيناه أكثر استدارة، وقلت:

– ليس عندى ما أقوله لك سوى شىء واحد؛ أرجو أن تتكرم بالخروج كما دخلت. وأقسم لك أنه ليس من المستبعد تمامًا أن أتقدم بشكوى أضعها بين يدى المسئول عن مثل هذا النوع من التصرفات، واليوم حالا.

فبدأ يقول وقد تهدج صوته وتكسر، وانهار للمرة الأولى:

– لكن أرجو أن تسمعنى.

فكانت إجابتى:

– أخرج من هنا، أرجوك.

وجعل يرمقنى بعينيه، فما كان منى إلا أن رمقته أيضًا بدورى. ولم تعد عيناه بالنسبة لى سوى قطعتين صغيرتين لامعتين. وفتح فمه كمن يريد أن يتكلم مرة أخرى. فعالجته بصوت مكتوم من الغيظ:

– اخرج.

لكنه لم يتحرك. ولم يتمكن من تحويل نظرته. ورأيت خديه يشحبان. لم يكن أحد يمر بالباب أو يقترب منه.

وعلى حين فجأة ؛ رفع يديه فى حركة يأس أو رعب. لقد أصابه التغيير الأكبر. فبدا كأن ملامحه ذابت فى سطح واحد متوحد، ثم سقط ذقنه على ياقة قميصه. وتنفس بقوة ثم لزم الصمت. ولم يعد يتحرك، وبعد لحظة طالت وبعد أن خاطبته دون أن أحصل على أى إجابة، وجدت من المناسب أن أرن الجرس. فوصلت الممرضة. ورأت

المشـهـد، فـخـرجـت بسـرعـة. وعـادت ومـعـهـا أشـخـاص آخـرون، وبكل احـتـرام تم رفـع الصلصال الجامد.

وحينما تـم استـجوابى بطريقة لطيفة، كان كل ما قلته إن هذا السيد دخل وجلس، وأبدى بعض الملاحظات، ثم مكث كما وجدوه. كان سبب هذا الموت المفاجئ أزمة قلبية. ذلك ما قيل لى بكل تحفظ. لكننى يجب أن أعترف بغرابة الملابسات، هذا شىء أكيد. ولكن أحداً من الآخرين لم يدرك إلى أى درجة كانت هذه الملابسات غريبة فعلا.

ولما كانت هذه القصة لا تتناول سوى بعض المراحل، فلم يجد فيها أحد أكثر من إشارات مختصرة إلى ملامح أخرى من حياتى. ولقد كتبتها من أجل التخلص من كابوسها.

وفى النهاية خرجت من المستشفى، فى صحة جيدة ظاهريًا على ما يبدو. على أى حال، خرجت وأصبحت حراً أحمل من الزاد ذوقى السليم، وحسن تصرفى، والقليل من النصائح الطبية التى قدمها لى الأطباء. وعدت جزئيًا إلى أعمالى وشئونى. فزرت زوجتى التى لم أشاركها الإقامة منذ عدة سنين، وعدت أزور من آن لآخر ممرضتى التى كانت مع صغر سنها وجمالها، تشعر بالامتنان لرجل يكبرها فى السن كثيراً.

وفى أغلب الأحيان، حينما يكون لديها يوم أو سهرة إجازة، كنت أصحبها إلى الشاطئ فوق التلال. كان ذلك فى الفصل الذى يكون فيه الخريف فى أبهى صورته من حيث الألوان والجمال. وكانت الممرضة ذات ذكاء حاد حيث يجد المرء متعة فى الاستماع إليها. كانت حاضرة البديهة ولديها طموحات عالية. من هذه الطموحات أنها كانت تريد أن تفتح عيادة كبداية. وأتذكر أننى قدمت لها كل العون الذى كان بوسعى تقديمه عندما حان الوقت. ولم تكن موضوعات المحادثة تنقصنا من خلال نزهاتنا الطويلة. وأعترف بأن كلانا كان يجد هذه الأوقات ممتعة للغاية. وفى عصر أحد الأيام كنا غارقين فى متعة إحدى هذه النزهات. حينما قادتنا أقدامنا إلى حى هادئ قليل

الناس، البيوت فيه فخمة والحدائق جميلة تمتد إلى مدى البصر. وبينما كنا نعبر أحد هذه الشوارع لاحظنا ممراً ضيقًا جداً، تستطيع الشمس أن تتخلله لكن تقل فيه الرياح. واخترنا أن ننخرط فى هذا الممر. كان ضيقا وطويلا، وكانت أرضه حنونًا على الأقدام. وكانت الأشجار تظلله، والطيور تشدو فوق أغصانها، ولكن لم يكن هناك أى كلب يعوى على الطريق.

كنا نسير بين حواجز خشبية عالية ضيقة، حيث كنا لا نستطيع أن نرى شيئًا مما تحيط به. وعند سياج مرتفع مثل السياجات الأخرى، وأكثر ضيقًا، توقفت رفيقتى، وقالت وكأن شيئًا غريبًا قد حدث:

– أنظر.

فرأيت فى خشب السور، فتحتين على مستوى ارتفاع العين، كانتا تبدوان وكأنهما فُتحتا من أجلنا. وما فعلناه ربما لم نكن نفعله لو كنا مشغولين بعمل ما، لكننا كنا بلا عمل؛ أو لربما لم نفعله لو كنا فى منطقة مأهولة بالمارة. لكن الفضول هو أول هبة منحتنا إياها السماء. ألم نخرج من الجنة بسبب هذا الفضول؟ واتخذنا مواقعنا لكى نشبع فضولنا. وسرعان ما صوب كل منا عينيه فى إحدى الفتحتين.

وإليكم ما شاهدناه.

شاهدنا حديقة طويلة تفضى إلى شرفة بيت كبير من طابقين، وحديقة رائعة بمعنى الكلمة، من حيث النظام والتقسيم والنظافة التى يبدو أنها تمت فى اليوم نفسه. وسمعت رفيقتى تطلق صيحة تعجب تجاوبت مع إعجابى أنا أيضًا. ولكن بالإضافة إلى كل ما فى الحديقة من أشجار وزهور، شاهدت بالقرب من المنزل، وفوق مساحة مفروشة بالحصى، أرجوحة عليها ببغاء أبيض منفوش الريش يستمتع بنعاس لطيف. وبجوار هذا الببغاء شكلاً إنسانيًا يجلس فى استرخاء فوق بعض وسادات كرسى موسد (فوتوى) وأمام وجهه صحيفة مفرودة، ومن خلفه سلة من الزهور البيضاء.

ونظرت، وشككت فى شىء ما، وبعد ذلك عرفت. قام الشكل الإنسانى بخفض الصحيفة المفرودة، وحينئذ شاهدت بعينى رأس أحد أعضاء فريق لعب الورق الذى تحدثت عنه آنفا يتمطّى بخديه الورديين وشعره الفضى وعينيه المستديرتين وكراسى وجنتيه البيضاء، وكأنه توءم الشخص الذى اختار أن يفارق هذه الحياة فى حجرتى فى المستشفى قبل عدة أيام. وشعرت بأوصالى تتجمد من البرودة فى ذلك المكان الدافئ. كنت قبل ذلك بدقيقة واحدة فى حالة جيدة جسديًا وذهنيًا. وفجأة تحول الجسد من الدافئ إلى البارد، فى حين تحول الذهن ليصبح فريسة دوامة يمكن أن تتحول إلى طوفان جارف.

كان الرجل، أو ذلك الوهم الحى الذى على شكل إنسان، يرمق بعينيه السياج كما لو كان قد شعر بوجودنا بسبب الضوضاء الخفيفة التى أحدثناها. فرأيت عينيه المستديرتين، وبدا لى كأنهما مسلطتان على الفتحة التى كنت أنظر منها. كنت أراقب وأقول فى نفسى: "إذا لم تكن سوى رؤيا خادعة كتلك التى كانت فوق المدفأة، فكم من الوقت ستظل ماثلاً فى الشمس؟" ومكثت أركز على هذه الفكرة دون غيرها وأنا أمعن النظر فى هذا الكائن الذى كنت أميزه بكل وضوح، وكان هو أيضًا يمعن النظر فيما لا يستطيع هو فى الواقع أن يراه.

بعد ذلك، وعلى حين فجأة، حدث التحول. فقد انتصب عرف الطائر الغبى الموجود فوق الأرجوحة ونهض الرجل. وصاح الببغاء وتقدم الرجل خطوة إلى الأمام. خطوة واحدة. وإذا بخديه يتحولان إلى اللون الرمادى، وعينيه تتحولان. ورأيت كتفيه يسقطان وجسمه السمين يتضاءل، ويديه تنتصبان علامة غضبة نهاية يائسة.

وبجوارى سمعت صيحة تقول:

– إنه يجف ويسقط.

وصاحت الممرضة المسكينة. وفى الوقت نفسه كانت تقطع الممر عدواً.

وخشية أن يجذب صراخها وعويلها بعض المارة والمشاهدين، فقد أسرعت أنا أيضا بالجرى. ولم أستطع بعد ذلك، أن أروى ما حدث فى الحديقة.

ملحوظة :

الذين سيقرءون هذا الخاطر، أو هذه الذكرى، أو هذا النوع من الكتابة الذى يمكن إطلاقه على هذا الذى قرءوه، قد يندهشون حينما يعرفون أن الذى سلمنى إياه لم يحاول أن يتصل بى فيما بعد. ولعل من المثير لهم أن يعلموا أنه رجل سمين، وردى البشرة، فضى الشعر، مستدير العينين، ثابت النظرة، ذو كراسى وجنتين بيضاء.

***

الغـــــرق

تأليـف: فـرانـس دى بـروّوان Frans De Bruyn

من بلجيكا

ترك المطر على حذائه الطويل لمعة خابية، وسقطت خصلة من الشعر على جبهته حينما خلع خوذته. وفى الظلام لم أر وجهه جيداً، وحينما لفّ الكوفية وضغطها حول رقبته، لم أشاهد منه سوى عينين براقتين فى وجهٍ غير واضح الملامح.

فى أسفل الشارع، ظهر مستطيل من نور مفاجئ، فأضاء جدار أحد المنازل. وطرق أحدهم باباً وهو يصيح قائلاً: أطفئوا الأنوار!

وسمعت طلقة بندقية، وامرأة تصرخ. واختفى مستطيل النور. والتفت الرجل ناحية الصوت لحظة. ثم تقدم نحوى وقال:

- هل معك بندقية؟

- نعم.

- محشوة؟

- لا.

- هات الخراطيش التى معك.

وحشا بندقيتى، ولمع التتك (اللسان) لحظة على نور المصباح الأزرق. فى أعلى الباب. وأعاد إلىّ السلاح. فعلّقته على كتفى جاعلاً الماسورة فى اتجاه الأرض. وقال الرجل يخاطبنى:

- ليس عندك ما تفعله هنا. تعال معى.

وتقدمنا نحو الجسر. وفى نهاية الطريق الضيق، سمعنا سيارات النقل تطوى الأرض بلا انقطاع، ومن آن لآخر كنا نسمع ضجيج دراجة بخارية. كان وهو يسير يوجّه ضوء مصباحه على ممر ضيق. وقال:

- هنا، لا بد من أخذ الحذر.

- صحيح؟

- هل أديّت الخدمة العسكرية؟

- لا.

- لكن، هل تعرف كيف تستعمل البندقية؟

- نعم.

- خذ هذا أيضًا. فلا أحد يدرى ما يمكن أن يحدث.

وأعطانى قنبلة يدوية ألمانية. فوضعتها تحت حزامى.

كانت سيارات النقل تواصل ضوضاءها، فى موجة مستمرة على الطريق الذى يربط الجسر بالطريق العام داخل المدينة. وكان قماش الخيش الذى يغطى حمولتها يطرقع بصوت عالٍ. وكان الناظر يلمح وميض السجاير داخل كبائن السائقين. فقلت:

- المفروض أن تكون المدرعات قد وصلت على الجسر.

– اسمع. قبل حاجز الجسر، ينعطف الطريق فجأة. وفى صباح اليوم انعطفت بعض الدبابات بصورة زائدة، فدخلت فى السور وأحدثت فى الأرض حفرة عميقة. وكادت إحدى الدراجات البخارية تسقط فيها قبل نصف ساعة فقط. نحن بحاجة إلى رجل هنا ليدير حركة المرور.

وأعطانى المصباح، وقال:

– راقب جيداً هذه الثغرة التى بين المنزل الكبير والمقهى، فمن الممكن أن يكون هناك بعض الألمان لا يزالون مختبئين فى المنازل، بطول الرصيف وداخل المستودعات والمخازن؛ فإذا رأيت شيئًا فأطلق النار.

وانصرف الرجل. ورأيت أنه مقوّس الظهر قليلاً. كأنما خوذته فوق كتفيه مباشرة.

ومكثت وحدى، وكلما مرت سيارة أضأت المصباح وصحت قائلاً:

– الزم اليمين! الزم اليمين. الطريق شبه مدمر. الزم اليمين! اليمين!

وتوالى مرور قوافل السيارات. وجعل ضجيج العجلات يدوى فى زمجرة حزينة فوق الجسر وتجمدت قدماى من البرد، وبح صوتى من الصياح.

وخرجت امرأتان من بيت صغير، وقد غطت كل منهما كتفيها بشال أسود. وقالت لى أكبرهما سناً:

– دراجتان بخاريتان عملتا حادثًا هنا.

– أعرف ذلك.

– هل ستظل طويلاً تصيح هكذا؟

– لست أدرى.

وسألتنى الصغرى:

– لماذا لا يتوقفون؟ لا أحد يتوقف. بعضهم معه شيكولاتة وجبن ومعلبات. ليت أحدهم يتوقف. يقال إن الجنود يعطون أشياء كثيرة.

وصحت من فورى قائلاً:

– الطريق شبه مدمر.. الزم اليمين!

العبارة نفسها، أصيح بها عشر مرات، خمس عشرة مرة. ومكثت المرأتان تتطلعان. وقالت الكبرى:

– لا يزال هناك ألمان مختبئين هنا. وقد شاهدنا اثنين منهما خلف مستودعات المقهى؛ ولكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهما. وعند عمّ (فان بوم) خلف الزقاق، يوجد بعضهم أيضا يختبئون.

وقالت الصغرى:

– كان ذلك بالأمس تقريبا. لكى يودّعوا. وطوال الحرب كانت ابنة عم (فان بوم) تذهب مع الألمان.

فعقبت الكبرى قائلة:

– كلا، كلا، بل كان ذلك اليوم. لا بد أنهم أعطوهم ملابس مدنيّة ليهربوا.

وفى مكان ما، دوّت بعض طلقات نارية متبوعة بتكتكة مدفع رشاش خفيف.

وقالت الفتاة:

– يجب عليهم أن يتوقفوا؛ فمن المؤكد أنهم سيعطوننا بعض الأشياء ...

فعقبت الأم قائلة:

– هيا ندخل. تعالى إذن، فهم يطلقون النار من كل مكان.

فقلت :

- هذه طلقات يطلقونها للفرحة والتسلية.

فقالت العجوز:

- سأدخل لكى أنام. تصبح على خير. لقد مضى منتصف الليل. وغداً يطلع النهار.

لكن الفتاة أردفت قائلة:

- لن أنام الآن. فقد تتوقف بعض السيارات. فليس من المعقول أن تظل تسير إلى ما لا نهاية.

وسعدت لانصرافهما. وعدت إلى الصياح:

- الزم اليمين، الجهة الأخرى من الطريق مدمرة ! الزم اليمين !

وشعرت بالرغبة فى تدخين سيجارة إنجليزية حامية. لكن الجنود لم يعطونى سوى سجاير ألمانية. وقالوا لى:

- هذه من غنائم الحرب؛ أما حصصنا من السجاير، فلا يمكن أن تصل إلينا. فنحن نتقدم بسرعة خارقة.

وبعد مرور فوج آخر من السيارات. صعدت الطريق فى اتجاه الشارع الرئيسى فى المدينة، فماذا لو أن راكب دراجة بخارية لم يسمع تحذيراتى فتتحطم عظامه؟ ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أظل طول الوقت مزروعًا هنا، هدفًا مستمرًا للأبد للألمان المختبئين خلف المبانى. وحاولت أن أطمئن نفسى بفكرة أنه لو كان هناك الألمان مختبئين ويطلقون النار جزافًا، لكانوا قد قتلونى منذ فترة طويلة. لكننى أشعر بالعطش. وحلمت بكوب ماء مثلج. وفكرت فى المقهى الموجود على الطريق بعد المنعطف. وسمعت وأنا أقترب منه بدندنة أورج كهربائى.

حينما فتحت الباب، رأيت وجوهًا شاحبة لرجال ونساء وأطفال وجنود، وسط سحابة كثيفة من دخان السجائر.

وكان بعض الجنود بالقرب من الباب يرتدون سترات جلدية دون أكمام. ونسيت الماء المثلج وطلبت من أحدهم أن يصحبنى ويسير معى بحذاء الرصيف، خلف المقهى حيث لا يزال هناك بعض الألمان المختبئين. فسألنى أحدهم:

– هل رأيت فعلا هؤلاء الألمان الأوغاد؟

وقال آخر فى هدوء:

– أنت تحمل بندقية، هه؟ إذن، أطلق عليهم النار. اقتل كل من تجده أمامك. هذا ليس عملنا. نحن نعمل فى المؤن والتجهيزات.

وخرجت محبطًا كاسف البال.

وخفّ صوت الأورج حتى لم يعد سوى دقات خفيفة بإيقاع، فيما عدت إلى الجسر. فقد خشيت أن يعود الرجل الذى كلفنى بالبقاء فى هذا المكان فلا يجدنى. ولحسن الحظ لم تمر أى سيارة فى أثناء غيابى.. على الأقل كان ذلك هو شعورى.

وعند منعطف الطريق، رأيت أحدهم يعالج شيئًا فوق دراجة بخارية وفوق رأسه خوذة. هل هو إنجليزى؟

– هل هناك مشكلة؟

أعرف أن سؤالى فى غير محله. فهذا الجندى هو الثالث الذى سقط فى الحفرة التى فى المنعطف. فنظر إلىّ الإنجليزى بارتياب. ثم أشرق وجهه بابتسامة عريضة وقال:

– أنت من المقاومة؟ هل تريد سيجارة؟

فسألته قائلاً:

– هل أصابك مكروه؟

– كلا، كلا، لا شيء.

– أنت ثالث إنجليزى كادت تتحطم رأسه هنا.

– أنا لست إنجليزيًا.. أنا من كورسيكا.

وحينما أشعلنا السجائر، صعد فوق دراجته وشغل المحرك. فصحت فيه أخبره بأن هناك بعض الألمان فى الناحية.

– أين هم؟

– وراء المصنع.

– لا تهتم. لن يستطيعوا أن يمنعوا الجنرال ديمبسى من المرور.

وخرجت الفتاة على صوت المحرك وسألتنى:

– هل أعطاك شيئًا؟

– نعم، سيجارة.

فسألنى الكورسيكى:

– ماذا قالت ؟

– تقول إن أمها تقول إن هناك بعض الألمان الذين لا يزالون مختبئين فى الناحية.

فقال الكورسيكى للفتاة وهو يوقف المحرك:

– خذى سيجارة.

فقلت له:

– لماذا لا تأتى معى، أنا أعتقد أن هناك بعض القناصة الألمان يختبئون فى المخازن. ومن الممكن أن يطلقوا النار على السيارات.

فما كان منه إلا أن قال لى:

– سل الفتاة أن تركب خلفى. فأنا لم أر امرأة منذ ستة أشهر. هل هناك مكان يمكن أن أجلس معها فيه؟

فأجبته قائلاً:

– لنذهب أولاً معًا نلقى نظرة على الألمان.

فقال لى وهو يضحك:

– دعك من الألمان. فهم يهربون الآن جميعًا مثل الأرانب. أين يمكن أن أجلس مع الفتاة؟

وهنا قالت الفتاة وهى تكاد تبكى:

– أليس معه شىء يعطينى إياه؟ شيكولاتة أو أى شىء؟

– شيكولاتة. أنا معى الكثير من الشيكولاتة. هيا، قل لها أن تركب خلفى. سأعطيها أشياء كثيرة، ولكن ليس هنا. فالضابط يمكن أن يشاهدنى. هل هناك مكان هادئ هنا؟

فقلت للفتاة:

– اذهبى معه. إن معه أشياء كثيرة. لكنه يريد أولاً أن يتحدث معكِ. اذهبى معه بعيداً عن هنا، وعن الطريق، فلا ينبغى أن يراه الضابط وهو يوزع مخصصات الإدارة.

فسألتنى الفتاة وهى مترددة:

- أركب خلفه هنا، فوق الدراجة ؟

- ومـاذا فى ذلك؟ لن يـأكلك. إنه واحـد مـن المحـررين. وسـيـقـدم لك الكثـيـر من الهدايا.

وبحذر شديد، ركبت الفتاة فوق الدراجة خلف الرجل. وقلت له:

- على بعد خمسين متراً تقريبًا، إلى اليسار، يوجد ميدان صغير به بعض المقاعد.

فقال الجندى سعيدا.

- أوكى.

ثم شغل المحرك وانطلق.

فصحت به قائلاً:

- وأنا، أليس من حقى بقشيش أو هدية؟ أليس معك بعض السجائر الزائدة؟

فجعل يفتش فى سترته، ثم أعطانى علبة من السجائر وانطلق. وتشبثت الفتاة بكتفيه. ولم تكن ترتدى جوربًا وشاهدت بياض ساقيها كأنهما خطين مضيئين ما لبثا أن اختفيا حينما انعطفت الدراجة إلى اليسار.

لعلهما الآن جالسين بالقرب من الحديقة الصغيرة التى تفضى إلى رصيف الميناء. ومرت عدة سيارات نقل أخرى صعدت الطريق. وجعلت أصيح قائلاً:

- الطريق شبه مدمر! الزم اليمين!

وشعرت بضيق فى صدرى من كثرة ما استنشقت من أبخرة السيارات الكثيرة

التى مرت، وزاد من هذا الضيق ضجيج الدراجات البخارية الذى كان يشبه صراخ النساء، وشعرت بإرهاق شديد.

وفجأة، سمعت بعض الأشخاص وهم يجرون. وصاح أحدهم قائلاً: إن إنجليزيًا سقط فى الماء. فأسرعت إلى الزقاق مفزوعًا؛ كأن هناك من يلاحقنى. وتوقفت أمام منزل بحديقة صغيرة، وأنا ألهث من التعب. ومع أننى شعرت ببعض الراحة بعد أن أشعلت سيجارة، إلا أن ضيق صدرى ازداد، فتقيأت.

وحدثت نفسى قائلاً: "على بعد خمسين متراً إلى اليسار. على بعد خمسين متراً إلى اليسار... على طول فى الماء... النهاية، مادمت قد حصلت على السجائر... إن سجائر الألمان هادئة جداً. "

كان أبى دائمًا يقول لى:

– إذا ترجمتك إلى أرقام، فأنت صفر كبير!

وفى الصفر، لا يوجد بطبيعة الحال مكان للضمير.

***

الجـــــــــــنرال

تأليف: ى. ج. إلْسمان W.J. Elsman

ترجمة: حمادة إبراهيم

من بلجيكا

فى أحد أيام الصيف من عام ١٩٤٦، وأنا بالقرب من سفح التلال الرملية فى زيلاند، سألت الرجل الذى كان يسكن كوخًا صغيرًا معزولاً فى الناحية، إذا كان هناك خطر من السير على شاطئ البحر، فعرفت منه أننى الأجنبى الوحيد منذ نهاية الحرب الذى فكر فى هذا الأمر.

وسألنى الرجل إن كنت فقدت شيئًا على الشاطئ، فأجبته بأننى أريد عمل تحقيق صحفى لإحدى الصحف اليومية؛ فأخبرنى بأن هناك طريقًا واحدة يمكن السير فيها دون التعرض لخطر انفجار الألغام. وأشار لى إلى آثار حصان وعربة كانت تصعد بين ارتفاعين من التلال.

كان الجميع يعرفون أن جسور زيلاند دُمرت فى الحرب العالمية بالقنابل، حتى إن الحديقة الهولندية اختفت تمامًا فى البحر. أما الآن، فقد جفّت الأرض من جديد، لكن يبدو أننى الوحيد الذى سيكتشف أطلال الحصون التى شيدت وسط التلال فى أثناء الحرب.

كان الرجل الذى أتحدث معه يسكن الكوخ الصغير القابع فى سفح التلال. كان كوخه الصغير الخشبى المطلى بالقار يعلوه سقف من الصاج المموج. وقد أخبرنى بأن الحصان والعربة اللذين أشار لى إلى آثارهما هما لشخص يعيش وحيداً، ويعمل فى جمع الحديد الخردة وأنقاض المبانى المتخلفة فوق التلال. وهو يبيع ما يجمعه لبعض المزارعين الذين عادوا إلى مساكنهم من جديد.

وفيما كنا نتبادل الحديث، مرت عربة ذات أربع عجلات يجرها حيوان أشبه بالحصان. وكان الرجل الذى يسير خلفهما يرتدى مئزراً قذراً بلون الصدأ، يضغط على جسمه العملاق. وحينما مرّ بجوارنا، بصق بجانبه كأنما هى تحيته لنا.

لقد حيرنى أمر هذا الرجل، فسألت ساكن الكوخ عما يعرفه عن هذا الشخص غير المهذب الذى كان ينقل بعض الأنقاض فى عربة متهالكة يجرها حصان هجين. وقص لى ساكن الكوخ ما آثار فضولى وشجعنى على اقتفاء أثره. غير أن الحصان والعربة والحوذى كانوا قد اختفوا عن الأنظار.

كانت التلال عبارة عن مساحة شاسعة من الحدائد والخرسانة المسلحة والأسلاك الشائكة، وكان سطح البحر ينبسط وراءها. ثم لاح لناظرى مرة أخرى الرجل صاحب العربة، كان يسير على مسافة قصيرة من عربته دون أن يحيد عن الأثر الذى يدل على الطريق.

وكان واضحاً أنه يستعمل الحصان والعربة ليحتمى بهما من انفجارات الألغام المحتملة. وكان من شدة تركيزه فى الخطر لا يحاول الالتفات أو يدرك أن هناك شخصاً ما يسير وراءه.

وكان صاحب الكوخ قد أخبرنى، بأن هذا الرجل كان يملك سفينة صيد كبيرة، لكنه فقد عمله هذا بسبب إدمانه الشراب. وفى أثناء الحرب كان الرجل يتعاون مع قوات الاحتلال المحلية. فكان يزوّد (الميس) أو مطاعم الجنود وصفّ الضباط بالبيض

الطازج وبالسمن البلدى. وقد توطدت علاقته بالألمان حيث إنه أصبح الرجل الصالح لكل شىء بالنسبة للجنرال قائد المنطقة، وهمزة الوصل بين الجيش الألمانى والمواطنين المتفرقين فى الجزيرة. وكان ينفذ أوامر أسياده الألمان دون شفقة أو رحمة.

وبطبيعة الحال، كان السكان يتجنبون التعامل معه، وبعد فترة من الوقت، حاول بعضهم أن يقتله. فقد حدث أكثر من مرة أن أُطلق عليه النار فى ظلام الليل. وحينما غارت المياه وغيضت خلال الجسور التى قصفتها القنابل، وتراجع جيش الاحتلال وجلا عن البلاد، كان الرجل يشاهَد متنقلاً فوق صهوة الجواد على الرغم من أن الطرق كانت لا تزال غارقة فى المياه، وعلى الرغم من أن الحصان كان يخوض فى الماء حتى بطنه. كان هذا الحصان هو حصان الجنرال الألمانى، وقد أصبح الرجل يستخدمه حاليًا فى جرّ العربة بين التلال فى عمليات جمع الأنقاض ونقلها.

وبدأت الأمطار تهطل. واشتدت الريح، وكسا الضباب زجاج نظارتى. وكان الرجل العملاق يتقدم نحو الرمال بالقرب من سفوح التلال. وكنت على وشك أن أعود أدراجى حينما أوقف حصانه بالقرب من كومة من الألواح الخشبية، وشرع فى إلقائها فوق عربته. وأصبحت على مقربة منه حينما رآنى؛ فالتفت نحوى وهو يحمل بين يديه الضخمتين عرقًا من الخشب، وظل جامدًا وهو ينظر إلىّ. كانت الريح تهيل مياه المطر فوق مئزره كأنه جدار سميك. وفيما كان يقترب منى تبين لى أن عينيه مخططتان باللونين الأصفر والأحمر، وأن سائلاً من عصارة التبغ يسيل فى ركن فمه حتى يصل إلى ذقنه.

وسألته إذا كان من الممكن أن أجتاز التلال دون أن أتعرض للخطر، فألقى عرق الخشب فى العربة قبل أن يجيبنى قائلاً:

– كلا. لا تستطيع.

ومكثنا على هذا النحو لحظة. ثم واصل هو تحميل عربته، بينما كان الحصان الجميل ينتظر، وقد عيل صبره، تحت الأمطار التى كانت تسيل فوق جنبيه. وعدت أدراجى فى بطء شديد حتى بلغت موضعاً تنتهى عنده آثار الأقدام وتختفى فى التلال. ولما لم يكن هناك أى أثر آخر، فقد تابعت هذا الأثر وصعدت حتى علوت ربوة صغيرة. وكانت قدماى تحدثان حفراً فى الرمال المبتلة. وظهر لى الجزء العلوى من مسكن من الخرسانة.

وجعلت ألهث من الجهد الذى بذلته فى الصعود. فجلست لكى أستريح. وبدأ بعض السحب السوداء يتكون فوق البحر الهائج، واشتد المطر.

وعلى حين فجأة، سمعت بالقرب منى ضوضاء صاعدة، فالتفت فإذا بالرجل أمامى، وقد بلغ القمة تقريبًا؛ وكان صدره العملاق يتجاوز التل.. توقف على بعد خطوات منى، فنهضت من فورى. فنظر هو إلى آثارى فى الرمال، ثم رمقنى وزمجر قائلاً:

– هل رأيت المشنوقين المعلقين؟

ثم أخرج من تحت مئزره مسدساً ضخماً.

فى اللحظة التى كنت أسأل نفسى عن أى مشنوقين يتحدث، وأين هم؟ أدركت وقد أصابنى الرعب، أن الرجل كان مجنونًا. كان مسدسه مصوبًا نحوى. وكان التصميم فى عينيه الداميتين وفى تلك اليد التى تقبض على المسدس.

فسألته بكل حيطة وتلطف قائلاً:

– ما هو المشنوق المعلق؟

فاستطرد متهكماً ومصححاً:

– "من" هو المشنوق المعلق؟

ولوح بمسدسه فى حركة تأمرنى بالدوران حول الحصن الخرسانى المهدم. ورأيت أن من الأفضل لى أن أطيع أمره وأفهم ما يدور فى عقله. وقادنى بمسدسه إلى فتحة مسدودة بباب حديدى وراء المخبأ القابع فى الرمال.

وبطرف السلاح، دفعنى نحو باب ضخم صدِئ. وراح يتحسسنى ليرى إن كنت مسلحًا أم لا. ودار بخلدى أنه بالإضافة إلى جنونه، من الممكن أيضا أن يكون قاتلاً. وأنه ظننى شرطيًا اكتشف أمره. ولما لم يعثر على أى سلاح معى، جعل بيده اليسرى يحرك رافعة ثقيلة فتحت باب المخبأ، وبيده اليمنى دفعنى إلى داخلها. فوجدت نفسى داخل ممر من الخرسانة. وأعاد المجنون المسدس تحت مئزره الجلدى. ولاح أنه أصبح فى الداخل يعتمد على تفوقه الجسدى الهائل. ولمحت فى نهاية الممر بابًا. وكانت كتلة الرجل الضخمة تكاد تملأ عرض الممر.. ودفعنى نحو الباب، ثم فتحه بدفعة واحدة. فوجدتنى فى ظلام يشبه ظلام الزنزانة يدخلها النور من فتحة أفقية فى الجدار. وصفق الباب، وسمعت الرجل يختفى.

ولما اعتادت عيناى الظلام، تطلعت من حولى فرأيت شكلين فوق جدار الزنزانة الخالية. ولم يكن الشكلان فوق الأرض بل كانا معلقين مشنوقين فوق الجدار. وكانا يرتديان أسمال زى عسكرى.

لم تكن ثمة ضوضاء تُسمع سوى موج البحر البعيد. وجعلت أتأمل الجثتين فى رعب شديد. كانت الأولى تحمل علامات الجنرال، أما الجثة الأخرى فكانت عليها علامات صف الضباط. وخلصت من ذلك إلى أن هذا الجنرال ما هو إلا الجنرال الذى سبق أن حدثونى عنه. ولاح لى أنه حينما دارت دائرة الحرب على الألمان، هجم هذا الرجل العميل على هذين الرجلين وقتلهما وعلقهما على الحائط.

ودرست الموقف. كانت الفتحة التى فى الجدار من الضيق حيث لا تسمح بالمرور منها، كما أن الليل كان قد هبط تقريبًا. وكانت مياه الأمطار تتسرب إلى الزنزانة

تدفعها الرياح. وجلست بجوار الجدار وحاولت التفكير. هناك شيء أصبح واضحًا الآن.. لقد تبعنى الرجل فى الطريق، وقد ظن أننى رأيت الجثتين المعلقتين على الجدار وأننى أراقبه لأبلّغ عنه.

وأمضيت ليلة دون أن أنام فى هذا السجن اللعين الذى كان يوحى إلىّ بأننى محبوس داخل صندوق للبريد. لم أكن أسمع سوى خرير المياه فى البحر وهزيم الرياح فى التلال.

وأضاءت فتحة الجدار. وأشرق الفجر. وأصبح نوره الآن يسمح لى بتفحص الجثتين المعلقتين اللتين ربما عُلّقتا بعد قتلهما، ثم تم الإجهاز عليهما بطلقات من المسدس.

وسمعت أربع مرات مدّ البحر يسرى بطيئًا على الشاطئ، يلعق التلال ثم يتراجع. ما من ضوضاء أخرى سوى الرياح. ولم يكن أحد يقترب من الباب. وكانت شمس العالم الخارجى تمر عبر الفتحة فى موجة متحركة تحبو على الأرض كأنها تحبو على ساعة شمسية.

وسمعت أن البحر قد هدأ، ورأيت من خلال الفتحة سماء صافية. ثم هبط الليل. وتسلل شعاع من نور القمر من خلال الفتحة.. وفجأة، سمعت الباب الخارجى يصفق، وسمعت وقع أقدام ثقيلة فى الممر، وفُتح باب الزنزانة وإذا بالرجل والمسدس فى يده.

وأشار إلىّ بالخروج. ومرة أخرى جعلت أسير أمامه فى الظلام. ولكنه فى منتصف الطريق، دفعنى إلى أحد الأبواب. كان باب قاعة أخرى من الخرسانة، مربعة الشكل مثل الأولى، وكذلك يصلها النور من فتحة فى الجدار. ولكنها لم تكن خالية، بل كانت بها منضدة، وملفات كبيرة كثيرة، ومكتب بأدراج، وكان تحت فتحة الجدار شيء ما لعله مجهر (تليسكوب) فوق حامل. وأعيد غلق الباب الحديدى محدثًا ضوضاء.

كان القمر بنور خافت يضيء الزنزانة التى من المؤكد أنها كانت مكتب الجنرال. وخفض الرجل المسدس واختار كرسيًا بين فتحة الجدار والمنضدة حيث أصبح ظهره للباب. وكان خياله، برأسه الأصلع المدبب فوق جسم عملاق، يشبه خيال حمامة هائلة.

ومكث فى مكانه جالسًا صامتًا لا يتحرك. ويده اليمنى فوق المنضدة وبجوار المسدس. لم يكن يبدو عليه أنه ينظر إلىّ، لكنه كان ينظر إلى المجهر (التليسكوب) أمام فتحة الجدار.

هنا، فى هذا المكان، وقعت مأساة غريبة قد تظل سرًا غامضًا إلى الأبد. فالرجل المجنون، يظن نفسه، فى هذا المكان وكأنه فى داره أو فى مكتبه. كان لدىّ انطباع بأنه يشعر بالفخر والاعتزاز لأنه صاحب هذا المكان، وأنه يريد أن ينقل هذا الانطباع لدىّ أنا أيضًا.

كان لا يزال جالسًا، ثم بسط يده وأسدل فوق فتحة الجدار قطعة من القماش أغلقت نصفها تقريبًا. ثم فتح درج المنضدة وأخرج بعض أعواد الثقاب، وأشعل مصباح غاز، وعالجه لتصبح فتيلة قصيرة. هكذا، وفى هذا المكتب الخرسانى، كان يغذى خرفه أو حلمه الجنونى. فهل كان يظن نفسه الجنرال- السيد الآمر الناهى- الآن وقد قتل ذلك الذى كان يصدر إليه الأوامر؟ كانت أصابعه- بطريقة خرقاء- تلعب بنظارة ذات عين واحدة للعياقة (مونوكل) موضوعة فوق المكتب بجوار مسطرة حديدية. لقد كدت أعتقد بين لحظة وأخرى فى فكرة خرقاء أيضًا، وهى أن يسد تجويف عينه بهذه النظارة، وأن يصدر أمرًا لى. حينئذ راودتنى فكرتى الأولى العملية وهدتنى إلى الطريقة التى أسيطر بها على الموقف؛ سأستغل فكرة جنونه. فقلت له وأنا أنظر إليه متخذًا موقف التمام:

- سيدى الجنرال!

فتحولت عينا المخبول بطيئًا بطيئًا نحوى؛ ورمقنى بعينيه، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة سعادة بطيئة. ونهض من مكانه، وجعل النظارة فوق عينيه وثبتها تحت حاجبه الخالى من الشعر، وتقدم خطوة للأمام، فتراجعت أنا إلى الوراء. واستمر يتقدم معى نحو الباب ثم فتحه - وهو لا يزال ينظر إلىّ وهو يبتسم. واندفعت إلى الخارج. وكان الباب الخارجى مواربًا يسمح بتسرب شعاع من القمر؛ فخرجت. وفوق التلال الزرقاء، وجدت الجواد واقفًا. ودون أن أنظر خلفى، شرعت أجرى فى خط مستقيم بين التلال، غير عابئ بحقول الألغام، متوجهًا صوب الأنوار البعيدة التى تضىء البيوت الأولى فى المنطقة.

***

الرجل الذى غير جلده

تأليف: لويس دوبرو Louis Dubrau

من بلجيكا

فزع (جيلبير) حينما فتح باب المقصورة؛ لأن القطار كان قد تحرك فعلاً وبدأ ينطلق. لقد انتهك الرجل المتعلق على السلم جميع التعليمات، وقطع الرصيف كله عدواً، لكى يقفز فى آخر عربة فى نهاية الرصيف، فى المكان الذى يبدأ فيه الحصى عند تشابك القضبان. لقد حالفه الحظ بمعجزة إذ تمكن من الإمساك بمقبض باب القطار. لو أنه لم يتمكن من ذلك.

وجاهد الرجل المجهول بكل قواه لكى يزج بنفسه داخل المقصورة، وهو متسربل فى معطفه الذى تطيّره الريح بين ساقيه، ويقبض تحت إبطه على حقيبة جلدية حمراء. وأسرع جيلبير ليساعده ومد إليه يده. ثم قال وهو يضحك:

- آه، إياك أن تعود لمثل هذا مرة أخرى.

واسترد الرجل أنفاسه وفك الشال الحريرى الذى كان يلف به رقبته. وقال وهو يضحك أيضاً:

- فعلاً، لا بد أن يكون المرء مجنوناً ليفعل مثل ذلك.

ووضع الحقيبة الحمراء فوق المقعد، وخلع معطفه وألقى به فوق شبكة الحقائب بلا عناية أو اهتمام.

ولم يستطع جيلبير أن يكتم شعوراً بالحسد نحو هذا القادم الجديد؛ فمعطفه هو كان مطوياً بكل عناية، وموضوعًا فى الشبكة بكل اهتمام وحرص. ومن الوهلة الأولى يظن الناظر أن المعطفين– وهما من قماش واحد– متماثلان. أما مع التدقيق، فيتبين الفارق الكبير بين المعطفين وكذلك بين الرجلين.

وعبس وجه جيلبير.

يشعر المرء بأن الرجل الغريب لم يتعود على الركوب فى الدرجة الثالثة، وأن المصادفة وحدها هى التى أجبرتهَ على ذلك هذه المرة. كذلك فهو لم يتعود السفر على هذا القطار الذى يتوقف فى المحطات الصغيرة، ولا يستخدمه سوى موظفين يسكنون فى ضواحى المدينة.

وبدأ جيلبير يتمعن الرجل الجالس أمامه بنوع من المرارة. فهو شاب بادى الذكاء، عريض المنكبين. على وجهه مسحة من الشحوب الضارب إلى الصفار الذى تخلفه إقامة طويلة فى المناطق الاستوائية وتترك آثاره على أنواع معينة من البشرة. ويداه طويلتان عليهما آثار العناية والاهتمام. وهو لا يلبس دبلة، فقط خاتمًا عليه حروف اسمه.

وتأمل جيلبير يديه هو؛ فإذا هما يدان عاديتان جداً بلا عناية... وأظافر مفلطحة قصيرة جدا (فهو يقرضهما) مصفرّة بتأثير النيكوتين. وسلاميات مغطاة بشعر مائل للحمرة وعليها زغب. وعلى شاكلة المعطفين، لا يمكن للمرء أن ينخدع بها، فالفارق جليّ واضح.

وتساءل جيلبير فى نفسه بنوع من الغيظ: "لماذا نحن مختلفون هكذا". ذلك هو السؤال.

لماذا يتحتم عليه أن يذهب من محل إلى محل، لكى يعرض بضاعته على تجار ليس لديهم أى رغبة فى شرائها؟ ولماذا يتحتم عليه كل ليلة أن يستقل القطار نفسه،

قطار الضواحى، الذى تشتم فيه رائحة الفقر والوضاعة؟ لماذا يتحتم عليه كل يوم أن يكرر الحركات المقننة المحسوبة نفسها لدرجة تثير القرف والاشمئزاز؟

سواء عليه أمطرت السماء أو هبت الريح، فهو طوال العام، يقفز على رصيف القطار يلقى التحية بإشارة من يده على الموظف المكلف بأخذ التذاكر، ويتوجه إلى منزله، وهو آخر منزل فى صف رتيب من المنازل المتطابقة. هذا المنزل يسمىّ "إكسا" وهو لا يدرى لذلك سبباً.

حينما طلب منه تحديد عنوانه، سأله المدير متعجباً:

– ألا يمكن أن يكون لمنزلك رقم مثل بقية المنازل؟ أنا لا أحب المشكلات التى من هذا النوع، التى يسببها الموظفون عندى.

وحاول جيلبير عبثًا أن يشرح له أن ليس له ذنب فى ذلك. فجميع المنازل فى "البلوك".

تحمل أسماء زهور بدلاً من الأرقام، و"إكسا" يعنى زهرة السوسن.

– انتهينا... انتهينا... لم أطلب منك أن تعطينى درسًا فى علم البساتين. شكرًا يا سيد... إكس.

ومنذ ذلك الحين وزملاؤه يسمونه السيد إكس؛ لأن الموظفين الصغار لم يترددوا فى اتباع رئيسهم، ليس بدافع سوء النية، وإنما بسبب ضيق الأفق، فقد وجدوا فى ذلك مسحة من عبقرية المدير.

وتنهد جيلبير وهو يقول فى نفسه: "أليس من حقه أن يكون له اسم كبقية الناس". كانت أمه تسميه "جيجى"، أما زوجته فتسميه "بيرتى"، وابنته تسميه "بابّى". أما ابنه آخر العنقود، فقد بدأ يتلعثم ويقول "جيل.. جيلبير" وعلق جيلبير، وكله أمل قائلاً: "سوف يدعونى باسمى".

للأسف، لكى يقنع نفسه بهويته وبحقيقة شخصيته، لم يعد أمامه إلا مصدر واحد أن يطلع على بطاقته العسكرية؛ نعم، فهو كجميع الناس، له لقب، اسم عائلة معروف بطريقة كريمة إن لم يكن مكرّما.

وعادت أفكار جيلبير به إلى رفيقه فى السفر. أين هو ذاهب؟ وماذا جاء يفعل فى هذه الضاحية الكئيبة؟ إن المحطة التى ركب منها هى من أصغر المحطات على الخط، والقطار لا يتوقف فيها إلا دقيقة واحدة.

مرة كل سنة، يأتى جيلبير ليعرض بضاعته على الآنسة كليمانسو صاحبة بوتيك أدوات التجميل والخردوات. وهى لا تأخذ منه الكثير، فهى شحيحة لا تبغض شيئا أكثر من بغضها لمفارقة نقودها.

ضاحية نحس، يسكنها قوم نحس.

وبادر جيلبير الرجل الغريب سائلاً، حينما التقت عيونهما:

– هل تعرف المنطقة هنا؟

فأجاب الرجل قائلاً:

– هذه المرة الأولى التى أضع قدمى فى هذه المنطقة. فقد تعطلت سيارتى، فاضطررت إلى تركها بعد أن كلفت أحدهم بنقلها إلى الجراج.

فعقب جيلبير بنظرة يشوبها التذلل قائلاً:

– هذه عاقبة السرعة.

– أوه، أنا لا أحب التلكؤ على الطريق، وسيارتى ممتازة. وفى العادة لا يحدث شىء؛ ولكن هذه المرة.

وارتسم على وجه الرجل تعبير غامض، ثم سكت. أما جيلبير فقد صعب عليه أن يكتم فضوله، فألح قائلاً:

- كان بإمكانك على الأقل أن ترسل برقية للأهل ؟

- طبعًا، طبعًا. زوجتى على سفر، وسيخبرها الخدم بذلك.

"سيخبرها الخدم"! بأى لهجة قال ذلك! ما هذا العز وهذه الفخفخة!

واستطرد الرجل يقول:

- المشكلة أن هذا الوضع يضطرنى إلى قضاء الليلة على الطريق. لحسن حظى أننى لا أسافر إلا وأحمل معى "روب دى شومبر" و "بيجاما".

وبإشارة من ذقنه، أومأ إلى الحقيبة الجلدية الحمراء. وتأمل جيلبير الحقيبة. كيف بالله يمكن لهذه الحقيبة الصغيرة أن تستوعب كل هذه الأشياء؟ إن بيجامته هو تكفى لملئها؛ أما الروب دى شومبر، فهو لم يستعمله طوال حياته. فقد كانت زوجته ترى أن أى ثوب قديم يمكن أن يؤدى الغرض.

واستبق جيلبير الأحداث بساعات عديدة، وتصور الرجل المجهول وهو ينزل فى حجرة فخمة فى أحد الفنادق، وتصور ما يمكن أن يفعله هو فى هذا الوقت. فرأى نفسه لابسًا شبشبه المقرف، والسيجارة الملفوفة تتدلى من بين شفتيه. و(ماتيلدا) زوجته تتحدث عن الأولاد أو عن أمها لو جاءت لزيارتها بعد الظهر. وبعد هذه الزيارات، يكون الجود دائما متوترًا. وتقول الزوجة:

- لا حول لنا ولا قوة.

كأن هذه الجملة تلخص الوضع كله.

- ماما لا تستطيع أن ترانى أكد وأتعب كالخادمات.

وجيلبير متأكد أن الأم لا يمكن أن تقول مثل ذلك. بل إن الزوجة هى التى تستخدم هذا الأسلوب غير المباشر، لتذكره بأنه لم يف بالعهود التى قطعها على نفسه فى أثناء فترة خطبتهما.

كم بنى من القصور فى إسبانيا! وفى النهاية فهما لا يملكان سوى المنزل الذى اشترياه بالتقسيط. وحينما أوشكا على تسديد كامل الثمن، أصبح لا يساوى أكثر من ثمن الأرض التى بنى عليها. وحينئذ كان ينبغى تجديده، ولكن ذلك يكلف الكثير. أما القادرون، الذين لا يضطرون إلى وضع القرش فوق القرش، فيقولون: "الغالى رخيص. الغالى ثمنه فيه".

ورمق جيلبير الرجل بنظرة ملؤها الحقد. وكان الآخر قد أشعل سيجاراً وبدأ ينعس، ورأسه مسند على الحاجز الخشبى. وودّ جيلبير أن يسأله قائلاً: "أخبرنى ماذا صنعت لكى تعيش هذه الحياة الميسرة اللطيفة؟ أؤكد لك أنك ما كنت لتبدو بهذا المظهر البراق لو كنت مثلى. تسأل نفسك دومًا كيف يكون الغد، تلاحقك زوجه مزعجة صعبة المراس، لم تعد تروق لعينيك منذ زمن بعيد، وأيضًا لم تعد ترى فيك شيئًا يجذبها إليك".

روب دى شومبر من الحرير وشبشب من الجلد الأحمر! هذا ما لا بد أن يغير الإنسان، ويعطيه الأمان والثقة والاطمئنان.

وفتح الرجل الغريب عينيه كأنما قد شعر بمن يتمعن فيه، وقال:

– يبدو أن القطار يخفف من سرعته.

– أعتقد ذلك، فنحن نقترب من إحدى المحطات.

– هل ستنزل هنا؟

– كلا، لا يزال أمامى طريق طويل.

– هل تعتقد أن الوقت يكفى لكى أنزل وأشترى الصحيفة من الكشك؟

– طبعا لا. فبائع الصحف فى قاعة الانتظار. وأنت لا يمكنك أن تذهب وتعود.

– أوه، أتعتقد ذلك؟

– أنا متأكد.

– خسارة. كنت أود أن أشترى سجائر أيضاً، لا ينبغى أن أدخن السيجار فهو ضار بالقلب.

وحدث جيلبير نفسه ساخراً:

– يا عينى عليه! فماذا يقول فيمن يدخن سجاير من التبغ الأسود على الريق، على لحم بطنه، لأنه يستيقظ متأخراً ولا يجد وقتا حتى ليشرب القهوة، قبل أن يقفز فى قطار الساعة الثامنة المكتظ بالركاب النحس الذين يثيرون أعصابك. يا لرفاهة حسّه بقلبه الصغير الرقيق.

أدهشه استمراره فى الشعور بهذا الحقد، وقد كان يعتقد أنه فقد الشعور بأى شىء، أو التأثر بأى شىء، منذ زمن بعيد. لكن هذا الرجل الماثل أمامه فيه شىء ما يستفزه. فهو متكبر، واثق من نفسه أكثر من اللازم. باختصار، فهو يغيظه.

– كيف، هل ستنزل رغم ذلك؟

– نعم، هناك وقت لكى أشترى السجائر وأعود.

ودون أن ينتظر وقوف القطار، وأمام دهشة جيلبير، قفز الرجل على الرصيف وصفق الباب خلفه، ورآه جيلبير وهو يعبر القضبان، ويخرج من باب المحطة، دون عجلة من أمره.

وقال جيلبير فى نفسه: "لقد أخطأ بنزوله، فسيفوته القطار". وكاد ينادى عليه، لكن الغضب استولى عليه. ثم، فهو ليس مكلفًا بالاهتمام بهذا الرجل، "فليدبّر حاله بنفسه".

صفارة. وبدأ القطار يسير. ومع ذلك، فقد ظل جيلبير واقفًا أمام الباب يرقب الرصيف الخالى. ويتوقع أن يرى رفيقه يظهر بين لحظة وأخرى؛ لكن الرجل لم يعد. وبدأت البيوت تتتابع، ويظهر الغسيل المنشور فى الأحواش. وسرعان ما دخل القطار تحت الجسر الذى يعلو السكك الحديدية. وانطلق عبر الحقول.

ورفع جيلبير زجاج النافذة وألقى نظرة على ما حوله. فرأى فوق المقعد الحقيبة الجلدية الحمراء، ومعطف الرجل المجهول الذى انتقل من مكانه بسبب اهتزازات القطار. وتحسس جيلبير قماش المعطف، فوجده ناعمًا رقيقًا، خاصة البطانة الحريرية التى زيّقت قليلاً تحت أصابع يده. وفى الجيب وجد زوج قفاز من الجلد الفاخر، ومنديلاً جميلاً جديداً. فارتدى جيلبير المعطف وتطلع يرى نفسه فى زجاج النافذة. فاشتم رائحة جميلة تفوح من المعطف، خليط من العطر الفرنسى والتبغ الإنجليزى. واستولى على جيلبير شعور بالارتياح والغبطة، وتنفس بعمق. فهو فى هذا المعطف يشعر بأنه شخص محترم. ونظر بامتعاض إلى معطفه هو، الموضوع بعناية واهتمام فى شبكة الحقائب. وكانت نظرة وداع للأبد.

ماذا سيقول لماتيلدا ليشرح لها هذا التحوّل؟ بسيطة، لن يقول شيئًا بالمرة. فكما يقولون، السكوت من ذهب. من حق الإنسان مرة فى العمر، أن يدخل فى جلد إنسان آخر. وأن يستفيد قليلاً من الأشياء الجميلة، ثم إن العالم لم يُخلق للشرفاء، وإلا لما امتلك هذا الأستاذ معطفًا كهذا فى حين يرتدى جيلبير هذا الشيء المستهلك.

وإذا بهزة من القطار تطرحه فوق المقعد، فسقط وذراعاه أمامه تحطان فوق الحقيبة الجلدية الحمراء. كانت تبدو فى انتظاره على أى حال، فليست هناك أسرار

بالنسبة لـه، فهو يعرف محتواها مقدماً. وليست المصادفة هى التى وضعتها فى هذا المكان. فـهى تخصـه. أى تخص الرجل الذى أصبحـه، الرجل الذى كانه دائمًا، فى الواقع.

وأمسك جيلبير بمقبض الحقيبة، ودون أن ينتظر وقوف القطار، فتح باب القطار وقفز فوق الرصيف، كصنيع الرجل الغريب. وعبر القضبان بخطوة رشيقة، لكنه جعل مسافة بينه وبين الركاب الآخرين الذين كانوا يسارعون بالخروج. وكان يعرفهم جميعًا، ولكنه اليوم ليس مستعداً ليتكلم معهم. فهمومهم لا تهمه، ولم يعد هناك ما يربطه بهم. شعر بأنه أصبح رجلاً خطيراً، لديه مشاريع طموحة.

وفيما كان يقدم تذكرته للموظف العجوز فيكتور، سمع صوتاً يأتى من خلفه:

– هل هذه حقيبتك؟

والتفت جيلبير ناحية السائل، وقال بكل تعالٍ وكبرياء:

– طبعًا، حقيبتى.

– عظيم ! لو سمحت، تعال معى.

وأخطر فيكتور ناظر المحطة فجاء يسأل:

– ما الموضوع؟

– شرطة. أنا أراقب هذا الشخص منذ الصباح، وكاد يفلت منى حينما قفز فى القطار أثناء سيره.

وابتسم رجل الشرطة ابتسامة صفراء وقال مخاطباً جيلبير:

– أنصحك فى المرة المقبلة أن تختار معطفًا غامقًا وحقيبة سوداء. فالمفروض فى مهنتك أنك لا تلفت الأنظار بالألوان الصارخة.

فهمهم ناظر المحطة قائلاً:

- مستحيل. أنا أعرف هذا الأستاذ.

فاقترح ضابط الشرطة مخاطبًا الناظر:

- هل من الممكن أن ننتقل إلى مكتبك. فيجب أن أتصل بمكتب الحى لأخبرهم بأننى قبضت عليه. فمنذ مدة طويلة وأنا أقوم بمراقبته؛ فهو الذى ارتكب ليلة أمس الحادث الذى وقع للآنسة كليمانسو، أنت تعرفها.

ثم أضاف وهو يتهكم قائلاً:

- ومع ذلك، فقد تمكنت المسكينة من الزحف حتى وصلت إلى الهاتف. أما هو فقد أسرع بالفرار؛ فسقطت سيارته فى حفرة. فاضطر إلى الاختفاء بين الأشجار والقفز فى القطار بعد قليل، متخيلاً أن الشرطة انصرفت عن مراقبته.

فعاد ناظر المحطة يؤكد قائلاً:

- مستحيل. أنا أعرفه.

وأضاف الضابط قائلاً:

- وأنا أيضًا أعرفه، وأعرف أوصافه. وقد شاهدته وهو يقفز فى القطار. ومن حسن حظى أنى قبضت عليه. وإذا كان كلامى هذا لا يقنعكم، فالحقيبة موجودة. فتمتم جيلبير قائلاً:

- الحقيبة؟

وانتزع منه الحقيبة. فأُسقط فى يد جيلبير، وانهار. لم يدرك حتى كيف أصبحت الحقيبة حقيبته. ونسى ما كانت تحتويه.

ودون أى كلام، فتح الضابط الحقيبة، ونظر فيها، وكذلك فعل ناظر المحطة وجيلبير.

كانت الحقيبة الجلدية الحمراء شبه فارغة. لم يكن بها سوى مطرقة، وقبضة حديدية أمريكية، ومنديل من القماش استخدمه الجانى لتنظيف أصابعه المخضبة بالدماء.

***

ماری هیلین

تألیف: جول جیل Jules Gille

من بلجيكا

انقضت عشرة أيام منذ بدأت هذه الموجة من الحرارة غير العادية تطبق على البلدة. بدأت عشية عيد الصعود بعد العاصفة. وفى يوم أحد الخمسين هذا كانت الشمس تطقطق على صور العائلة فى حجرة الطعام الضيقة التى لا تكاد تحميها ستارتها الوحيدة، وفى أركان الجدار، كان ورق الحيطان ينكمش وهو يطقطق. ووضع الرجل سكينة وألقى نظرة سريعة حوله على أبيه المشلول والطفل الذى لا ينفك يمتص قشرة برتقالته، ثم حطت فى نهاية المطاف مع زوجته. فنظر إليها بلا حنان: نموذج المرأة المتعبة. برقبتها القصيرة، ويديها المجروحتين من الأعمال اليومية، كل ذلك كان يبعث على اليأس والأسى. ومع ذلك كان يتعين عليه أن يقول شيئًا:

– ماذا تعملين عصر اليوم؟

– أكوى كل الغسيل.

كان صوتها حادًا، يكاد يكون عدوانيًا.

– أنتِ كما أنتِ دائما. أجّلى هذا للغد!

– والخادمة التى أحضرتها لى هى التى ستقوم بهذا العمل؟

ولم يجب، كان متعباً من هذه المعارضات التى تتكرر ويسمعها مئة مرة، وهذا الصوت الصاخب، وهذا الفم القبيح، والأسنان البيضاء جداً بالنسبة لشفتين مهملتين، كل ذلك كان يغيظه. فرفع بصره نحو الصور وعلى الأثاث الرخيص الذى يدل على الوضاعة.

– ليس عندك إجابة سوى هذا؟

كانت مارى خارجة لتوها من حالة الخمول الذى غشيها بعد الغداء.

– اليوم الذى أجد فيه ما يناسبنى، اطمئنى.

– وفى انتظار ذلك. فأنت الذى يتقاضى أصغر راتب فى المكتب، أقل من حاجب فى محكمة! بعد عشرين سنة من الخدمة.

وباحتقار ألقت فوطتها فوق الأرضية.

وغادر الصغير روبير المائدة وتسلل فى هدوء إلى ركن من الحجرة تحت السلم، هناك حيث الظل ينشر شيئاً من الرطوبة. وجعل الطفل يلعب بقطاره الميكانيكى وعرباته المختلفة، هذه العربة هى سيارة فورد، وتلك شيفروليه، ونظم بينها سباقًا عجيباً داخل دائرة مغلقة مع تحويلات بدبابيس الشعر ونزلات تصيب بالدوار. غير أن صوت الأم اللحوح يفسد عليه متعته ويمنعه من أن يلعب براحته.

– لن أخرج، مفهوم، وأنت ستبقى هنا... آه! الأستاذ يجب أن يذهب لزيارة سوزان، أليس كذلك؟ غبى! سأنادى على الولد لكى يسمعنى، لكى يعرفك على حقيقتك.

لم يكن الصغير روبير بحاجة ليكون فى حجرة الطعام، أو ينظر من بين شقوق الألواح لكى يشاهد المشاجرة. فهو يعرف أن أمه فى هذه اللحظة واقفة، وأنها تلوح

بقبضتيها فى (طرف ذراعيها القصيرتين)، وأن نبر صوتها سرعان ما سيتحول إلى الحاد، فى حين أن أباه جالس، جامد الملامح، وعيناه تنظران فى الفراغ.

- لا تجيب! هذا أفضل.. لكنك لن تذهب إليها، قلت لك لن تخرج.

والطفل يعرف أن أباه فى هذه اللحظة وضع يديه على أذنيه، لكى يبين كم أن هذا التلوث الصوتى يغيض إلى نفسه؛ فعلى هذا النحو يكون السيناريو؛ وبعد لحظة، سيستعمل صوته الهادئ جداً، صوته المزيف كرجل محترم، ليقول لها:

- مارجيريت، أرجوك، غيرى هذه الأسطوانة.

فى ركن المدفأة، يجلس الجد فى الكرسى الموسد الخاص به، ساكنًا منذ ثلاث سنوات، بسبب الشلل الذى أصابه. فمنذ إصابته بالمرض، يقبع صامتًا بلا حراك وفى يده اليمنى غليون صغير مطفأ، يرفعه ويخفضه على الدوام فى إيقاع، معين كأنه حكم يسجل الضربات والنقاط، ولكن ليس معلومًا بالضبط إلى من سيرفع نتيجة عمله.

- أنت تتصور أننى سأقتل نفسى فى كى هذه الملابس، وأنت تخرج لكى تتنزه!

لا بد أنها وصلت إلى هذه اللحظة من الغيظ، التى تشير فيها بسبابتها إلى زوجها الذى يبتسم شفقة من هذه العيشة التى لم تخلق له. وإذا بضوضاء كرسى يتحرك يفزع الطفل روبير؛ فيعرف أن أباه قد نهض وأمسك بقبعته وأنه يهم بالخروج. لن يوقفه شىء. ففى مثل هذه اللحظات يتملكه تصميم غريب، كأن دافعًا قويًا يتحكم فيه، لا شىء يمكن أن يقاومه، ولا حتى نفسه، وبالذات نفسه. ومهما حاولت مارجيريت اعتراضه والوقوف أمامه فهو يبعدها بحركة قوية. ولا نلبث أن نسمع وقع أقدامه فى الدهليز والباب الخارجى يصفق، وإذا به فى الخارج. كما هى الحال دائمًا! وكما هى الحال دائمًا تمكث الزوجة لحظة مهووسة من الغيظ والعجز، لكنها تلتفت على الفور نحو حميها، نحو هذا التمثال بملامحه الجامدة كالورق، ونظرته التى لا تنم عن شىء، والذى لا ينفك يرفع ويخفض غليونه القصير.

– أرأيت، أرأيت ابنك؟ هذه هى الحياة التى يوفرها لى.

فما كان من الرجل الطيب بنظرته الفارغة إلا أن استمر فى موقفه المعتاد، موقف الحكم فى هذا الشجار الذى ينأى بنفسه عنه تماما.

– آه، هكذا! هكذا! يا روبير!

وفاجأ الصوت الطفل الصغير فى اللحظة التى كانت فيها السيارة الفورد تسجل فيه ثلاث نقاط تحت عتبة السلم الثالثة، تلك العتبة التى تطقطق عاليًا حينما يضع أحد قدمه عليها.

– روبير!

فنهض الولد وعاد إلى حجرة الطعام وقلبه يدق، ماذا سيحدث؟

– اذهب وراء بابا!

– لكن يا ماما.

– قلت لك! اذهب وراءه. سيمر من أمام جسر السكك الحديد، وبدلاً من أن يتجه إلى المدينة، سيسير فى شارع أكيدوك إلى آخره… ثم يأخذ شارع الأتيلييه. وفى آخر هذا الشارع… هل تسمعنى؟

وجرؤ الطفل ورفع رأسه.

– كلا يا أماه، لن أفعل.

وإذا بصفعة شديدة تنزل على خد الطفل الذى أحمر على الفور خجلاً.

– … ثم سيتجه يمينًا، سمعت؟ يمينًا. انظر جيدا. وسيدخل عند سوزان فى سابع منزل. وأنت تعرفها، فقد ذهبت معى إليها. هيا، اذهب!

وتطلع روبير إلى جده ليستشهد به ويحضه على التدخل، ويخرج من هذا الصمت وأن يزيل هذا الصدأ الذى يفصله عن عالم الأحياء ويسمع صوته كما كان يفعل فى الماضى لبفرض رأيه.

- مارجيريت، دعى هذا الطفل وشأنه.

غير أن الجد من الخشب، مثل إله إغريقى، يظنه الناظر على مشارف الموت لولا غليونه الذى لا يكف عن عزف سيمفونية مزرية.

- اذهب فورا!

وقبضت على روبير ودفعته إلى عتبة الباب. الشارع غارق فى الشمس، لا يوجد سوى شريط ضيق من الظل بحذاء البيوت اليسارية.

- لقد اختفى أبوه.

- اجرى حتى آخر الشارع لتلحق به. وإياك أن يراك. هيا، اذهب.

ورحل روبير وشعر بنظرة أمه تتابعه، وجرى. ومع كلٍ فقد كان من آن لآخر يلتفت خلفه، على أمل أن تغير الأم من موقفها وتستدعيه وتدرك أن ما تطلبه منه شىء قبيح، لكن خاب ظنه.

وعند منعطف الشارع، تعرّف قامة أبيه الطويلة وهو يسرع الخطى كأنه يتزحلق فوق الأشياء. وزاد إحساس روبير الصغير بالمهانة. كيف تضطره أمه إلى مثل هذا العمل الحقير؟ ومع ذلك فهى طيبة حينما لا تكون غاضبة. وأحيانًا تحتضنه وتدلله وتدعوه بأسماء لطيفة وصفات جميلة. ولا أحد مثلها يصنع الحلوى التى يهيم بها، لماذا لا يتفق والداه؟ لماذا لا يكون بيتهم مثل البيوت الأخرى.. بيت هادئ يسوده الحب والوئام يتبادل فيه الوالدان عبارات رقيقة وحانية؟

لكن مـاذا يصنع والده عند هـذه المرأة؟ وهـل هو سـيـذهب إليـهـا؟ وإذا لم يكن صحيحًا! لو يستطيع روبير أن يعود إلى أمه وهو يجرى ويصيح بها بأعلى عقيرته من المدخل: "أرأيت، أنت خاطئة، لقد ذهب إلى المدينة".

ولم يعبر والده الجسر، بل على العكس لقد اجتاز الشارع دون احتراس واضطر أن يرتد إلى الوراء، أمام إحدى السيارات التى كانت على وشك أن تصيبه، وصاح به روبير قائلاً:

- انتبه يا بابا، انتبه!

غير أن أباه عبر. وها هو ذا يدخل فى شارع أكيدوك. يا له من طريق مرعب. بيوت متلاحقة كئيبة إلى اليسار. وإلى اليمين قضبان السكك الحديدية التى يحفها سياج من الأوتاد. وعلى أعتاب البيوت حيث يمتد بعض الظل خرجت مجموعات من الناس طلبًا للنسمة العليلة. يجلسون فوق مقاعد حقيرة أو كراسى من الخيزران. ومن دونهم امرأة مسنة تبدو بنظارتها كأنها الملكة، فقالت له:

- أنت تمشى بسرعة يا حبيبى، ستصاب بالمرض.

لكنه جرى أسرع، وحث الخطى حتى يقترب من أبيه، معرضًا نفسه للخطر.

"يا إلهى، اجعله يغير رأيه. اجعله لا يدخل عند هذه المرأة!"؛ لكنه شعر بالإحباط. فهو لا يعرف كيف يدعو. وهو لا يؤمن بهذه الأدعية. ثم هل هناك ضرر من أن يدخل أبوه هذا البيت؟ ماذا يعنى أمه إذن؟ ما سبب غضبها؟ آه! ومع ذلك يا ليت أباه يغير رأيه.

"يا رب، لا تجعله يذهب إليها، يا رب، يا رب!".

لكن القامة الطويلة بلغت نهاية شارع أكيدوك؛ فأى الطريقين سيتخذ؟ وود روبير أن يصيح قائلاً:

"بابا، لا تستمر فى هذا الطريق!"

لكن الأب يصر ويستمر فى الطريق إياه، ويدخل فى شارع الأتيلييه؛ والآن خسر روبير الرهان. وظهرت على وجهه علامات الاضطراب، وجعل المارة ينظرون إليه ولا يخفون مشاعرهم:

- أنت تبكى يا صغيرى؟

- ماذا بك يا حبيبى؟

لا شىء، لا شىء يا سيدتى، ليس هناك سوى هذا اليأس المستقر فى أعماقه وهذه الصيحة التى يكتمها وتريد أن تنطلق "بابا، لا تفعل هذا!" وحث الخطى، يريد أن يلحق بأبيه، لكنه يتعثر ويسقط. ويسرع المارة إليه لينهضوه. لكنه يتخلص منهم ويجرى. لكن بعد فوات الأوان، فقد بلغ أبوه نهاية الطريق. ماذا! لقد توجه أبوه ناحية اليسار.

"أوه! ... أوه! ...".

وتوقف روبير، ويده على قلبه، لاهثًا.

- ماذا بك يا صغيرى. لا بد أنك مريض. ما هذه الحرارة؟

- لا شىء يا سيدتى، ليس بى شىء.

ليس به شىء سوى هذه الفرحة الكبرى، لكنها ثقيلة، فرحة هذا الخبر العظيم عظم الدنيا كلها الذى سيعلنه بمجرد دخول البيت:

"ماما، ماما، لم يذهب عندها!"

ولم يدر بالضبط ماذا يصنع. وحيث إن أباه انعطف ناحية اليسار، فانعطف هو أيضًا ناحية اليسار. وتبعه من بعيد، ولم يستطع أن يستمر. واختلط كل شىء فى ذهنه، لكنه يريد أن يعرف.

لقد تغير كل شيء فجأة! لم تعد هناك بيوت، وهبت نسمة منعشة من بعيد. ها هي ذي أشجار، وأشجار أخرى، ومروج وسياج. ومن بعيد تبدو مزرعة غارقة وسط أوراق الشجر حيث الحياة جميلة في عصر هذا اليوم القائظ. لقد غاب أبوه عن أنظاره، لأن الطريق يهبط بعد هذا المنحدر الحاد. يهبط فعلاً لكنه لم يعد حاداً، بل أصبح ناعماً رقيقاً تحت الأقدام. يحملك ويجذبك. أشجار ذهبية تأتي للقائك، أوراقها تدور مع أنغام موسيقى لا نسمعها، ولكننا نحملها في أعماقنا، وهي تحف بنهر يتلألأ رقيقاً في جو من الظل الظليل الأخضر تتخلله ضحكات للشمس، وعلى الشاطئ الآخر صخور تشرف على التل وتعلوها كريات وردية كأنها أقواس نصر.

لقد توقف أبي على شاطئ النهر. وجلس على إحدى علامات الطريق، وجعل يتطلع مفتوناً بالمنظر. وتمدد روبير في أحد الحقول بمحاذاة الطريق، يحاول أن يعثر على ما يسبي أباه إلى هذه الدرجة. وعلى الشاطئ صيادون نرى ظهورهم كما نرى مساحات من الضوء تلمع خفيفاً على المروج. ويرتفع صوت رخيم ومكتوم في الوقت نفسه. إنه محرك زورق يتقدم على سطح الماء. وهذه سفينة طويلة تحمل على مقدمتها اسماً بحروف من النحاس: ماري هيلين، وعلى الدفة يقف رجل وعلى رأسه قبعة، وهو جزء لا يتجزأ من السفينة كأنه مزروع فيها من أجل مهمة أبدية. وثمة امرأة شابة في ثوب أصفر تذرع المكان ذهاباً وإياباً. لا يستطيع روبير أن يتميز ملامحها. لا يرى سوى هذا المستطيل الأصفر الذي يستدرج إليه النور كله. يبدو أنها قامت بغسل الملابس وهي تنشرها على حبل طويل يبدأ من مقدمة السفينة حتى الصاري الكبير. وفي كل مرة تبسط فيها ذراعيها لتشبك قطعة من الملابس، تأتي حركة هائلة ملكية وكأنها تفرد علم النصر.

ومكث روبير يتأمل هذه المرأة، ويتابع ببصره الزورق، ويستمع إلى ضجيج المحرك: " تشو ... تشو! " إنه يعيش بكل عمق وكثافة في هذا الركن من الفردوس الأرضي، بينما هو على بعد خطوتين من المدينة، حيث الشمس لا ترحم والحياة بلا

أفق. ولكن ماذا ستقول أمه؟ ثم إنه يتطلع لحظة إلى أبيه وقد غرق فى أفكاره ثم ينعطف. وها هو ذا يجرى، يجرى نحو البيت لكى يخبر أمه أنها كانت مخطئة، وأن بابا موجود هناك، قبالة النهر، وأنه ينظر إلى الزورق الذى يتقدم وأن عليها هى أيضًا أن تستقبله.

- حسنًا، من أين أنت قادم؟

- أوه، أماه...

لم يعد بمقدوره أن يتكلم. ومع ذلك فيمكنه أن يبين أنه لم يكن هناك شىء، وأنها عذبت نفسها بلا جدوى، وأن أباه حينما وصل إلى نهاية الطريق انعطف نحو اليسار، نحو الحقول.

- لقد ذهب إليها.

غير أن صوت مارجيريت أصبح أقل حدة.

- كلا، يا ماما.

- وما أدراك أنت؟

- أنا رأيته... لقد ذهب بعيدًا، بعيدًا، وفجأة تغير كل شىء. كانت هناك أشجار ومزارع، وأشجار أخرى، ونهر وسفينة.

- إنها القناة التى تخترق المدينة.

- أوه! كلا، يا أماه، كان ذلك شيئًا آخر... كما فى كتاب مصور.

- أيها الصغير الأبله! وماذا كان يصنع هو؟

- كان جالسًا بالقرب من الماء وينظر.

وكأن مارجيريت ابتسمت.

- هل كان بمفرده؟

- نعم.

- أنت متأكد أنه لم يذهب إليها.

- نعم.

- إذا لماذا ترددت؟

كيف أشرح لها أن المرء لا يكون بمفرده وهو فى صحبة نهر، وأشجار، وزورق يتقدم برجل على الدفة ومن خلفه أعواد بوص سوداء تنحنى فى ضوء الشمس؟

- ألم يكن بوسعك أن تنادى على بابا؟ على العموم، اذهب العب!

- لم تكن القناة، يا أماه، كان المنظر جميلاً مع الأشجار والمرأة التى تلبس الثوب الأصفر.

- أيها الأبله الصغير!

وعاد روبير إلى ركنه تحت السلم. وكان لا يزال محتفظًا فى يده عربة قطاره القديم وهى بالنسبة له سيارة فورد، والأخرى وهى سيارة شيفروليه. وأطلقها فانطلقت على القضيب. لكن لم يكن بها عزم. فقد بطؤت حركتها. وتركت يده اليسرى السيارة الفورد، وأصبح يدفع سيارة واحدة وهى تتقدم بإيقاع بطىء ثم تصبح الآن الزورق "مارى هيلين"، وهى تتهادى بإيقاع واثق ناشرة ضوضاء ناعمة وقوة هى ضجيج الدفة.

- تشو.. تشو.. تشو!

وفى حجرة الطعام، صارت الأصوات أهدأ وأرق.

وتتقدم "مارى هيلين" وتتهادى بحذاء أشجار الحور، وتمرق بين بقع من النور ويمسك دفتها الآن رجل طويل القامة وعلى ظهرها امرأة فى ثوب أصفر ترتجف.

- تشو.. تشو.. تشو..!

وإذا بطيف يظهر وراءه!

– روبير!

– أماه!

كم بدا له صوت أمه رقيقًا على حين فجأة:

– خذ هذه الحلوى!

– أوه!

– ماذا بك؟ هل تبكى؟

– كلا!

– بلى!

وكأن السكينة هبطت من السماء على مارجيريت، وسرت حتى يديها البائستين المغضنين بفعل الأعمال اليومية. فازداد الصغير جرأة وقال:

– يبدو لى ... أننى أصبحت غنيا!

وتطلعت إليه، ولم تفهم.

– اسكت أيها المجنون الصغير! إذا لم تكف، فستصبح مثل أبيك. لكنها استدركت على الفور وأضافت:

– كلا: أنت شاطر، يا حبيبى!

لم يبك، وجعل ينظر إلى مارى هيلين، وينظر إلى النهر وإلى الثوب الأصفر والمساحات الوردية الرمادية التى تعلو الربوة، وتعلو الشاطئ، والبوص الأسود الذى يواصل رفضه للنور.

***

الراهبتـــــــــان

تأليف: مارى بول تييرى Marie-Paul Thierry

من بلجيكا

احتست الأخت "بيرناديت" قهوتها على وجه السرعة، ووضعت الكوب الخزفى، ثم، وبحركة خفيفة كضربة جناح طائر، رسمت إشارة الصليب. وبينما هى تسوّى وشاحها الذى اعتاد أن ينسدل على كتفها اليسرى، نهضت وأخذت من فوق المدفأة كومة من الكراسات ذات الغلاف الأزرق، كانت قد وضعتها ليلة أمس بجوار نموذج لقلبٍ مقدسٍ متوهج. وقبل أن تدخل الفصل ألقت نظرة على الراهبة الأخرى التى كانت تشعل موقد المدفأة. فكان نور لعوب يضىء عينيها الجميلتين. وقالت لها:

– دعى عنك هذا يا أمنا الفاضلة. سأشعل أنا النار أثناء الفسحة. فهى ستنطفئ بأى حال قبل الضحى؛ فهذا الفحم يحترق بسرعة كأنه قش. سأكلم "جاتيس" بخصوصه. فنحن على أى حال زبائن قدامى.

فأكدت الأخت "بلانش" بصوت هادئ قائلة:

– ستستمر، وسترين أنها ستبقى حتى الحادية عشرة والنصف.

فقالت الأخت بيرناديت:

– حسنًا.

واجتازت عتبة قاعة الفصل وهى باسمة مطمئنة، كل شىء يبدو مطيعًا للأم الرئيسية: النار، والوقت، والتلميذات، حتى السيد الخورى. كانت الأخت بلانش، وهى فى الثالثة والخمسين، طويلة، واثقة الخطوة. وعلى الرغم من ضخامتها، فقد كانت تتحرك بخفة ونشاط وحرص يلفت الأنظار؛ فلا تكاد حركة ثيابها المهيبة تثير الهواء فى طريقها. كأن رأسها الدقيق المستقيم، فوق جسدها الضخم، يوحى بشىء غير منتظر. كان كل ذكاء هذه المرأة القوية الريفية الأصل، وكل روحانيتها، مركز فى وجهها النحيل الذى تلمع فيه عينان نواتا بريق بارد.

وسألت الأخت بيرناديت الأم الرئيسية من الحجرة المجاورة:

- هل يمكن أن تخبرينى كم الساعة الآن يا أمنا الرئيسية؟

لم يستطع خشوع الصلاة والأناشيد الدينية أن ترقق صوت الراهبة، وإذا حدث ولم تتنبّه ونسيت أن تخفف نبراته كما يليق بإحدى خادمات الله، فإن هذا الصوت سيخرج تذبذبه حماسة شبابية، كما كان يحدث وهى طفلة صغيرة حينما كانت تلعب مع الصبيان فى الزقاق خلف دكان الحداد. كانت نبرات صوتها حينذاك حادّة، فيها بحّة، باختصار، كان صوتًا يفتقر إلى النعومة، لكنه لم يكن سوقيًا؛ كان السامع يلاحظ فيه الاندفاع والمكر بل والذكاء أيضًا. كان صوت فتاة فقيرة، ترعرعت بسرعة وسط أربعة أخوة وأب كان ينشد نسيان الفقر فى الشراب؛ صوت فتاة طيبة فى أعماقها، تغلق عينيها على شراسة العالم وغباواته، مع ذلك التفاؤل وذلك الإيمان المشرق اللذين سمحا لابنة عامل شيوعى أن يحقق الهدف الذى حددته لنفسها.

ورفعت الأخت بلانش بصرها إلى ساعة الحائط حبيسة غلافها من الفرو الطبيعى، وهى تذكار أهداه لهن المزارعون فى بلدة "كلارينو" حينما غادروها. كانت ساعة دقيقة. لا تكاد تتقدم أو تتأخر أربع دقائق كل خمسة عشر يومًا. ونظرت الراهبة إلى ميناء

الساعة وندّت عنها تنهيدة ارتياح. كانت رؤية الساعة الكبيرة الأنيقة الجميلة تشعرها بالرضا والغبطة. لكنها سرعان ما عنّفت نفسها لمثل هذا الشعور. فهذا البيت الذى وضعها الله فيه، لا ينبغى لها أن تعتبره سوى ملجأ مؤقت. وإن السرور الذى شعرت به عند رؤية هذه الساعة، أليس ناتجاً عن شعور إنسانى شديد بالنظافة؟

– الساعة الثامنة وسبع عشرة دقيقة، يا أختاه.

وقامت الأخت بيرناديت بملء المنبه الذى تحتفظ به فوق مكتبها أثناء الحصص. لم يكن فى دقته يقل عن ساعة الحائط، ومع ذلك فهو لم يكلف الإدارة العامة سوى خمسة وستين فرنكًا بلجيكيًا. وكانت الأم الرئيسية قد كلفتها بشرائه، فعادت يومها وهى تشعر بالفخر وهى تحمل المنبه الثمين فى علبته من الكرتون. وقد اعتقدت الأم الرئيسية أن الثمن كان مرتفعًا، وعبرت عن ذلك بامتعاضة من فمها. لكنها لم تلبث أن تحولت إلى ابتسامة حينما علمت من الراهبة أنها فرصة فى الشراء لا تعوض.

وجابت الراهبة الفصل بنظرها. فوجدت كل شىء فى محله. فقد كانت المكاتب مصفوفة فى صفين منتظمين. كما كان الموقد الذى يمتد خرطومه بطول الفصل ينشر حرارة لطيفة فى ذلك اليوم الرطب، البارد الذى يوحى بنزول البرَدَ. وكان عدد كبير من التلاميذ يأتى من مناطق بعيدة، فكان من الضرورى وضع جميع هذه الأحذية أمام الموقد لكى تجف.

إن من المتعين على الراهبات المثاليات أن يعتنين بكل شىء. باختصار، فعليهن تقع المسئولية الأدبية للقرية بأسرها. وكان الجميع فى القرية يبادرون بتلبية طلباتهن على أكمل وجه. أفضل أنواع الدقيق، والبيض الطازج وأفضل الفواكه والخضار يخصص لهن. كما كان "جاتيس" بائع الفحم عند دخول الشتاء، يلبى طلباتهن من الفحم قبل أى أحد فى القرية. وفى الربيع، كان العمدة يرسل إليهن بستانيًا ليقلّب

أرض حديقتهن. وفى مقابل ذلك، كن يقمن بتعليم التلاميذ القراءة والكتابة. ويقدّمن النصائح للمرضى ويواسين المكروبين، ويحرّرن الرسائل للأميين ويعقّلن الأطفال الأشقياء.

وحينما كانت تنتهى الدروس، كانت الأمهات والزوجات يأتين ليشكين همومهن للراهبتين. كن يطرقن الباب فيجدن الأخت بلانش والأخت بيرناديت تقومان بتنظيف الأوعية وتصحيح الكراسات، أو منقطعتين لصلاة العصر. كانت النسوة لا يشعرن بالحرج من إزعاجهما. كل ما هناك أنهن كن يعتذرن كأمر شكلىّ لا أكثر، ثم يبدأن فى التطرق إلى سرد شكاواهن وهمومهن. فما يكون من الراهبتين إلا أن تتركا ما بأياديهما من أعمال. فمثلاً، تضعان الكراسات جانبًا أو تتركان المسبحة تسقط فى جيب كل منهما، ثم تصْغيان للشاكيات وتواسيان وتنصحان وتعنّفان، وتعدان بالتدخل؛ وفى النهاية تنصرف الزائرات وقد تخففن من همومهن، وصفت نفوسهن.

كان الدير يقع فى قرية غنية، سكانها فلاحون مكافحون. وكانت الراهبتان تسكنان الغرف الثلاث الخاصة بالإقامة، وكان عليهما أن تتحررا من بعض القواعد التى تنظم حياة طائفتهما الدينية، وذلك تمشيًا مع أسلوب حياة الفلاحين، ومن أجل ذلك، كان أمر التشدّد فى غسل أربطة الرأس وخرق التنظيف بعد الحصص.

كانت الراهبتان تعتنيان عناية كبرى بالواجبات الدينية. كما كانتا تتوقفان عن العمل، كل حين، لحظات لإلقاء موعظة. ومع كل فقد اكتسبت حياتهما، دون علمهما، الإيقاع البطىء الهادئ الذى يميز حياة القرويين. وقد كان من نتيجة هذا الأسلوب من الحياة أن خنق طموحاتهما وتطلعاتهما السامية. لم يعد لديهما ذلك الظمأ الشديد إلى المثالية التى كانت السمة الغالبة فى مرحلة الإعداد. كذلك فإن معنى البر والإحسان بالنسبة لهما قد طُبع بطابع الحكمة والذوق السليم وبفلسفة باسمة، جعلته يتكيف مع مستوى الناس البسطاء الذين يعيشون من حولهم.

كانت الأخت بيرناديت تعرف جميع القرويين بأسمائهم. وكانت تعرف جميع المشكلات العائلية والنزاعات والعلاقات والخلافات. كان كل ما فى هذه الحياة تستفيد منه فى تصحيح خطأ، أو تخفيف غضب، أو منع جريمة؛ وكانت بارعة فى الإصلاح بين الأعداء. كما كانت تتمتع بدبلوماسية رائعة تقوم على الذوق السليم والخيال الخصب. كذلك كانت محبوبة من الجميع فى القرية. وكانت علاقتها طيبة بجميع الناس تقريباً. كانت الراهبة بيرناديت، بالنسبة لهؤلاء الفلاحين المهتمين بجانب الحياة المادى وحده، تمثل الجانب الروحانى فى الحياة. كانت تنقل إليهم السعادة من خلال ابتسامتها وفى حفيف ثوبها وفى يديها المعبرتين اللتين كانت تعتنى بهما كل العناية.

وكانت بخيالها الواسع وإيمانها القوى، تروى للأولاد الحكايات الجميلة دون أن تخجل أو تتردد فى أن تنسب إلى القديسين أو الملائكة أعمالاً وأقوالاً جريئة صدمت الخورى ذات يوم.

كان سكان القرية الطيبون يشعرون بالقرب من الأخت بلانش بالأمان والطمأنينة. وكانت تأخذ بأيديهم فى طريق الحياة.

لم يكن من اليسير على هاتين المرأتين الحياة معًا. والمدهش أنهما كانتا تتفقان جداً على الرغم من طبيعتيهما المختلفتين، لأنهما كانتا تنشدان مثلاً أعلى واحداً. كانت كل منهما تغفر للأخرى هفواتها بروح ملؤها الحب والإحسان المتبادل. وكانتا دائمًا تفكران فى " آنّا لوتشيا ".

كانت هذه الطفلة فى السابعة من عمرها حينما ألحقتها أمها بالمدرسة. وأحبتها الراهبة بيرناديت من الوهلة الأولى؛ أحبت فيها عينيها الواسعتين الذكيتين، وكذلك أحبتها الأم الرئيسية. كانتا تشعران بفرحة غامرة حينما يقع نظرهما على عينى "أنّا لوتشيا" أثناء القراءة أو الترتيل. وكان أن صرحت الأخت بيرناديت إلى الأم الرئيسية قائلة:

– ما أعظمها من سلوى لنا! إنها تعرف كل شيء وتحفظ كل شيء عن ظهر قلب. تفيض حيوية وتشع ذكاءً.

فعقبت الأم الرئيسية قائلة:

– إنها بركة من الله!

بعد عدة أشهر، فقدت "آنّا لوتشيا" أباها وأمها، لم يفصل بينهما سوى فترة وجيزة. وكانت جدتها لأمها هي آخر من تبقى من الأسرة. وكانت قد طعنت في السن، وتراكمت عليها الأحزان والهموم، وانعكس ذلك كله على الطفلة التي لم يعد أحد يسمع اسمها.

كان لهذه الحالة تأثير عميق على الراهبتين، وإذا كان من طبيعة تكوينهما ألا يستسلما للمشاعر الإنسانية وللضعف البشرى، غير أنهما شعرا بحالة من الغم والكرب تستولى عليهما. وأدركا المكانة التى تشغلها الطفلة فى حياتيهما. ولكن لم تجرؤ أى منهما على أن تصارح الأخرى بذلك الحب الذى يربطهما بالطفلة. إلا أن الجزع المشترك قرّب بينهما. شعرت الراهبتان بوقع الذنب لاستسلامهما للحب الأمومى الذى من المفروض أنهما بمنأى عنه لأن طبيعة تكوينهما وإعدادهما تصرفهما عن مثل هذه المشاعر الدنيوية التى تعبر عن الضعف البشرى. وحاولت المرأتان مضاعفة الجهد لمكافحة هذا "السقوط". كانت الأخت بيرناديت هى الأكثر رقة وحنانًا، فجعلت على وجهها قناعًا من اللا مبالاة ومن البهجة، أما الأخرى، فكانت أكثر عزمًا، فقد أخذت نفسها بالقسوة والصرامة. وظلّتا شهوراً وسنوات تصارعان، كل بطريقتها، ضد نفسيهما.

وكانت "آنّا لوتشيا" قد بلغت الحادية عشرة، حينما أصيبت بالمرض فجأة، ونقلت على الفور إلى المستشفى فى المدينة، وأجريت لها عملية جراحية عاجلة. وسرى الخبر فى القرية مسرى النار فى الهشيم. ووقع النبأ وقع الصاعقة على الأختين، وكانتا

منهمكتين في غسل ملابسيهما الداخلية في حوض المطبخ فسقطت الصابونة من يد الراهبة بيرناديت وسقطت هي فوق الكرسي محدثة جلبة غطت على صوت صرختها. أما الأخرى فقد أصفر وجهها وقست ملامح وجهها فأصبحت مثل قناع من الحجر. وما أن انصرفت المرأة التي نقلت إليهما الخبر حتى استسلمت " بيرناديت "، لآلامها في شكل أنين يقطع قلبها، لكنها احتفظت بعينيها جافتين مما جعل حالتها أشد إثارة للشفقة. ظلت تتوجع عشر دقائق ويداها المنقبضتان تغطيان وجهها وهي تهمهم قائلة: "حبيبتي! حبيبتي!" متوسلة أن يغفر الله لها هذا الضعف البشري.

وفي الصباح حينما جاءت بائعة اللبن وأخبرتهما بأن "آنا لوتشيا" مرت بالأزمة في سلام وتتماثل للشفاء، رفعت الراهبتان أياديهما إلى السماء شاكرات داعيات: "الحمد لله! الحمد لله!".

***

في سن الثالثة عشرة، تركت "آنا لوتشيا" المدرسة لكي تعمل في إحدى المزارع. ولم تكن تعلم المشاعر الفياضة التي تجمع بين الراهبتين نحوها. كانت تكن لهما حباً عميقاً. ولكنه لم يكن الحب الوحيد الذي تشعر به. ففي أحد الاجتماعات مع البنات حيث تناقش أخبار القرية وسكانها، قالت إحداهن:

– وآنا لوتشيا ستتزوج من جان لاكون!

فاحمر وجه الراهبة بيرناديت التي صوبت نظرها نحو النافذة المفتوحة على السماء الزرقاء. واندهشت البنات من صمتها. وظنن أنهن ارتكبن بعض الحماقات دون أن يعرفن. وسرعان ما استردت الراهبة توازنها، وقالت وهي تضغط على شفتيها:

– هيا، فلتعد كل واحدة إلى مكانها!

كانت كلمة الزواج تثير عند الراهبة بيرناديت شعوراً بالسعادة، مع أنها عرفت فى طفولتها الآلام التى تنشأ عن زواج فقيرين لا ينتظرهما سوى البؤس والشقاء. وكانت تسر لما يربط بين شخصين من حب، وكانت ترى فى ذلك الحب نوعًا من التقرب من الله.

ولكنها هذا الصباح لم تسمع سوى أجراس الجنازة تهبط من السماء السوداء.

كانت الراهبتان في المطبخ وحيدتين بمنأى عن العالم الخارجي في ذلك العصر الحزين. وأدركت بيرناديت على الفور أن أختها قد علمت الخبر، فقد وجدت وجهها أكثر شحوباً من المعتاد، وشفتيها مضغوطتين. وتناولتا الطعام فى صمت، كما تقضى العادة. وفيما كانت بيرناديت تضع الماء على الموقد ليسخن من أجل غسل الأوعية، سألتها الأم الرئيسية دون أن ترفع عينيها.

– من يكون جان لاكون هذا؟

– شخص طيب مهذب.

قالتها بيرناديت بصوت مختنق.

وشعرت بأنها عاجزة عن النطق بأى كلمة أخرى. كانت تعرف الشاب وأسرته وبيته حتى عاداته وهواياته. والمهنة التى اختارها لنفسه. لكنها لم تجرؤ على قول كلمة أخرى. هى التى لم تشعر بالبغض لأى إنسان، التى لم تشعر إلا بالشفقة نحو الأشقياء وبالحنان نحو الضعفاء. فها هو ذا فيض من البغض يستولى عليها. ففزعت من هول هذا الشعور. هل من الممكن أن ينتابها مثل هذا الشعور بالكراهية، هى التى امتدحت هذا الشاب عند الأم الرئيسية قبل قليل؟ أجل، أجل، إنها تكرهه، إنها تكرهه!

وشعرت بالخوف وتمتمت من بين أسنانها تقول: "يا إلهى، يا إلهى اغفر لى، يا إلهى! "ثم قالت فى نفسها" ما أقبحنى! هل من الممكن أن تعانى أم مثل هذا العذاب حينما يؤخذ منها ابنها؟ هذا الابن الذى لم أحمله، ولم يكن لى يومًا من الأيام، بل ولم

ألاعبه ولم ألاطفه ولم أقبله. كيف أجرؤ وأزعم أن هذا الرجل ينتزعه منى؟ يا مولاى، إن روح الشر فى أعماقى! رحمتك يا إلهى وغفرانك".

وخرجت بيرناديت إلى الفناء. ولم تقل الراهبة بلانش أى شىء، لكنها تابعتها بعينين جزعتين.

وهطلت من السماء أمطار غزيرة ممزوجة بالبرد الذى جعل يلهب وجه المرأة المسكينة. فالتجأت وهى ترتعد تحت شجرة وقد أدركت للمرة الأولى مدى وحدتها وعزلتها. وحدثت نفسها أو خاطبت الجمادات من حولها كأن هذه الأشياء تشير إليها بإصبع الاتهام:

"أنت تعرفين أن الذنب ليس ذنبى. تعرفين مدى ما بذلت من مجاهدة للتغلب على هذا الشعور. وتعرفين أنها لا تدرى عن هذا الشعور شيئًا، وأننى لم أهمل واجبى من أجلها. ولم أظهر لها من آيات الود أكثر من الآخرين. أوه! أيتها الشجرة العزيزة، هل تذكرين يوم اصطدمتْ بك وهى تلعب لعبة الاستخفاء مع رفاقها؟ وتذكرين الدموع التى فاضت بها عيناها الرائعتان. آه، يا إلهى، كن عونى ومرشدى".

واعتقدت أنها تتلقى إجابة لشكواها فى زمجرة الريح والمطر، وبكاء حزن من الشجر، وأن الأغصان تتلوى رحمة بها. وأخيرًا، سوّت الشال الساقط على كتفها فى حركة آلية. وعنفت نفسها على ضعفها.

"ماذا كنت تنتظرين من هذا الحب؟ ما الأمل الذى كنت تعقدينه؟ خطؤك هذا لن يمحوْ شيئًا، أنت تعرفين ذلك، لأنك ستظلين تحبين "آنا لوتشيا" وأنه سيتعين عليك أن تظلى طوال حياتك تجاهدين مشاعرك دون هوادة. أهذا ما تريدين يا أخت بيرناديت؟ أليس كذلك؟ أهذا ما كنت تريدين منذ عشر سنوات؟"

وكتمت أنّة، وبدأ قلبها يدق أسرع من ذى قبل تحت ثوبها الأسود. وانتصبت واقفة وجعلت تسأل السماء الملبدة بالغيوم: ألا يفيض الله عليها برحمته؟ ألا يتفضل عليها بمعجزة من تلك المعجزات البسيطة التى لا تفتأ تحدث بها التلميذات؟

وشعرت بأن عذابها بلغ نهايته. وحط شعاع شاحب على بلاط الفناء، فتقدمت خطوات ونظرت من الباب المؤدى إلى الشارع. فرأت آنا لوتشيا بصحبة الشاب الذى تحبه. كانا يسيران وقد فاضت ملامحهما بعلامات السعادة، حتى إن الراهبة كادت تسجد شكرًا لله. كان الشاب يسند صاحبته بقوة أثارت شفقة الراهبة وحنانها، وأذابت فيها كل شعور بالبغض والغيرة. وهُيِّئَ لها أنها هى التى عهدت بآنا لوتشيا إلى الفتى، وأنها تخلصت وإلى الأبد، من عذابها، ومن ذلك الحب الذى كان قد تمكن من قلبها قبل سنوات عديدة.

لقد حدثت المعجزة. فقد تخلصت من أدرانها. وإذا بحب آخر جديد، وُلد من زهدها وصراعاتها، يملأ قلبها. وجعلت وهى لا تصدق، تتمتم قائلة: "آنا لوتشيا، آنا لوتشيا " غير أن هذا الاسم كان قد فقد كل قدرة على تعذيبها.

أما الراهبة بلانش. فكانت قد رتبت أوعية المطبخ. وجلست إلى المائدة. وبطريقة آلية فتحت إحدى الكراسات. لكن تفكيرها كان فى شىء آخر. ودخلت عليها أختها بيرناديت، وقالت متمتمة وصوتها يرتفع على الرغم منها كشدو الطائر:

– أختاه بلانش!

فردت بلانش وهى ترفع بصرها:

– نعم يا أختاه بيرناديت!

وقرأت الصفاء فى عينى رفيقتها، وتلقت كهبة عظيمة، رسالة الإنسانية والإحسان التى تحملها. وتبسمت فى بطء، وتناولت قلمها الأحمر وأضافت:

– شكرًا، يا أختاه.

***

الصنـــــدوق

تأليف: ليون ديبرترى Léon Debertry

من بلجيكا

كانت السفينة البخارية التابعة لشركة الملاحة البلجيكية، تبتعد عن المرفأ رويداً رويداً، وهى تبهر الأبصار بوضاءتها تحت أشعة الشمس الآفلة. وكانت السفينة قد رست صباح اليوم نفسه أمام ميناء "سانت - كروادى تينيريف"، بينما كان الركاب المهتمون بانتهاز كل لحظة يقضونها فى هذا المرسى البديع، يتدافعون على سطح السفينة، وهم على أهبة النزول.

لقد استيقظوا قبل الفجر، حتى يتمتعوا بمشاهدة منظر من أجمل المناظر فى العالم، ألا وهو بزوغ النهار فوق أنف جبل "تيد" الرائع الذى يشرف بضخامته على درة جزر "كانارى".

كانت المحادثات حامية، تموج بعبارات تدعو بالخير، وكان " ريمون بولان " هو الشخص الوحيد الذى كان لا يشارك فى تلك الحمى الجماعية ... لأنه، على النقيض من الآخرين، كان يتمنى أن يرى حلول نهاية ذلك اليوم بأسرع ما يمكن.

ومع كل، فقد كان سلوكه بعد ذلك مشابهاً تماماً لسلوك رفاقه فى الرحلة. لقد كان مفتوناً بألوان الجمال التى لا حصر لها فوق تلك الأرض التى كانت تبدو، وهى خارجة من المحيط، وكأنها خلاصة كنوز الأعماق الخفية بأسرها. لذلك فقد قام بجولة فى

الطرقات التى تؤدى إلى داخل الجزيرة، ولم يعد إلى ظهر السفينة إلا بعد صفارة تنبيه، عاد آسفًا، متعبًا ولكنه كان مبهورًا.

إنه لم يستسلم لإغراء المحال التى تبيع الهدايا التذكارية، ولا لإلحاح التجار الذين يقومون حتى فوق سطح السفينة، بعرض السجاجيد ذات الألوان الزاهية والحلى الفضية المنقوشة، يعرضون هذا كله مخلوطًا بالأقمشة المخرمة الثمينة التى تشتهر بها هذه الجزر. والآن ها هو ذا يكاد يكون بمفرده، متكئًا على مترسة يسار السفينة... كان يعرف كيف ستنقضى الساعات المقبلة: سيلبث حالمًا لحظة طويلة، يستعيد من خلالها الأحداث الرئيسية فى حياته خاصة تلك الأحداث التى عايشها طوال الشهور الأخيرة، وبعد ذلك حينما يملأ الركاب حجرة الطعام ثم يخلونها، ويعكفون فى الحجرات وقد أجهدهم التجوال، حينئذ سينتهز فرصة خلو سطح السفينة من الناس ليعرض جسده للرياح التى تهب عليه من عرض البحر، ويتمتع بالسكينة التى تنزلها فى نفسه المساحات المترامية فى السماء والماء اللتين يسبح وسطهما.

عندئذ يكون قد حانت اللحظة التى يقوم فيها بتحقيق الرغبة الأخيرة لصديقه، العقيد "دى لائنيك".

ولد "ريمون بولان" من أبوين بلجيكيين، وجند فى فرنسا عام ١٩٤٠، وحجز فى أحد معسكرات الأسرى، لذلك فقد كان يعرف أين يكون واجبه. لقد سجن فى إسبانيا، وعندما لاذ بالفرار التحق فى إنجلترا بقوات التحرير، كمظلى مستعد للقيام بأى مهمة بشرط أن تكون خطيرة، ثم مندوب اتصال بالمقاومة، وغدر به وسجن، وعندما لاذ بالفرار مرة أخرى على أثر حركة تمرد كانت جرأته نفسها جديرة بأن تحبطها، لجأ أخيرا إلى الأحراش. ولقد خرج من مغامراته فى "الفيركور" بإيمان شديد فى قوة القدر، وعدم اكتراث بالخطر، حتى إن أشجع الشجعان لا يتذكر ذلك دون أن ترتعد أوصاله.

ثم كان التحرير والاهتمام بالتكيف من جديد مع الحياة الاجتماعية، بعد كل تلك السنوات من الكفاح المتواصل وبعد حياة ظلت فى أغلب الأحيان خارج القانون. كان عليه أن يتخذ لنفسه مكانًا فى عالم جديد، وكان عليه أن "يشق لنفسه طريقًا فى غمرة الزحام"، فى وطن كانت البطولة فيه عملة بلغ رواجها حداً، فقدت معه قيمتها. وكان المال، وحتى المال الحرام، يجد فيه على وجه السرعة سطوته وسلطانه.

لقد انقضت أجمل سنين عمره وسط نيران العمل والكفاح فى سبيل مستقبل وطنه دون أن يفكر فى مستقبله الشخصى... أما الآن فإنه يسير مندهشًا فى مدن كان عليه أن يحترم ممراتها المفروشة بالأشواك، كان يعيش فى مسكن ضيق، وكثيراً ما فوجئ، وهو يرتدى ثيابه بطريقة آلية، بنفسه وهو يبحث بطريقة آلية أيضًا عن قطعة سلاح لم تعد معه وظلت فترة طويلة تمثل جزءاً من أشيائه العادية.

أين الغابات العميقة، الممرات الوعرة، الثياب الكتانية الخشنة؟ أين السترة الصوفية السميكة التى كانت تحميه من ليالى البرد التى كان يقضيها فى العراء إلى جوار مدفعه الرشاش الوفى؟ أين الكمائن، أين المخاطر، أين المخاطرات؟ لم يبق من كل ذلك سوى خطر واحد هو أنه أصبح على وشك أن يحيا بلا أى مورد.

لقد كان من الطبيعى جداً أن يفكر فى إفريقيا، ليس فى مدنها المكيفة الهواء، المتفرنجة التى تحكمها القوانين، وإنما كان يفكر فى أدغالها، فى أركانها الموحشة، فى سكانها الذين لا يزالون على الفطرة، فى أسرارها وخفاياها... واتخذ قراره.

ولكن يجب عليه أولاً أن يرى "جينيفييف دى لائينيك" مرة أخرى.

لم يكن يتوقع سماع المأساة التى كشفت له عن جوانبها فى المساء نفسه الذى دخل فيه الحجرة التى يشغلها آل "لائينيك" فى "باسى" وهو بالغ السعادة للرد السريع الذى تلقاه على خطابه.

لقد وصلته أخبار قليلة عن العقيد وعن ابنته منذ تحرير باريس على أيدى فرق الجنرال "لوكلير" التى دخل بها المدينة.

وقبل ذلك العهد، كان يقابل السيد "دى لائينيك"، الذى كان يعمل فى المقاومة تحت اسم مستعار، وكان يهتم بصفة خاصة بإعادة طيارى الحلفاء إلى أوطانهم، حينما يسقطون أو يهبطون اختيارياً خلال إنجازهم لبعض المهام فى مناطق يحتلها العدو.

لقد أعجب، منذ الوهلة الأولى، بالحيوية والذكاء اللذين كان يتمتع بهما ذلك الكهل الأصيل الذى يتصف بسمات العسكرية من أم رأسه حتى قدميه. وعقدت بين الرجلين صداقة متينة تشبه الود. وها هو الآن يجده مرة ثانية مسترخيًا فى كرسى موسد، شارد النظرة يكاد يكون خاليًا من الحياة.

ومع ذلك، فلقد بدأ الانتعاش قليلاً على العقيد عندما مست يده يد "ريمون" وأضاء وجه "جينيفييف"، لحظة قصيرة بابتسامة شاحبة. لقد تغيرت هى الأخرى كثيراً.

كان "بولان" يحاول يائسًا أن يعثر من جديد فى ذلك الوجه المستسلم، على نظرة الاعتداد والاطمئنان، والفم المليء بقوة الإرادة، وملامح النشاط والبشرة الملفوحة، هذه الصفات التى كثيرًا ما تكشفت له، عندما كانت تلك الفتاة التى كان أفراد المقاومة يسمونها "سيدتنا الصامدة" تخرج فى مهمة خطرة أو تعود منها. وتبادلوا بعض العبارات العادية، وفى أثناء العشاء بذل "ريمون" مجهودات فاشلة ليثير ذكرى الماضى والمغامرات المشتركة، فكان يحصل على إجابات مقتضبة. غير أن المحادثة التى كان هو الممول الوحيد لها، كانت تفتر، ولاحظ مندهشًا أن مضيفيه لا يبذلان أى مجهود لإحيائها.

وبمنتهى السرعة، استأذنت "جينيفييف" فى الانصراف، ومكث الرجلان وجهًا لوجه.

وطرأ تغيير مفاجئ على موقف العقيد "لائينيك"... وما هى إلا لحظات حتى عاد من جديد ذلك المحدث الممتاز كما كان فى الماضى. وراح "ريمون بولان" ينصت إليه حتى النهاية، دون أن يحاول مقاطعته.

- إننى أقدم لك يا صديقى العزيز بالغ أسفى على الطريقة التى قوبلت بها فى منزلنا هذا المساء.

ومع ذلك ليست هناك زيارة أعز عندنا من زيارتك. حقًا، إن العناية الإلهية هى التى أرسلتك إلينا.

أريد أن أخبرك ببعض الأمور التى لا تحتمل الانتظار، وإذا كنت قد لزمت الصمت حتى الآن، فذلك لأننى لم أكن أستطيع أن أتحدث إليك أمام ابنتى. لقد كلفتها قبل عدة أيام قليلة بأن تبحث عن عنوانك وترجوك أن تأتى لزيارتنا. ولن تلبث أن تعرف السبب. كما ستدرك أيضًا سبب فرحتى بخبر سفرك القريب إلى إفريقيا. إن هذا الخبر هو عزائى الوحيد لما أشعر به من حزن فى الوقت الحالى.

بعد خمسة عشر يومًا، يا "ريمون" ستدخل جينيفييف دير "كارميل"... لقد شاهدتها قبل قليل، إنها تعيش منذ الآن فى عالم آخر، إن حالتها هذه ترجع إلى علاقتها بشخص قدمته لى قائلة: إنه ليس ضابطًا، أو على الأقل لم يصبح بعد كذلك، ولكنه بطل كالأبطال الذين تحبهم يا بابا.

كما شرحت لى أن هذا الشاب كان ضمن جيوش فرنسا الحرة طوال حملة إفريقيا، وهو أحد المتضررين فى موقعة "بيرحكيم" وشارك فى تحرير فرنسا. وقد أصيب على أبواب مدينتنا، وهو يتحرق إلى مواصلة الكفاح حتى النهاية... ثم أضافت

قائلة: "ولكننى قبل ذلك سأحضره إليك، وسيطلب منك يدى... إننى على ثقة، يا بابا من أنك لن ترفض".

وحضر "بيير" فعلاً فى اليوم التالى، فسبب حضوره انهياراً مفاجئًا لى. لقد شعرت بأن هذا الشخص الذى تحبه ابنتى سيكون موضع معارضة الجميع. وإذا اقتضى الأمر سيكون موضع معارضتى أنا أيضًا؛ ذلك لأنه كان مخلط الدماء... صحيح أنه كان ممتازًا، يتدفق قوة وشبابًا، دمث الأخلاق، لطيف الهيئة، يثير الإعجاب. ولكنه بعد هذا كله مخلط الدماء.

لقد أمضيت، كما تعلم، شطراً من حياتى الوظيفية فى مستعمراتنا الإفريقية. كان يكفى لتفسير ما كنت أشعر به أن أستعيد الذكرى. ومع كل، فقد قمت بطريقة لطيفة بدعوة المساعد "موجيندى" (كان هذا لقبه وتلك رتبته) لقضاء السهرة معنا والنوم فى منزلنا لأنه كان سيسافر فى اليوم التالى إلى الجبهة. وفى حديث قصير منفرد مع ابنتى، وعدتها بالتفكير فى الأمر.

كانت حجرة "بيير" تواجه حجرتى، عندما عرفت أن "جينيفييف" نامت، طرقت باب المساعد "بيير".

كنت تقريبًا أعلم كل شيء عن حياته التى لم تكن معقدة على أى حال. فمنذ طفولته، افترق عن أمه وبدأ الدراسة التى واصلها فيما بعد بنجاح كبير. وكان أبوه المجهول يقوم بسداد جميع حاجته، وكانت الأموال اللازمة فى تربيته ترسل بانتظام وباسم مجهول إلى أحد بنوك "برازافيل". كانت الحرب قد وقعت فى الوقت الذى كان يقوم فيه هذا الشاب بإعداد نفسه للحياة العسكرية. كانت بالنسبة له حربًا مجيدة، وكان يجد متعته فى أنها لم تلق أوزارها حتى يتسنى له أن يواصل الصعود فى سلم الارتقاء المنشود.

وفى سلسلة تتدلى من رقبته، تحت ملابس النوم، لمحت تعويذة غريبة؛ شطراً من قطعة عملة فضية فئة الفرنكات الخمسة كالتى كانت متداولة قبل الحرب الأولى، لقد كانت القطعة منشورة بطريقة غير منتظمة، ولقد أوضح لى أنها أعطيت لأمه ساعة ولادته، وأن والده قد احتفظ بالشطر الآخر الذى يأمل بفضله أن يعثر على ابنه يومًا ما.

وعندئذ تحادثنا طويلاً، ولا أقوى على أن أنقل لك كل ما تبادلناه من حديث ستستطيع أنت أن تستنتجه بسهولة عندما تعرف البقية.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، وصلنى خبر موت "بيير" البطولى، مصحوباً بصندوق صغير من الأبنوس عثر عليه بين حاجياته، ووضعت بداخله أوسمته ونياشينه الجديدة التى منحها تكريمًا له بعد موته، مع ساعة معصمه، وبعض الأشياء الدقيقة، خاصة السلسلة والتعويذة. وجاء فى الخطاب المرفق أن هذه الأشياء أرسلت إلى عنوانى طبقًا للمعلومات التى عثر عليها فوق جثة الفقيد.

وعلمت بعد ذلك بحقيقة نوبة الجنون التى بذل هذا الشاب النبيل روحه فى غمرتها. وحينئذ لم أستطع أن أشك لحظة واحدة فى أن الكلام الذى كنت قد وجهته إليه، والذى انتزع من قلبه كل أمل إلى الأبد، كان سبباً فى موته.

أنا الذى قتلته، يا "ريمون"، وفى الوقت نفسه ضحيت بابنتى التى لم تكن تعيش إلا من أجل هذا الحب، الذى كانت تحمله فى ذاتها كشعلة لم يخمدها إلا الموت... ولقد حكمت على نفسى بنفسى.

إنك ترى إلام صارت حالى... عندما تكون أبواب الدير قد أغلقت دون ابنتى سينتهى الأمر أيضًا بالنسبة لى. ومع ذلك فإننى أتقبل كل شىء، فأنا الذى قرر هذا المصير ذات يوم، وأنا أدفع الثمن... لن تغير شيئًا مما ينبغى أن يكون، ولكننى أتوسل

إليك أن تنصت إلىّ جيدا، وأناشد صداقتك أن تؤدى لى خدمة، ستكون هى الخدمة الوحيدة والأخيرة التى أكون قد طلبتها طوال حياتى.

هناك مظروف كبير يضم مخلفات "بيير". لقد نسيت أن أخبرك بأننا، بعد كثير من البحث والتقصى، قد عثرنا حديثًا على عنوان أمه التى لا تزال على قيد الحياة فى مكان ما بقرية صغيرة من قرى إفريقيا الغربية الفرنسية. أتعشم أن ما تركه هذا الابن يسلم إلى أمه. إن ابنتى "جينيفييف" على علم بالموضوع، وعلى الرغم مما تمثله هذه الأشياء بالنسبة لها فإنها تقبل أن تضحى بها وتتنازل عنها. إننى لا أستطيع أن أعهد بها إلى شخص خير منك. ستسافر إلى هناك، وسأموت أنا مطمئن النفس، واثقًا فى أنك ستؤدى هذا الواجب، كما لو كنت أنا نفسى الذى قدر له أن يؤديه لو أتيحت لى الفرصة.

وذات يوم سأعطيك أيضًا الصندوق الأبنوس الذى أوثر أن أحتفظ به بعضًا من الوقت. فى ذلك اليوم، ستعرف أنه لم يعد لى وجود. إن حياتى لا تتعلق إلا بخيط واحد، وقد تصلك هذه الرسالة مع الصندوق قبل رحيلك أيضًا.

وفى هذه الحالة، عندما تغادر آخر ميناء، عندما لا يصبح فى مقدورك أن تعود إلى الوراء، وتصبح إفريقيا السوداء هى المرفأ القادم للسفينة التى تحملك، حينئذ افتح الخزانة وضع بداخلها كل فحوى المظروف، واعمل كل ما سيكون فى إمكانك لكى يصل المظروف إلى صاحبته دون أن تمسه يد....

كان "بولان" قد رحل مبكرًا جدا فى اليوم التالى. وبعد شهر، حمل إليه البريد طردًا سرعان ما تكهن بفحواه. وعلم فى الوقت نفسه أن العقيد "دى لائينيك" قد انتحر "تحت تأثير إحدى النوبات العصبية"، ونشرت الصحف أنها جاءت نتيجة للحزن الذى ألمّ به عندما دخلت ابنته دير "كارميل دى ليزيو". "عندما تغادر آخر ميناء...".

ها هى ذى أصغر جزر "كانارى" لم تعد جزيرة نائية، وها هو السكون قد حل على ظهر السفينة وفى ممراتها الجانبية التى خلت من الركاب وراحت السفينة وسط

الليل، تنطلق متمايلة فوق البحر الهادئ بأقصى سرعتها، وها هى إفريقيا السوداء هنالك بعيداً فى نهاية هذه الجولة الأخيرة.

وعاد "ريمون بولان" إلى قمرته وكان لحسن الحظ بمفرده، وفتح المظروف. وفى تأثر واضح طرح كل ما به فوق فراش القمرة: صليب التحرير، صليب الحرب، وميدالية حربية. ثم أضاف بيد حانية نوط الشرف الذى خصص للرقيب بعد عام من وفاته، كان هنالك أيضًا بعض الأشياء الشخصية، وبعض الأوراق النقدية قد تكون هدية من العقيد، وأخيراً سلسلة الرقبة مع قطعة العملة الفضية التى ربما أتاحت "لبيير" لو أنه عاش، أن يعثر ذات يوم على أب مستعد لاحتضان مثل هذا الابن العظيم.

لم يقتنع "بولان" بالتقاليد البالية التى دفعت صديقه إلى أن يرفض تزويج ابنته لأحد الأبطال، لذلك الضابط المغوار الذى خدم فرنسا وضحى بحياته فى سبيلها، تماماً كما يفعل غيره من ذوى الأصل العريق، بل وربما خيراً منهم.. تلك التقاليد البالية التى نشرت الحزن وأشاعت الموت.

لم يكن متحمسًا فى رفضه، إلا أنه كان على وشك أن يقسو فى حكمه على العقيد، بينما كان يجتهد فى فتح الخزانة الأبنوسية الصغيرة التى كان قفلها يستعصى على الفتح ... ولكنه ما كاد يرفع الغطاء حتى أدرك إلى أى أحد كان الحب الذى تكنه "جينيفييف" لـ "بيير" أمراً مستحيلاً. وأدرك السبب الذى من أجله كان يجب بأى حال أن تعرف الحقيقة الفظيعة. ولم يكن بحاجة إلى أن يقرب شطرى القطعة الفضية التى نُشرت بطريقة غير منتظمة والتى رآها فى قاع الصندوق، لم يكن فى حاجة لعمل ذلك لكى يتأكد أنهما سينطبقان تماماً. وبكل وضوح، كما لو كان قد شهد حديث الرجلين، يستطيع الآن أن يستعيد كل ما قيل بينهما فى الليلة التى سبقت موت العقيد "بيير دى لائينيك".

***

لا مجال للمفاخرة

تأليف: سيمون Simonne

من الكونجو البلجيكى

البحر والشاطئ.. الالتقاء الفوار المزبد بين الموجة الباردة والرملة الفاترة، ومداعبة النسمة وهى تطرد فى رقة وحنان مداعبة الشمس للبشرة.. خلق كثير، جميعهم من أفاضل الناس وعلية القوم، هادئون، فى ملابس خفيفة قليلة، راقدون على ظهورهم فى غفوة، خدودهم فوق كرات متعددة الألوان، أو على بطونهم ورءوسهم فوق أذرعهم المثنية، يمسون فى بعض الأحيان مؤخراتهم بكعوبهم مسًا خفيفًا كأنما لقضاء الوقت فى استمتاع لطيف.

والصغار يركبون ظهور آبائهم أو يلحقون بهم بعد عودتهم من عند بائع المثلجات والجيلاتى.

والكلاب قابعة ساكنة، تغمز بأعينها لذبابة ضخمة تحط فوق صدفة؛ والجدات، حتى لا يحركن ساكنًا حينما يرين البنات يسرفن فى تنزيل حمالات "المايوهات القطعتين" حتى يتجنبن العلامات البيضاء فوق ظهورهن السمراء.

وعصر يومٍ طويل فى عابرة قارات، وأفكارى ونظراتى غارقة فى زرقة السماء..

هذا المشهد ربما استمر، لو لم تتحرك امرأة فوق طرف الرصيف الداخلى، وهى ترتدى ثوبا قرمزيًا؛ ولو لم تنحنى صاحبة هذا الثوب وتجثو وتقفز لتظل فترة طويلة

مترددة، قبل أن تدور حول نفسها، ثم تدور وتدور. يمضى اللون عند الضرورة، غير أن العين لا يمكن أن تهمل هذه الحركات الرياضية. وتطلع الجميع على الشاطئ إلى هذه المرأة.

وجعلت هى تتنقل محمومة بين الكتل الخرسانية الخشنة وأدغال النباتات المائية، والأوتاد الشائكة بالحيوانات البحرية، والصدوع والشروخ، والزوايا والحفر التى تملؤها وتفرغها طرطشات الأمواج.

وقال أحدهم دون أن يوجه حديثه إلى شخص بعينه:

- لا بد أن نعترف بأن هذا شىء مثير.

وأضاف آخر، وأيضاً دون أن يخاطب أحداً بعينه:

- بل يجب أن نعترف بأن هذا شىء شاذ.

وأعلن صوت ثالث، مخاطباً الجميع هذه المرة:

- انتظروا، ها هى أخبار جديدة.

وبالفعل، تسلل ولد شقى إلى الفتنة الحمراء التى تتلوى هناك، ودار لحظة فى نهاية طريقه، وها هو قد عاد الآن.

وها هو ذا يبدأ حديثه بين شهقتين، وبعد أن ابتلع قرطاساً من الجيلاتى على وجه السرعة:

- لا تتكلم اللغة الفرنسية، فهى إنجليزية... تبحث عن شىء.

وهنا عقب صوت عقلانى:

- لعلها فقدت شيئاً ثميناً.

وأضافت امرأة قائلة:

– حينما يكون معنا شيء ثمين، لا نتنزه به على الشاطئ. فأنا مثلا...

وكما يحدث لحفنة من الحصى، حينما تلقى في الماء، فتشكل دوائر تزداد اتساعاً وتتلاقى في النهاية، لم تشكل مجموعتنا سوى دوائر واسعة من المنطق الذي لا يُقهر.

وقالت امرأة أخرى:

– آه، أنت تقول إنها إنجليزية. لقد عرفتها. فنحن ننزل في بنسيون واحد، وابنها الصغير يلعب مع ابني.

لقد لاقت فكرة الابن الصغير هذا استحساناً من الجميع. وانتقل وصف الولد من مجموعة لأخرى مثل كلمة السر قبل المعركة. كل ما هناك أنه تغير قليلا، وصف الولد هذا، كلما تنقل بين المجموعات. فمن (جوني) الذي كان في البداية صعلوكاً أسمر يروّع المارة على عجلة تزحلق، أصبح (جوني) ملاكاً صغيراً أشقر، اسمه (فريدّي) يهوى جمع طوابع البريد.

وهنا تدخل رجل نحيف، لم يكن قد اهتم بالموضوع حتى الآن ؛ فقال:

– ولكن أين ابنها هذا؟

وتقدمت امرأة أخرى وقالت:

– أوه! يا إلهي! لا تقولي لي إن كارثة وقعت. الأطفال متهورون. انظروا إليها.

وتجمع جمهور من المصطافين أمام السلم الذي يفضي إلى الرصيف الداخلي، كأنهم أمام السجادة الحمراء التي تبسط عادة في مدخل دار المناسبات في يوم زواج مشهود. ووضع أحدهم قدمه على أول درجة من السلم.

وأضافت امرأة تلوك بين أسنانها مبسم سجائر، وتهز خصلاتها الشقراء الفاقعة على وجه سيئ الماكياج:

– حينما يكون عندنا أطفال، لا نستعرض أنفسنا هكذا كما تفعل هى.

وقالت أخرى:

– من يدرى إذا كانت تهتم بأولادها؟ هل يبدو عليها ذلك، هذه المخلوقة الغريبة؟

– من السهل أن يرتكب الأطفال الحوادث. ومن الممكن أن يصيبوا أنفسهم بأضرار... بل ويغرقون. إنها لا تبالى! انظروا إليها.

وشد الموقف انتباه أحدهم، فأقبل على المتجمهرين أمام الرصيف الداخلى، وسألهم هل ينتظرون مركب الإنقاذ تحمل غريقًا.

وأكد آخر قائلاً:

– أراهن على أنها جرّت ابنها خلفها، ثم انشغلت عنه ونزلت فى الماء، ونسيته تمامًا.

وعقب آخر قائلاً:

– كان ينبغى أن تمسك به، ولا تتركه وحده.

وأمام هذا السيل من التعليقات المتلاحقة، لم يكن هناك من يصدق أذنيه. ولكن الحقيقة لا بد أن تنكشف وتعلن. وسُمع من يقول:

– لقد أغرقت ابنها.

وكأنما المرأة لم تنتظر سوى هذا الاتهام، فقد التفتت وعادت تواجه الجمهور الذى بدأ هذه المرة يضع أقدامه فوق الرصيف الداخلى، ويتجه نحو المرأة.

ولكن من المؤكد أن تفكيرها كان فى شىء آخر، وأنها لا تفهم شيئًا مما يقولون: وإذا بها تكاد تجهش بالبكاء، وظهر عليها الاندهاش أمام كل هؤلاء الناس الذين يهمّون بها، وكادت تفقد أعصابها، وفجأة تملكها الرعب الشديد. وسُمع من يقول:

- انظروا إلى نظراتها الزائغة.

- إنها مجنونة.

- لا يمنع ذلك أنها ارتكبت جريمة!

وكادوا يبطشون بها. وتراجعت المرأة فيما كان بعضهم يحاول الإمساك بها. حينئذ خرج من الجمهور الصوت الوحيد العاقل الذى سُمع منذ بداية هذه المغامرة الغريبة.

- الشرطة!

ولم تلبث الكلمة أن تنقلت على مئة لسان، ولكن بصوت خفيض:

- الشرطة!

ورددتها المرأة الإنجليزية بنوع من الارتياح كأنها طوق نجاة. وغادرت الشاطئ. وسارت فوق الجسر ووراءها جمع غفير خلد إلى الهدوء، ولكنه الهدوء المترقب، الذى يبدو غير مستعد للسماح بأى حماقة.

وتوقف المارة على الطريق، وتساءلوا وهم يطالعون الموكب وهو يمر. وانضموا إليهم كما ينضم الناس إلى مظاهرة. وأقبل شرطى على رأسه كاب، يقود دراجة بخارية بادى البشاشة. ولكنه ما أن شعر بأنه سيفقد من هيبته، نزل على الأرض واتخذ هيئة صارمة، وانتظر حتى لحق به الجمهور.

إن المرأة الإنجليزية لا تفقه اللغة الفرنسية، والشرطى لا يفقه شيئًا عن اللغة الانجليزية. وزاد المشكلة تعقيداً أن الناس كانوا جميعًا يتكلمون فى وقت واحد. ومثل هذا الوضع لا يؤدى إلى الفهم. وصاح الشرطى بلهجة آمرة:

- ممكن أقول كلمة!

وصمت الجميع، بعد همهمات تأمر بلزوم الصمت. ثم اصطحب المرأة الإنجليزية. لم يمسك بها، لأنه كان فوق دراجته.

وأمام باب مركز الشرطة، شكل الجمهور نصف دائرة، كأنهم أمام واجهة زجاجية لأحد المحال التى تذيع نتيجة مسابقة كأس كرة القدم.

كان الضابط يتكلم الإنجليزية، فخرج من مكتبه وهو يهز كتفيه للشاهدين، فيما كان يصطحب الإنجليزية حتى سلم المركز، وهو يكرر انحناءات الاعتذار على ما يبدو، وكذلك عبارات الأسف.

وانصرفت الإنجليزية، حانقة ساخطة، بل ومبْدية علامات الازدراء. وتطلع الضابط إلى الشرطى راكب الدراجة البخارية، وهز كتفيه مرة أخرى، وقبل أن يصفق الباب، صاح قائلاً:

- معقول ده!

واعتقد كل من سمع العبارة أنه هو المقصود بها.

لم يكن قد بقى من المشاهدين سوى عدد ضئيل، هم الذين سمعوا حقيقة القصة؛ لأن الشاهدْين وهما فى غمرة غيظهما، لم يدليا إلا ببيانات مقتضبة، وذلك قبل أن ينصرف كل منهما إلى حال سبيله.

- لقد فقدت المرأة خاتماً ثميناً، وهى تعتقد أنها فقدته فوق الرصيف الداخلى. لكنها لم تجده، فجن جنونها. ولم يكن جهلها باللغة الفرنسية إلا ليزيد الأمر سوءاً بطبيعة الحال. المهم أنها ليست متزوجة وليس عندها أبناء.

ولم يعد إلى الشاطئ سوى مجموعة أكثر هدوءاً عن ذى قبل. أشبه بمشجعى نادٍ مُنى بالهزيمة، وهم يغادرون ملعب ناديهم المفضل منكسرين كاسفى البال. كل يلزم الصمت، ويتجنب الآخرين، بل ولا أحد يعرف أحداً.

ولكن سرعان ما تغلب العقل والذوق السليم. فليس من المعقول أن مثل هذه الحادثة لا تنتهى بالشعور بالرضا، ولو بالرضا القليل لقليل من المقرّبين.

لقد أسهم الجميع فى الموضوع. ونحن فى المجال العام، فلا بد من النور الكامل، وعادات الأسئلة والأجوبة من جديد فسألت امرأة عاقلة:

– ماذا ضاع منها؟

– يقولون خاتم.

– ثمين؟

– يبدو ذلك.

– آه! هكذا يزعمون فى مثل هذه الحالة.

لقد حدث منذ بداية الواقعة نوع من الخلط والهرج والمرج المتواصل بين الجمهور، بحيث لم يعد يستطيع أحدهم أن يقول بالضبط من كان بجواره قبل دقيقة، ومن كان يخاطبه قبل ثلاثين ثانية فقط. غير أن الرجل الذى نطق بهذه العبارة الأخيرة، أنا أعرفه، وقد سمعته قبل ذلك على الرصيف الداخلى. إنه من النوع الثرثار الذين يحسنون صياغة العبارات الدقيقة فى اللحظة التى لا ينبغى فيها النطق بها.

وعلقت سيدة أنيقة قائلة:

– هناك دائمًا من الناس من هم على استعداد للمبالغة والتهويل. خاتم ثمين، ما معنى ذلك؟ ما قيمة ذلك؟

وأضافت أخرى تقول:

– أولاً، هل هو خاتم؟ ليس من المعقول أن يُفقد خاتم بهذه السهولة.

– أؤكد لكم أنه مجرد بروش تافه، أو حلق عادى جدا.

وتوالت التأكيدات والإيضاحات. فمن قائل:

- كل ذلك من أجل مشط! تصوروا. من أجل مشط شعر حقير. سقط منها فى الماء، تقيم الدنيا وتقعدها، تثير البلاج كله بمن عليه، مئات من الخلق. وتستدعى الشرطة.

وعقبت إحداهن قائلة:

- شىء مخجل. يوجد من الناس من لا يتورع عن فعل أى شىء. هل تتصور هذه المرأة أننا جئنا إلى الشاطئ فى الإجازة لكى نهتم أو ننشغل بنزواتها التافهة. أين هى هذه الإنجليزية لكى أسمعها رأيى فيها!

***

بلبل واحد لا يصنع الربيع

تأليف: مون لوباندا Mone Lubanda

من الكونغو البلجيكى

لن يتفق اثنان بتاتًا على قيمة الزنجي وقدره. أما فى مجال العمل، فالأمر بسيط؛ إن الأبيض الذى يستخدم الزنجى فى إنجاز مهمة ما، يضيق به ويُشهد العالم على قلة خبرة موظفه الزنجى وعدم كفاءته. أما المتعاطف، فإنه يجد الزنجى ظاهرة نادرة، ولا يجد فى العالم رجلاً كالزنجى، فهو يتكيف مع جميع الأوضاع.. يعمل اليوم بنّاءً، وسائق سيارة غداً، وطباخًا فى اليوم الذى يليه، بالثقة الخالصة نفسها فى إمكاناته.

إن ما يثير اهتمامى فى الزنجي، هو سلوكه نحو قرنائه، ونحو الطبيعة أيضًا.

إن الزنوج بلا عقل، بلا تمييز، هذا ما يزعمه المتعصبون. إنهم غير خليقين بأدنى شعور. وهم يتصرفون كالبهائم. ويكفى فقط أن تراهم وهم يعالجون أنفسهم، إن عدم إحساسهم بالألم لدليل على قسوتهم وغلظة أكبادهم. إنها لمشكلة مثيرة أن نحاول الكشف عن الأفكار الخاصة بكائنات لا تفكر مثلنا، ولا تتمتع بغزارة أفكارنا، وإمكانيات التعبير عنها.

كنت أقوم برحلة فى مستنقعات بحيرة " بانجيولو " وكنا فى شهر إبريل، حيث لم يكد ينتهى فصل الأمطار. ولقد كان فصلاً رديئًا، لأن الأمطار هطلت فيه بغزارة فاقت كل وصف. كانت معظم الأراضى غارقة بالمياه وزادت المستنقعات عشرة أضعاف.

لم تتغير البلاد منذ عهد "ليفنجستون" أى منذ خمسة وعشرين عاماً. صحيح أنه تمت مشروعات قامت بها قلة من المستنيرين الذين جاءوا لغزو هذا الركن الأفريقى. وقد حاولوا أن ينقلوا حماستهم الشديدة إلى الزنوج الذين لا يميلون إلى بذل المجهود. ولكن هذه الفترات المتباعدة من الاستعمار لم تخلف أثراً. واستعادت الأدغال بطريقة لا تقاوم ما كان خاصاً بها، فكنا نجد الأنهار كما تركها "ليفنجستون".

وكما كانت الحال على عهده، كانت البلاد بسبب الأمطار مغطاة بطبقة من المياه التى كنا نخوض فيها. ومن آن لآخر كانت تظهر قطعة من اليابس تمثل جزيرة صغيرة. وفيما حولنا مياه ومياه وأعشاب حتى آخر الدنيا، وفوق هذه الأعشاب كنا نرى الديدان الكثيرة التى وصفها "ليفنجستون" التى تتلوى وتنبسط حينما تسقط فى المياه. وها هى الرياح تهب من بعيد لكى تبدأ أنينها الذى يضخم ويكبر ليستحيل إلى زمجرة متواصلة، ضخامة حتى يتحول إلى زئير هائل.

ولكى أكسب الوقت، لأننا دائمًا فى حاجة إلى وقت، على عكس الزنوج الذين لديهم فائض منه، كنت أتنزه فى قارب وطنى، لا يكاد يتسع لجلوسى. وكان القارب يعلو المياه بقليل، عند كل ضربة من المجداف كان يرتفع ويندفع بسرعة وهو يكاد يحمل المياه بداخله. وكنت، وأنا متمدد فى قاعه، لا أرى سوى الماء والعشب يمتدان فى رتابة تبعث علىّ القنوط. ووسط هذا المنظر الموحد الممل، كنت أقضى وقتى فى القراءة أو فى الاستماع إلى ما كان يقصه الوطنيان اللذان كانا يشكلان طاقم مركبى.

كان أمامى "نويلوا" وخلفى "بواليا" وكلاهما من منطقة "الباتو" كانا شابين بدائيين قويين. وفى منطقة " الباتو " لا يفلحون الأرض كما يحدث فى المناطق الأخرى. ولماذا يفلحونها ما دام يكفى للحصول على الدقيق أن يغوص المرء تحت المياه، وأن ينزع سيقان نبات اللوتس يجففها ويسحقها؟ ولماذا يفلحون الأرض، ما دامت عملية الغطس هذه نفسها ليست ضرورية. فهم يشبعون جوعهم بمضغ سيقان البردى التى

تنبت فى كل مكان؟ نعم، لماذا يجهدون أنفسهم فى تقليب هذه الأرض القاحلة ما دام فى بحيرة "كيال" يصطادون السمك بسهولة إذا لزم الأمر.

وحملات الصيد فيم تجدى؟ إن لم يكن فى مقايضة الدقيق باللحوم التى يدوسونها بالأقدام ويجففونها فى الشمس، إن أهالى "كاباتا" يعزقون الأرض ويفلحونها وهم يتلهفون على اللحوم والأسماك التى لا تتوافر لديهم أو التى لا يستطيعون الحصول عليها. إن الجوع فى غالب الأحوال يعذب سكان "كيبويا" ولكن ما فائدة الشكوى؟ ففى تتابع الأيام توجد الأيام الحسنة والأيام الرديئة. توجد الأيام التى تأكل فيها، والأيام التى يجعلك الجوع فيها تتقيأ. كل فرد يعرف ذلك، ولكن لا يغير منه شيئًا. ومنذ ذلك الوقت ولا فائدة من الشكوى. ولهذا فإن أهالى "كيبويا" قوم قساة القلوب ولا يشكون أبداً.

كنا قد توقفنا، منذ أيام مضت عند قرية "ميوانومبيا" فى جزيرة "ماتانجو" وكان الأهالى لا يزالون يعملون فى تلالهم المزروعة وكنا قد رأيناهم وهم يحاولون الانتهاء من عملهم بسرعة. وكانت هناك امرأة عجوز تسرع هى الأخرى، كانت تسرع وهى تزحف فوق الأرض، لأن ساقيها المشلولين كانتا عاجزتين عن حملها. كانت تزحف وهى تدمدم ببعض الألفاظ لكى تؤنس وحدتها. وكان أطفال القرية قد تجمعوا وأقاموا سياجًا على طريق العجوز. وكانوا يشعرون بمتعة كبرى وهم يشاهدونها تزحف، لأن مثل هذه المشاهد لم تكن شائعة فى " ماتانجو ". وكان المازحون لا ينفكون يقولون إن العجوز ستصل فى الوقت المناسب بالضبط لكى تبذر كوستها. فتنطلق الضحكات لأن كل فرد يعلم أن الكوسة قد أكلت منذ فترة طويلة فى شهر أبريل. هذا الخاطر الذى كان يثير غضب العجوز، فكانت تحاول أن تنهض، وكانت تلوح بمغرفتها بذراعيها الخاليتين من القوة، وكانت تسب الذين كانوا يسيئون إليها. كانت تصرخ فيهم، لأن حلقها لم يكن مصابا: "أغربوا عن وجهى يا ولاد الحرام، يا من تسخرون من عجوز عاجزة. لسوف تهرمون يومًا وستصبحون بدوركم عاجزين"، ولكن تلك اللعنات كانت تأتى بغير النتيجة

التى كانت ترجوها من ورائها. لم يكن الشياطين الصغار يجدون فى هذه اللعنات سوى نوع من الهذيان، وكان ذلك الهذيان يثير موجة جديدة من الضحك. فلم يكونوا قد سمعوا من قبل أن اللعنات التى توجه ضد الآخرين قد شفت إنسانًا من عاهته. إن العجوز، مع أنها كانت تجد القوة لكى تسب الأطفال، فإنها لم تجد فى سبابها القوة لكى تشد من عزم ساقها. واستأنفت العجوز تقدمها البطىء نحو حقولها وهى لا تزال تهمهم.

حيوان قارض جازف بالخروج على الطريق، هو الذى أنقذها من سخريات الشبان الذين تحولوا إلى الشجار للحصول على الحيوان الصغير.

وعندما عدت إلى القارب، سألت المجدفين الذين كانوا بصحبتى عن قصة هذه العجوز. هل أنجبت أطفالاً؟ وكيف أصبح هؤلاء الأطفال؟ ولماذا لا يقدم لها الناس يد المساعدة؟ نعم، لقد أنجبت أطفالاً كبروا وتزوجوا. ولقد غادروا البلاد، وربما وافاهم أجلهم لأن أحداً لم يعد يتلقى شيئًا عن أخبارهم. ولقد سئم أهالى القبيلة من مساعدة العجوز، لأنها كانت تهاجم كل شىء. فالمرء يسأم من مساعدة شخص لا يكف عن التبرم والسخط. إن "نويلوا" له رأى فى هذا الشأن فهو يقول: "إن هؤلاء العجائز القعيدات مخلوقات هرمة مصحوبة دائمًا بضجيج يبعث على السخرية ومن العسير مراسهن".

ورحت أتمعن فى ذلك وأخذتنى سنة من النوم. ثم استيقظت عندما كنا ندخل بلدة "تامبا"، وكان "نويلوا" يروى قصة لزميله "بواليا" وها أنا أحكيها لكم كما سجلتها.

فى ذلك العام، كنت قد قررت أن أقوم بصيد بعض كلاب الماء، لأن جلودها كانت رائجة. وكنت أقوم بالصيد منذ عدة أسابيع فى أرجاء بحيرة "كيال" وكنا فى فصل الأمطار. وكانت كلاب الماء تتبع الأسماك التى كانت تفيض بها البحيرات والأنهار وتنتشر فوق الأراضى المغمورة بالمياه. وكنت قد عزمت على البقاء فى القرية بعد

التوفيق فى الصيد. ومن قبل، كنت أريد أن أبيع جلودى لتاجر من "نشيتا" كان يدفع فيها ثمنًا أفضل من سواه. والطريق طويل من "كيال" إلى "نشيتا". ومع ذلك، فقد عزمت على أن تكون رحلتى ذهابًا وإيابًا، وأن أعود إلى القرية فى اليوم نفسه، لكى أستريح من الصيد، ومن الأمطار، ومن الوحدة.

وفى الذهاب صار كل شىء على ما يرام، وبعت جلودى بثمن طيب. وتوقفت بعض الوقت فى قرية "بواليا مبوندا". وكانت الشمس قد شرعت فى مسيرتها صوب الجنوب، عندما فكرت فى أمر العودة. وكان ثمة بعض السحب قد ظهر ناحية الشرق، ولكن كان باستطاعتى أن أعود إلى البيت، إذا جدفت بقوة. إن القارب يكون خفيفًا بالنسبة لمن يريد أن يعود إلى القرية ويعرف طريقه جيداً. فكنت أجدف بقوة كما كنا نفعل عندما كنا نقوم بسباق القوارب لتسلية البيض، ومع ذلك فقد كانت السحب تتقدم أسرع منى وتلحقنى.

وكنت قد اجتزت دغل "كيبويا" منذ فترة لا بأس بها عندما فاجأنى الليل. وكان لا يزال أمامى طريق طويل. وكنت أحدث نفسى قائلاً: "ليت المطر لا يسقط". وشرعت الرياح فى الهبوب. وكانت تساعدنى فى مهمتى، لأن القارب كان خفيفًا وكان يقفز فوق المياه عند كل ضربة من المجداف. فكنت أتقدم سريعًا كالطائر الذى يشق أجواء السماء، لكن السحب كانت أسرع منى؛ فكلما كنت أجدف لابتعد عنها كانت تلحق بى. وغاب عن ناظرى آخر النجوم، وأصبح الظلام حالكًا. فلم أعد أرى شيئًا يذكر. ولحسن الحظ، كانت تجتاز السماء ومضات من النور تتيح لى أن أتأكد أننى أسير فى الطريق السوى عندما كانت تبرق من خلفى. وعلى حين بغتة، شرعت الأمطار فى الهطول، حبات كبيرة ساخنة فى بادئ الأمر، ثم سيلاً مدرارًا. وكانت ومضات النور تغشى عينى، والأمطار تغمرنى بالمياه. وحاولت رغم كل ذلك أن أجدف، غير أن البرد تمكن من يدى ولم أعد أشعر بالمجداف الذى كنت أمسك به.

كنت أحاول أن أقنع نفسى أن "كيال" لم تعد بعيدة جداً، وكذلك القرية. ولكن هذا لم يكن سوى كذب على نفسى؛ لأنه فى الصباح، كانت "كيال" بعيدة جداً عن "كيبويا" وكانت الأمطار لا تزال تبللنى دون توقف وتسلبنى كل شجاعة. فتوقفت لكى ألتقط أنفاسى وأحمى نفسى. ولم يكن يوجد حولى سوى العشب المبلل وأوراق من نبات عرائس النيل كانت تطفو فوق كل تلك المياه. ولقد حاولت أن أصنع لنفسى مأوى ألوذ به، ولكن يدى اللتين شلهما البرد كانتا عاجزتين ولم تتوفقا فى ذلك. وكنت أرتعد كعود الغاب من فرط الخوف والبرد. وما أندرهم أولئك الذين لا يتملكهم الخوف فى الظلام وتحت الأمطار.

وأصبحت كومة العشب التى كان من المفروض أن تحينى، بلا فائدة واستأنفت طريقى وانتهى بى الأمر إلى أنى ضللت وسط الظلام. وإذا كانت الدموع تعزى الرجال لكنت قد بكيت، ولكن الدموع لا تعزى سوى الأطفال.

وأخيراً خلدت الأمطار إلى الهدوء. أما جسمى؛ فلم يستطع أن يهدأ، وكان يرتعد جملة بلا باغت. كان البرد يخدر أعضائى أكثر فأكثر وأحسست أننى أبلغ نهاية رحلتى. وإذا بزئير أسد بالقرب منى يجعلنى أنتفض، ومن الخوف صرخت قائلاً:

– أى "كيباندا"، أغرب عن وجهى أيها الشيطان اللعين، من ذا طلبك؟ من ذا أثارك ؟ ليس لى شأن بك. فلا ترعب الناس الذين يعودون إلى بيوتهم. إننى لم أصبك بسوء فأغرب عن وجهى. فلا شىء يمكن أن يلقى الرعب فى "كينانجولا"، شرير تحول إلى أسد. إن تلك الأسود، لا شىء يرهبها. بل على العكس، فإن السباب التى نوجهها إليها لا يكون من شأنها إلا أن تجعلهم أكثر شراسة. إن هذه الأسود التى يستحيل مراسها هى آكلة للبشر، وهى لا تعرف الرحمة. ولحسن الطالع، كان الحظ معى. فإن ذلك الأسد الذى كنت أسبه لأنه كان يزأر بأعلى عقيرته بالقرب منى، كان أسداً عادياً.

ولقد كانت حادثة الأسد مثيرة، لأننى عثرت على طريقى ووصلت إلى "كيال" ثم إلى القرية، وأنا ميت من فرط الجوع والبرد والإرهاق، وكانت القرية هادئة. حتى الكلاب لم تكن تتحرك عند اقترابى من شدة البرد.

ووصلت كوخنا وأنا أتعثر من التعب وكان الباب مفتوحًا على سعته، وكانت أمى جالسة بجوار النار. ولكن الضوضاء التى أحدثتها جعلتها تشرئب بعنقها لكى ترى القادم. كانت فى انتظارى مع أن الوقت كان متأخراً للغاية. وبادرتنى قائلة:

– صحبتك السلامة، يا ولدى. ها أنت ذا وصلت.

– إيه، نعم، وصلت، يا أماه !

– لاشك أنك تشعر بالبرد، فقد ظل المطر يهطل طوال الليل. تعال إذن بجوار النار لكى تستدفئ. لقد خرجت لإحضار كمية من الحطب لإشعالها لأننى كنت أعرف أنك ستعود. أنت تشعر بالجوع لأن النهار كان طويلاً وقد قطعته فى السفر. ها قد احتفظت لك بالطعام. فكل حتى تسترد عافيتك.

كانت هناك بالفعل سلة ضخمة مليئة بالحطب بالقرب من النار. كذلك كان الطست الملىء بالماء والمعد لاغتسالى فوق الأرض.

وأردفت أمى قائلة:

– لقد سمعت زئير الأسد. كان المطر قد بدأ يتوقف عن الهطول. وقد شعرت بالخوف عليك، لأن الزئير كان آتيا من جهة "كيبويا". كنت أخشى أن يكون ذلك الأسد من أكلة البشر فهم بلا رحمة. لكننى لا أدرى كيف أن الطمأنينة غشيتنى وتأكدت أنك ستعود. كنت على حق، لأنك ها قد عدت.

وفيما كنت أتناول طعامى، كانت أمى لا تحول نظرها عنى، وكان سرورها بعودتى يتجلى فى كل حركة من حركاتها. كانت لا تفتأ تقول: "كُل يا بنى، واسترح".

حقًا، إن الأم لا تكاد ترى أضلع وليدها تظهر حتى تقدم له الطعام لكى يأكل.

وعلق رفيقى " بواليا " على ذلك قائلاً:

- إن كل مـا ترويه صـحـيح. إن الأم وحـدها هى التى تسـتطيع أن تمس رأس ولدها، فتعرف ما به من ألم.

مرة أخرى، تأكد لى مدى الحب الهائل الذى تكنه الأم لابنها. كذلك فقد تأكد لى مدى الاحترام الذى يكنه الابن لأمه عند الزنوج.

إن بلبلاً واحدًا لا يصنع الربيع. ومع ذلك، فهو يسهم فى صنعه.

***

رجل متين البنية

تأليف: جان فرداد Jean Verdad

من الكونغو البلجيكى

لم يكن ثمة غير شعاع واحد من الضوء، ينبعث من إحدى النوافذ، فى كتلة الظلام التى لفت مكاتب "شركة معادن كيماش المساهمة"... وكان صرير الحصى - المنتشر فى الممر - تحت وقع أقدام "آنسون" يعكر صفو اللحن الذى كان يصدر عن "الجوقة" الليلية للصراصير البرية.

كانت الساعة تناهز الثامنة مساء... ولم يثر دهشة "آنسون" ما بدا له من نشاط "سامى" أمين المخزن - وهو شاب خلاسى تختلط فى عروقه الدماء البيضاء والزنجية. ويبدو أن شعوره بالقدر الضئيل من الدماء البيضاء - التى كانت تجرى فى عروقه - غرس فى ذهنه الرغبة فى أن يكون ممتازًا ومتميزًا عن سائر المستخدمين الملونين، الذين كانت بلادتهم الواضحة تسود مكاتب "شركة معادن كيماش المساهمة".

وتذكر "آنسون"، كما يفعل الكثيرون حين يسترجعون ذكريات شبابهم من قبيل اللهو والتسلية - أنه ظل فترة طويلة يعتقد أنه والد "سامى"... أما الآن، فقد كف عن هذا الاعتقاد، كلا... لم يكن هو والده... فلقد كانت معرفته بالنساء الوطنيات كافية لأن تصرفه عن هذا الوهم.

ودفع "آنسون" الباب الزجاجى – الذى كان يعكس على المر ضوءاً خافتًا، فنهض "سامى" واقفًا ... كان على الدوام يبدو موزعًا بين الولاء المفرط، وبين صلف الزنوج. وكان "آنسون" يتساءل أحيانًا عما إذا كان هذا الصلف الذى لا يكاد يبدو، يستمد جذوره من ذلك الاعتقاد بأبوّته الموهومة... ثم تمتم لنفسه: "ليكن... إذا كان هذا الاعتقاد يسره، فليتشبث به، ولكن... على أن يحتفظ به لنفسه".

وبانحناءة تذلل أخيرة، أعاد "سامى" إغلاق الباب خلفه... ودلف "آنسون" إلى مكتبه، دون أن يوقد المصباح... كان ضوء القمر يضفى من النور ما يكفى لإنجاز ما كان يعتزم أن يفعل... وكان التعب قد أضناه، فجلس متثاقلاً فى المقعد الوثير، بعيداً عن بساط النور الفيروزى الذى كان القمر ينشره تحت النافذة الوحيدة... وأغمض عينيه غافلاً عن سحر الليل الأفريقى... "رحماك يا رب! لكم هو مرهق! ثلاثون عامًا فى أفريقيا لا تتخللها إلا بضعة شهور، ألتقطها من وقت لآخر لقضاء إجازة سريعة فى أوروبا. ولا يزال هناك احتمال قضاء عشرة أعوام أخرى، فى هذه البقاع".

وتضاحك فى مرارة، وهو يقول لنفسه: "إنك لتوهم نفسك يا "آنسون". لم يعد ثمة عشرة أعوام... لم يعد ثمة عام واحد، ولا حتى ستة أشهر... "إنهم" سيحيطون بك قبل ذلك... سيشمون رائحة السر قبل ذلك... "إنه" سيشم رائحة السر، بأنفه الصغير القذر، أنف الدّخيل، الوصولى... "ابن الذوات"... ثم ماذا؟ بتقرير سريع، بل بغير تقرير... تكفى بضع كلمات، وبضع أرقام، فى خطابه القادم إلى "بابا"... وبعد ذلك، ينفسح الطريق أمامه ليحتل مقعدك الوثير".

وراح "آنسون" يستعرض حياته الوظيفية... سنوات التنقيب عن المعادن... والتقدم البطىء المنهك داخل الأدغال... لحظات الأمل العابرة... الاكتشافات التافهة بعد شهور، بل بعد سنوات من العمل المضنى بلا جدوى... والملاريا... واليأس.

كان "آنسون" قد جاء إلى "الكونغو" بعد وفاة أمه، ليلحق بأبيه الذى كان يعمل فى التنقيب عن المعادن فى أفريقيا. ثم توفى الأب، فواصل هو التنقيب لحسابه الخاص، ولكن سنوات الأزمة الطاحنة هى التى قضت على استقلاله ... وقد شعر بسعادة عظيمة حين وجد عملاً فى "شركة معادن كيماش" التى أنشأها بعض المتفائلين من رجال المال فى ذلك الوقت.

وكان "آنسون" هو الذى حقق للشركة ما بلغته من نجاح، فهل يكون هذا هو جزاؤه؟ كانوا قد عينوه مديراً بطبيعة الحال، ولم يكن راتبه ضئيلاً، ولكنه مع ذلك لم يكن يوازى ما يستحق. "إن سياسة الشركة تستهدف الاقتصاد، يا سيد "آنسون" هكذا اعتاد أن يقول والد هذا الفتى "أورين سميث"... هذا الأبله الذى.

لم يكن من المستغرب – بعد ذلك – أن يحاول "آنسون" أن يقطع لنفسه جزءاً من كل هذا الذهب الذى كان يملأ به أيدى أعضاء مجلس الإدارة... ولم يكن هذا بالأمر العسير، فقد كانوا جميعًا يولونه ثقتهم، ولا يفتأون يقولون عنه "السيد آنسون النزيه" ثم إن هذه البقعة – التى كانت مقراً لعمله – كانت تخلو من كل ما يمكن أن يجتذب مفتشى الحسابات ومن على شاكلتهم من الخبراء.

كان بوسعه – منذ الآن – أن يستغنى عن تلك المكافأة الضئيلة التى كان يمنحها "أورين سميث" – فى شح وتقتير – لمن يسمونهم بالمندوبين الساميين للشركة.

وقد كان هو الذى يقوم – فى نهاية كل أربعة أشهر – بالإشراف على نقل شحنة الذهب المستخرج، إلى محطة السكة الحديد التى تؤدى إلى ميناء (سيموس).

وكان يحرص على أن ينتخب للحراسة أشهر المشاغبين من الجنود الوطنيين. وكان فى كل شحنة، ودائمًا، صندوق كتبت عليه كلمة "آلات"، يرسل إلى عنوان معين فى "سيموس" حيث يودع بصفة أمانة. ولما كان "آنسون" يتولى بنفسه تحرير الوثائق، فقد كان يستطيع – بغير مشقة – أن يجعل كل شىء يبدو صحيحاً... فلم يكن يعوزه إلا

عملية تزييف بسيطة فى إحصاءات الإنتاج وفى أرقام الحسابات، ليكون فى مأمن من كل خطر... بشرط ألا يعقب ذلك عملية مراجعة جادة.

ولكن... هاهم أولاء يرسلون إليه "أورين سميث - الابن"، ليقوم بالإطلاع على سير العمل فى المشروعات التى كان مقرراً أن يتولى إدارتها فيما بعد... ومما زاد الطين بلة، أن هذا الابن كان يقوم بعمله بطريقة جادة.

انطلقت من بين شفتى "آنسون" بضع شتائم بصوت خافت... لقد نجح حتى اليوم فى إقصاء "أورين سميث" عن الجانب الإدارى من العمل، ولكن كان لا بد لذلك من نهاية... "وهم" قد ألمحوا له صباح اليوم - فى أدب ولكن فى حزم - بأن السيد" أورين سميث - الابن "يهتم فعلاً بالجانب الفنى للعمل، ولكن استعداداته وميوله الشخصية تجعله أكثر اتجاهاً إلى الاهتمام بالجانب الإدارى... ومن ثم فإنه اعتزم - فور انتهاء العطلة الأسبوعية - القيام بفحص دقيق للحسابات والأعمال الإدارية بصفة عامة.

كان "آنسون" يعلم أن هذا لا بد أن يحدث فى يوم من الأيام... ولكنه لم يكن يتوقع أن يحدث قبل أن يقرر هو ذلك... لم يكن يتوقع أن يحدث قبل أن يتمكن من أن يجعل بضعة آلاف من الكيلومترات تفصل بينه وبين العدالة فى المستعمرة... وبعد أن يتم ذلك، وبعد أن يجمع أمواله وينقلها، سيقولها عالية: "الوداع".

ولقد كانت قوانين تسليم المجرمين غير معروفة كثيراً فى أمريكا اللاتينية فيما يقال... فضلاً عن أنه بوسع أى امرئ أن يستبدل اسمه باسم جديد، ما دام فى يديه مال. وها هى ذى الخطة الرائعة تبوء بالفشل.

لقد أخذوه على غرة، قبل الأوان ... قبل الأوان بكثير... وحتى لو حاول أن يهرب الآن فلن يجد تحت يده من المال ما يكفى ليتيح له النجاة بنفسه... وأخذ يلعن الحيطة الحمقاء التى دفعته إلى أن يضع كل أمواله فى الخارج... وربما كان فى وسعه أن ينصرف، لو أنه كان بمفرده، ولكن... كانت هناك "واندا".

وكان قد تذكر فجأة - أثناء إجازته الأخيرة - أن بلغ الخامسة والأربعين من العمر. ففكر في الزواج، حين رأى "واندا"... وكانت خبرته بالنساء ولا سيما الأوروبيات منهن - ضئيلة، فبدت له الفتاة أنسب أنثى له... صحيح أن عمرها كان - عندئذ - يقل عن عمره عشرين عامًا، ولكن لا حرج... فقد كان قوى البنية بالنسبة لسنه، وما كان يمكن لأحد أن يقدر عمره بأكثر من أربعين عامًا... لقد غازلها، ثم تزوجها قبل عودته إلى إفريقيا بخمسة عشر يومًا... وسرعان ما توالت الأيام والشهور، فإذا ثلاثة أعوام تنقضى منذ ذلك الحين وما كان يدرى - حين تزوج "واندا" - إن كان يحبها حقيقة. ولكنه أصبح لا يتصور الحياة دونها... وأصابته غصة في حلقه... إنه لا يستطيع أبدًا أن يفقدها، مهما يكن الثمن... لا، ينبغي أن يفقدها أبدًا.

لقد أيقظ وصول هذا الشاب في نفسه - للمرة الأولى - الشعور بالغيرة... ولقد حاول "أورين سميث" منذ الوهلة الأولى أن يغازل "واندا". وكانت هي في بادئ الأمر تصده، ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن تخاذلت، وإن كانت لم ترفع الكلفة بينها وبينه.

ولم ترق لـ "آنسون" هذه اللعبة كثيرًا، بل إنها أثارت حفيظته ضد ذلك الدخيل. بعد هذا كله، وعند النقطة التي وصل إليها، ما الذي يدعوه إلى أن يتراجع؟ لا بد له من أن يمضى في تنفيذ خطته، وأن يفعل ذلك بمهارة، وأن يتجنب - وبأى ثمن - إثارة شك "سميث"... إن أمامه الليل بطوله ليعد ضربته، كما أن أمامه نهار الأحد كذلك... لا بد أن يضع كل شيء في موضعه الصحيح، حتى لا يرتكب أي حماقة... فإن أقل خطأ قد يؤدى إلى الهلاك.

ومهما يكن، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث - بعد احتراق السجلات... في غير تعمد ظاهر - هو أن توجه إليه تهمة الإهمال، وأن يحال إلى المعاش قبل الأوان... فهو لن يترك أى دليل ضده... أما الشكوك... يا إلهي! إنها لا يمكن أن تحوم أبدًا حوله.

وما أن اتخذ قراره، حتى بدأ يفكر فى خطته بطريقة جادة... لا داعى للعجلة فهو لن يفعل شيئًا هذا المساء، ومن ثم فأمامه فترة ما بعد ظهيرة اليوم التالى كلها. لا، ليس هذا المساء... عليه أن يتجنب إثارة الشك فى نفس "أورين سميث"، بقيامه بنشاط غير عادى.

إن مباراة فى "الجولف" مع العدو - قبل المعركة - لشىء رائع... شىء مريح للأعصاب... ولقد أعاد هذا إلى ذهنه أول خطة وضعها لإنقاذ موقفه. كانت خطة خطيرة جدًا... فضلاً عن أنها تتضمن... حياة بشرية. ذلك أن رءوس الجبال - التى تطل على وديان "كاربوبو" الضيقة تعلو الشلال بعشرين مترًا، ومن بينها رأس صخرى، يبدو كأنما أعد خصيصًا ليكون مكانًا للاستطلاع ... وهناك، يمكنه التظاهر بالإعياء، أو التعب المفاجئ، فيتهالك قائلاً: "فى مثل سنى يا سيد سميث، وبعد ثلاثين عامًا فى أفريقيا، هل لى أن أسألك بضع دقائق للراحة أمام هذا المنظر الرائع؟ شكرًا شكرًا جزيلاً... هل تسمح لى؟

وتمر لحظة... وقد يظلان يلهثان قليلاً... ولا يلبث أن يقول: "هل لك فى شراب مرطب لا ضرر منه؟ زجاجة كوكاكولا؟ عظيم... يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا".

والآن، رحل الشاهد الوحيد لبضع دقائق، والنادى على مسافة تتجاوز خمسمئة متر خلف الجبل... ثم، دفعة بسيطة... يا للسماء! يا للشاب المسكين! لا أمل فى النجاة، فإن الهوة سحيقة، يصل عمقها إلى عشرين مترًا، وفى أسفلها الصخور والماء - والشاب لا يجيد السباحة... يا للمسكين! يا للشاب المسكين! كم كان لطيفًا!

ولكن، كلا، يا للشيطان! هذه مجازفة تنطوى على أخطار أكثر مما يجب. إن الخطة محكمة بالتأكيد، وتخلو من أى ثغرة، ولكن... ما الذى يجرى بعد ذلك؟ سيأتى "أورين سميث - الأب" مسرعًا... وبعد لحظات من الراحة يعبّر فيها عن الألم الأبوى الشريف اللائق، ولا يلبث أن يقول: "يا سيد آنسون إن العمل هو أنجح دواء للهم... هو

وحده السبيل إلى النسيان... فلننظر كيف سارت أعمالنا هذا العام؟ إننى أفضل أن أحبس نفسى معك بضعة أيام، حتى أكوّن لنفسى فكرة عن نتائج السنة المالية الجارية... هيا، هات لى دفاترك لو سمحت... لا تنس دفتر السنوات الماضية، حتى تتسنى لى وسيلة للمقارنة".

- يا للعجوز الخبيث الرهيب!

وارتعد "آنسون": كلا! لن يكون القتل مهرباً... يكفى حريق بسيط... نار نشعلها علامة على الفرح، كما يفعل فتيان الكشافة... لا ضير فى هذا، وسيكون البرد القارس تفسيراً كافياً للمدفأة التى تركها "السيد آنسون الطيب" موقدة، عندما غادر الشركة... كان المسكين مرهقاً، فقد قضى ساعات الليل ساهراً فى جمع كل الوثائق التى طلباها السيد "أورين سميث" وهذا القط الغبى الذى اجتذبه الدفء، ولا توجد غير أشلائه المحترقة، هو بلا شك الذى قلب المدفأة فوق البساط... وستكون التعليقات مترفقة رحيمة، "حقاً إن ذلك لمن سوء الحظ، ولكن لا توجد خسائر فى الأرواح، هذا هو المهم. ونتعشم ألا يوجَّه إلى "آنسون" المسكين أى لوم جارح، فهو سيبلغ سن الإحالة إلى المعاش قريباً... وبالمناسبة، من الذى سيخلفه فى ظنكم؟ ".

تنهد "آنسون" تعبيراً عن الرضى... ولكن، كلا بالتأكيد... ليس هذا المساء فهو مرهق جداً... بيد أن سهرة الغد كفيلة على أى حال بأن تتيح له وقتاً كافياً لتدبير الأمر... ثم إن المستخدمين من أبناء البلاد يكونون - مساء الأحد - منهكين، على أثر احتسائهم الخمر طوال يومين متواليين وهذا مما يمنع مغفلاً مثل "سامى" من أن يأتى إلى مكاتب الشركة، فينتبه إلى الخطر وينذر به قبل الأوان.

وتطلع إلى الساعة المضيئة التى كانت تحيط معصمه: لم تكن قد تجاوزت التاسعة والنصف... وبدا له الوقت طويلاً جداً... بقيت أربع وعشرين ساعة. واستوثق -

قبل انصرافه - من أن المدفأة الكهربائية كانت تؤدى عملها بشكل طبيعى... إن كل شىء سيسير على ما يرام ... كان متأكداً من ذلك.

وفى الخارج، لسعته برودة الليل، فأسرع الخطى... ستندهش "واندا" إذ تراه يعود مبكراً هكذا، إذ كان قد أخبرها بألا تنتظره، لأنه لن يعود قبل منتصف الليل... واقترب من البيت، فأدهشه أن رأى الظلام والسكون. ودان كل شىء... وتسلل عبر الممر المفضى إلى المدخل الرئيسى، فاصطدم بسيارة كان نصفها يختفى بين دغلين، فلا سبيل إلى رؤيتها من الخارج... كانت سيارة "أورين سميث"... ماذا فى الأمر بحق الإله؟ ومكث فترة طويلة جامداً لا يتحرك، وقد بدا له أن عقله قد تعطل تماماً فعجز عن التفكير... حتى أخرجته من غيبوبته حركة خفيفة، صدرت عن الباب وهو ينفرج قليلاً. فتراجع متسللاً إلى جوف مجموعة من شجيرات الزهور... وفى ضوء القمر رأى "واندا" و"أورين سميث" يخرجان من المنزل صامتين ويتجهان صوب السيارة... وغابا عن ناظره لحظة، ثم لم يلبث صوتيهما أن تناهى إليه فجأة فى وضوح تام:

- انصرف الآن... إننى خائفة... لو رجع.

- لا خطر على الإطلاق، هيا بنا... ألم يخبرك بأنه لن يعود قبل منتصف الليل؟

- لا يا حبيبى، انصرف... فى مساء الغد، نستطيع أن نفعل ما يروق لنا، دون مخاطر... اذهب أرجوك. لم يعد علينا أن ننتظر لأكثر من أربع وعشرين ساعة، ثم يلتئم شملنا إلى الأبد... لا ينبغى أن نخاطر... سيكون الأمر رهيباً، لو خالجه أى شك.

وهنا ساد صمت... لا بد أنهما كانا يتعانقان... وقاوم "آنسون" رغبة مفاجئة فى أن يندفع نحوهما... ومرة أخرى، سمع صوت زوجته وهى تقول: "اذهب الآن يا حبيبى". ثم سمع محرك السيارة يدور، وسرعان ما انطلقت السيارة بعيداً، حتى لم يعد يبدو منها سوى بصيص من النور الأحمر فى حلكة الظلام.

الله وحده يعلم كم من الوقت مكث "آنسون" فى ذلك المكان، منكمشًا فى جوف الدغل. وراح يحدث نفسه، وهو مذهول:

"واندا" حبيبتى؟ غير معقول، لا بد أننى أحلم ... لا بد أننى أحلم، ولن ألبث أن أستيقظ... أنت مرهق يا "آنسون"... إنها الملاريا، إنه كابوس الحُمى. إننى أكرهك يا "واندا"... أكرهك؟ كلا، لا أستطيع... بل أكرهه هو. الوغد الصغير القذر... ماذا كانت تعنى بقولها بعد أربع وعشرين ساعة؟ لم يعد أمامنا أن ننتظر أكثر من أربع وعشرين ساعة؟ أتراها سترحل معه؟ تهجرنى من أجل هذا الولد؟ هذا الوغد الطائش؟ أولى بها أن تُقتل... ولكن كلا، بل هو الذى يُقتل".

وارتدت إلى ذهن "آنسون" الخطة التى كان قد دبرها... خطة بسيطة، هى النموذج الرائع للجريمة الكاملة؟ جريمة دون دافع، ودون فاعل ودون شاهد... دفعة بسيطة، بحركة ودية تقريبًا... بالإبهام لا أكثر... وهمس لنفسه: "وبعد ذلك، لا أهمية للمخاطر؟ فلأفقد كل شىء، ولا أفقد واندا".

وفجأة ارتعدت فرائسه... كان البرد قد أصابه دون أن يدرى... وكان النور الذى أضىء فى إحدى الحجرات قد أطفئ، وسيطر النعاس على مظهر المنزل... وتسلل "آنسون "كاللص خلال باب" الجراج"، كى يتجنب السير فوق الحصى. لم يكن يريد أن يرى "واندا" هذا المساء، فهو لن يستطيع أن يتحملها.

واستيقظ عند الفجر، بعد أن قضى ليلته مستلقيًا على أحد المقاعد، وكابوس مروع يقلق نومه... وكانت الساعة السادسة صباحًا. وبكل ما استطاع من هدوء، تسلل إلى الحمام... وجرح نفسه مرتين وهو يحلق لحيته، ولكنه كظم غيظه... "إياك يا آنسون واضطراب الأعصاب! إنك ستحتاج إلى كل ما لديك من رباطة جأش..."، وأفاده حمام فاتر، وأكمل انتعاشه قدح من القهوة... وكانت معدته خاوية، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئًا، وإنما مزج قهوته بكأس كبيرة من "الروم" مما أشاع فيه حيوية ودفئًا... وشعر

بأنه أصبح مستعداً للعمل. وبينما هو يهم بالخروج، سمع صوت سيارة تتوقف أمام المنزل، فتوقف قلبه عن النبض لحظة، وشعر بتقلص يعتصر معدته... يا إلهى! لو أن دخيلاً ثقيلاً... ولكنه أحس بروحه ترتد إليه، حين سمع صوت "أورين سميث" يناديه... لقد كانت السماء تساعده بالتأكيد، فها هو ذا الغبى قد جاء إلى الفخ بقدميه.

– هاللو يا سيد "آنسون"... لقد فكرت فى مباراة صباحية فى الجولف.

– إن الطقس بديع، كعهده دائمًا فى هذا الفصل من العام... نعم بكل سرور... طبعًا بكل سرور.

وتظاهر بالحرج وهو يحضر قبعته وصديريته الصوفية، ويتمتم معتذراً: "سيكون من العسير أن نعثر – فى هذه الساعة – على صبى لجمع الكرات... سأستدعى ابن خادمى... ولنضع مضاربنا فى حقيبة واحدة".

ووافق "أورين سميث"، وهو شارد الفكر.

كان كل شيء يبدو على ما يرام... وكانت أرض اللعب خالية من الرواد. ولم تستطع الدقائق الأولى من التمرين أن تكسب "آنسون" لياقته البدنية فكان يخطئ المرة بعد الأخرى، حتى اضطر إلى أن يتخلى عن الحفرات الثلاث الأولى فى الملعب لمنافسه الشاب، وهو يعتذر قائلاً: "أشعر بأننى لست فى كامل لياقتى هذا الصباح...".

وكانا يتجهان معًا ناحية الحفرة الرابعة، عند قمة الجبل التى فوق الشلال فأجاب "أورين سميث": "وأنا لست على ما يرام... لسوف ننشط أثناء اللعب"... وقذف الكرة فانطلقت فى مسارها الصحيح وسقطت على بعد بضعة أمتار من قمة الجبل، القمة التى كانت تشد انتباه "آنسون".

ولم يلبث "آنسون" حين قذف بالكرة بدوره – أن فشل فى تسديد ضربته، فلم تبتعد الكرة سوى بضعة أمتار.

أما ضربته الثانية، فقد أجاد تصويبها بحساب دقيق، ومن ثم استقرت كرته بالقرب من كرة خصمه... واتجها معًا ناحية حافة القمة المطلة على البحر. وقد أصبح الأمر سهلاً للغاية... لعبة أطفال، وحين وصلا إلى كرتيهما، استجمع "آنسون" كل طاقته، فقد حانت اللحظة الحاسمة... وسبقه "أورين سميث" قائلاً:

- ما رأيك فى أن نتناول هنا شرابًا مرطبًا، قبل استئناف اللعب؟ هذا من شأنه أن يريح أعصابنا، وربما تحسن مستوى لعبنا بعد ذلك.

- كنت على وشك أن أقترح عليك هذا... ماذا تحب أن تشرب؟ كوكاكولا؟ يا غلام، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا.

واختفى الولد بين الأشجار...

- آه يا سيد سميث، ما أروع هذه المناظر... إنها تنسيك وطأة ثلاثين عامًا فى أفريقيا... فى التراب، فى الوحل والملاريا... انظر إلى الطبيعة وهذه الصخور، وبخار المياه الناصع البياض، الذى يتصاعد فيختلط بالسحب، وسط زرقة السماء.

كانت اللحظة الحاسمة قد أوشكت... فها هما قد أصبحا وحيدين، فوق صخرة معلقة بين السماء والأرض ... وشعر "آنسون" بأنه ثمل من فرط القوة... إن حياة إنسان بين يديه الآن.

ثم... الفضاء... الماء... الصخور... تقدم للقائها فى حركة رعب، ويداه مبسوطتان فى حركة دفاع عقيمة.

وكانت "واندا تنتظر فى لهفة وقلق.

ولم تنبس بكلمة واحدة، حين رأته يعود وحده.

- انتهى الأمر يا حبيبتى... كأنما كان يسعى إلى تيسير مهمتى، فقد تقدم من تلقاء نفسه إلى الحافة... وكان يحدثنى عن الطبيعة، والسماء الزرقاء و... وبدفعة خفيفة، انتهى كل شىء.

وكان "أورين سميث" يبدو منتشيًا، حالمًا، وهو يتكلم.

- كان الأمر غاية فى السهولة... ترى هل..؟

ولم تدعه يتم سؤاله، إذ أدركت ما طاف بخاطره.

- هيا يا حبيبتى... كيف كان له أن يشك فى الأمر؟

وهز "أورين سميث" كتفيه، وقال وهو شارد البال:

- كان رجلاً ساذجًا كل السذاجة... بيد أنه كان متين البنية.

***

اللحن الرعوى

تأليف: بينْتى هولابا Pentti Holappa

من فنلندا

كان يجدف بهمة وهو يتطلع وراءه إلى بيته بادىَ الضيق. كانت "ألينا" تعبر الفناء فى طريقها إلى حظيرة الحيوانات وبيدها دلو الماء. وتوقفت "ألينا" فى منتصف الفناء وتطلعت إلى البحيرة فى اتجاهه، لكنه استمر فى التجديف كأنما لم يلحظ شيئًا. لكنه كان يحدث نفسه " لا تكف ألينا عن اجترار الهموم القديمة ذاتها. وهى لا تفهم".

راودته الفكرة نفسها صباح اليوم، حينما أيقظته "ألينا" من نومه وهى تلمزه فى جنبه قائلة:

– جان، هيا، انهض، حان وقت الذهاب إلى الصيد.

كانت "ألينا" قد بدأت تشرب قهوتها، حينما دخل هو إلى المطبخ. فقالت له:

– الجو جميل للصيد اليوم!

وتطلع من النافذة فوجد أن أوراق الشجر لا تتحرك، والسماء بلا غيوم، صافية زرقاء. فقال فى نفسه: "جو جميل". لكنه لم يكن يفكر فى الصيد. وحينما استدار، وجد ألينا لا تزال تنظر إلى قفاه. وحينما فوجئت نظرت إليه مذعورة متوسلة. فهى تحاول أن تتشبث به بنظرات خائفة، وألفاظ مرعوبة. لم تكن "ألينا" تدرك أن زمانها قد ولّى. لقد أصبحت "ألينا" امرأة عجوزًا.

وقالت "ألينا":

- ينبغى أن ينزل المطر بينما العشب ينمو. لن يكون هناك علف إذا استمرت الحال على ما هى عليه. ولن ينزل المنّ علينا من السماء اليوم.

أما هو، فلم يعلق. لكنه تبرم بينه وبين نفسه قائلاً: "مطر فى عز شهر يونيو، إذن فهى الطامة الكبرى!".

وعبر قناة كونيسلكا واختفى عن عينى "ألينا". كان يوجد فى الخليج، غير بعيد عن البيت، ركن عامر بالأسماك. لكن "ألينا" لم تكن تعرف. وجعل يجدف ببطء، فلم يكن على عجلة من أمره. كان سطح الماء أملس أشبه بخد طفلة صغيرة. وابتسم. كان الخط الذى رسمه المركب أشبه بشق سكين عبر البحيرة. وكان أريج بعض الزهور ينتشر فى الناحية، فتوقف وترك المجداف لكى يستنشق الهواء المعطر.

وبكل خمول بدأ يسحب الشباك. كان السمك يبلبط، لكنه لم يكن يهتم بذلك، بل لم يكن يسمع الذيول وهى تلتطم فى قاع السلة. وبعد أن تأكد من الشباك، جدف نحو جزيرة صغيرة، وتوجه مباشرة نحو إحدى الصخور. وبينما كان يسحب المركب، فكر فى رجله المعاقة. لم يكن قد فكر فيها منذ مدة طويلة. ولم تكن تنغص عليه حياته. إن رجلاً عرجاء ينبغى ألا تفسد على المرء حياته. ووضع سلة السمك بين صخرتين صغيرتين فى الماء. وشعر بالرضى عن نفسه. واعتلى الصخرة وتمدد فى الشمس.

قالت كارينا:

- وصلتنى بطاقة بريدية ملونة من أحد الصيادين.

وأغضبه هذا القول. وكانت الفتاة تجلس فوق الصخرة وهى تضحك. ونفض هو حذاءه بغصن شجرة.

- أهملك وتركك، والآن يريد أن يستردك ببعض البطاقات البريدية.

وكسر غصن الشجرة نصفين.

فقالت الفتاة معترضة وقد أحمر خداها:

– لم يهملني ولم يتركني. بل كان شاباً لطيفاً.

وجعلت تضحك. وفي هدوء، اقترب منها ونظر إلى شعر كارينا الأسود الذي يلمع في الشمس.

ثم مال ورفعها. ونظر في عينيها. وكفَّا عن الضحك.

ثم قال:

– ليس من الذوق السخرية من شخص معوق.

فهزت الفتاة رأسها بطريقة جادة.

ثم لم تعد تضحك، على الأقل ليس بالطريقة نفسها. نعم، قد تكون ضحكت، لكنه كان ضحكا مختلفا. كانت تقرّ كقطة تمسح ظهرها في حذاء صاحبها. أما بالنسبة له، فقد كان الأمر يختلف. ففي البداية، كان يقفز من فراشه وينطلق عدواً حتى المكان الذي ترك فيه مركبه مع نوع من الشعور بالخجل. كان يخشى من "ألينا" ويتجنب نظرتها. فنحن لا ندري بالضبط ما يخفي وما يعلن الآخرون. فالإنسان سفينة هشة ضعيفة. في بعض الأحيان كان يتوقف في منتصف الطريق، ويترك المجداف وينصت لأنفاسه. غريب يلهث بداخله وهو يندهش لذلك، لكنه يواصل الطريق.

استمرت هذه الحالة أسبوعاً أو أسبوعين. وحينئذ استرد وعيه بنفسه. وهو اليوم ينظر بعينيه هو، من مقعده، إلى البحيرة الهادئة التي لا يوجد على سطحها سوى مركبه. لقد قرأ في عيني "ألينا" وأدرك أن زوجته امرأة عجوز. و"ألينا" لديها همومها الخاصة بها؛ وعيناها تلتصق بقفاك بمجرد أن تلتفت. أما يده هو فقد انتعشت بمسها بشرة الفتاة وهدأت.

وأدفأته الشمس وفتح عينيه؛ فإذا بغصن شجرة يتحرك فوقه. وهبت نسمة رقيقة. وسمع صوت مجداف على الماء، لكنه لم يحرك ساكنًا. وعاد إلى إغماض عينيه. وتخيل الفتاة تميل على سطح البحيرة الفضي إلى الأمام وإلى الخلف، ثم إلى الأمام وإلى الخلف. والتفتت الفتاة تبحث عنه، لكنه لم يحرك ساكنًا. كانت السعادة تدوّى في صدره لكنه لا يتحرك. واقترب صوت المجداف. ولعل الفتاة أدركت أنه يلعب لعبة، وتباعدت ضربات المجداف ومست المركب الأرض دون ضوضاء. وسمع الفتاة تقفز بخفة من المركب عارية القدمين وجلست بجواره، وسمعت أنفاسه تتقارب.. ولم يشعر بها.. وفتح عينيه.. كان على وجه كارينا تعبير غريب. عينان خائفتان تنظران إليه، ولم تعودا عينين شابتين. وقفز جالساً، لكن سرعان ما أحس بالخجل من سرعته. وقال:

- كنت قد نمت تقريباً.

كان يكذب. ولم يسمع إجابة. والتفت ونظر إلى الفتاة

- لست كعادتك.

كانت كارينا تنظر أمامها مباشرة.

فاستطرد يقول لمواصلة الحديث:

- لقد غنمت صيداً طيبًا اليوم: بورى وسردين. وتمددت في الشمس. ونمت تقريباً. كنت أتصور أنك ستوقظينني.

ثم كرر هذا الجملة بصوت مرتفع وهو ينظر إليها.

- كان من المفروض أن توقظينني حينما وصلت.

- لن أذهب غداً للصيد. اليوم، هذه آخر مرة.

وانحنى ظهر كارينا كأنما بفعل حمل ثقيل، لكنها لم تنظر إليه. كانا صامتين كلاهما. ولم تزل فى أذنيه كلمات الفتاة، لكنه لا يستطيع أن يصدقها. فالفرحة التى ألهبت صدره قبل قليل حل محلها حجر.

- آخر مرة؟

- آخر مرة.

ورفع ذراعيه كأنهما ثقيلتان ثم وضعهما فوق كتفى الفتاة، وقال فى هدوء.

- لا أظن أنك تتركيننى هكذا.

ونظرت إليه الآن بعينين وجلتين، خائفتين ملؤهما الألم.

- أنت كنت تعرف ذلك دائمًا، أحدنا يجب أن يرحل.

فقال وعيناه فى عينى الفتاة.

- كلا. لم أكن أعرف ذلك مطلقًا. لم العجلة؟ لماذا ترحلين؟

وجذبها نحوه وأدرك مدى خوفها وقال لنفسه: "هى خائفة منى". وضغط أسنانه ثم انصرف عنها.

- أو لعلك لم تخبرينى بكل شىء.

فقالت:

- أنا لا أريد أن أكون عشيقتك.

وبدا له أنها تبتعد عنه، وتصبح غريبة.

- أنا لم أطلب منك أن تتزوجينى أمام الشيطان.

وبعد لحظة تردد أضاف يقول:

- وإنما أمام الله

- الآن أنا عشيقتك.

صرحت بها ثم انطرحت على بطنها فوق الصخرة وهى تبكى.

- ماذا أستطيع أن أصنع؟

كانت تنتحب كطفلة صغيرة.

- لا تبك. أنت تعرفين أننى أحبك. سنرحل معًا إذا أردت.

فكفت الفتاة عن البكاء ورفعت رأسها وقالت:

- نرحل؟ وأين نذهب؟

- حيث تريدين. لكن ليس هناك ما يضطرنا إلى العجلة. الوقت أمامنا.

- هل ستترك بيتك وتهجر ألينا؟

- أهجرها إذا أردت. فألينا لا تهمنى فى شىء. فحينما مات أبى كانت تضحك علىّ لكى أنام معها. كنت غراً صغيراً فى ذلك الوقت. كانت تريد أن تجعل منى سيداً للمزرعة. فلا تلومنّ إلا نفسها!

فحولت الفتاة وجهها، وهمهمت قائلة:

- أنت برجل عرجاء، وأنا لا أحب أن أسير بين الناس معك.

فقال وكأنما يحدث نفسه:

- رجل عرجاء، رجل عرجاء. ثم توجه ناحية المركب وهو يبالغ فى عرجه ونظر إليها وقال:

- الوداع!

وجذب حبل المركب وانتظر. فدمدمت تقول:

- لا تذهب. انتظر.

فاستدار نحوها، فقالت:

- هل تحب أن ترى صيدى. سأنتظرك.

وحينما عاد، كانت كارينا لا تزال جالسة فى المكان نفسه. ولاحظ أنها كانت تبكى. وقفز إلى الأرض، لكنه ترك سلة السمك فى المركب. وقال:

- أنت اصطدت أكثر منى.

ثم جلس.

وبعد لحظة لم يستطع أن يملك نفسه، فقال وهو يضرب الصخرة بقبضته:

- أنا لا أفهمك مطلقًا. هل قلت لى كل شىء؟

فأجابت وهى تنظر إليه فى هدوء:

- أنا قلت لك كل شىء. تعال.

فجلس عند قدميها واستند على ركبتيها. وجعلت تداعب شعره. وقالت:

- لا تفهم خطأ. إنس كل شىء.

فتنهد ووضع رأسه على صدرها وقال:

- يجب أن أفعل شيئًا. نحن سنذهب إلى المدينة، وسأبحث عن عمل فى أحد المصانع. سأسافر وحدى أولاً ثم تلحقين بى. سأستأجر حجرة وأرتب كل شىء، حتى إذا جئت يكون كل شىء على ما يرام.

فأومأت الفتاة بالإيجاب.

- من الأفضل أن نرحل من هنا. فى المدينة، لا أحد يعرفنا. هناك الناس متساوون. ويمكننا أن نكسب فى المصنع أكثر مما نكسب من المزرعة. هذا شىء معروف.

وانتظر حتى تقول كارينا شيئًا، لكنها كانت تكتفى بمداعبة شعره.

- سنرسل أبناءنا إلى المدرسة ونجعل منهم أناسًا محترمين، نعم، سنفعل هذا كله.

وندّت عنه ابتسامة. كان يعتقد فى كل ما يقول.

- سنفعل هذا كله.

- أنا سمعت أنهم أغلقوا مصانع كثيرة فى المدينة. فليس هناك أى فرصة للعمل إلا لمن يتقن مهنة. ثم إنهم يفضلون النساء لأنهم يدفعون لهم أقل.

كانت الفتاة تكلمه مثلما تتكلم أم مع ابنها، فشعر بالخجل.

- لا تقلقى. سأعرف كيف أضمن لك المعيشة الكريمة حتى لو اضطررت إلى كنس الشوارع.

فأومأت بالإيجاب

ثم نهض مرة واحدة وقال:

- يمكننا أيضا أن نبقى هنا. فأنا عندى منزل:

- وألينا؟

- ألينا كبرت، ويمكن أن تموت. وقريبًا. ولن يلاحظ أحد ذلك.

- لا.

- من أجلك، أفعل ذلك.

- لا، إياك أن تفكر فى هذا. ألينا لم تؤذ أحداً. وهى تحبك.

- تحب. لم أطلب منها ذلك.

ونظرت إليه الفتاة. وبدا عليها عدم الارتياح. فقال:

- حسنًا. لن أفكر فى ذلك.

فاقتربت منه كارينا فجذبها وقبلها. ولم تقاوم. وفقد هدوءه. كان خائفًا. فقالت له:

- والآن، اذهب. فهم ينتظروننى فى البيت.

فقال:

- لن نفترق أبدًا.

- اذهب، يجب أن أسرع.

وذهب إلى المركب ودفعها إلى الماء، وجلس على المقعد. ولما وجدت الفتاة أنه جالس دون حركة صاحت به قائلة:

- لن آتى غدا. اذهب الآن.

حينئذ شرع يجدف.

***

وترك سلة السمك بالقرب من الحاجز ودخل. كانت "ألينا" لا تزال فى الحظيرة. وكانت فناجين القهوة لا تزال فى مكانها فوق منضدة المطبخ وخلية من الذباب تدور حول سبت الخبز. وجعل يذرع المكان جيئة وذهابًا من المطبخ إلى الحجرة ومن الحجرة

إلى المطبخ. ودقت ساعة الحائط القديمة سبع دقات معلنة الساعة السابعة. كانت "ألينا" فى الحظيرة منذ أكثر من ساعتين فى حين كان كل شىء، فى العادة، ينتهى فى أقل من ساعة. وتوقف. وبدأ يفكر. وانتابه شك أسود. كان عشية أمس قد أعد حاجز المرعى هناك حيث من المفروض أن يسوقوا الماشية لترعى فى الصيف. ولم يكن قد سأل "ألينا" عما فعلته خلال ذلك الوقت. ولعلها تعرف أكثر مما تظهر. كارينا تعتبر طفلة صغيرة، لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ومن السهل تخويفها. ومع هذه العجائز لا نعرف شيئًا. يبدو عليهن البلاهة وهن يستجدين الحب، ولكنهن فى السر قادرات على ارتكاب الكثير من الحماقات.

وتوقف لينظر إلى السرير الكبير فى ركن الحجرة. سرير عرسه. وتخيل فيه العجوز الشمطاء "ألينا" ببشرتها المترهلة وشعرها المنكوش، وعينيها عينى السمكة. شىء فظيع. وعاد وذهب إلى المطبخ وتوقف بجوار النافذة. وربت بيده حافة المنضدة. ينبغى عليه أن يضع النقاط على الحروف. وإذا كانت ألينا تعرف كل شىء، فيتعين عليها أيضًا أن تعرف أنها من الممكن أن تلقى مضايقات ولذلك فهى تحوم حول الحظيرة. وزيادة على ذلك؛ فليس هناك ما يستوجب شكواها، هذه العجوز، فهو لم يقل لها فى حياته شيئًا يسؤها.

يجب عليها أن تكون راضية. ولا تطمع فيما هو أفضل. ولم يكن من السهل عليها أن تهتم وحدها بأمر المزرعة. على أى حال، لم تذهب "ألينا" إلى حقل الكتان أمس. فالأعشاب الضارة لم تنتزع منه بعد. لاحظ ذلك وهو عائد من المرعى. ربما تكون قد ذهبت إلى حقل اللفت، ربما لم تكن "ألينا" قد ذهبت لزيارة "هيتو". فربما يكون "هيتو" العجوز هو الذى جاء وظلا طوال الوقت يتحدثان فى كل شىء. ولعل العجوز يكون قد فهم، فكارينا ما زالت طفلة ولا تعرف الكذب. وهى صريحة شفافة كماء النبع. "هيتو" و"ألينا" عجوزان، حزمتان معًا ولا أحد يدرى ماذا يمكن أن يدبرا من حماقات ويحيكا من مؤامرات. لكنه لن يدع كارينا تفلت من يديه.

قالت: إنها لن تأتى غداً؟ قالت: إنها لن تأتى أبداً؟

وضرب المائدة بقبضة يده للمرة الأخيرة وعاد إلى الحجرة. مرة أخرى صدمه منظر السرير. وتخيل كارينا فيه، بجسمها النحيل وصدرها الرقيق، وشعرها وعينيها. كان يود أن يصرخ، لكن لم يخرج من حلقه أى صوت.

وسمع وقع أقدام على السلم. "إنها قادمة". واقترب من منضدة الحجرة الكبيرة وجلس. "من الأفضل ألا ترى وجهى مباشرة. وإلا أدركت كل شيء"، ووضعت ألينا الدلو على السلم ودخلت المطبخ. ووضعت جرّة اللبن على المائدة، وتوجهت نحو الفرن، وحركت الأطباق. وقال هو:

- السمك كثير اليوم.

- نعم، يعنى.

من المستحيل أن نأخذها على غرّة.

- فى يوم من الأيام المقبلة، سآخذ الشباك إلى الخليج. فالجو الرطب لن يلبث أن ينقضى وأنا لا أستطيع أن أظل كل يوم أجدف حتى كونينسالمى.

- آه، صحيح؟

- على أى حال، الخليج أيضا مكان طيب للصيد. ما رأيك؟

- أنت تعرف ذلك أفضل منى.

"من المستحيل أن نأخذ منها أى معلومة. لا بد من مواجهتها بالأشياء".

ونهض وتقدم نحو باب المطبخ ببطء.

كانت "ألينا" تهم بإشعال الفرن.

- مكثت فى الحظيرة وقتاً طويلاً اليوم.

ولم تلتفت "ألينا" إليه.

– لقد سقت الماشية إلى المرعى. قلت إن من الأفضل أن أقوم بذلك من الآن. فقال:

– حسنًا، حسنًا!

– الآن، يجب أن أذهب أبعد من ذى قبل لكى أحلب الماشية.

ثم التفتت إليه. وتطلعت إليه فى بلاهة بعينيها، عينى السمك، اللتين يقرأ فيهما الفضول، إن لم يكن الخوف. فقال لها:

– لا تزال توجد مياه كثيرة هناك.

قالها بطريقة ليثبت لها أنه لم يكن يمزح.

– هل نزعت الأعشاب الضارة من حقل الكتان حينما كنت أنا فى المرعى؟

فأجابت بصوت حاسم.

– كلا. كنت أنسج. يجب أن يكون كل شىء معداً قبل أن نجمع التبن.

وألقى نظرة على النول فى أحد أركان الحجرة الكبيرة. لعلها كانت تنسج، ولعلها لم تكن تنسج. لكنها ليست بلهاء كما يبدو عليها. كانت تعرف شيئا وينبغى أن أستوضح الأمر.

وقالت له:

– اذهب ونظف السمك، وأنا سأقوم بإعداد الحساء.

فاقترب من الفرن ومال عليها ثم قال:

– كلا، لن أذهب لتنظيف السمك.

وفيما كانت تمسك بالسكين وتشرع فى تقشير البطاطس أردفت قائلة:

- أرجو ألا تتجول فى القرية وتتدخل فى شئون الآخرين.

فصرّ هو على أسنانه وقال بصوت حاسم:

- لا أظن أننى أتدخل فى شئون أحد. كنت مع امرأة أخرى.

فقالت "ألينا" فى هدوء وهى تشيح بوجهها ببطء:

- أوه!

فقال لنفسه: "لعل العجوز لا تعرف شيئًا تلومنى عليه"؛ لكنه فى الوقت نفسه، لاحظ أن ألينا امرأة عجوز. نحيفة، بشرتها صفراء وهو يبغضها.

- هل تتصورين أننى سأظل أنام معك طوال حياتى؟ هذا وضع يبعث على الضحك. من المفروض أنك تخمنين ما يمكن أن يحدث. وإذا كان هذا لا يروق لك، فمن الممكن أن أذهب.

واستمرت "ألينا" فى تقشير البطاطس.

- إلا إذا وجب علىّ أن أنتظر حتى تموتى وتدفنى؟

خرج ذلك على الرغم منه. ولقد فزع لذلك ثم لزمت الصمت. وتوقفت يدا "ألينا". كانت فى إحداهما حبة البطاطس وفى الأخرى مقبض السكين. وتأملت السلطانية. وفاضت عيناها بالدموع.

- ألينا!

لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك.

وخرج على الفور وقد استشعر عرجه.

"يا الله، ليست كارينا سوى كائن بشرى، لا تعرف شيئا. لكن لن أترك كارينا ترحل. آه! تموت ألينا...".

ولكن لا يحق للمرء أن يقول للعجوز أنت ستموت ولا للأعرج أنت أعرج.

وتوجه ناحية الحظيرة وشد الفرس إلى العربة، "حقل البطاطس يجب أن يحرث. وألينا تبكى. وهى لم تؤذ أحداً. خذها يا الله! كارينا أيضا كانت تبكى".

– شِي، أيتها الفرس، شِي أيتها الجميلة!

"لماذا بكت الصغيرة؟ لعلها لم تقل له كل شيء؟ لعللها تنتظر وليداً؟ على أى حال، هذا الوضع لن يستمر طويلاً، فالصغيرة لم تخلق لتكون عشيقة. لكن "ألينا" لم تسعد كثيرا فى حياتها، هى أيضًا، لم تنجب أطفالاً ولن تنجب أبداً.

– شِي، يا حلوة، شِي!

وألهب البهيمة بالعنان. فتراجعت الفرس وانفصل طقمها، ودارت نصف دورة وهى تدوس خطوط المحراث. فعاد يلهبها بالسوط مرة أخرى وقد ثارت أعصابه.

– دع هذه البهيمة فى حالها!

والتفت نحو الصوت فإذا العجوز هيتو على حافة الطريق.

– دع هذه الفرس. فليس الخطأ خطأها.

فسأله بأسلوب همجى وهو يضغط على العنان:

– أنت جئت هنا لتشم الهواء أم عندك شيء تقوله لى؟

فأجاب العجوز قائلاً:

– أظن أن لدينا، أنا وأنت، ما يقوله كل منا للآخر. اترك الفرس فى مكان آخر لكى لا تدوس خطوط محراثك.

- أنا أسمعك.

- أنا أحمل لك رسالة من ابنتى كارينا. لقد أوصلتها إلى الحافلة الآن توًا. فقد رحلت.

فقال بابتسامة صفراء:

- لا أظن أنها ابتعدت حيث لا أستطيع أن أقتفى أثرها.

فانقبض وجه العجوز، وضاقت عيناه وقال:

- لقد كلفتنى أن أقول لك إنها لا تريد أن يحوم حولها أعرج.

- كذاب!

- إذا كنت أكذب، فأنا أتحمل مسئولية كذبى. عندى أربع بنات ولا واحدة منهن تؤخذ عنوة.

- تحسن صنعا إذا غربت عن وجهى.

فقال العجوز:

- طيب!

ثم أضاف وهو يلتفت إلى الآخر:

- مهمتى انتهت.

***

وربط الفرس فى الحاجز ثم عبر القناة. وكانت ألينا واقفة فى منتصف الفناء. وكانت قد سمعت كل شىء. فألقى عليها نظرة ثم دخل البيت.

كان قد انطرح فوق السرير حينما جاءت "ألينا" وجلست على رأسه وهى مترددة.

- أنت لن ترحل، على ما أظن؟

- يجب أن أرحل.

- لا ترحل.

ونهض ومر من أمامها واتجه نحو النافذة.

- لا ترحل بحثًا عن كارينا، وابقيا أنتما الاثنان.

- لا ينفع.

فقالت ألينا:

- يمكنكما أن تتزوجا. أنا ارتكبت خطيئة حينما جئت بك فى فراشى. حينما جئت أنت هنا كنت طفلاً صغيراً، يتيما، فشعرت نحوك بالحنان. تستطيع أن تذهب إلى المدينة مع كارينا أو تأتى بها هنا. يمكن أن تطلقنى وتعيش أنت وكارينا وتتزوجا؟ وأنا أبيع لك المنزل.

ولزم الصمت.

- ليس لى أبناء وقد أحببتك كأنك ابنى. كانت خطيئة.

وبكت "ألينا" فى هدوء. ونهض وهو ينظر من النافذة إلى العربة المحطمة، والطقم المفصول عنها والفرس التى تدلت كمامتها. هل كان ذلك عمل يده؟

وجعلت "ألينا" تندب حظها وتقول وهى تميل ذات اليمين وذات الشمال:

- لقد ارتكبت خطيئة، لقد ارتكبت خطيئة.

- أوه! اسكتى، سآتى بكارينا إلى هنا.

فنهضت "ألينا" وقالت:

- سأذهب لتنظيف السمك.

واجتازت الحجرة وهى تجرجر قدميها، ودخلت المطبخ. وسمع الباب يصفق ورأى "ألينا" تجتاز الفناء حاملة سلة السمك وعيناها مصوبتين نحو الطريق الذى انخرط فيه العجوز هيتو. وفكر أن يسافر غداً ويعود. غير أن طعم الخجل كان يثقل لسانه.

***

مرض الورق

تأليف: إيرو تولفانين Eero Tolvanen

من فنلندا

كُنت فى قمة الإرهاق بسبب ما قمت به من أعمال استمرت عدة أيام، وذلك قبل أن أستقل قطار الليل لأعود إلى بيتى. كان مطر الخريف ينزل خفيفًا . وفى العادة تخلو الرحلة من أى لون من ألوان التسلية. وفضلاً عن ذلك، فقد تأخر القطار تلك الليلة، وكنا بعد منتصف الليل حينما خرجت من محطة القطارات مع جمهور الركاب شبه النائمين. ولم أحاول أن أقف فى طابور المنتظرين لسيارات الأجرة، وإنما قررت أن أعود إلى البيت سيرًا على الأقدام. فرفعت ياقة معطفى، وانخرطت فى شارع الميناء الطويل.

وظهرت على الطريق الخالى سيارة شرطة، واختفت أشبه بقط كبير أسود. وغشيت المدينة سحابة من الغيوم تحمل رائحة زنخ غريبة. وحثثت الخطى فى لهفة للوصول إلى حجرتى وفراشى. كذلك كنت أسرع لكى أبتعد عن هذه الغيوم الغريبة التى بدأت رائحتها المقرفة تضايقنى.

كانت تلك الرائحة نفاذة، حيث حينما فتحت باب البيت تخيلت أن ثمة نارًا فى مكان ما، ولكننى حينما بلغت الطابق الأخير ودخلت شقتى الصغيرة، لم أفكر إلا فى

النوم. وبعد أن خلعت حذائى وربطة العنق، تمددت وأنا فى كامل ملابسى تقريبًا فوق الفراش، بنية أن أستريح قليلاً. لكننى نمت على الفور من شدة الإرهاق.

وأفقت من نومى مع شعور بالضيق لأننى نمت أكثر من اللازم. وحينما غادرت الفراش وأنا أتثاءب وأبحث عن الحذاء فى الحجرة، انتابنى شعور بوجود شىء غريب فى الحجرة. وتبدد النعاس على الفور. شىء غريب، وقد يكون خطيرًا . أعرف ذلك، ولكن ما هو؟ وفتحت عينىّ على سعتيها وتطلعت حولى بكل انتباه ودقة. كان أول ما رأيت هو كومة من الرماد الأسود فوق الأرض. فتطلعت إلى الجدران؛ فإذا بها مخططة بخطوط طويلة من الرماد الأسمر.

كتبى! أين ذهبت كتبى؟ فقفزت متنقلاً فى الحجرة، فإذا بطبقة كثيفة من الرماد تغطى أرفف الكتب. وأزحت كومة من الرماد فرأيت تحت أصابعى جلدًا طريًا؛ هى كل ما بقى من أغلفة كتبى ذات العناوين الذهبية. وفى غمرة ذهولى جلست أفكر. حينئذ استطعت أن أميز الرائحة الغريبة المقرفة التى شممتها بالأمس. مكتبتى الجميلة كلها تحولت إلى رماد. فالتفت فجأة نحو المكتب فلم أجد عليه أى ورق، وإنما أكوام من الرماد. وأدخلت يدى بطريقة تلقائية فى جيب داخلى فوجدت حافظة نقودى. ففتحتها فماذا وجدت بداخلها؟ الأوراق التى كانت فيها تحولت إلى قبضة من ذلك الرماد الرهيب. كان الشهر قد بدأ قبل أيام. لقد اختفى راتبى المكون من أوراق مالية كبيرة مع أوراق أخرى مهمة.

وكنت مازلت مذهولاً مما تكشف لى من أمور، حينما سمعت ضجيجًا يعلو فى الشارع ويتصاعد أشبه بالزمجرة الأولى التى تسبق العاصفة. وفتحت النافذة فتسربت إلى حلقى هبّة أشد من تلك الرائحة التى أصبحت مرتبطة فى ذهنى بالدمار الذى أصاب أوراقى وبكارثة مهولة. ورأيت فى الشارع وجوهًا مصوبة نحو السماء وسمعت همهمات أصوات مختلطة غامضة، ثم سمعت صراخًا هستيريًا يقول:

– هذه نهاية العالم!

وأعتقدت لحظة أننى فقدت صوابى.

وأسرعت بحلق لحيتى، وارتداء ملابسى وخرجت. كانت الوجوه قلقة فى كل مكان والناس لا يفتأون يوجهون الأسئلة نفسها:

– ماذا جرى؟ ما معنى هذا؟ ماذا سيحدث لنا؟ هل هى الحرب البكتيرية؟

ولم تتلق هذه الأسئلة أجوبة عنها.. كل ما كان يعرفه الناس هو أنه فى الساعات الأولى من الصباح، الأوراق، كل أنواع الأوراق تحولت فجأة إلى رماد، فى حين انتشرت رائحة كريهة فى الهواء. وأصبح الخوف مما يمكن أن يحدث يفزعنى أكثر من الدمار الذى أصاب أوراقى المالية والأوراق المهمة والكتب.

وتجمهرت جماعات ملهوفة أمام المحال. كان بعض التجار قد فتحوا محالهم، وكان بعض الآخر يسدلون الستائر. وكان كل شخص يعبّر عن هلعه ومخاوفه. واقتصرت النقود المستعملة على العمْلة المعدنية، ولكن حينما تنفد سيصاب الناس بالخراب، لأن القوة الشرائية انتقلت إلى أيدى التجار. فى عصر أصبحت فيه قيمة الأشياء فى الورق، فإن المشترين مثل البائعين يصعب عليهم إدراك معنى هذه الثورة المالية. كانت هناك فرق من الشرطة تعمل على حفظ النظام أمام محال البقالة ومنتجات الألبان حيث كانت أمهات الأطفال الرضع يقفن فى صفوف مهددات؛ محاولات الحصول بأى طريقة على ما يحتاجه أبناؤهن من الحليب.

وحينما كنت أمر بمحل للبقالة، كنت أجد بدلاً من الأكياس والعبوات الورقية طبقات من الرماد الأسود. عبوات السكر والبن والأرز والمكرونة والبسكويت، كلها صارت مغطاة بالرماد. العلب المعدنية فقط والزجاجات نجت من هذا المصير الأليم

وبقيت مصفوفة فى تناقض مثير مع الأرفف الأخرى. وفى إحدى المكتبات كانت الظاهرة أغرب، فقد برز بعض زجاجات الصمغ وبعض الأدوات البلاستيكية وسط مستنقع كريه الرائحة من الكتب التى تحولت إلى رماد.

وعلى شاكلة الكثيرين غيرى، رحت أهيم على وجهى بلا هدف، فريسة للخوف وللفضول.

وسمعت بعض الملاحظات فى الشارع من أشخاص لا يعرف بعضهم بعضًا.

– كم أنا مستعد لأن أدفع نظير سيجارة واحدة! جيبى ملىء بالتبغ ولكننى لا أدخن الغليون.

وأعرب آخر عن مخاوفه قائلاً:

– ماذا سنصنع مع الأطفال؟ دون كتب وبدون ورق، المدارس ستغلق أبوابها.

وعلق ثالث قائلاً:

– الحكومة ستضطر إلى توزيع حصص من المواد الغذائية.

فردّ عليه آخر:

– الحكومة لن تفعل شيئًا. فدون ورق، ستصاب بالشلل.

ثم لمحت ليلى، فتلاشت الأصوات من حولى فى همهمة غير واضحة. لاحظت فجأة شعرها الذهبى وسط جمهور مظلم، فى مفترق طرق. فغشانى شعور حار ومطمئن. ليلى! شىء واحد لا يزال له قيمة وهو أن ألحق بليلى. وقد استعملت يدى ومرفقى للوصول إليها.

لم يكن من السهل الوصول إلى منزلها. ومع ذلك فقد بلغناه وجلسنا فى هدوء. ولم يعد الوضع يؤرقنا. فقد ظللنا نتحدث فيه طوال الطريق. والآن بين هذه الجدران

الأربعة، نشعر بأننا فى أمان. شعرت بذلك فى قرارة نفسى ولاحظت انعكاس هذا الانطباع على وجه ليلى.

لقد تعرفنا ذات مساء، بمحض المصادفة، قبل شهرين ولكن كان يبدو لنا أننا نعرف بعضنا منذ نعومة أظافرنا.

وبقى علينا أن نرتب فضاءنا الحيوى خلف هذه الجدران ولم يكن الأمر سهلاً، لأن الورق كان يجعلنا نسعل ونعطس. وكانت خدمات المياه والكهرباء تعمل وكذلك الإذاعة. وكنا قد نسينا هذا حتى أدرت زرار المذياع. فسمعنا رسالة مسجلة تقول فى هدوء: "... ساعد نفسك وساعدنا بالسيطرة على مخاوفك. بلدنا ليس البلد الوحيد الذى أصيب بهذه الكارثة. العالم كله يناضل من أجل التغلب على هذه المشكلة نفسها...".

وظلت هذه الدعوة إلى الهدوء والنظام تتكرر كل فترة بانتظام، بين نشرات أخبار والإعلانات. لقد قامت الدولة بالاستيلاء على جميع الخدمات الخاصة بالتموين بدءًا من المواد الغذائية. وألغيت الإجازات بين أفراد الشرطة والجيش. وأعلنت حالة الطوارئ فى جميع القطاعات المدنية. وتوقفت وسائل المواصلات على الطرق والسكك الحديد إلى إشعار آخر. باستثناء مركبات الشرطة والجيش فهى تتحرك بحرية تامة. وتم الاستيلاء على جميع احتياطى المعادن الثمينة. وبدأت مصلحة صك العملة تعمل ليل نهار فى إصدار عملات معدنية جديدة.

وعكس فيض المعلومات والأخبار حقيقة الوضع العالمى. لقد انقض " بَرَصُ " الورق على الكرة الأرضية بأسرها. والعلماء يعملون ليل نهار ولكن دون جدوى بحثًا عن سبب هذه الظاهرة.

ولم تقف التكهنات حول هذا الموضوع عند حد. فهل نتجت الكارثة بسبب إشعاع جديد جاء من الفضاء؟ ورأى علماء آخرون افتراضات مختلفة تمامًا. وحاول العلماء فى جميع البلاد صناعة ورق آخر أو مادة مشابهة لا تتأثر بالقوى المدمرة.

وفى انتظار ذلك، اقتصرت المكاتب فى العالم أجمع فى مواصلة أنشطتها على الاتصالات الهاتفية. مما أسفر عن ضغط هائل على الأجهزة وتأخير فظيع فى المكالمات وفوضى رهيبة. وأصبحت ملايين الآلات الكاتبة راقدة فوق المكاتب. ولم تعد البرقيات تستعمل. وتحول كل شىء مكتوب إلى رماد، وأصبح جميع الموظفين الذين يتعلق عملهم بالورق بلا عمل بين يوم وليلة وأصبحوا يشكلون عيناً وطاقة ضخمة غير منتجة.

ولم يعد أحد يحمل بطاقة هوية، واختفت شهادات الميلاد وغيرها من الوثائق الرسمية والقانونية. وأصاب الشلل السلطة التشريعية فى العالم أجمع. وتحولت الملفات البنكية إلى رماد، ولم يعد هناك وجـــود لتجارة المـــال والأسهم، واختفت أوراق العملة والصكوك والأسهم وشهادات القروض الوطنية والخاصة، وكذلك العقود والإيصالات والاتفاقات والوصايا والإحصاءات والمعاهدات والتقويم والسجلات والكتاب المقدس.

كنت أنا وليلى موظفين فى مكتب. ولم يعد من المفيد أن نذهب إلى مكان عملنا كما جاء فى التوجيهات التى أعلنها المذياع. لم يعد المال يهمنا، لأننا لم نكن نملك أى عقار؛ ثم إن الآخرين فقدوا هم أيضاً رواتبهم ومدخراتهم. شىء واحد أصبح هو المهم: الغذاء. كانت المؤن الموجودة عند ليلى موزعة بدقة تكفى ليومين أو ثلاثة. وقررت أن أذهب إلى بيتى قبل حلول الليل لأحضر ما عندى من مؤن.

كانت الشوارع لا تزال ملأى بالناس، ولاحظت أن العديد من المحال التجارية قد فرغت من السلع. كانت الوجوه عابسة والغضب فى كل العيون. كما علمت أن الشرطة أطلقت النار على المواطنين الذين حاولوا السفر إلى الريف وأن أستاذاً جامعياً معروفاً انتحر حينما رأى إنتاجه العلمى يتحول إلى رماد. وأن مليونيراً لم يستطع أن يعيش بعد ضياع ثروته وأن رجلاً رقيق الحال ربح الجائزة الكبرى فى مسابقة اليانصيب ولم يتمكن من تسلمها فمات من فوره.

في اليوم التالى جلست أنا وليلى فى النافذة وقضينا ساعات نراقب الناس. كانوا منهارين تمامًا. وإعلانات الإذاعة عن نية الحكومة فى توزيع المؤن لم تطمئن الناس، لأن هذا التوزيع كان لمدة ثمانى وأربعين ساعة.

وبدأت الاضطرابات نحو الظهر تقريبًا. فسمعنا تحطيم زجاج، تهشمت واجهة زجاجية كبيرة فى الشارع وشاهدنا الجماهير تجرى والشرطة وراءها. ثم سمع تدمير زجاج آخر في الشارع. وراحت واجهات محال الأغذية تتحطم الواحدة تلو الأخرى تحت وابل من المقذوفات، وبدأت عمليات النهب والسلب.

ورأيت رجلاً ضخمًا فى بزة عامل يخرج من محل جزارة حاملاً ربع عجل على ظهره؛ وما كاد يجتاز عتبة المحل حتى هجم عليه زمرة من الجماهير وحاولوا انتزاع اللحم منه. فما كان من الرجل إلا أن استخدم اللحم فى الدفاع عن نفسه وراح يدور بها محاولاً إبعاد الناس غير أنهم تكاثروا عليه ولم أعد أرى سوى ملحمة همجية وأجسام متلاحمة.

وما هى إلا ساعة من الزمن حتى سلب جميع المحال. فما أن نفدت السلع التموينية حتى توجهت الجماهير إلى المحال الكبرى. وبدأت الشرطة تضع المتاريس وسمعت الطلقات النارية.

وما أن حل المساء، حتى كانت الشوارع قد خلت تمامًا. وتمكنت السلطات الحكومية من إقرار النظام. وشوهدت المصفحات تتخذ مواقعها فى الشوارع الرئيسية والميادين. وجعلت دوريات من المسلحين بالرشاشات من راكبى الدراجات البخارية تجوب الشوارع المهمة التى خلت من المارة وأصبح يغطيها حطام الزجاج.

فى تلك الليلة، وبعد أن أوصدنا الباب الخارجى وحصنّاه بالمتاريس، ظللنا ننتظر طلوع الفجر ونحن جالسان، فوق الفراش.

وأفقنا من النوم فى الصباح على ضجيج مركبات ثقيلة. ولمحت من النافذة بعض الجنود بخوذاتهم يعالجون مدفعا رشاشًا فى ركن الشارع. كما شهدنا بعض الفنيين يثبتون مكبرات الصوت على واجهات المنازل. ولم يكد فى الشارع أحد سوى الجنود.

وأدرت زرار المذياع. فإذا بالآتى:-

"... وبناءً على هذه التعليمات. سيقوم كل منزل باختيار من ينوبون عنه، وسيقوم هؤلاء باختيار رئيس لهم، وسيجتمع هؤلاء الرؤساء بدورهم من كل حى من أجل تنظيم عملية توزيع المؤن. وسوف تحدد أماكن الالتقاء فيما بعد".

وسمعت هذه التعليمات تتردد فى الشوارع بواسطة مكبرات الصوت. وأما الأخبار الخارجية فكانت تتحدث عن اضطرابات وأعمال تمرد فى العالم أجمع. وقد عانت المدن الكبرى أكثر من الصغرى. وأعقبت هذه الأخبار نصائح عملية وتوصيات وتحذيرات وتهديدات موجهة إلى من يقومون بعمليات السلب والتمرد.

أما فى مدينتنا، فقد سمح إصدار عملات معدنية جديدة باستئناف النشاط فى التجارة والصناعة، ووضع حد لقانون الحرب وإنهاء الاضطرابات التى أصابت الخدمات العامة.

أما التجارة العالمية، فقد احتاجت إلى وقت أطول لاستئناف عملها، نظرا للدور المهم الذى كان يلعبه الورق فى الماضى فى التبادل التجارى. فى البداية، سجلت الاتفاقات الجديدة بالطباشير على ألواح الإردواز أو بمسامير محمية بالنار على صحائف بلاستيكية؛ ثم صورت النصوص وأرسلت نسخ النيجاتيف إلى المتعاملين.

واتضح الآن أن تسجيلات الميكروفيلم هى أعظم الذخائر الفكرية للإنسانية. ولقد أصيب العلوم والقوانين بأفدح الخسائر بسبب اختفاء الورق. أما فى مجال الفنون فقد تبين أن ما أصاب التصوير كان أقل فداحة مما أصاب الأدب، فى حين أن التسجيلات الصوتية أنقذت الموسيقى من هذا الخطر.

ومرت الأيام. واحتفلت مع ليلى بزواجنا . ولم يتم إثبات عقد قراننا بقانون، وكذلك زواج الآخرين. وفى هذه الظروف الجديدة أوفى بعض بعهودهم ونكث آخرون. أما النساء فأصبح بإمكانهن تحديد سنهن كما يحلو لهن أمام المرآة.

أجل، لقد وقعت أحداث مهمة خلال هذه الأيام. ثم هدأت العاصفة. ولم أعد أستطيع أن أسجل أى أفكار فى مذكرة. فبعد أن أصبح الطباشير وألواح الإردواز أدوات لا غنى عنها فى البيت، فقد خصصت لأهداف أنفع. ومع أن الحياة عادت محتملة مرة أخرى، إلا أنه ظل هناك فراغ كبير يحتاج إلى ملء، فلم يعد لدينا ما نقرءه، وأصبحت هناك شوق ولهفة للقراءة التى أصبحت مستحيلة. وبدأ عصر ذهبى جديد للرواة. تكونت جمعيات وأندية للنشر الشفاهى للنصوص الأدبية، والقصائد الشعرية والتاريخ وغير ذلك من علوم التربية التى كانت فيما مضى تتحول إلى حروف طباعة فوق الورق.

واكتسب المذياع أهمية قصوى، واحتل مكانة عالية فى الحياة البشرية. وشهد العصر أيضًا بعث الفنون الشفاهية وأصبحنا نستمع إلى الخطب فى الشوارع وفى الميادين وفى الأسواق وفى القاعات العامة.

وذات يوم، اكتشف أحد العلماء طريقة لصناعة ورق يقاوم التلف ويقاوم المرض الذى قضى على كنوز الثقافة العالمية. قوبل ذلك فى البداية بالريبة والشك. بل إن المولين رفضوا ذلك تمامًا. غير أن المخترع استطاع أن يثبت صحة ادعائه. حينئذ سارعت الحكومات بإنشاء مصانع للورق بالسرعة نفسها التى كانت تصنع بها فى الماضى احتياطى الأسلحة والقنابل. وجعلت الآلات الجديدة تدور ليل نهار مستخدمة مليارات الأطنان من المواد المطبوعة من أجل ملايين الناس الذين لا يريدون إلا شيئًا واحداً "القراءة".

وأصبح الطلب على ورقة الكتابة يوازى الطلب على ورقة الطباعة، وذلك لفترة من الوقت. فقد كان الجميع يريدون أن يكتبوا أى شىء لأى أحد أو ليس لأى أحد، فهل عرف العالم مثل هذا العدد من الكتّاب؟ من حسن حظ الإنسانية أن مكتبات الميكروفيلم لم تصب فى الكارثة.

والآن، هل تعلمنا شيئًا من مرض الورق؟

كلا. فها نحن مرة أخرى غارقون فى الورق.

***

أول الفصل

تأليف: أنطوان أنطوناكيس Antoine Antonakis

جان لوى بيار مات. سقط من ارتفاع خمسة أمتار على الأقل فوق أسفلت الفناء. لا أعتقد أن طفلا فى الحادية عشرة من عمره يمكن أن ينتحر.

(١)

غريب هو عنبر الأطفال. المصباح ينشر نوراً أصفر فوق أغطية الأسرّة الشاحبة. لا يسعنى إلا أن أفكر فى مدفن كبير مقابره صفت بدقة وهى كلها متشابهة، على الرغم من الأنفاس الرقيقة التى تملأ شبه الظلمة. أحيانًا، تصدر صرخة مبهمة أشبه بالتى كان يطلقها البشر البدائيون المفزوعون؛ وأحيانًا تسمع جملة كاملة غريبة غير متوقعة؛ ثم يخيّم الصمت من جديد... أو ينتصب طفل فوق فراشه ويحرك رأسه ويقول بصوت مرتفع:

– أستاذ! لا، يا أستاذ!

أو يقول:

– ماما.

ثم يعود إلى الرقاد ويغلبه النعاس على الفور.

كنت فى ذلك المساء أتبادل حديثًا لا أذكر موضوعه مع المراقب العام. وكانت الساعات قد مضت، ولكى أتجنب المرور بالفناء، ببرده القارس فى تلك الليلة من ليالى فبراير، فضلت أن أسلك طريق العنابر.

وفيما أنا متكئ فى أحد الأركان المظلمة، وقد استولى علىّ التأمل فى هذه الحياة الخفية الحافلة بالأسرار، رحت أتفكر. غريب عالم الأطفال هذا: وحوش، ملائكة؛ هذا تحدده الأحوال. وهو يستهلك الحياة ... هذا هو أحدهم ينتصب فوق فراشه. ألمح بغموض بقعة بيجامته البيضاء. وفى الطرف الآخر من العنبر يسعل صغير آخر فتختفى البقعة الشاحبة؛ ثم تعود للظهور، وتتحرك، كل ذلك فى سكون. شىء غريب. إنه يخلع البيجامة. يا إلهى، ويرتدى ملابسه! ويختفى الشبح لأقل ضوضاء. والآن ها هو ذا يتقدم، فألتصق أنا بالجدار. ولكى يصل إلى الباب، يمر الصغير من أمامى ... كل تلك الحيطة وذلك الحذر ليذهب لقضاء حاجته؟ لقد عرفته الآن. إنه "بيار" أول تلاميذ الفصل الذى أتولى تدريسه. لقد ارتدى ملابسه فعلاً: فلماذا؟ بل لقد زرّر سترته بكل عناية. وحمل حذاءه فى يديه وصرة ملابس صغيرة تحت إبطه اليسرى. ما معنى ذلك؟ ومر أمامى. فلاحظت أن شحوبه المعتاد قد ازداد. وتذكرت أن سلوكه فى الفصل أصبح غير عادى فى الأيام الأخيرة؛ إذ أصبح قليل الكلام، مع أنه معروف بالانفتاح. وفى مرات عديدة، شاهدته يبكى. وإذا سألته أجابنى بأن ذلك بسبب آلام فى أسنانه أو شىء آخر لا أصدقه. لقد تعودت على هموم الأطفال، هى ضخمة لكنها بلا سبب. ومع ذلك، حينما يتعلق الموضوع ببيار فينبغى أن أعرف الأسباب. فلعل هناك شيئًا خطيراً. عجبًا!

فى الواحدة صباحًا... بوابة الدخول تكون فى وضع لا يمكن معه اقتحامها، لكن الفناء مسوّر فى أقصاه بجدار بارتفاع مترين، يعلوه قضبان حديدية قوية، تُعد

بالنسبة لطفل رشيق ذى تصميم، سلماً حقيقيا.

وما أن فرغت من هذه التأملات، حتى كان بيار قد اجتاز عتبة العنبر، وأنا أتبعه على أطراف قدميّ. وكان المراقب يغط فى نومه داخل كبينته. وهبط الغلام السلم المظلم. وكان يستضىء بمصباح كهربائى يخفيه بأصابعه؛ يا له من تنظيم! وسمعت الباب أسفل يحدث صريراً خفيفًا.

(٢)

غريب أنه لا يتوجه ناحية الفناء، وإنما ناحية الفصول. وأدار مقبض الباب فى هدوء. آه! أنا آسف يا غلامى، لقد أغلقت الباب بالمفتاح بعد حصص المساء... وسمعت آهة تنم عن خيبة أمل وحزن. كان الجو بارداً، فرفعت ياقة معطفى. ينبغى أن أوقف هذه المهزلة. لكننى كنت فى حيرة. وخلع حذاءه الذى كان قد ارتداه. لم يكن هناك قمر، وإنما نجوم كثيرة. ومن مخبئى فى الظلام، لمحت بوضوح الغلام يرفع رأسه، وينزع سترته، ويتسلق كالقرد فتحة الباب المفتوحة. وقد أقلقنى ذلك قليلا. لكنه وصل، ومن مكانه أشعل مصباحه ثم أطفأه... وسمعت جلبة سقوطه فى الناحية الأخرى. وتقدمت نحوه وألقيت نظرة فى الداخل. وأعاد إشعال المصباح، وجعل يتحسس قليلاً؛ وها هو ذلك أمام دُرْجه فى الفصل. يفتش. وابتسمت فى الظلام، لأن النظام ليس الصفة الغالبة لأول فصلى. شعرت به نافد الصبر. وكتب على كراسة نقلها فوق مكتبى. وعاد إلى دُرْجِه حيث فتش من جديد ووجد ضالته. ومددت عنقى وحملقت بعينى؛ إنه دفتر الأناشيد الذى أعطيته له بمناسبة رأس السنة. دفتر كبير مجلّد بالورق المقوى. وبطريقة دائرية مسح الفصل بنور مصباحه الذى سلطه قليلاً على المكتب. حذار! وعاد من الطريق نفسه. بعد أن ارتدى حذاءه. وكانت أمامى دقائق لكى أتدخل؛ ففتحت باب الفصل ولم أجرؤ على إشعال المصابيح الفلوريسنت. بل أشعلت عود ثقاب. هذه

كراسته التى كتبت له فيها بالأمس:

"عملك غير كاف. ماذا جرى؟" مفتوحة على آخر صفحة مكتوبة. فقرأت:

"أستاذى العزيز روش،

(شطب روش ثم أعاد كتابتها فوقها).

ربما سأسبب لكم بعض المتاعب أو أغضبكم. لكن يجب أن أرحل بسبب أمى. سأشرح لكم. ليس لدى وقت. كنت أتمنى أن أودعكم.

إلى اللقاء يا أستاذى العزيز روش، تقبل خالص.

جان لوى

وفى غمرة عجلته، نسى أن يكتب "تحياتى". ودمدمت لأننى أحرقت أصابعى بالثقاب الذى استهلك، لكننى استطعت أن أقرأ أيضاً:

ملحوظة - **أعدكم بألا أرتكب أى حماقة.**

وخرجت، وسرت بخطوة واسعة حتى الفناء. هناك زرار يمكنه أن يشعل ستة مصابيح قوية بكامل نورها. ترددت أن أفعل ذلك وامتنعت. وعبرت الأسفلت. ضوضاء خفيفة جعلتنى أرفع رأسى. ها هو ذا، على الأقل على ارتفاع أربعة أمتار من الأرض، متعلقا بالقضبان أشبه بطائر أخرق. وجميع نجوم السماء من ورائه. وسمعت نفسه القصير. لو أننى أخفته لسقط على الأرض. هل أسعل؟ هل أنادى؟ هل أصفر؟ وجعلت أتطلع وأنا متردد، خياله الخفيف على الجدار يتحرك نحو السماء. وبكل رقة وهدوء همست بمطلع النوتة الموسيقية الخاصة بلحن "سوليكو"، تلك الأغنية التى علمتها له الشهر الماضى، والتى يحبها كثيرا. وعلى الفور تجمد الخيال. ولاح لى أننى أسمع قلبه الصغير يدق لحن الاستسلام، وتصورت شعره الرمادى يدور بقوة فوق رقبته لكى يتفحص جميع فتحات الظلام أسفل. بل لقد تصورت نقاط العرق التى تلمع على شفته

العليا على الرغم من شدة البرد؛ كما يحدث فى حصة التربية الرياضية. وظل بيار جامداً، لعله لا يريد أن يتخلى عن مغامرته بهذه السهولة. يريد أن يتم التسليم مع شروط الحرب المشرفة. ولا يريد أن يتنازل مرغماً. ورقّقت صوتى قائلاً:

– بيار.. انزل، هيا.

وحلّ صمتٌ لا يملؤه سوى اللهاث المتلاحق. وسمعته يقول:

– أستاذ.

– نعم!.

– دعنى... أرحل.. دعنى... أرحل

– انزل، هيا

وصرّ أحد القضبان... لا بد أن إحدى يديه زلقت. ولمحت الخيال يتمايل. واستطعت أن أميز أنـّةً خافتة، مكتومة:

– آى! آى! آى. لم أعد أقوى، لم أعد أقوى.

وسقط شىء ما؛ إنها الصرة. فشعرت بالخوف. وفى أعلى، جعل الصغير يتوجع ويبكى برقة. فرفعت صوتى:

– بيار. انزل. سمعت؟

– أستاذ، لم أعد أقوى، آى، آى، لم أعد أقوى.

وألقيت بمعطفى، وقفزت وتسلقت القضبان (كيف استطاع أن يمسك بها) إنها مؤلمة مع البرد الشديد. ليتنى ارتديت قفازى. وضغطت على أسنانى، وصعدت بصعوبة. فأنا لست فى الحادية عشرة... وبيار من فوقى مستمر فى التوجع والبكاء بكل رقة وهدوء. وأخيراً وصلت إلى مستواه. أصابعى... وطوّق عنقى بذراعيه. وزفر زفرة حياء

وخجل.

- حذار يا أستاذ. أعتقد أننى جُرحت.

وتعين عليّ أن أبدو بشًا هشًا وأنا فى هذا الوضع والطفل يطوق عنقى.. لو فاجأنا المدير.

وبمجرد أن مس الأرض، جعل بيار يبكى وينتحب وهو يتشنج. أزمة عصبية حقيقية أصابت الطفل. فحملته بين ذراعى إلى حجرتى وجعلته يتمدد.

استسلم كطفل رضيع. وسخّنت له قليلاً من القهوة. فتحسنت حالته.

- أستاذ، أنا أزعجك.

وغسلت يديه المجروحتين من القضبان. وتلوثتُ بالدماء. ولففته بالضمادات.

- أستاذ، أنا آسف.

كان يمسك فنجانه بين يديه المضمدتين، ويحتسى القهوة فى رشفات صغيرة، ثم تطلع إلىّ من أسفل، دون أن يقول شيئًا.

- بيار، أخبرنى ماذا جرى لك.

ووضع الفنجان وأخذ فى البكاء بكل رقة وهدوء. فقلت بصوت أقسى:

- اسمع، لا أريد أن أتعامل مع طفلة. كف عن التباكى. إذا كنت لا تريد أن تقول شيئًا فاذهب لتنام، وأعدك بأننى سأحفظ سرك.

ضربة سوط حقيقية. فنشق قليلاً ثم قال:

- أستاذ، إن...

صعب الكلام على الخروج.

- ... إنها أمى.

وفاضت دموعه على الرغم منه هذه المرة. وصعد ماء القلب إلى عينيه كما تقول أناشيد أساطير المجد.

- أمى، غادرت البيت. وأبى يريد أن يعرف أين هى... أنا أعرف، ولا أريد أن أقول.. لا أريد... ظل يسألنى طوال يوم الأحد... طوال يوم الأحد ظل يعنفنى.

الحقيقة أننى سمعت كلامًا غامضًا عن قصة عائلية. واستمر بيار يتكلم دون توقف بصوت متهدج، ضعيف، يقطعه النحيب. لقد تحرر من كل ما كان يجثم على صدره منذ ثمانية أيام، من جميع الدموع التى كان يبتلعها على الرغم منه. كان من المفروض أن أضع حليبًا فى قهوته. فاتتنى قضية التربية. ورأيت الحمى تجتاح بيار أول فصلى، والعرق يلمع فوق بشرة وجهه الشاحب، وعينيه الواسعتين تزدادان اتساعًا. ومن ثم، استولى علىّ القلق أنا أيضًا. وشعرت بالإحباط أمام عجزى، أمام هذين الزوجين المجهولين اللذين أنجبا هذا الطفل الممتاز، وأمام زمننا زمن العجلة والدوامة، وأمامى أنا المعلم الذى استطاع هذا الطفل أن يخفى عنه مثل هذا السر - أنا الذى لم أكن جديرًا بثقته الكافية. ما أحقرها من مهنة. هل ينبغى أن أذهب لأوقظ المدير، والممرضة، وأستدعى طبيبًا؟ وقسمت قرصًا من الأسبرين، ووضعت نصفه فى فم الطفل الملتهب الذى بادرنى قائلاً:

- ... حضرتك، أنا سأذهب إلى أمى وأقول لها: "هذا غير ممكن، يجب أن تعودى... هذا لا يليق، يجب أن تعودى".

كان يتكلم دون توقف. وسرعان ما فعل الأسبرين تأثيره، فاسترخى الطفل، فقلت له:

- يا بيار.

- نعم يا أستاذ.

– عدنى ألا تعود إلى ذلك مرة أخرى.

ونظر إلى دون أن يتكلم، كأنما يتأمل شيئًا من خلالى. ثم قال:

– هذا تحدده الظروف ... هذا تحدده الظروف.

– وأغمض عينيه وفتحهما ورفع إحدى يديه وتركها تسقط. وهمس قائلاً:

– شكرًا!

وغلبه النوم. وتطلعت إلى الهالة البنفسجية حول عينيه والبقع المائلة للحمار التى لا تلاحظ فى قاعدة الأنف، والرموش الرمادية الكثيفة – ما أشحب وجهه! لم أره نائمًا أبدًا، فاكتشفته. إن المرء منا يعتقد أنه يعرف الطفل لأنه يراه فى أثناء العمل، واللعب، وعلى المائدة. هذا الطفل كان بريًا، جاهلاً، منغلقًا. فجعلت منه أول فصلى. ليس فقط فى الحساب وفى الإملاء؛ وإنما أيضا فى الإنشاد، وفى التربية الرياضية. فهو موهوب فى كل شىء، حقًا، ولم أبذل جهداً كبيراً لأجعله يحبنى. من المفروض أن ينتقل هذا العام إلى الصف السادس. الامتحان فى الجيب. فى كل يوم أقول له إن الحياة جميلة، وأن الغابات والطرق والمدن، كل ذلك يستحق العناء، والناس أيضًا والثقة، والحرارة، والموسيقى، والعضلات المتعبة، ومداعبة الماء وقبضة أيدى الأصدقاء، وغير ذلك... وبيتهوفن وموزارت وشكسبير، وأمل الرجال ذوى الإرادة والعزيمة.

وأنا أعرف جيداً أن المعلم مثل الخورى، لا يريد إلا الخير للجميع. يا سيد بيار، هذا ابنك، ومن الممكن أن تكون معذوراً، لكن ليس من حقك أن تلهب ابنك كل يوم أحد بسياط التوبيخ والتقريع، ابنك هذا الذى يحبك. وأنتِ يا مدام بيار، يبدو من ابنك جان لوى أنكِ جميلة، وكذلك من الممكن أن تكونى معذورة. ولكنك أمه، وليس من حقك أن تتسببى فى فشل غلام كهذا.

لا تبتئس يا جان لوى، أنا أيضا كان أهلى ينغصون علىّ حياتى. وأخيراً غطيت الغلام بأحد المفارش وحملته إلى العنبر، بنوره الأصفر، وأغطيته الشاحبة. وكان

المشرف لا يزال يغط فى نومه داخل كبينته.

(٣)

فى اليوم التالى، وعند عودة التلاميذ إلى الفصول، أخبرونى بأن بيار مريض. وأردت أن أكتب مذكرة للمدير:

أتشرف بأن أعلن لسيادتكم أن التلميذ بيار...

وقاطعنى شىء ما، ونسيت.

وصعدت إلى العنبر فى أثناء الفسحة. كان الطبيب قد حضر. ونقل الغلام إلى العيادة. كانت حرارته مرتفعة. وكانت زوجة المدير موجودة. وهى ذات خبرة كبيرة. وقلت:

- ألا ترون أن من الضرورى إغلاق باب العيادة، خاصة فى أثناء الليل؟

وأردت أن أروى ما أعرف، ولكنهم صرفونى بكل رقة وهدوء. ولم يستطع جان لوى أن يتعرفنى. ولم أستطع أن أؤدى عملى فى الفصل كما ينبغى. وعلى الرغم من كل ما يدور فى رأسى، فقد غلبنى النوم.

(٤)

ونهضت غارقًا فى عرقى، وتحسست بيدى وأشعلت النور، فإذا الساعة الثانية والثلث. ماذا سمعت؟ أنا غارق فى العرق. وقمت لأغير ملابسى. ماذا بى؟ أسنانى تصطك. ووجدت ورقة مجعدة تحت الباب.

أنا آسف. ولكن يجب أن... هذا من أجل أمى، وكذلك من أجلى.

وبعد ذلك، سطران من كلام غير مفهوم. فارتديت معطفى. وقفزت إلى خارج حجرتى. ونقرت على جميع الأبواب التى مررت بها. وأشعلت جميع الأنوار الممكنة، وصحت قائلاً:

- أسرعوا! أسرعوا!

أدركت تمامًا أننى لا أسيطر على أفعالى. ومع ذلك فكنت مدركًا تمامًا لما أفعل. فمهما أسرعت وانفعلت، أعرف أن الكارثة.. وبضربة من يدى وأنا مازلت أجرى، أشعلت أنوار الفناء.

كان جان لوى هناك فى بيجامته، متعلقا بالقضبان، زائغ النظرات، مذهولاً من كل هذه الأنوار التى فوجئ بها.

- جان لوى، انزل.. انزل.. اسمع الكلام.

وشعرت بأننى مسئول بطريقة فظيعة. وبدا لى أن الغلام يتسلق نحو جميع الأنوار التى أشعلتها أمام عينيه: القلب، الحب، الأم. وسمعت أسنانه تصطك. أمن المعقول أن اصطكاك أسنان يحدث مثل هذه الضوضاء؟ واقترب ضجيج آخر، لقد استيقظت المدرسة كلها.

وصل المدير والمراقب العام، والمعلمون، وبعض التلاميذ كذلك. الجميع ارتدوا ملابسهم على عجل، وكثير منهم حضر بغطاء سرير على كتفيه. الوجوه شاحبة والشعر أشعث. وكف الضجيج فجأة، وتشكلت دائرة جمعت حول القضبان. الغلام معلق من أصابعه والضمادات بدأت تنحل وتتطاير فى الريح الباردة؛ ووجه الغلام الشاحب يرنو نحونا وقد جحظت عيناه. ولم يعد بمقدور حلقى أن يلفظ كلمة، وغامت نظرتى وغبشت. وجاءنى صوت المدير يقول:

- بيار.. انزل يا بنى، هيا، انزل.

وسمع صوت الطفل يجيب:

- لازم سلم.

وحل صمت قصير وفجأة. سمعت، وأنا أرتعد، أنّة الأمس نفسها الرقيقة، لكنها هذه المرة أكثر يأسًا بألف مرة.

- آى! آى! آى. لم أعد أقوى، لم أعد أقوى...

وأردت أن أبدأ من جديد عملية الإنقاذ التى حاولتها بالأمس. فقفزت وتسلقت. وعلى الفور دبّ الألم فى الأصابع، ألم لا يرحم. وخانتنى شجاعتى؛ ومع ذلك جعلت أجذب بكل قوة. وشعرت بمن يدفعنى فى ساقى؛ فترنّحت قليلا.

وفجأة، سمعت ضوضاء لم تلبث أن اختنقت كأنها هبة ريح سريعة، وضربة رهيبة على قفاى نزعت أصابعى، فتعلقت بالفضاء بيدٍ يائسة - سقطة مرعبة. وبقيت ملتصقًا بالقضبان مغمض العينين. لم أنظر حتى إلى التكدس الذى أحاط بالجسد... لم أعد أقوى، لم أعد أقوى أنا أيضًا... كنت أعرف جيداً أن بيار مات.

- أستاذ روش، يجب أن تنزل.

ونزلت. كم أنا عجوز ... لن تشرق ابتسامته على وجه أى طفل أبداً.

***

فـى جلـد الآخـــــر

تأليف: ميشيل بوكيه Michel Beauquey

من فرنسا

– أن يكون لا علم له بشىء، وأننى مع ذلك مضطر إلى قتله، لأنه ربما كان يعرف شيئًا.

حيثما كان، كان موران يستطيع بكل هدوء أن يراقب ضحيته. كان الرجل يجلس إلى المائدة وراءه، غير أن مرآة فى إطار حديدى من مرايا المطعم كانت تعكس وجهه من الجانب (بروفيل). كان قد أمسك بقائمة الطعام (مينيو) بيديه الغليظتين وجعل يستقرئ فى صعوبة ظاهرة، الكتابة الألمانية المنسوخة بالحبر الأحمر المزرق (الفوشيه)، فى حين وقفت الخادمة، وهى بيرلينية بدينة، تملأ الانتظار بتسوية ثنيات مئزرها.

كم يا تُرى عمره؟ نحو ثلاثين عامًا، على أكثر تقدير. هو أخ على أى حال. كانت بدلته الخالية من الذوق مصنوعة فى بلد آخر، مثل وجهه غليظ الملامح، ووجنتيه القريبتين من حاجبيه، ورأسه المحلوق بالموسى. لكنه يمارس المهنة نفسها، يقوم بالعمل الخطير الرهيب نفسه، البهلوانية المتصلة فوق الحبل المشدود – مع الموت فى آخر العملية. ولكى يرفض هذا التشابه أو هذه القرابة بالذات فى اللحظة التى من الأفضل له أن يتخلص منها ويطردها من ذهنه، ها هو ذا يدعك عينيه المحمرتين، ويحاول أن

ينصب كتفيه الخائرين مما يدل على أنه هو الآخر لم ينم منذ عدة أيام. وقال موران وهو يبعد طبقه الفارغ ويشعل سيجارة:

"هو فى الحالة نفسها التى أنا فيها. مع هذا الفارق، أنه ليس مجبرًا على عمل سخرة إضافية، سخرة بغيضة، هذا وصفها. لو كان فى الإمكان– على الأقل – إرجاؤها إلى الغد! أنا فى حاجة لألتقط أنفاسى بعض الوقت، لقد فاض بى الكيل! صحيح أن هذا المسكين أسوأ حالاً مني... آه! اللعنة كل ذلك من أجل تحول مفاجئ فى اتجاه الريح!".

تغير مفاجئ فى الريح منحوس، حقًا، أحدث بالأمس، وفى ظرف نصف ساعة، تحولاً فى الطقس، غيّر سماءً قليلة السحب إلى محيط من القذارة، وأجبر الطائرة أو بمعنى أصح، ذلك الطيار الملعون على الهبوط وسط الحقول على بعد أربعين كيلومترًا من "فيسبادن". ونتيجة لذلك وصل موران بيرلين بعد الموعد المحدد بأربعٍ وعشرين ساعة. ليس متأخرًا أكثر من اللازم حيث يدفع "كراز" العجوز إلى الكلام قبل دخوله الإجبارى فى العالم الآخر، وليس مبكرًا أكثر من اللازم للتأكد تمامًا من أن هذا الدخيل الذى جاء من آخر أوروبا لم يسعفه الوقت لكى يضع أنفه حيث لا ينبغى له أن يضعها. هكذا هى الحياة. أعداد لا حصر لها من الأرواح البشرية معلقة بالسر، حيث لا يمكننا أن نسمح بأدنى قدر من إمكانية الهروب. مع أن هذا الرجل، طبقًا لجميع عمليات التقصىّ، لا يمكن أن يكون لديه أدنى فرصة للشعور بالخطر والتنبؤ بالضربة. عليه أن يدفع حصته فى التأمين. تلك هى قاعدة اللعبة. من الجانبين.

لكن هذا التأمين الذى كان غريمه سيأخذ به لو انعكس الوضع، كان يضايق موران. كانت المعضلة تشبه معضلة القاتل حينما يتورط فى جريمة أخرى بسبب عدم التأكد أو الشك.

"أبئس بها من طريقة لخدمة الوطن، على أى حال! بمبادئ بطولية من هذا النوع؛ "من الأفضل قتل عشرة أبرياء من ترك مذنب واحد يلوذ بالفرار" آه! إن الذين يعيشون على الأخلاق العامة لا يعرفون سعادتهم.

أم تراه التعب هو الذى أفسد التروس؟ ما ضرورة تغيير خطة تم وضعها نهائيًا؟ فى الحرب نضطر إلى القتل دون انتظار. وما يفعله هنا هى الحرب فعلا؛ الحرب التى تسبق الآخر، لكنها تطبق القواعد نفسها.. لن نطلق أى قذيفة إذا تعهدنا بألا نمس الأطفال ولا العجائز. أطلب ذلك إذن من الطرف الآخر.

وألقى موران نظرة على ساعة معصمه. فإذا هى التاسعة! وهو الذى كان يمنى نفسه بالنوم السعيد، نوم يشبه الموت حيث لا أثر للحياة!

أجل، إنه التعب؛ التعب حينما يصل إلى أقصاه! ما دام لم يتجاوز المرء الحدود المسموح بها، فهو صلب كالحديد. ولكنه بعد نقطة حرجة معينة، فإن الإرهاق الجسدى يولد الخبال العقلى. إن الصراع ضد الجوع والبرد والخوف، لا يعد شيئًا. يكفى أن يقول المرء: "أنا أريد"، أما إذا كانت الإرادة هى التى انهارت، فإلى أى شىء نلجأ وبأى شىء نستعين؟ "إذا فقد الملح طعمه، فبأى شىء نتبّله؟".

لعمرى، لقد أعجبت هذه الجملة موران ببساطتها، ولطالما كانت تضايقه فى الماضى بطابعها الإلغازى وغموضها "إذا فقد الملح طعمه..." مستحيل!

وقال موران فى نفسه بنبرة الشكوى وهو يشير إلى خادمة المطعم:

"الأفكار البلهاء التى تمر بالخاطر حينما يكون المرء محطمًا!".

– أعطنى كأسًا من الكرز من الغابة السوداء.

ونظر إلى عازف الكمان وقد وضع منديله تحت ذقنه ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال لينبه زملاءه، ثم يرفع قوسه ويعلقه لحظة أو لحظتين قبل أن يبدأ بانحناءة عنيفة رقصة "أورفى فى الجحيم".

وسحق موران سيجارته فى الطفاية قبل أن ينتهى من تدخينها. كم من مرة سمع أباه يقول هذه العبارة النبوئية. وأيامها لم يكن يعيرها أى انتباه لأن كل ما كان يرويه الرجل العجوز الذى ظل طوال حياته يرتدى السواد، كان يبعث على الملل المميت! جسم غريب ... حينما يفكر المرء فى ذلك... لا بد أن الترمّل قد أثر عليه. الحداد بمعنى أصح.

كان يعيش وسط كتب الرحمة ولا يمل من إلقاء المواعظ التى كانت الحياة تناقضها كل يوم؛ أشياء ربما كانت مقبولة فى تلك الأيام، لكنها فقدت رواجها وقيمتها. كان دائمًا يردد بصوت العلامة الحالم: "إن بداية الشعور الإنسانى أن يضع المرء نفسه مكان الآخر".

وودع موران هذه الذكرى بابتسامة تخلو من البهجة. كان الرجل العجوز على حق، مع ذلك، لكن ليس كما كان يتصور... فما أن يدخل المرء فى عراك مع الحياة والوجود فإنه يتعلم فعلاً أن يضع نفسه مكان الآخر... لكى يكوّن فكرة صحيحة عن السموم التى يسويها على نار هادئة؛ حتى لا يؤخذ غدرًا فى أول منعطف!

وأحضرت الخادمة شراب الكرز، واستبقاها موران بحركة منه. كان لديه الوقت، مادام "الآخر" كان قد انتهى فقط من تناول طبق الحساء. "ولكن ينبغى ألا يتخلى المرء عن هامش كافٍ من الأمان" هكذا كان يقول الريّس الذى كان يعرف جيدًا عما يتحدث.

ولكى يقاوم التثاؤب، هز "الآخر" رأسه وكتفيه فيما يشبه الرعدة الخفيفة. كان يريد أن يصرف عنه النوم! مسكين يتناول آخر وجبة له دون أن يدرى. من السهل أن يضع المرء نفسه مكانه، من السهل جدًا. ورآه موران وهو يدلك خده بالقرب من منبت

الأنف، يعدل من وضع الشوكة بجوار الطبق، سلسة من العادات لا أهمية لها، ولكن بالذات لأنها تجعل منه رجلاً كالآخرين، كانت تضفى على الموت الذى يتربص به وجهًا أكثر سادية.

كلا، لم يكن ذلك غريبًا فى الواقع! لأنه على أى حال، إذا كان الشخص الغريب قد اتصل بكراز فلم يكن ذلك إلا قبل زيارته له، ومن أجل.. هذا هو الجانب المؤلم. كان الكمين الجبان، الاغتيال دون مخاطر، قذارة.. لكن أحداً لم يكن يملك من الأمر شيئًا.

ماذا كانت تعزف الفرقة؟ لم نعد نسمع سوى الكمان. آه! ولكن بطبيعة الحال! الرابع والعشرون من ديسمبر لم يكن يفكر فيه. فى الخارج الأرصفة تغطى ببرد أصفر مذاب، لزج. والريح تسقط قبعات المارة وتثنى الكوفيات على عيونهم. بعد قليل، سيتعين عليه أن يخوض فى هذا الوحل ثم يصل إلى غرفته فى زيهليندورف. ستكون جميع البيوت قد أشعلت شموعها بينما هو ينام كالبهيمة لكى يستيقظ الله وحده يعلم متى، بعد ظهر اليوم التالى مع ذكرى زيادة. لو لم تكن هذه النقطة الأخيرة من الكأس المر الذى عليه أن يتجرعه، لاستطاع أن يعود إلى " إيرنا " وينطرح ساعات فوق الأريكة ويتناول معها وجبة عيد الميلاد. لقد توسلت إليه قبل قليل أن يفعل ذلك! لكنها ستكون معجزة لو استطاع أن يذهب إليها. واستعرض فى خياله أعياد رأس السنة حينما كان طفلاً صغيراً، والشموع الصغيرة الزرقاء والحمراء، ونظرة الرجل العجوز المضطربة، والزهور تحت صورة المرحومة. لماذا لم يتحقق عالم الطيبة هذا؟ صحيح أن بعض الأيادى امتدت نحوه، لكن شيئًا ما كان يمنعه من أن يراها. كان الريّس دائمًا يقول: "رجال مثلنا لا ينبغى عليهم فقط أن يفكروا ويتصرفوا خلافًا لبقية الناس، وإنما عليهم أيضًا أن يعيشوا بصورة مختلفة". مؤكد! إن المداعبات لم تخلق للأيدى التى قتلت. ومع كل.

المهم ألا نستسلم! مثل هذا الإحساس نشعر به ونحن وسط البرد، حينما نتوقف؛ وقد أضنانا التعب. إنها اللحظة التى ينبغى أن يكون المرء فيها بلا رحمة مع نفسه، أو مع غيره، وهو ما يتطلب الكثير من الشجاعة.

وانسابت نظرة موران نحو المرآة. كان يبدو أن "الآخر" يستمع هو أيضًا إلى الموسيقى. كان يسند ذقنه فى قبضتيه ولم يحاول أن يتعامل مع الطبق الذى كانت الخادمة قد أحضرته. كانت تلوح بالقرب من أذنه تعريجة وردية لندبة. ولكن من الغريب أن هذا الشاهد على حياة حافلة بالعنف، لم يكن يضفى على الوجه سمة القسوة، بل على العكس كان يطبعه بطابع الخرق والاستسلام. كان الجرح علامة على المصير، دليلاً يؤذن بآخر نحس انتظر لكى يصيبه، اللحظة التى يكون فيها بلا دفاع. ومسح جبهته بيمينه والتفت ناحية موران. لكن عينيه كانتا بعيدًا، بعيدًا جدًا وغريبتين... وفجأة تبين موران أنهما محمرتان، ليس لأنهما تحتاجان إلى النوم، وإنما لأنهما كانتا تبكيان.

لم يكن الانطباع الذى ولده هذا الاكتشاف لطيفا حيث إن قلبه توقف لحظة. ولكن هل سينقاد وراء العواطف؟ "ما أهمية ذلك بالنسبة لى. ليكن؛ قد فقد زوجته أو أمه أو ابنه الوحيد أو أى شخص يريد. ماذا يمكن أن يغير هذا بالنسبة لى؟ بالعكس، فأنا ربما سأؤدى له خدمة"، وانتشل موران كأسه بحدة وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة.

وببرودها المعتاد، أخرجت الخادمة من جيب مئزرها دفترًا صغيرًا. وجعلت وهى تميل على حافة المنضدة تسجل أرقامًا بعد أن ألقت نظرة على ما تبقى من الوجبة التى لم ينل منها الزبون الأجنبى الكثير، لأسباب لا تهمها.

دانك شون.

كم كان موران مستعدًا ليعطى لكى يكون مثلها، ويمزق ورقة الدفتر ويفركها ويلقى بها مع الأوراق التى لا قيمة لها والتى لا يحاول الإنسان أن يفكر فيها بعد ذلك. ولكن

بالنسبة له سيكون حساب اللقاء أعلى كثيراً. فمهما حدث، فسيظل اللقاء محفوراً في أظلم ركن من ذاكرته. مهما حدث، وبالذات إذا لم يحث شيء... ما فائدة أن يخدع نفسه؟ كان يعرف مسبقًا أنه لن يقتل هذا الرجل. فما أن يبدأ المرء في الحجاج والجدال، حتى تضيع القضية، وأن نتائج هذا الاستسلام، يراها قد بدأت تظهر مع انحراف مزاجي يتصاعد.

وسمع حركة الكرسي خلفه. كان الرجل قد نهض. فخرجت صورة وجهه من المرآة، وتوجه نحو المشجب وأخذ حقيبته الجلدية القبيحة، ثم عدّل من حزامه... وأخيرا لبس قبعته وانصرف في مشية من يسير وهو نائم، لا يتصور مطلقًا أن أشجانه على وشك أن تنتهي وإلى الأبد بضربة واحدة. دوم... دوم... دوم... وتوقف مصراع الباب. قبل أقل من لحظة، لم تكن لدى موران رغبة في اتباعه. كان لا بد من إرادة خارقة لكي يستأنف اللعبة. Fraulein ! Nach ein Kirsch ! Nein !.

ونهض بصورة مفاجئة تدل على درجة التوتر العصبي التي وصل إليها. أن يمكث مدة أطول بالقرب من هذه المائدة حيث الخادمة تجمع الأطباق والأكواب، كان يشعر بأنه عاجز عن ذلك. فراغ لا يرحم كان يغوص بداخله، ومن حوله، وغريزة الدفاع تقول له بألا يتعمق الأسباب. فيما بعد، غداً، حينما يكون مفعول الصدمة قد انقضى. حينئذ سينظر إلى الأشياء وجهًا لوجه، كما تعلم أن يفعل ذلك دائمًا. ليس في الحالة التي هو عليها الآن! وبلا تفسير، عبره شيء من جزع "الآخر". واكتشف أنه وحيد، محروم من أي عون، كأنما تراجعه أمام المهمة المطلوب منه تنفيذها قد فصله عن أهله.

لا للتفكير! والتشتت بأي وسيلة! ولكن إلى أين يذهب، يا إلهي؟ ماذا يفعل؟ ينام؟ كان ذلك مستحيلاً.

إيرنا! لقد عبره الاسم بحركة داخلية أدهشته قوتها. أي برهان لا يرد على التحول وانقلاب الحال! لكنه لم يكن هناك. إن ما يهم هو العون غير المرتجى. فانتصب

واقفًا على غير إرادة منه. ولكن، كلا، لم يكن وحده فى هذا العالم، عالم الآخرين الذى كان من الممكـــن أن ينكـــره. عالم الرجـــل العجوز الذى يرتدى السواد، عالم الأيدى الممدودة! شخص ما يشير إليه، فى حاجة إلى عـونه. شخص ما يتألم بســببه. خبال، لكن فكرة أن كائنًا بشريًا يمكن أن ينتظر النجدة منه كان فيه نجـــدة له إلى حد ما.

هل فات الأوان لكى يلحق بهذا العشاء، عشاء رأس السنة الذى لم يحضره والذى ألقى بإيرنا فى مـثل هذا اليـأس. ربما لا. ولكن لا بد من الإسـراع... الفـرحـة التى ستضىء عينيها الرماديتين حينما تراه يظهر! كانت ستهم بالبكاء أيضًا، لكنه هذه المرة سيأخذها فى أحضانه. ولكن ليغطى إبليس وجهه. سيطلب منها المغفرة... بشرط ألا تكون فى آخر لحظة قد اتخذت تدابيرها لتنضم إلى مـجـموعة من الصديقات! من الطبيعى أنها حاولت أن تهرب من حجرتها. ولكنها، من أجله، تتفرغ دائمًا.

كانت السماء كلها تنزل كرات من الثلج المضغوط، حينما وجد نفسه على الطريق. كانت آثار عـجلات السيارات السوداء تتشابك فـوق الأسـفلت. والناس متدثرون يمشـون ورءوسـهم داخلة بين أكتافهـم، يحيـدون أحيانًا كأنما بفعل مغناطيـس، لكى يلتصقوا بجماعات لا تفتأ تتشـكل وتنفض أمام الواجهات الزجاجيـة التى تعرض هدايا رأس السنة تحت الأضواء. وتقدم موران هو أيضًا من محل المجوهرات. ومس جبهتـه الزجاج البارد فارتد. ولاحـظ حاله قائلاً: "لقد بلغ منى الإرهـاق كل مبلغ فلا أكاد أقف على قدمى". كان عليه أن يغلق عينيه ويدعك جفنيه المرهقين. لكنه لم يعد يشـعر بالنعاس. فقط الرغبة العارمة فى العثور على شىء من الحـرارة الإنسانية، فى أن يفر من الليل، من الوحدة، من برد النفس. وهو أضر وأوجع من برد الجسد.

ولمعت فى عينيه مجوهرات من الماس ومن العاج ومن الستراس ومن اللؤلؤ... هذا المشبك مثلاً... تصوره على القميص الأزرق الفاتح وشعر بانفعال لم يشعر به من قبل.

وصعدت زفرة مفاجئة إلى حلقه؛ غير أن رؤية ساعة حائط صغيرة برقاص محزم جعله ينتفض. ودخل المحل وابتاع ما يريد ثم اتخذ طريق "بايريش فيرتيل".

كان البَرَد لا يزال ينزل، وقد أصبح مختلطًا بالماء الذى بات يهطل فوق الجدران. وخلا من أثر للحياة. وجعل المارة القليلون يركضون أكثر مما يسيرون، وقد رفعوا ياقات معاطفهم وغاصت قبعاتهم حتى آذانهم، وهم يتعثرون تحت هبات الريح. وأصابت الرطوبة ركبتى موران على الرغم من معطفه الواقى من المطر. ماذا سيصنع لو لم تكن إيرنا فى بيتها؟ وكلما تقدم زاد خوفه من أن يجد بابها مغلقًا. بل أسوأ من ذلك؛ الشعور بمواجهة ما لا يمكن إصلاحه. وأحس بتأنيب الضمير لأنه لم يكن لطيفا مع الفتاة. كان ينبغى أن يغلف رفضه بشىء من الحنان. ولكن، كلا! كان عليه أن يعتقد أنه مضطر إلى أن يظل صادقًا مع نفسه. والآن تذكر تعبير الألم الذى لاح فى عينيها. لعلها هى أيضًا مرت بلحظة ضعف، بالحاجة إلى الشعور بجوار قلبها بشىء من الحرارة الإنسانية. هل ندرك الضرر الذى نلحقه بالآخر حينما نهمل يديه التى يبسطها إلينا؟ لعلها يد إنسان يغرق. يا إلهى، كم من صيحات الاستغاثة لا نستطيع أن نفهمها!

أشباح قمرية عجيبة فى حى "بومبير جيرستراس" مساحات تقبض النفس، بيضاء وسوداء من أطلال هذا الحى الذى تعرض للخراب إلى درجة الفناء الكامل! ثمة ثلاثة أنوار أو أربعة فقط ترسم من بعيد مربعاتها الشاحبة. ولا يمكن رؤية نافذة إيرنا من الشارع. ولكن هذا كان أفضل، إذا كان هذا يؤخر لحظة خيبة الأمل.

وعبر موران الشارع وانخرط تحت قبو الرواق الذى أفلت من القنابل وظل قائمًا كأثر رومانى كئيب. فى مدخل الفناء كانت الريح تهب بعنف لم يسبق له مثيل، فتُحدث صرير الصفيح والحديد وتنتزع الأنقاض التى نسمعها وهى تفر فوق الحجارة. وانعطف موران نحو اليسار وهو مطأطأ الرأس، وصعد ممرًا تكدست فيه كتل لا شكل

لهـا، ثم انحـرف مـرة أخـرى بعـد أن بلغ كـومـة من قـوالب الطوب المصـفـوف بارتفـاع الإنسان ورأى، فى زوبعة تخطف البصر، سترة جلدية صفراء.

ورفع يده، لكن الوقت لم يسعفه ليتم حركته. لقد خيل لـه أن نصلاً من نار يحرث بطنه، بينما صاعقة بعيدة تهز الأنقاض، فإذا بالجدران المصدوعة تتقارب بسرعة مذهلة.

وإذا به، منكفئًا على وجهه فوق الأرض، يغوص فى البرد المخلوط بالأنقاض.

***

البيانـــــــــــو

تأليف: كاميليا أرميل Camille Armel

من فرنسا

"حينما قرأت هذه السطور على إيقاع ضمير معذب، أصابتنى رعدة".

(المؤلف)

هل يقلل من خجلى أن أكتب هذا؟

مطر مدرار كما هى العادة فى هذا البلد! نقط ضخمة، وأرصفة تيسر بروز بحيرات لا يحصى لها عدد! هذه البرك لا يمكن اجتيازها دون أن تصل المياه إلى الكعوب! الأفضل للمرء أن يسير حافى القدمين! والأدهى والأمر هو موقف السكان الذين لا يهتمون مطلقًا بهذه المشكلة المائية: إن الناس يخوضون ويتقطرون ماء ويمكثون مبللين وهم يبتسمون!

لقد أصابنى القرف! أربعة أيام من هذا المطر الغزير وأيضًا أربع ليال - على ما أعتقد - وأنا أشاهد منظر هذه المدينة فى الصباح الباكر.

كان زوجان من أحذيتى تجفان تحت السخان فى غرفتى فى الفندق؛ والزوج الثالث الذى اشتريته قبل قليل مشبع بالرطوبة!

وبخار الماء يغبش واجهات المقهى. لم أعد أشرب كحوليات واكتفيت بالماء.

لو كنت مريضًا، لكان لى عذرى، وأويت إلى الفراش. الساعة لا تزال السادسة! تصوروا؟

لم أسمع ممن حولى أى تعليق على الطقس. ليس فى هذا الجمع من الناس واحد يشكو أو يتبرم من هذه المياه التى تنتشر بجنون فى كل مكان. لقد حلت مشكلاتهم بالسير فى الطين بعزم شديد أو خمول غريب!

منذ أربعة أيام وأنا أنتظر نهاية هذا المطر المفاجئ! قد ينتهى بى الأمر إلى البكاء!

ومع المياه المستمرة والريح التى تهب، يقبل قادمون جدد يدفعون الباب ويقابلهم الآخرون بالأحضان والمصافحة بالأيدى.

– مبروك يا أستاذ!

– أحسنت يا عزيزى.

وانحنيت لأرى جيداً الشخص الذى يهنئونه.

هذه السحنة! وهذه المشية، مستحيل. أوه! أوه! يا إلهى! إنه... أنه "فلاو" إنه لويس فلاو!

ونهضت ووجدتنى أمامه قبل أن أصيح به: لويس؟ وكف الرجل عن الضحك؛ ورمش، مرة، ثم مرة، ثم بصوت مكتوم:

– من؟ أندريه؟ صديقى العزيز!

وتعانقنا ونظره مسلط علىّ. النظرة نفسها! لم تتغير! وعيناه الجاحظتان!

وعلى الفور، قام بتقديمى:

- صديقى، أندريه دى سيرفيل. أخى تقريبًا... كما تعرفون، هو الذى أسميه دائما وأصفه بـ "الصديق الحميم"؟ حسنًا! إنه هو، هذا هو! هل عرفتم؟

وجعل ينظر إلىّ وهو يتكلم.

- اجلس يا أندريه. أؤكد لك أن الله موجود.

وكان أحدهم قد طلب كأسًا، فرفعها قائلاً:

- فى صحة الأب السعيد!

وابتسم لويس وهو يشكرهم، وأدرك دهشتى، فقال:

- نعم يا صديقى الحميم، أنا، أنا الأب، فقد رزقت طفلاً، ولدًا، ولدًا حقًا.. وزوجته أيضًا!

ورفع الأصدقاء كئوسهم قائلين:

- وفى صحة زوجتك! مدام لويس فلاو الجميلة!

وتأثر لويس بما سمع.

- فرحة كبرى يا أندريه، تكاد تخنقنى! أكاد أموت من الفرحة! ولكن، أنت، ماذا جاء بك إلى هنا؟

- سأشرح لك فيما بعد... هذه حكاية طويلة!

وغمز لى بعينه، ثم نهض.

- أيها السادة، طبعا أنتم تسمحون لى؟ منذ اثنتى عشرة سنة لم نقل لبعضنا "إلى اللقاء". ولم يبق سوى بعض الوقت لكى نقول لبعضنا "صباح الخير".

كان كل منا على عجلة لينفرد بصاحبه، متلهفًا لكى يخلو به. وقد استقبلنا الفيضان، وأغرقنا. وأخذ لويس بذراعى قائلاً:

ووجهنى فى الطريق، قائداً وولداً كما كنا فى الماضى!

كنت أطير من الفرحة. وكنت أخوض فى الطين. أتقدم على إيقاع لويس الأكبر الذى لا يقول شيئًا؛ فقد كان مشغولاً بأمر توجيهى وقيادتى على أفضل وجه ممكن فى تلك العاصفة.

واجتاحتنى ذكرياتى، تفرض نفسها فى صور جلية واضحة، براقة، وأنا أذوقها! كانت الريح تمنعنا من السير بسرعة وقال لويس:

– إنها عاصفة بحرية، لو كنت أعرف، لكنت ركبت سيارتى.

– أنت لم تبتل كثيراً؟ ماشى الحال؟

وجعل لويس ذراعه تحت ذراعى، وذهب عنى ما كنت أشعر به من ضيق وكآبة. وجعلت أحتسى من السعادة، ممزوجة بالمطر الذى كان يسيل فوق وجهى.

– لقد وصلنا. البيت فى آخر الشارع.

ولم أشعر بطول الطريق. ولم أنته من تذكر لويس هذا رفيق شبابى كله! الذى كان يقف فى الفصل ليدافع عنى.

– أندريه خجول يا أستاذ، وهو لا يجرؤ على قول شىء، لكننى أقسم لك أنه ليس مذنبًا.

كانت قبضتا يديه القويتين ومنكباه العريضان تثور... ويوم أن تكدّسنا أمام قوائم نتيجة امتحان البكالوريا، مازلت أتذكر تعبير وجهه وهو يصيح بى قائلاً:

– مبروك يا أندريه أنت نجحت! يا صديقى الحميم.

لن أنسى ذلك ما حييت!

- وأنت؟

- أنا؟ أنا لم أنظر إلا فى قائمة حرف "س"!

لقد نجح هو أيضًا بطبيعة الحال، وبتقدير.

... وكان صوت لويس أيضًا هو الذى أوقف حشرجتى فى الغابة. كنت أموت بين الأشجار وقد نزف دمى منذ ساعات وأنا غائب عن الوعى، وكنت قد استسلمت للموت، ولم أحاول أن أبذل أى مجهود للتغلب عليه.

- هذا أنا يا أندريه، يا صديقى الحميم! قل شيئًا، قل كلمة أعرف بها أنك على قيد الحياة.

أقسم أن لويس هو الذى أنقذ حياتى فى تلك اللحظة، حينما اضطرنى إلى أن أردّ عليه! فقد اجتهدت لكى أتنفس من جديد. حاولت، مرة ... ثم مرة.

- لا تتحرك، لا تتحرك، لكن قل كلمة فقط، كلمة بصوت خفيض! أندريه؟ صديقى الحميم؟

كان حنانه كله وقلقه كله يبلغنى مع كلماته. ونجحت فى أن أنطق قائلاً:

- لويس... صديقى... الحمد لله!

فصاح من الفرحة قائلاً:

- أنت حى؟ أنت حى؟ الحمد لله!

وحملنى على ظهره حتى المستشفى وكان هو مصابًا بجرح فى أسفل بطنه. وعالجنا طبيب واحد. وعود ثقاب واحد هو الذى أشعل أول سيجارة دخناها فى مراهقتنا.

وأضيء نور المدخل من الداخل. وطلع علينا خادم حمل معطفينا المبللين، وقال الرجل:

– لقد بللكما المطر كثيراً.

– مثل كلبين غريقين يا عزيزى إيفان.

اسمع يا إيفان، انظر إلى هذا الأستاذ الذى ستعمل حسابه على الطعام... هل تراه جيدا؟

– نعم، يا سيدى... ولكن... ولكن...؟

– آه! تلاحظ شيئًا، أليس كذلك؛ هل عرفته؟

وعاينت على وجه الرجل المجهود الذى يبذله لكى يتذكر؟

– هذا... هذا هو "الصديق الحميم" يا سيدى.

– برافو يا إيفان. لقد تذكرتنى. لكننى تغيرت.

– ليس كثيراً، ليس كثيراً؟ لم نر سيدى منذ زمن بعيد، لقد نسيت أن أسأل سيدى عن سيدتى وعن صحة الابن العزيز؟

– زوجتى بخير، وابنى أيضاً.

وقبل أن يقول "ابنى" رفع لويس صوته. فكم من السعادة تحملها هذه الكلمة.

وفسر لى لويس الأمر قائلاً:

– زوجتى لا تزال فى المستشفى. الأم والابن سيعودان إلى المنزل الأسبوع المقبل. تعال إلى مكتبى. سيأتينا إيفان بالشباشب وفى أثناء العشاء يحكى كل منا قصته.

ومع ذلك فقد جلسنا صامتين فى حجرة الطعام الجميلة الواسعة.

– تكلم إذن يا صديقى العزيز. كنا فى نحو الثلاثين من عمرنا حينما سافرت أنا إلى هنا وأنت سافرت إلى جنوب فرنسا، ولم تكتب لى على الإطلاق.

– أوه، أكتب؟ لصديق مثلك، ماذا أقول وماذا أكتب؟ فمهما كتبت فلن أقول كل ما عندى، وأنت كذلك لم تكتب لى.

– إذن واحدة بواحدة. يجب إصلاح ذلك إذن. هيا تكلم. ماذا تفعل هنا؟ فى هذا الفصل من العام؟

– جئت لتنظيم حفلات موسيقية فى الهواء الطلق!

كانت الريح تهيل على الزجاج مفارش من المياه. أما إيفان الذى كان يصب لى مشروبًا، فلم يملك نفسه من الضحك.

– طبعًا لفصل الصيف المقبل! أنا أعمل مع "لينول".

– لينول العظيم، لقد سمعته مرارًا فى الإذاعة دون أن أعرفه. لا يزال كمانه الأبدى. كنت قد تنبأت لك بالنجاح! مؤلف موسيقى. أنت كتبت كثيرًا؟

– كلا، لقد تركت ذلك.

– كيف؟ المعزوفات التى كنت تريد أن تؤلفها؟ والمعزوفات التى نشرت لك؟

– تركت كل ذلك.

– لا ولكن ألا تذكر تقدير الكبار؟ وتعهداتهم وثقتنا الكبرى... تركت هذا كله؟

– نعم يا صديقى العزيز. أنا أعزف فقط.

– لماذا؟ يا أندريه، لماذا؟

– الموضوع يطول شرحه، وهو لا يبعث على البهجة. أفضل أن تحكى أنت أولا.

ووضع إيفان القهوة فى الحجرة المجاورة.

وأخذنى لويس كعادته من ذراعى وصحبنى إلى الصالون.

– بيتك جميل يا لويس، خاصة هذا الركن.

كان هناك بيانو قديم، أسود لامع. عليه مهابة وجلال، يظهر بارزًا أمام خلفية من الحرير الأبيض، وتغطى الجدار كله. ولم يكن هناك أى شىء فوق البيانو. وكانت الإضاءة ممتازة؛ فالحجرة غارقة فى ضوء بلا ظلال، وكان التناقض بين البيانو الأسود والستارة البيضاء المبهرة منظرًا أخّاذًا فى حد ذاته.

– هذا جميل جداً. يا لويس.

– أنت ترى ذلك؟ ومع ذلك فأنا لا أحب هذا البيانو. شكله، ولونه، يبدو لى حزينًا، بل وجنائزيًا.

فانعقد لسانى من الدهشة. ثم قلت:

– أنت تمزح؟ أنا لا أريد إلا أن أستمع إليك! أخبرنى ماذا صنعت، وكيف أصبحت حتى هذه اللحظة التى نعيشها عندك... عندكم؟

– "عندنا" آه نحن الثلاثة. أنت تذكر جيداً اليأس الذى أصابنى جراء الفحص الطبى الذى أجراه لى ذلك الطبيب المعتوه الذى قال لى: "خلاص، انتهى الأمر يا صاحبى! ثم هناك آخرون غيرك لإنجاب الأطفال". واستسلمت للأمر.

– هنالك حطمت له فكه.

– لقد أحسنت صنعًا! فبسببه عشت عشر سنوات حياة شخص عاجز. منعتنى شكوكى من تكوين بيت وأسرة. بعد ذلك، أحبتنى مارى فرانسواز على الرغم من كل شىء، لم تخش شيئًا، وتزوجتنى.

وابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه البيضاء.

- لقد غيّر الحب كل شىء، جميع القوانين، جميع الظنون وأنجبنا طفلاً! ابنى!

كان يسير بخطوته الطويلة الثقيلة، خطوة العملاق، وبجبهته المرتفعة، وإهابه العريض فوق رقبته الضخمة، كانت تلوح قوة واثقة من نفسها تحققت بجهاد كبير.

- حينما فارقتك يا أندريه عام ٣٩، انشغلت بمكتب والدى. لقد عملت كثيراً، وكسبت كثيراً، فأنت تعرف حبى لهذا النوع من العمل. لقد ظننت أننى سأصاب بالجنون.. عندى الآن الكثير. وأنا مدين بذلك لعملى وبفضله عرفت زوجتى.

ذات صباح، دخلت مكتبى، كانت قد ورثت بيتًا ومزرعة فى ضواحى المدينة واستقرت هناك، ويمكنك أن تخمن البقية.

كنت أخشى ألا تستطيع أن تتعود على الريف، فقد كانت دائمًا تقيم فى باريس. لم تأت إلى هذا البلدة من قبل. وكان لا بد من موت عمها والميراث ومنى أنا أيضًا لكى تقرر عدم مغادرة هذا البلد مرة أخرى. لقد غيرت لى حياتى بوجهها المشرق وابتسامتها الصافية.

وفى العام الماضى، أرادت مارى فرانسواز أن أستشير أحد أطباء الجراحة الذين نعرفهم، فأعاد إلىّ الأمل وتدخلت الأقدار... وهكذا!

"هيا، دورك يا أندريه، أنا لا أفكر إلا فى نفسى".

- لقد أرحتنى كثيراً يا لويس. أما حكايتى أنا فطويلة، لكنها تقال فى كلمتين، لأنها بسيطة.

عرفت امرأة فى باريس، أحببتها كثيراً عدة سنوات. كانت ذكية، لا أكثر من ذلك. لقد خانتنى فى نفسها وفى الآخرين، من أول يوم إلى آخر يوم فى علاقتنا، دون أى رحمة.

حينما ساءت أحوالى فى العمل. حطمت حياتنا. كانت لديها ذاكرة خارقة. طوال الليلة التى سبقت رحيلها ظلت تتحدث حتى الصباح، جعلتنى اجتر فشلى! كان السم معداً بإتقان ودقة. كانت تتوقع هذا اليوم منذ زمن بعيد. كنت جالساً منكمشاً فى قاع الكرسى الموسد (الفوتوى) منذ الليلة السابقة. ولربما لو كنت جالساً على كرسى عادى، لكان من الممكن أن أنهض من فوقه أسرع، لكنت جريت نحوها وضربتها، لكنت قتلتها. لكن ذلك الكرسى الموسد فى ذلك الركن من الحجرة جعلنى أقوم بدور المتفرج؛ كنت أشاهد الدراما ولا أتحرك. مازلت أسمع آخر عبارة قالتها:

"سترى من أنا يا صاحبى؟ ستراني مختلفة تماماً عمن أحببتها! آه! ليس لدينا حظ، لا أنا ولا أنت. لكننى لن أستسلم للهزيمة. سأغلق هذا الكتاب لأفتح كتاباً آخر. سأتزوج فى آخر فصل "ديوثاً غنياً" يجعل منى برنسيسة، مليارديرة! وهذا أيضاً نوع من النجاح!".

وحينما طلع النهار، جعلها الضوء الخافت أكثر شحوباً؛ لكننى لم أتصور أنها ستعملها حقا. هذا كل شىء. شىء مؤسف أليس كذلك؟

– اسكت يا أندريه. لا بد أننى سببت لك ألمًا حينما حدثتك عن السعادة التى أنا فيها؟

– كلا، يا لويس. أكرر لك أنك قد أرحتنى. ثم هناك الزمن، الموسيقى... وأخيراً أنت.

– ولكن لماذا توقفت عن التأليف؟

- آه، كلا، لقد أفقدتنى هذه المرأة كل ثقة فى نفسى، جعلتنى أشعر بأننى عاجز عن أى عمل إبداعى. توقفت عن الكتابة. أنا أعزف فقط. وهذا يكفى.

- تعال، يا أندريه، إذا كانت سعادتى حقًا يمكن أن تسعدك وتعافيك مما أنت فيه. تعال "لتراها" بعينيك. لتلمسها بيديك. لنصعد إلى حجرة الصغير.

ودفع لويس أحد الأبواب، وأضاء نورًا وجعل يمشى على أطراف أصابعه.

- ولكن يا لويس، ابنك لا يزال فى المستشفى؟

- نعم، لماذا؟

- أنت تمشى بحذر شديد، كأنك تخشى أن توقظه.

- أنا أبله يا صديقى. شىء أقوى منى، حينما كانت زوجتى تخيط حاشية المهد كنت أتكلم معها بصوت خفيض.

وجعل يفتح دواليب ويدفع أدراجًا.

- أنظر هذه البدلة الكاملة الصغيرة. أنا سعيد يا عزيزى.

- ليس أكثر منى يا لويس. أنا لم أعد أؤلف؛ لكن تنتابنى الآن الرغبة فى أن أعزف لك على البيانو ما أشعر به فى هذه اللحظة.

ونزلنا. وأشعل لويس مصباح البيانو، ومكث خلفى، وراحت النوتات الأولى تنساب! كان يفهم فى الموسيقى، والتقينا أخويًا فى انسجام أوصلنا إلى حالة التوحد معًا، ثم توسل إلى أن أعزف له ألحانًا من ألحان الماضى. وجعل يتمتم بالعبارات الرخيمة وهو يسبقنى فى أداء المقطوعات. لم يكن قد نسى شيئًا!

لم أدركم من الوقت استغرق هذا الحفل الموسيقى المحفوف بالحنان والرقة والعذوبة. كنت أشعر بقلبى حارًا، وكانت يد صديقى الثقيلة على كتفى تضايقنى، لكن

كان يضغط أصابعه ويرخيها حسب الإيقاع أو حسب شعور ما كنت أعزفه. كان يتابعني ويسألني فكنت لا أتأخر في الإجابة.

- اسمع يا لويس. هذه الأغنية هي آخر أعمالي! لقد كتبتها من أجل المرأة التي حدثتك عنها. هذا اللحن لم يطبع من قبل وأنا وهي وحدنا نعرفه! لم أعزفه على الإطلاق!

وما أن بدأت أضغط على أولى الائتلافات حتى غرقت في الذكريات؛ ولولا ذلك للاحظت على الأقل على لويس تغييراً في موقفه. كان لا يزال ورائي، ويده الثقيلة فوق ذراعي، وأنفاسه تتلاحق وهو يردد قائلاً:

"لحنك يحلق وهو يضحك".

"ويرقص ويجذبك يا حبي".

وجعل لويس يردد كما ردد مع ألحاني. وبدأنا معاً نترنم بصوت خفيض. وأنا اليوم متأكد أنه كان يسبقني. كان يعرف اللحن مثلي تماماً. ثم سمعته يردد وحده:

"ويقفز وينطلق كالمجنون".

وتوقفت عن العزف. وراحت يده تدق على لوحة المفاتيح وهو يصرخ بي قائلاً:

- أندريه، استمر، استمر في العزف.

وجعل نفسه القصير اللاهث ينفث في شعري، ويمس أذني ورقبتي، بل لقد شعرت به في يدي:

- استمر في العزف. هل تسمعني؟ استمر. أنا آمرك أن تستمر!

واتكأ على ظهرى. واضطرنى هذا الوضع إلى أن أنحنى على المفاتيح. وذاب اللحن فى صوت صديقى المبحوح المكتوم. وجعل يردد اللحن لكى يؤكد قناعته، وامتزج أنينه بالقوافى. لقد اتضحت الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك. ورحنا شيئًا فشيئًا نحققها:

وجعل يصرخ يأسه المريع قائلاً:

"موت ويحيى وضاءً..."

– عنوان هذا اللحن هو "أغنية إلى فرانشون" أليس كذلك؟ وفرانشوان هى مارى فرانسواز. كانت هذه اللازمة ترد دائمًا على شفتيه.

وتشبث لويس بى، لم يعد يستطيع أن يقف إلا معتمداً على كتفى يحطمهما:

– أعزف، يا إلهى! إياك أن تتوقف. أريد أن أتأكد. أريد أن أعرف.

"ويرقص ويجذبك يا حبى".

ابتسامة مارى فرانسواز؟ كذب ... كذب!

"يموت ويحيى وضاءً"

– قالت لك: "سأتزوج ديوثًا غنيًا"؛ ديوثًا؟ إذن؟... ابنى؟

وأطلق لويس حشرجة خفيفة وهو يخر على ركبتيه. وجعل يدير رأسه فوق الكرسى الذى كنت أجلس عليه. وأردت أن أساعده. وبكل عنف وقسوة ألصق يدى فى نوتة المفاتيح.

– نفذ ما أطلبه منك، اعزف!

وزاغت عيناه. وقطب وجهه. ونهض وهو يقبض على البيانو. وجعل يتضرع إلىّ ويقول:

– اعزف حتى النهاية، اعزف. هذا اللحن هو لحنك "أنت". لقد فهمت كل شيء! كل شيء! إن المرأة التي أحببتَها أنت هي ماري فرانسواز.. وجعل يتلعثم ويقول:

– وهذا الطفل! هذا الصغير؟ لقد أدركتُ الآن... لستُ أنا! الطبيب الجراح هو أبوه!

وخار فوق البيانو، وقد انبسطت ذراعاه. وجسده القوي، مهزومًا، فوق جثة سعادته الرهيبة. هذا الشبح الذي يثير الشفقة. مدفونا في هذا التابوت المزري، في هذا البيانو النعش!

ولذت بالفرار إلى الخارج، تحت وابل المطر! غداً سأشرب، كما شربت من قبل! ولكن، ماذا سيحدث لي غداً؟

***

رحلة إلى باريس

تأليف: دودلى باركير Dudley Barker

على رصيف محطة فيكتوريا، وأمام قطار الليل المتجه إلى باريس، وقف رجل تظر ابنه. كان متوتر الأعصاب، فقد كان يخشى ألا يتعرّفه. وأشعل سيجارة وجعل إقب الأشخاص الذين كانوا يتمشون بحذاء القطار مثنى مثنى، وقد تدثروا فى ،اطف ثقيلة.

وعلى حين فجأة، ظهر (أوليفييه) خلفه وقال:

– هالو بابا!

فالتفت الرجل فى بطء وقال:

– لقد عرفتنى إذن؟

– طبعًا، الأمر سهل مع الصورة الفوتوغرافية.

– كنت أتساءل هل سأعرفك أنا لو افترضنا أننى كنت سأراك أولاً. أنت أكبر مما كنت أتصور. ثم هناك شىء ما ناقص... ماذا... آه، الزى الرسمى.

– وجدت من الأفضل أن أتركه أسبوعًا فى مستودع الملابس.

وضحك الأب ووكز ابنه وكزة خفيفة. ثم قدم جوازى السفر إلى ضابط الجمارك، قائلاً:

- جون سبارّو. وهذا ابنى. آخر مرة رأيته فيها، كان فى الرابعة من عمره، والآن بدأنا نتعارف. وأنا أصحبه لقضاء أسبوع فى باريس.

فقال له الضابط:

- رحلة سعيدة.

ثم خط علامات بالطباشير على حقائبهما.

بعد أن استقرا فى القطار، ذهب جون إلى مقصورة ابنه وجلس على حافة سريره. لم يكن الابن يشبه أمه فى شىء. وحاول جون أن يتصور وجه (مارتا). ولكن كانت هى الصورة الفوتوغرافية نفسها التى كان يراها - ليست الصورة التى تسلمها العام الماضى التى تصور (مارتا) مجهولة، ربة بيت بنظرتها الجامدة، أما مارتا الحقيقية، الأصلية، مارتا الشابة الطائشة، ذات الشعر القصير، مارتا التى ما بين العشرين عاما والثلاثين، مارتا ذات العينين الواسعتين السمراوين - عينين سمراوين، نعم. إنه يذكر هذه الصفة بالذات. وقال لابنه:

- أنا لا أعرف رجالاً كثيرين اكتشفوا بين يوم وليلة أن لهم ابنًا ضخمًا هكذا مثلك، ويهدونه أول رحلة له فى باريس. يا لى من رجل أنانى. إننى بكل بساطة أحب أن أعيش مرة أخرى أول رحلة لى قمت بها فى فرنسا.

- هل تركت هذه الرحلة فى نفسك أثرًا جميلاً؟

- كانت رحلة شهر العسل، أنا وأمك. هذا شىء قديم. وقد جبست ذكرياتى داخل خزانة معطرة بالياسمين. لا تظن أننى سأقوم برحلة غرامية.

ثم تساءل: "هل هذا أكيد؟".

وهنا تجرأ أوليفييه وقال:

- لقد ترددّت فى أن أحدثك فى رسالتى إليك حول هذا الموضوع. لكننى أحب، إذا أردت، أن أتحمل جزءًا من مصاريف الرحلة. هذا يسعدنى حقًا.

فصرح جون قائلاً وهو يبتسم:

- أما هذا، فلا. أنا مازلت قادرًا على أن أقدم هذا لابنى.

- إذن، تسمح لى مرة بأن أدعوك إلى العشاء فى أجمل ملاهى باريس.

- اتفقنا.

وعاد جون إلى مقصورته. وجعل يتلهّى لحظة بما فى المقصورة من إكسسوارات: الدوارق المعلقة على الجدران، الطاولات الصغيرة التى تطوى، والطفايات ذات المجارى، وغير ذلك مما تعتبره السكك الحديد ضروريًا لجلب النوم للمسافرين. ثم أطفأ جميع الأنوار، باستثناء القرّاية، وتمدد فوق الفرش.

هذا إذن أوليفييه، أوليفييه، نتيجة سبب يكاد يصبح فى طى النسيان. لقد تشاجر هو ومارتا - أوه، ليس لأمر خطير. والله يعلم أنه لم يعد يتذكر أى شىء عن "ملابسات المأساة". لاشك أنها شىء تافه جدًا.

فى تلك الليلة، كان قد خرج من البيت ودخل مقهى فى ركن الشارع. واحتسى كأسًا من البيرة. بعد ذلك بدأ يتساءل عما كانت تعمل من ناحيتها، وقد ذهب عنه الغضب شيئًا فشيئًا. وشعر بواخزات الضمير، وفيما كان يهم بالعودة إلى البيت، جاءت هى وجلست بجواره وأمسكت بيده.

بعد ذلك بعشرين عامًا، كان طيار قاذفة القنابل، ذو المشية الرياضية، والعينين الصافيتين الذكيتين، ينام فى القطار المتوجه إلى باريس.

فى صباح اليوم التالى، وفيما كانا يجلسان فى عربة المطعم فى القطار، تساءل جون:

- بفعل أى سحر تحول هذا القطار؟

كانوا قد شبكوا فى القطار عربة مطعم فرنسى علقت على جدرانها لافتات إعلانية صغيرة تثنى على بعض المشروبات والمشهيات. دون أن تنسى النصيحة التقليدية التى تقدم للمسافرين؛ "الرجاء عدم الانحناء إلى الخارج". المنظر أيضًا تغير؛ بيوت عالية، نوافذ شبه مغلقة، شوارع تحفها أشجار الحور على طريقة الفنانين الانطباعيين، وأمام النوافذ تتابع الزراعات بلا حواجز أو أسوار.

ولاحظ جون أن من الخطأ القول بأن العالم صغير. العالم كبير جداً. أو بالأحرى، هو مجموعة من العوالم المختلفة يلتحم بعضها بالآخر.

وفى محطة الجنوب، سرّه انجذاب الفتى بمنظر الحمالين فى زيهم الأزرق، وصف سيارات الأجرة ذات اللونين الأحمر والأسود، وجمهور الناس الذين يسرعون بالدخول إلى عربات المترو. كانت الشمس تشرق لطيفة على شرفات المقاهى وأكشاك الصحف. وثمة نسوة عجائز فى ثياب سوداء يحملن الدلال والمقشات وينظفن واجهات المحلات. وفى الشوارع يتسكع بعد المارة. وبعض الشبان على رءوسهم كابات، يبدّلون فوق دراجاتهم، وتحت آباطهم أرغفة طويلة من الخبز.

كان الفندق الذى ينزلان فيه يقع بين شارع الشانزيليزيه ونهر السين.

واقترح جون قائلاً: ممكن أدخل الحمام؟

كان يرغب فى أن يخلو بنفسه لحظة. كان الوصول إلى باريس يثير عنده دائمًا هذه الرغبة. لم تكن مارتا ذات جمال صارخ. لم يكن بها شىء ممتاز، ولكنه فى ذلك

العصر كان يراها رائعة. كانت يوم وصولهما إلى باريس ترتدى إحدى قبعاتها اللا معقولة التى تكاد تخفى جبهتها تمامًا. بمجرد دخولهما الغرفة، وضع الحقائب ورفع مارتا بين ذراعيه. وتمتم قائلاً: "نحن وحدنا".

لقد احتفظت هذه الذكرى بحيويتها اللطيفة. وبعد لحظة، انسلت من بين يديه، فأمسك بيدها وأخذها إلى الشرفة الغارقة فى الشمس. وكان فى نافذة العمارة المواجهة للفندق عجوز بلحية صغيرة مهذبة. فانحنى لتحيتهما؛ فبعثت إليه بقبلة.

بدأ النهار رائعًا، فخرج إلى الشرفة. ولاحظ (أوليفييه) الذى التفت نحوه وابتسم. وألقى جون نظرة عفوية على العمارة المواجهة باحثًا عن رجل عجوز بلحية مهذبة. لكنه لم ير سوى نوافذ خالية، وتحت العمارة حارسة جالسة فوق كرسى موسد متهالك، تشتغل بالإبرة أمام بابها. وقال:

– نحن نضيع الوقت. نحن فى باريس منذ ساعة، ولم أشرب حتى الآن كأسًا واحدًا.

ودخل حجرته وأسرع يفتح الحقائب. ودخل الحمام. وبعد نصف ساعة، كانا فى طريقهما إلى الشانزيليزيه سعيدين كطالبين فى العطلة الصيفية.

وتزينت باريس من أجلهما. وفيما كان يتأملها من أعلى برج إيفيل، لم تلبث أن تدثرت فى ستارة من المطر الخفيف بادرت بخلعه على الفور – كما تفعل الراقصة بغلالتها – لتسمح بظهور ناطحة سحاب من خلال قوس النصر.

وفيما كانا يجلسان فى شرفة أحد المقاهى، جعلا يتطلعان إلى طابور النساء الشابات وهن يطرقعن بكعوبهن العالية، والرجال والشيوخ فى بدلهم الكاملة يتسكعون.

وهبط الليل وديعًا هادئًا، وإذا إيقاع الحياة يتخلى عن بطئه ويسرع. وصعدا إلى حيث دخلا مطعمًا صغيراً تكسو جدرانه بالكامل لوحات تمثل مناظر طبيعية مختلفة. ولم يلبث شارل الطباخ وعلى رأسه طاقيته البيضاء، أن تقدم منهما وقدّم إليهما دجاجة شواها أمامهما، فوق طبق من عيش الغراب مشربة بعصير الليمون والتوابل، وهو يصحب كل حركة من حركاته ببعض عبارات غير مفهومة.

وبعد العشاء، قاما بنزهة لطيفة، ودخلا ثلاثة مقاه أو أربعة، وانتهى بهما المطاف إلى ملهى ليلى على شاطئ السين، يجران خلفهما أمريكيًا ضخمًا فى العقد الخامس، كان يمشى فى أثرهما، ويصر على أن يروى لهما قصة أسهم البترول.

ورقص أوليفييه والأمريكى مع فتاتين. أما جون فقد رفض دعوة فتاة ثالثة مفضلا الجلوس مع الكأس.

وتوقفت الأوركسترا عن العزف وعاد أوليفييه والأمريكى إلى المائدة مع الراقصتين وطلب جون مشروبات للجميع. كان الأمريكى ثملاً بعض الشىء، وجعل أوليفييه مع أبيه يرمقانه فى سخرية لطيفة.

ولم ينس الأمريكى أن يروى لهما قصة أسهم البترول، فقال:

- نصحنى صديق أسديت له معروفًا بأن أشترى إذا كان السعر أقل من ثلاثة دولارات. فاشتريت بطبيعة الحال بدولارين ونصف الدولار، سعر معقول. بعد أسبوع ارتفعت الأسهم إلى ثمانية دولارات ونصف الدولار، فسألت صديقى: "ألا ترى أنه وقت مناسب للبيع؟" فقال لى: لا تفرط فى الأسهم. انتظر. وبعد شهر ارتفع السعر إلى ثلاثة وعشرين دولاراً للسهم الواحد. ألا ترى أن هذا هو وقت مناسب للبيع، كما يعتقد أى شخص؟ خطأ يا سيدى. فبالنسبة لى كل شىء أو لا شىء. فارتفع سعر السهم إلى اثنين وخمسين دولاراً، كان معى ألف وخمسمئة سهم. ما قولكما فى ذلك؟ فقال أوليفييه:

– هذا مكسب كبير.

– أعرف. ولكن، انتظر البقية. لقد جفت آبار البترول، لم تعد هناك قطرة واحدة من البترول. هل تريد أن تعرف كم تبلغ قيمة أسهمى الآن؟

ووضع رأسه على المائدة وراح يبكى بكاءً حاراً.

وأطفئت الأنوار، وسلط كشاف ضوئى على امرأة شرعت فى الغناء. كانت سوداء الشعر وضخمة الأنف، طويلة الساقين. كانت نحيفة وتبدو مرهقة، تكاد تسقط بين لحظة وأخرى.

ونظر جون إلى ابنه الذى كان يصوب نظره بطبيعة الحال على المغنية. وأدرك جون على الفور الهدف الرئيسى من هذه الرحلة؛ فى سن العشرين، وفى باريس للمرة الأولى ويضطر عند عودته إلى أن يخترع كل أنواع المغامرات لإرضاء أفراد الفرقة. من المؤكد أن الشاب لا يستطيع، ولا يجرؤ أن يثير هذا الموضوع مع والده. فهما يعرفان بعضهما بالكاد، وهى معرفة غير كافية ... إذن فلا مجال للتبسط والألفة. علاقتهما وديّة، لكنها محكومة بالتحفظ. تمنى أن يقول له: "لا تشعر بالحرج، انطلق" بكل حرية، ولا تهتم بما يمكن أن يفكر فيه أبوك. لا تتقيد لأن أباك موجود، بالقرب منك. فأنت حر فى تصرفاتك، وأنت بمفردك، كما نحن جميعا."

وانصرفا بعد انتهاء فقرات العروض، يتبعها الأمريكى. واستوقفا سيارة أجرة وتوجها صوب سوق الهال.

كان الفجر يشرق على الوجوه المسنّة المدبوغة، وعلى السحن السوداء، وعلى رءوس القرنبيط البيضاء المستديرة، وعلى الطماطم الحمراء، والبصل والثوم. ودخلوا أحد المطاعم واحتسوا شربة البصل المشهورة فى السلاطين العميقة. واشترى الأمريكى حزمة جزر. وتركاه هناك، وعادا إلى الفندق.

وقال أوليفييه وهو يتنهد:

– يا له من يوم رائع! كم أنا سعيد!

وتمدد جون فوق السرير. كان يشعر بأنه عجوز طاعن فى السن.

وذات صباح، استقلا القطار المتجه إلى حدائق فيرساى واجتازا أحياء هادئة ساحرة يعجب المرء من أنها على أبواب باريس، لأنها تذكّر بالفضائل العائلية. فباريس أشبه بالنجمة المشهورة، فى حين أن ضواحيها تمثل حياتها الخاصة.

وتنقلا فى جنبات القصر، وتنزها فى الحديقة. وجلسا تحت شجرة على شاطئ البحيرة، وعلى مقربة منهما كانت إحدى العائلات تتناول الغداء، والأم توزع السندوتشات على الأفراد، والأب قريب منهم، بينما الأولاد غارقون فى ملذات يوم جميل فى الهواء الطلق.

ولاحظ أوليفييه قائلاً:

– ما أهدأ الجو هنا! كأننا على بعد أميال من باريس.

وبعد لحظات صمت، سأل جون ابنه قائلاً:

– ماذا قالت مارتا عنى؟

– ماما؟ أشياء عادية. لم تحك لى حكايات، ولم تقل لى إنك كنت مضطراً بسبب أعمالك للحياة أن تكون بعيدا عنا، أو أى شىء من هذا القبيل. بل قالت لى بكل صراحة إنكما لم تكونا على وفاق تماماً. وأنه فى مثل هذه الحالة من الأفضل أن يعيش كل منكما فى ناحية. وقالت لا يوجد أحد على حق تماماً أو على خطأ تماماً. وأنه لا ينبغى أن نحكم على الأشخاص، لقد أصبحت متدينة جداً. طبعًا أنت تعرف ذلك.

– هذا ما كان يناسبها.

– يعنى.

وأخرج جون من جيبه كتيِّبا هو مرشد فيرساى وقال:

– اسمع. نحن حتى الآن لم نفعل شيئًا ذا بال. أمامنا الكثير والكثير من الأشياء التى ينبغى أن نراها. هناك قصر (تريانون) الصغير، إياك أن يفوتك. أنت تعرف تاريخه. كانت الملكة أنطوانيت تعيش فيه. ويقولون إن روحها تظهر فيه من آن لآخر. فقد شاهدتها معلمتان قبل عامين، وكتبتا كتابًا صغيرًا حول هذه الواقعة.

– وأنت، هل حدث لك أن رأيت شيئًا هناك؟

– تريد الحقيقة. لقد جئت عدة مرات إلى فيرساى، لكننى لم أستطع أن أصعد إلى حيث يوجد القصر الصغير. فحينما كنت أصل إلى هذا الارتفاع، كنت ألاحظ أننى مرهق جداً ولا أستطيع أن أكمل، كما حدث اليوم.

– إذن، أقترح عليك أن تبقى هنا، وتستريح قليلاً، بينما أقوم أنا باستكشاف المنطقة. هل هو بعيد قصر تريانون؟ لننظر. هذه هى الخريطة... كلا، ليس بعيداً. سأعود بعد ساعة واحدة.

وتمدد جون فوق العشب، وتطلع إليه وهو يبتعد وصاح به قائلاً:

– انتبه، فمن الممكن أن تقفز قفزة إلى الماضى.

فالتفت إليه أوليفييه مبتسماً وقال:

– لا تخش شيئًا.

ومكث جون وحده يحلم.. لو كان بالإمكان عودة ما كان، لو كان يستطيع أن يعود إلى زمن زواجه بمارتا، لو كان يقرِّر حينئذ ألا يتركها.

لقد واجها الحياة المشتركة بثقة متبادلة. وبعد شهر العسل فى باريس، استقرا فى لندن فى شقة صغيرة رخيصة، فى أحد أحياء لندن. من نوافذ الشقة كانا يشاهدان

الحفلات الحمراء أشبه باللعب تتوجه نحو (ماربل أرش) وفى حجرة المعيشة، علقا على الجدران بطاقات بريدية فى إطارات من خشب الماليز، حسب الموضة السائدة فى ذلك الوقت من الثلاثينيات. كانت بالشقة أيضًا زجاجة ضخمة مكرشة استطاعا تحويلها إلى مصباح، كما نجد فيها المزيج من الأشياء؛ طوابع بريدية غريبة، ملصقات من بعض زجاجات السوائل، ورسوم مضحكة لبعض رسامى الكاريكاتير. وفى أحد الأركان تمثال صغير لزنجى من الزجاج الملون. كما نجد بعض الزهور فوق إفريز النافذة.

كان الطعام رخيصًا فى ذلك العصر. وكانت الحياة رائعة. وكان لهما أصدقاء كثيرون.

فما الذى اعترض طريق سعادتهما؟ فى الحقيقة، كان جون يعرف ذلك جيدًا، لقد أفسد ميلاد أوليفييه كل شيء. فقد ظلت طوال فترة حملها لا تكف عن الشكوى من حالتها، وما أن وضعت الطفل حتى تحولت إلى أم حاضنة منصرفة تمامًا إلى وليدها. أما جون الذى سعد لأنه أصبح أبًا، فقد بدأ يشعر بالغيرة من الوليد. صار اهتمام مارتا ينحصر فى إعداد الأطعمة المناسبة للوليد، أما زوجها، فلا تقدم له سوى الأطعمة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع. أما الأصدقاء فقد أوصد الباب أمامها. فقد كانت مارتا تخشى أن توقظ الأحاديث الطفل الوليد.

أصبحت الحياة قاتلة. وقد لاحظ ذلك، ثم أخبرها به فى لحظة غضب، قال لها:

– لا داعى للاستمرار إذن.

وسافر، ليترك لزوجته فرصة الحصول على الطلاق، ثم كتبت له مارتا بعد ذلك أنها عادت إلى قرية طفولتها، حيث لا تزال تعيش أمها الأرمل. فجاء لكى يودعها فى المحطة، وافترقا صديقين.

بعد عدة سنوات بدأ يفكر فى الأيام السعيدة التى قضياها معا، ذكريات، كانت ترد على خاطره من آن لآخر.

وفتح عينيه؛ فإذا أوليفييه يقف أمامه.

قابل أوليفييه (آنيت) في مضمار سباق الخيل. كان في طريقه إلى الشباك لاستلام المبلغ الكبير الذي فاز به. فقد راهن على جواد مجهول فكسب ثمانية أضعاف المبلغ الذي راهن به. وعاد معها إلى المضمار. قال لها:

- أرأيت أنني لم أكذب عليك. وأنني فعلا بصحبة أبي. بابا، أقدم لك آنيت.

فقال جون وهو ينحني مازحًا:

- أصدقاء ابني هم أصدقائي.

كانت الفتاة طويلة، سمراء، جميلة، متزنة. وكانت ترتدي ملابس غالية. وقال أوليفييه:

- تعارفنا الآن. فقد لعبت هي على الحصان نفسه الذي لعبت عليه أنا.

فاقترح جون عليهما قائلاً:

- نحتفل بهذه المناسبة في المقهى؟

وجلسوا جميعًا حول إحدى الموائد، وقدم لهما شرابًا. وقال جون في نفسه: "بالنسبة لشاب في العشرين من عمره، عنده ذوق" وبعد ثرثرة جماعية، نهضت الفتاة وقالت:

- للأسف، يجب أن أنصرف لألحق بأصدقائي.

فسألها أوليفييه:

- أنت مصممة على لقاء هؤلاء الأصدقاء؟ أليس بإمكانك إهمالهم؟ فابتسمت وهزت رأسها بالنفي.

وقال جون:

- ربما تستطيعين العشاء معنا؟

- هذا المساء؟

- ولم لا؟

- للأسف. عندى موعد. ولكن لو جئتنى.

فصاح أوليفييه قائلاً:

- عظيم. أين؟

ونظرت إلى جون فى تردد، فلما وجدته يبتسم مرحباً بالفكرة، فتحت حقيبة يديها وأخرجت منها بطاقة زيارة وقدمتها إلى أوليفييه.

وصحبها إلى أصدقائها. وحينما عاد، قال لأبيه:

- من الآن، أخبرك بأننى أنا الذى سأدفع الحساب. هذه هى الفرصة لكى أقدم لك العشاء الشهير الذى تحدثنا عنه، فأرجوك ألا تعترض. أنا مصر على ذلك.

- يعنى، دعنى على الأقل أساهم. لا تنس أننا الآن ثلاثة.

فقال أوليفييه:

- ليست هناك مشكلة. بالمناسبة، إذا كان هذا لا يضايقك، فمن المحتمل أن نصبح أربعة، فهى تعيش مع صديقة لها، وأنا سأضطر إلى دعوتها هى أيضاً. هل ضايقتك؟

- كل هذا شىء رائع. ما اسم رفيقتى؟ هل رأيتها؟

- كلا، لم تكن موجودة. عرفت أن اسمها (جوزيه). ومن المؤكد أنها فتاة ممتازة. وهما تعملان معا مانيكانات فى بيت للأزياء.

عند عودته إلى الفندق، وفيما كان يرتدى ملابسه للعشاء، أحس جون بشعور غير لطيف وجد صعوبة فى تحديد طبيعته. شىء ما يشبه الغيرة. ولكن الغيرة مم؟ ممن؟ ربما الغيرة من الشباب.

وأمام المرآة، بعث إلى نفسه بابتسامة قصيرة تخلو من البهجة. هيا، يجب أن نكون شبابا هذا المساء. من الطبيعى أنهم سيسخرون منه. ولكنهم لن يظهروا له ذلك. فهم مهذبون.

كان أوليفييه قد ذهب لإحضار الفتاتين. وكان على جون أن يلحق بهم فى المطعم. فدخل أول مقهى صادفه وطلب شرابًا، وجلس فى الشرفة مع كأسه.

كان الليل شديد الإضاءة. وكانت جماهير غفيرة تموج فى الشوارع، لكنه شعر بأنه لا يستطيع أن يقوم إلا بدور المتفرج فى ملهاة الحياة هذه. بدا له أن أى مشاركة إيجابية، وأى متعة، شىء أصبح محظوراً عليه. كان مجنونًا حينما توهم أنه يستطيع من خلال أوليفييه أن يستعيد الماضى. وللمرة الأولى شعر بالندم لأنه أتى بالفتى إلى باريس، بل لأنه عرفه. قال لنفسه إنه بلغ السن التى لا يستطيع عندها الإنسان أن يعيش إلا مع الماضى.

وأفرغ الكأس، واستدعى سيارة أجرة وأعطى العنوان للسائق، وقبع فى المقعد الخلفى، وهو يطالع الجماهير تغدو وتروح. وخطر على باله أن أول رحلة لأوليفييه إلى باريس يمكن أن تكون الأخيرة. ألم يكن تحت رحمة انفجار؟ نعم، فهذا مصير جميع طيارى قاذفات القنابل.

وود لو يعود من حيث أتى إلى الفندق. ولكنه وجد أن السيارة الأجرة قد توقفت. فنزل منها ودفع الأجرة للسائق. ودخل. وأعجبه جوّ المطعم، وإضاءته الهادئة، وذوقه الراقى. ووجد الشبان على البار يشربون.

كانت (جوزيه) شابة كستنائية الشعر، مرفوعة الأنف. وقال جون للفتاة:

- إذا كانت لغتك الإنجليزية تعبانة مثل فرنسية أوليفييه، فأنت فى مسيس الحاجة لى.

فعقبت الفتاة فى ظرف قائلة:

- سأحاول جهدى.

وقال جون لابنه:

- أوليفييه. أنا فخور بك. ليس صديقاتك فقط جميلات، وإنما أيضًا صديقات صديقاتك رائعات.

فصاحت جوزيه قائلة:

- من المؤكد أن والدك فيه دم فرنسى يجرى فى عروقه.

فقال جون:

- عفوًا، هذا المساء، أنا لست والد أحد، فأنا الأكثر شبابًا. المهم هو شباب الروح.

وهنأ نفسه لأنه لم يعط أوليفييه أى نصائح حول الطريقة التى يدير بها المائدة، ويتحدث بها مع الجارسون ويختار المشروبات والطعام. فقد كان الفتى قد قام بكل شىء على أكمل وجه بلا أى تردد. وابتسمت آنيت لجون. وكما هى الحال دائمًا حينما تعجبه امرأة، بدأ يجد فيها شيئًا من (مارتا).

كانت جوزيه بجواره تتلعثم بطريقة لطيفة وهى تتحدث الإنجليزية بطريقتها الساحرة. وهى تفرح حينما تضحك الجالسين معها. أما آنيت فهى أكثر رزانة، أكثر أنوثة، ومن المؤكد أنها أكثر دراية بأمور الحياة... لقد راوده الشعور بذلك.

والتفت نحو جوزيه وبدأ يثرثر معها. ثم أصبحت المحادثة رائعة، ولم يلبثوا جميعاً أن غرقوا فى سيل من الضحك وهم أشبه بمجموعة أطفال أمام عرض للعرائس. وبدأ الجارسون يقدم لهم الأطباق بطريقة لطيفة أما مدير الخدم (المتردوتيل) فكان يشملهم بنظرة أبوية كلما اقترب من المائدة.

وفجأة أعلن جون قائلاً:

- يجب أن نشرب نخب هذه المناسبة. انتظروا! أنا أشرب نخب كل من فى سن العشرين.

فاعترضت آنيت قائلة:

- كلا، كلا، لا نتحدث عن الأعمار. بل نشرب نخب المستقبل؟

فسأل جون ابنه قائلاً:

- أيجب أن نشرب نخب المستقبل؟

فأجاب أوليفييه:

- ولم لا، لنشرب نخب جميع الأشياء التى سنعملها، والمتعة التى سنشعر بها ونحن نعملها.

فعقب جون قائلاً:

- نشرب نخب المستقبل. نعم، المستقبل.

نعم. يشربون نخب المستقبل. يشربون نخب، أى شىء يريدون، بشرط ألا يكون هناك كلام عن الماضى.

وود جون لو يصعد فوق المائدة ليشرب نخبه. لكنه لم يصنع. وأفرغوا جميعا كئوسهم بكل الاحتفالية اللائقة.

وصرح جون قائلاً:

– أنا سأصحب جوزيه بعد قليل. فسنرقص معًا. أما أنتما فتصرفا كما يحلو لكما.

كان العرفان الذى أشرق به وجه الابن يبعث على الضحك قليلاً. وواصلت آنيت ابتسامها اللطيف.

واستطرد جون قائلاً:

– هل تريدين فعلاً أن ترقصى معى يا جوزيه؟ فلنترك هذين لمصيرهما البائس. فهما عجوزان بالنسبة لنا وجادان أكثر من اللازم. أما نحن فأطفال، أليس كذلك؟

فقالت جوزيه:

– رأسى يدور قليلاً مع طنين خفيف.

فساعدها فى النهوض وركوب سيارة أجرة. وقبل أن يخرج، توقف عند مدير الخدم وقال له:

– هذا فى حالة لو قصّر ابنى فى دفع الحساب.

وأفرغ فى يد الرجل كل ما كان يحمله من نقود تقريبًا.

وسألته جوزيه قائلة:

– أين سنذهب؟

فقال جون بنبرة تغلفها الطيبة:

– اسمعى يا صغيرتى، أنا لم أعد شابًا. فأنا عجوز، يا جوزيه، عجوز جداً. وأريد منك خدمة عظيمة، يا صغيرتى، بشرط ألا تغضبى، اتفقنا؟ إذن. أعط عنوانك

للسائق. بعد ذلك تنزليننى عند أول مقهى نمر عليه. هل تعملين ذلك من أجلى يا جوزيه؟

- لعلك لم تجدنى مرحة بما فيه الكفاية؟ أو ذلك لأنك تشعر بأنك حزين؟

- هو ذاك تقريباً، يا جوزيه.

وشعر بتأنيب الضمير، وهو يغلق باب سيارة الأجرة ويشيّعها بنظرته. هذه الطريقة التى يصرفها بها إلى بيتها... آه! وأسرع يصرف تفكيره فى ذلك.

ومكث مزروعاً على الرصيف، يتأمل المدينة التى تصول وتجول من حوله: أضواء الشانزيليزيه وسيارات الأجرة والشبان الذين يتسلون فى شرفات المقاهى، والجماهير التى تيمم شطر ملذاتها، كل ذلك العالم المفتون بالرغبة فى الحياة.

وخرج من المقهى أمريكى بادى السعادة. وأقبل على جون. وتوقف بجواره وقال له متحمساً:

- ليلة جميلة، أليس كذلك؟

كان يشعر بالحاجة للتحدث مع أى شخص.

فهز جون رأسه.

واستطرد الأمريكى يقول بلهجة شاعرية:

- أنا مستعد لكى أدفع أى مبلغ لكى تكون (إيستيلا) معى هذه الليلة. ستكون سعيدة إذا رأت هذا. إيستيلا. لقد تركتها فى البيت فى حى (أوهيو)، لكنها ينبغى أن تكون هنا، هذا المساء. إيستيلا، زوجتى، امرأة رائعة.

وألقى الأمريكى على باريس نظرة رضا وأنس، ثم التفت إلى جون وقال بنبرة جادة:

- أؤكد لك، عندى زوجة رائعة، فى البيت.

فالتفت إليه جون وقال بكل رقة وظرف، قارنًا كلامه بحركة من ذراعه يحتضن بها باريس كلها والعالم أجمع.

- آه يا صديقى، لا بأس. ولكن قل لى، هل عندك ابن، هه، هل عندك ابن؟

***

الشـــك

تأليف: جوناس لامبتى Jonas Lamptey

من إنجلترا

وقع حادث أمام مكتب مفتش مركز "دوبياسى". سيارة نقل عليها خمسة أطنان من الأسمنت أرادت الدوران، فاصطدمت بسياج الحديقة الصغيرة ودمرت عجلاتها واجهة الحديقة. وكانت هذه الحديقة محل رعاية شديد من قبل المفتش، فقد جعل منها جنة صغيرة تتناقض مع بقية المركز الذى يغلب على مبانيه الطوب الأحمر الذى يميز هذه المدينة الأفريقية.

وحدثت جلبة كبرى. فقد تجمع العاطلون والمتطوعون لمدّ يد العون. ولم يمنع ذلك أن يدوسوا بأقدامهم عشب الحديقة. وجعلت عجلات السيارة تنزلق فيتطاير الطين عليهم.

وفى قاعة الانتظار بالمحكمة تجمع الفلاحون من أهل المركز حول المكتب لاستلام الدعم الذى خصصته الحكومة بسبب الضرر الذى أصاب محصول جوز الهند. وحينما سمع الفلاحون الصياح أسرعوا إلى النوافذ يتفرجون.

وترك مفتش المركز كرسيه الموسد على الفور وذهب إلى إحدى النوافذ حيث اختلط صياحه مع كونشيرتو أصوات المواطنين. كان فى الثلاثين من عمره تقريبًا. وكان شعر رأسه يلتصق بصدغيه بتأثير حرارة الجو.

واستطاعت السيارة النقل التى دفعها المتطوعون أن تخرج ثانية إلى الطريق بعد أن أصبح جزء من السياج فى خبر كان.

ثم استؤنفت عملية توزيع النقود. وكان صوت " ستانتون " الموظف الذى يقوم بالتوزيع عاليًا حيث يطغى على جميع الأصوات:

- "كولى بونج"، أربع وأربعون شجرة، أربعة جنيهات وأربعة شلنات.

"كوامى أتاكورا" ثمانى وثلاثون شجرة، ثلاثة جنيهات وستة شلنات.

وما لبثت رزم الأوراق المالية أن تضاءلت مع التقدم فى التوزيع، تضاءلت بسرعة خارقة. وبعد ساعة من حادث السيارة النقل اكتشف مفتش المركز اختفاء مئة جنيه من العهدة. فصاح مناديًا:

- بونتانج!

- نعم يا سيدى.

ورمقه الكاتب الأول وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة. كان الرجل فى نحو الخمسين من عمره وكان عرقه يتصبب بسبب سترته الصوفية التى يمنعه تمسكه بالرسميات من أن يخلعها.

- من أخذ هذه النقود؟

ونزل السؤال على الكاتب نزول السوط. ولكن وجوده فى خدمة المفتش طوال عشرين عامًا عوده على أن يتحمل ثوراته وتجاوزاته بكل هدوء.

- أنا آسف، يا سيدى. الموضوع خرج عن إرادتى. إن حادث السيارة...

- كاى!

والتفت ستانتون إلى مساعده بونتانج، وهو رجل حاد النظرة يريد دائماً إرضاء رؤسائه وكان وجهه الأملس الأسمر يتعارض بشدة مع قميصه الأبيض المفتوح الياقة:

– عفواً يا سيدى. أنا لم أر شيئاً بالمرة. فقد تحول انتباهى إلى...

– أيها الشرطى!

كان النداء موجهاً إلى رجل يرتدى طاقية حمراء، مهمته المحافظة على النظام بين الفلاحين الذين كانوا ينتظرون دورهم فى طابور طويل أمام المكتب.

– أنا لم أر شيئاً يا سيدى. فقد كنت مهتما بأمر هذا الجمهور الغفير من الناس، حينما اصطدمت السيارة.

فصاح المفتش قائلاً:

– ما شاء الله!

وألقى قلمه فوق المكتب فى حركة حانقة. وكان "كاى" يرمقه بانتباه شديد. وكان سريع البديهة ويقرأ خيراً من غيره ما يرتسم على وجه الرجل الأوروبى. وهو لم يشاهد طوال خدمته ستانتون فى مثل هذه الحالة التى يهم فيها أن يفقد أعصابه. وقد أصابه ذلك بالاضطراب. وكاد يعلن أن بونتانج هو الذى أخذ النقود؛ لكنه لم يكن متأكدا من ذلك تماما. وأراد أن يعطى نفسه فرصة للتفكير. ثم، وهذا هو الأهم، لا يمكن للمرء أن يتهم عمه أمام الناس.

وبمساعدة مفتش الشرطة الذى استدعى على عجل، تم تفتيش الأشخاص الحاضرين بمن فيهم الكاتب الأول وابن أخيه. لكن النتيجة كانت سلبية. وقال ستانتون مشيراً إلى قائمة تضم نحو ثلاثين اسماً:

– ساعة الحادث كنت مشغولاً بصرف الدعم لهؤلاء الأشخاص المسجلة أسماؤهم فى هذا الكشف. فالسارق لا بد أن يكون واحداً منهم. سيدى المفتش، أرجو أن

يتم تفتيشهم جميعاً دون استثناء، وكذلك بيوتهم. فواحد منهم يحمل رزمة المئة جنيه أوراقًا جديدة فئة الجنيه الواحد. أخبر جميع رجالك.

كان المفتش الذى يرتدى زيه الرسمى الضيق يتنفس بصعوبة بسبب الحرارة أيضًا. وكان يرمق ستانتون بنظرة مترددة. فقد تبين له مع قلة عدد الحاضرين، أن من غير المجدى البحث عن النقود بين ثلاثين شخصًا تفرقوا قبل ساعة للذهاب إلى بيوتهم.

فسأله ستانتون قائلاً:

- إذن، ماذا تنتظر. أسرع إذن.

ووقف ستانتون انتباه وأدى التحية. ثم أسرع إلى سيارته.

***

بعد انصراف مفتش المركز، جلس كاى إلى مكتبه، وبطريقة آلية جعل يحرر تقارير المحكمة الشهرية. والحقيقة أن هذه المهمة من اختصاص بونتانج بوصفه كاتب المحكمة، ولكن حينما يكون الكاتب الثانى هو فى الوقت نفسه ابن شقيق الكاتب الأول، فيتعين عليه أن يقوم بكل شىء.

وطفق كاى يتأمل الأحداث. كانت ثمة حكاية تؤرقه وتلح عليه، فحينما انصرف عن النافذة، شاهد بونتانج ينحنى على المكتب ثم ينتصب بطيئًا ويده تنزل بطول جسمه، فى حين كان وجه ذو الخدين المترهلين يستعيد هيئته الوقورة الفاضلة.

وكان بونتانج مدينًا للجميع فى البلدة. آخرها الشهر الماضى حينما "اقترض" خمسة جنيهات من ابن أخيه، ليتفادى صدور حكم كان سيصدر عن هذه المحكمة التى

يعمل فيها كاتبًا. وقد اضطر كاى إلى أن يؤدى له هذه الخدمة. فشرف العائلة لا يتحمل فضيحة كتلك.

كان فى المدرسة الابتدائية التى درس فيها كاى، بعض حصص من التعليم المدنى، هدفها تعويد التلاميذ على مفاهيم الفضيلة والمسئولية الاجتماعية. فى ذلك العصر، كان كل ذلك يبدو له شيئًا نبيلاً جديرًا بالاحترام والتقدير، فقد كان ذلك يتلاءم مع ديكور المدينة العصرى، مع المراكب التى كانت تتمايل على سطح ماء الخليج والأوناش الآلية التى تحرك أذرعها على رصيف الميناء. أما فى مدينة مثل " دوبياسى " المغمورة داخل الغابة، وحيث لا يزال الاحترام الكبير للتقاليد السلفية والأعراف القبلية، لم يعد لهذه المفاهيم أى صدى. وتسليم عمه لقبضة الرجل الأبيض يُعد جريمة فى حق الأسرة. وفضلاً عن ذلك، لم يكن على يقين تمامًا من أن عمه هو الجانى.

كان هذا العم جالسًا إلى مكتبه يدندن. ثم سأل ابن أخيه بصوت جهورى رنان:

– هل انتهيت من عملك يا بنى. لقد انصرف مفتش المركز، وعلينا أن نفعل ذلك نحن أيضًا.

كان كاى يبغض فى عمه كسله وإهماله لعمله، ووسائله الدنيئة مع دائنيه لتهدئتهم. وتحت وطأة حاجته للمال كان قد أخذ من خزانة البلدية جزءًا من حصيلة مبيعات أذون الصيد. وكان المفتش على وشك أن يكتشف العجز، لولا أن تمكن بونتانج من سده.

ولقد صرح بونتانج لابن أخيه وهما ينزلان إلى الشارع:

– يؤسفنى كثيرًا أنك لم تلحظ الطاولة بانتباه. لأنك إن كنت اكتشفت اللص لكان من المحتمل أن يمنحك مفتش المركز ترقية مكافأة لك.

كان كاى وهو يضع يديه فى جيبى الشورت ينظر خلسة إلى ثياب بونتانج، ويقول فى نفسه فى أحد هذه الجيوب: صحيح أنه تم تفتيش بونتانج، لكن كاى كان قد شاهده قبل دقائق وهو يخرج من قاعة المحكمة ليرفع سماعة الهاتف الذى كان يرن فى

المكتب المجاور. وقال كاى لنفسه كيف يمكن أن أتأكد من شكوكى دون أن أتسبب فى فضيحة عامة، إن خبر خيانته حينئذ سيشيع ويصل حتى القرية مسقط رأسه، على بعد خمسين كيلو متراً من المركز، حيث تقطن أمه وهى شقيقة بونتانج، وعندها يمكن أن تصاب الأم المسكينة بصدمة بسبب الجريمة التى ارتكبها ابنها فى حق أخيها.

كان كاى متأكداً من أن بونتانج بمجرد وصوله لجأ إلى حجرته وراح خلف الباب الموصد والستائر المسدلة يخفى النقود داخل صندوق حديدى يحتفظ به تحت سريره. كان الشاب يبغض دوبياسى وسكانها. وكان أسلوب حياتهم ينفّره. كان يبغض بيوتهم برائحتها الكريهة التى تملؤها الماعز والدجاج. كان يبغض جهلهم وخرافاتهم التى توارثوها أبًا عن جد. كان يبغض قلة ثقافتهم وعدم وجود أى نشاط فكرى. هو الذى أمضى خمس سنوات فى المدرسة الثانوية لا يمكنه أن يرضى بحياة تخلو من أى اهتمامات ثقافية.

قبل عدة أشهر، كان قد طلب منحةً دراسية تمكنه من الدراسة ثلاث سنوات فى إحدى الجامعات الإنجليزية. ومع الشهادات التى يحملها يمكنه أن يترقى فى الحكومة ويحصل على راتب يبلغ خمسة أضعاف راتبه الحالى، بالإضافة إلى فيللا أوروبية كسكن له. بل إن بعض المواطنين يعيّنون مفتشين مراكز، فلما لا يصبح مفتشا؟ حينئذ سيصبح مساويًا لستانتون نفسه. لكنه لم يسمع شيئًا عن هذه المنحة، فلعلها مركونة كمئات غيرها، والنتيجة النهائية تتوقف على توصية ستانتون.

حينما وصل كاى إلى دوبياسى قبل عام، ضغط ستانتون على يده ورمقه بنظرة ثاقبة وقال: "أرجو أن تعجبك هذه الوظيفة. أنت ابن شقيق بونتانج؟ إذن سيعلمك ويشرح لك كل شىء". ومنذ ذلك الحين لم يوجه إليه ستانتون أى حديث خارج العمل. فلا بد أنه يعرف من الذى يقوم بمعظم العمل. لكنه لم يكن يظهر شيئًا من ذلك. كان من الصعب فهمه. كان ينأى بنفسه عن المواطنين، كأنه كان يعرف كل شىء بالسليقة.

لقد عقد الصلح بين بعض القبائل التى كانت فى صراع دام سنين طويلة ولم يتمكن أحد قبله من الإصلاح بينها. باختصار، كان رجلاً حاد الذكاء.

وكان كاى يعجب بثقافته وفنه فى اكتشاف المزورين الذين كانوا يمثلون أمامه. لكن ستانتون كان يجهل مشاعر الكاتب الصغير نحوه. وما أن أغلقت المكاتب حتى أسرع إلى بيته الصغير المنعزل فى أسفل التل، وكأنه يهرب.

كان كاى يروق له أن يتلكأ فى نقطة التقاء الطريق الكبير والطريق المؤدى إلى بيت ستانتون على أمل أن يقابله. وفكر كاى، أليس من واجبه أن يذهب إلى مفتش المركز ويطلعه على شكوكه؟ ألا يكون فى ذلك دليل على نبل أخلاقه وسمو روحه حينما يضحى بسمعة أسرته فى سبيل الواجب الإنسانى والاجتماعى؟ لا بد أن ستانتون والحكومة أيضًا سيقدران له هذا الموقف النبيل الذى يتطابق مع مبادئهما. كذلك فإن ذلك سيميزه عن بنى جنسه ويزيد من فرص حصوله على منحة.

عند غروب الشمس، تسلل كاى فى زيه الوطنى إلى الطريق المظلم وما كاد يسير عشرة أمتار حتى سمع وقع أقدام ثقيلة من خلفه. وأحس بيد تجذب ذراعه، وسمع الشرطى يقول:

– السيد كاى، مفتش المركز يريد أن يراك. تعال معى.

***

كلما فكر ستانتون فى أحداث عصر اليوم، زاد اعتقاده أنه ارتكب إهمالاً شديداً. غباء أم عدم أمانة! دائمًا ما يكون المرء ضحية أحد هذين الأمرين. أما اليوم فهو ضحية الأمرين معًا. فعلى شاكلة الإنسان المبتدئ فى العمل، ألهته أحداث خارجية، وانتهز أحدهم تلك اللحظات من الإهمال لكى يسرق رزمة الأوراق المالية.

بونتانج وكاى – العم وابن أخيه -- فريق قوى بلا شك فى موقع يساعد فى ارتكاب السرقة. لكنهما لا يعملان معًا بالضرورة. وستانتون لا يعتقد أن بونتانج لص. فهو نموذج للموظف الأمين الطيب على الرغم من فهمه البطيء وكسله وحبه للمباهاة. صحيح أنه مديون دائمًا، وصحيح أنه يجيد جميع الحيل لاقتراض النقود من الخزانة الصغيرة بأقل قدر من المخاطرة. ومع ذلك فهو يرد كل شيء حتى آخر بنيّ. وبصفة عامة يمكن اعتباره شريفًا وأمينًا. أما كاى، ابن الأخ، فهو شيء آخر. فهو شاب شديد الذكاء والدقة. وهو لا يفصح كثيرًا عن دخيلة نفسه، ودائمًا ما ينأى بنفسه عن الآخرين. باختصار كان ستانتون لا يعرف عنه شيئًا. وفى بعض الأحيان كان يشعر نحوه بنوع من العطف. وكاى لديه طاقة عظيمة على العمل، بالنسبة لموظفى المكتب التقليديين. فهو نموذج للموظف الذى تحتاجه البلاد. وقد أوصى ستانتون بأن يحصل على منحة لإنجلترا، لكن ستانتون يريد الحقيقة.

وقام ستانتون بصرف رجل الشرطة الذى صحب كاى من المدينة، وجلس فى كرسى موسد فى الشرفة فى الزىّ الوطنى وهو بادى الضيق. وكان كاى يقف أمامه داخل دائرة الضوء الصادرة عن مصباح الزيت الموجود خلف ستانتون. وكان أريج زهور الحديقة تحتهما يضفى على الجو جمالاً وبهاءً.

كان كاى ينظر حوله نظرات متوترة. فما سبب القبض عليه؟ لأنه هكذا اعتبر طريقة استدعائه عن طريق رجل الشرطة، وسكان دوبياسى سيفهمون الأمر على هذا النحو. لكنه لم يقل شيئًا. كانت شمائل جنسه تفرض عليه أن ينتظر حتى يبدأ ستانتون بالكلام. وفعلا بادره الرجل قائلاً:

– لقد استدعيتك لكى أتكلم معك حول الحادث الذى وقع عصر اليوم. عليك أن تدرك – بطبيعة الحال – أنك متهم مثل الآخرين سواء بسواء، أنت وبونتانج، فقد كنتما أنتما أيضًا موجودين فى قاعة المحكمة. ولا شك أن واحدًا من الحاضرين قد تمكن من إخفاء النقود.

كان وهو يتكلم يتفرس وجه الموظف.

- وإذا لم يتبدد الشك ويتضح الأمر، فإن مستقبلك سيتأثر بذلك، حتى ولو لم تثبت إدانتك. هل تفهمني؟

ورسمت شفتا كاى همهمة بالموافقة. فهو يفهم ويتألم. ففكرة مفتش المركز عنه فكرة سيئة إذ يضعه على قدم المساواة مع الآخرين ... ويرسل فى أثره شرطيا يكلفه باقتياده كأى مجرم. وأدرك أنه إذا اتهم بونتانج فإن اتهامه لن يفهم على أنه أداء للواجب، وإنما باعتباره محاولة لدفع التهمة عن نفسه وتبديد الشك فى شخصه.

- أنا أقدم لك الفرصة لتفضى إلىّ بكل ما تعرفه حول هذا الموضوع. لست أنت الذى أخذ النقود، أليس كذلك؟

- أنا، يا سيدى؟

وفتح كاى عينيه على سعتهما. كلا، لن يصل به الأمر إلى درجة الدفاع عن نفسه، كما حدث لكثيرين أمام ستانتون.

- عفواً يا سيدى، ليس أنا. أخشى أن يكون الجانى هو عمى.

- بونتانج؟ مستحيل. كيف تسمح لنفسك بتوجيه مثل هذا الاتهام؟ هل رأيته؟

- لا أستطيع أن أقول إنى رأيته...

- إذن، لماذا تتهمه؟

- سيدى، حينما كنت عائداً من النافذة رأيته منحنيًا على الطاولة. ثم انتصب بسرعة. فأنا أتصور أنه أخفى النقود فى جيبه. خاصة أن عليه ديونًا كثيرة.

- ولماذا تأتينى الآن لتخبرنى بذلك. لماذا انتظرت حتى نشرت الشرطة فى أنحاء المدينة.

– عفواً، يا سيدى. إن بونتانج عمى. فمن العسير علىّ جداً أن أوجه إليه تهمة مباشرة. فأنا لم أستطع، أمام كل هؤلاء الناس، أن أنقل لسيادتكم شكوكى.

– هل كنت ستأتينى من تلقاء نفسك لو لم أرسل فى طلبك؟

وكاد كاى ينهار. فبدلاً من أن يشكره الرجل على المعلومة التى أخبره بها، فإنه يستجوبه كمتهم فى القفص.

– نعم يا سيدى. أنا كنت أتأهب لزيارتك، بل لقد كنت فعلاً فى الطريق إليك حينما نادانى الشرطى. ويمكن أن يخبرك بذلك. لم أكن نائماً.

ولم تفارق عيناه وجه ستانتون الشاحب، واضح الملامح.

– لو أمرت سيادتك بتفتيش حجرة بونتانج ...

فقال ستانتون بصوت متهدج:

– إنها تفتش الآن. وحجرتك أنت أيضاً. أنا أريد الحقيقة حول هذا الموضوع.

كان ستانتون يرمقه بنظرة غامضة. وشعر كاى بأن الآخر قد حكم عليه فعلا. واستدل ببعض العلامات على أن ستانتون لن يلبث أن يوجه إليه الاتهام.

وشعر كاى بالرغبة الشديدة فى أن يتكلم ويثبت براءته ومشاعره النبيلة. لكنه لم يقل شيئاً. بل عقد ذراعيه وظل صامتاً، أمام المصباح.

ورن الهاتف فى الفيللا، ونهض ستانتون ليرد على الهاتف. وبعد لحظات سمع صوت ستانتون وعليه علامات السرور يقول:

– هل نجحت؟ أهنئك أيها المفتش. أعترف بكل شىء... والمبلغ موجود؟ عظيم! احجزه فى زنزانة. سأحضر صباح الغد لأراه.

وعاد ستانتون إلى الشرفة بخطى واسعة. ثم قال بلهجة قاسية:

- فسر لى لماذا جئت تروى لى هذه القصة المزرية. ليس بونتانج السارق. لقد وجدوا السارق وهو أحد المزارعين.

لقد غيره هذا الخبر، وفرك يديه، وجعل يذرع الشرفة ذهاباً وإياباً وهو يفكر. فبينما كان قد بدأ يفقد الأمل في العثور على النقود، ها هو البحث ينجح، ويعاد المبلغ.

وجعل كاى يفكر وقد خفض عينيه. كان الخجل يمزقه، واعتقد أن ستانتون يشك فى أنه اختلق اتهامه لبونتانج بغرض خسيس وهو تحسين فرصته فى الحصول على المنحة. كان يتمنى أن يختفى، أن يذوب فى الظلام.

وتوقف ستانتون، ووقف خلف الكرسى يرمق الرجل بنظرة حادة، ثم سأله بكل غلظة:

- قل، لماذا؟ ماذا كان هدفك من مجيئك إلى هنا؟

وقبض على الكرسى ومال إلى الأمام، وظهر من ملامحه المتوترة أنه يبذل مجهوداً جباراً لكى يفهم.

ورأى كاى أن مستقبله كله مهدد. كان يريد أن يتكلم. كانت لديه أشياء كثيرة يريد أن يقولها، لكنه كان يقاومها منذ شهور مضت. إذن الآن، وإلا فلا إلى الأبد.

- أنا آسف يا سيدى، أنا أعترف بأنى كنت مخطئا.

- حقًا؟

- تصورت أن واجبى يحتم علىّ ألاّ أخفى عنك ما رأيته رغم صعوبة الاعتراف. أنا لم أكذب عليك يا سيدى. كانت نيتى طيبة حينما جئت إلى هنا لمقابلتك.

واستمر ستانتون يخترقه بنظراته:

– لقد حاولت دائمًا... أن أكون جديرًا بثقتك. لقد تصرفت دائمًا بشرف وأمانة. أرجو أن تصدقنى يا سيدى، أنا... أنا... لقد أردت دائمًا أن أساعدك.

وحول المفتش نظره بضيق وابتعد ببطء. وما أن بلغ نهاية الشرفة حتى عاد نحو كاى ووقف أمامه ناصبًا قامته:

– ما الذى دفعك لعمل ذلك؟ الواجب، أم الرغبة فى زيادة فرصتك فى المنحة؟

وبحركة من يده، منع الإجابة التى كانت ستتفجر غريزيًا على شفتى كاى.

– فكر جيدا قبل أن تجيب.

وانصرف عنه تاركًا له الفرصة ليفكر.

وأيقن كاى أنه تعرى تمامًا، ولم يبق لديه شىء يستطيع أن يخفيه.

– حينما جئت لمقابلتك، كنت آمل فى الوقت نفسه أن أقوم بواجبى وأزيد من فرصتى فى المنحة.

فجمد ستانتون وقال:

– حقًا؟

كانت تلك هى الحقيقة. ولم يستطع أن يقول شيئًا آخر.

وقال المفتش محاولاً تبرير موقفه:

– إن الأسباب التى تدفعنا للتصرف عادة ما تكون غاية فى التعقيد.

وعاد من جديد يذرع الشرفة ذهابًا وإيابًا.

– الذى يضايق فيك يا كاى، أنك تتصور نفسك أطيب من اللازم، أفضل من اللازم، بالنسبة لبلدة صغيرة مثل دوبياسى. أنت تعلمت فى مدارس كبيرة،

ودرست أشياء كثيرة ومهمة، وجئت بثقافة عالية وبالكثير من الازدراء لكل ما يحيط بك. أنا لا أزعم أن كل شيء على ما يرام في دوبياسي، وأعتقد أن هناك أشياء كثيرة يجب عملها. ولكن على أي حال فهي بلدك، ولا ينبغي أن تخجل منها.

وأمام عجزه عن الكلام، بدأ كاي يسير نحو سلم الشرفة.

- انتظر لحظة يا كاي.

فتوقف.

- أنت حصلت على المنحة. لقد تلقيت منذ قليل مكالمة من مفتش الأقاليم قبل وصولك بالضبط. استعد إذن للسفر الأسبوع المقبل.

وقفز كاي قفزة إلى الأمام وقد لمعت عيناه وبرقت أسنانه:

- تقول يا سيدي أنهم أعطوني المنحة؟ وأنت لا تنوي.

- الاعتراض؟ كلا. لكنني سعيد أن تبادلنا هذا الحديث القصير معًا. كاي، أعتقد أننا لم نضيع الوقت وأنك فهمت الآن. نعم، أنا أثق فيك وأعتقد أنك ستفعل شيئًا مفيدًا لبلدك.

***

ومكث مفتش المركز وحده في الشرفة. وراحت خطوات كاي تخفت مع البعد. كاد الرجل يخر راكعًا على ركبتيه. وتنهد ستانتون تنهيدة ارتياح. كان اليوم حافلاً بالمشاغل، وكان يومًا عصيبًا. لكنه نسي كل تعبه وكل آلامه. وقد كان سعيد الحظ إذ عثروا على النقود المسروقة. ولعله صنع مع كاي أفضل عمل قام به في حياته.

***

النـــــور الخـــــادع

تأليف: أندرو ل. جليز Andrew L. Glaze

من الولايات المتحدة الأمريكية

قال بوهارب بصوت متهدّج وهو يعتمد بمرفقيه على منضدة الشراب ويتطلع إلى مس تابلى أمامه:

كنا قد غادرنا نورفولك منذ ثلاثة أيام.

ثم استطرد يقول وهو يعتدل ليسمع الريح تزمجر فى الخارج، ويصوب عينه فى ثوب مس تابلى الفضفاض:

استدعانى القائد فوق السفينة. فصعدت إليه، فماذا رأيت؟ السفينة وقد توقفت على بعد عدة مئات من الأمتار من غواصة.

هزت رأسها ونظرت فى قاع كأسها: كانت فارغة، فوضعتها مقلوبة أمامها.

وسألنى القائد قائلاً:

ماذا نفعل، يا هارب؟

فقلت له:

"فى مثل هذا الموقف أيها القائد، لا أدرى... ليس هناك سوى شىء واحد؛ أن ننتظر أجلنا".

ووجدت أنه يقدّر كلامى حق قدره.

وإذا بقبطان الغواصة الألمانية يصعد على السلم إلى ظهر غواصته. ويحيى القائد ثم يقول: حمولتك ذات أهمية استراتيجية حيوية لألمانيا. أنا أحل محلك فى مركز القيادة. ونحن نقتحم الحصن. والآن، دق الناقوس لتجمع رجالك".

أما أنا، فقد كان فى جيبى مقلاع من النوع الذى نقذف به الكرات، وكنت قد استخدمته قبل قليل فى عمل لوحة تصويب. وعلى ذلك فقد تواريت خلف القائد وصوبت، فأسقطت المسدس من يد (بوش) الذى كان مع قبطان الغواصة. وفى طرفة عين، أصبحنا نحن أسياد الموقف.

بعد ذلك، جئنا بالضابط الألمانى على سلم السفينة وأصدر القائد أوامره بأن تنطلق السفينة بأقصى سرعتها. فاقتحمنا الغواصة وكنا قد قبضنا على القبطان، فلم يطلقوا النار بطبيعة الحال. فقبضنا عليهم ووزعنا عليهم القهوة الساخنة.

ورفع بو كأسه، واحتسى جرعة وخفض عينيه وشعر بالخجل. أما هى، فقد كانت تشكك فى كل ما تسمع، فقالت:

- هذا كل شىء؟

فأحس بالحرج، وحرك قدميه ليستردّ اتزانه، وقال:

- نعم، هذا كل شىء.

فأردفت هى قائلة:

- حينما أفكر فى البلاد الكثيرة التى شاهدتها أنت!

- آه! فعلا، هذا شىء نحسده عليه.

وقالت مس تابلى:

– ولكن لعلمك يا بو، ليس المرء بحاجة إلى أن يذهب إلى سنغافورة ليتعلم المغامرة.

فرد بو وهو يبذل كل جهده لينقل إليها الانطباع بأنه يصدّق كل ما ترويه:

– طبعًا، طبعًا.

أحيانًا يكون ما ترويه حقًا، ولكن الذى يبدو حقًا كان يبدو على لسانها كذبًا، رواية مخمورين. فقالت:

نعم، يا عزيزى، زمان، حينما كان كل شىء على ما يرام فى بيتنا، قبل أن يصاب أبى، حينما كان يعمل فى تجارة السلاح، قدم لى أحد القباطنة وردة. وردة استوائية حقيقية. كان قد صعد فوق الشجرة فى بنما ليقطفها. وقد جرح لحاء الشجرة ساقه (وقد شاهدت أثر الجرح). كان رجلاً قويًا، له عينان سوداوان متقدتان، ويدان بيضاوان مثل العاج، وأصابع ممشوقة. فقال لى: "سنيوريتا، خذى هذه الوردة، وإذا أردت أن يحبك أحد، فما عليك إلا أن تعلقيها على صدرك".

كانت وردة.. مجرد وردة. وضحكت. ثم أردفت تقول:

نعم، يا عزيزى، كانت وردة غريبة. فكرت فى بادئ الأمر أن أحتفظ بها فى الثلاجة. ولكننى لما وجدت أنها لا تفقد من رونقها ولا يصيبها الذبول، فقد أخذتها إلى حجرتى، وجعلتها فى أحد الأدراج. فقد كنت لا أجرؤ أن أضعها على صدرى. ولكن، ذات مساء، وفى حفل عيد ميلاد أختى، جاءنا شاب. يا إلهى، ما أجمله! فتواريت خلف أحد الأعمدة. ثم صعدت إلى حجرتى وأخرجت الوردة وثبّتّها على صدرى بدبوس. ونزلت. كان قلبى يدق، ويدق.. وأؤكد لك يا عزيزى، أنهم حينما قدمونى إليه، بدا عليه تأثير الوردة. فلقد رقصنا معًا، وأخذنى إلى الشرفة، وقال لى إننى أجمل من الشمس المشرقة. كما يحدث فى الروايات تمامًا. واقترح علىّ أن أسافر معه، ونتزوج بعد ثمانية أيام بالضبط. فشعرت بطبيعة الحال بأننى فى قمة السعادة. فماذا أصنع؟ لقد

وافقت طبعًا. وظللنا فى البحر، ولم ننزل على اليابسة إلا فى المكسيك حيث وجدنا فندقا جميلاً أبيض اللون، له شرفات رائعة، حلم حقيقى لفتاة فى مثل سنى. كم كنا سعيدين!

فسأل بو وهو يملأ للمرأة الشابة كأسها:

- وانتهى الأمر عند هذا الحد؟

- كلا، أبداً، ما أسخفك! كنا فى منتهى السعادة. ولكننى كنت فى السابعة عشر من عمرى، وكل ما كنت أتمناه قدّمه لى فوق طبق من الذهب. ولكن كل ذلك لم يكن يكفينى أو يرضينى؛ فقد كنت أبكى وأقول لنفسى إنه لا يحبنى أنا، وإنما يحب وردة بنما.

- والوردة؟

- أحرقتها. ثم ذهبت إليه، وأمسكت بيديه، وسألته إن كان لا يزال يحبنى! وأعتقد أننى جُننت - طبعًا كان لا يزال يحبنى. ولكن، منذ تلك اللحظة، بدأ حبه يتضاءل، أصبح مثل رماد تلك الوردة.

كانت الريح تزمجر فى الخارج. وقد أصابت هذه الذكريات بو بالكآبة. إن حكايات مس تابلى دائمًا لها عليه هذا التأثير.

سألها قائلاً:

- وبعد؟ هل عدت إلى بيت أبيك؟

- طبعًا. عدت إلى تلك العشة الكبيرة التى حينما يتنفس المرء فيها يجد لتنفسه صدى. كان أبى قد فقد بصره. وكان يجلس فى الحديقة وكان من المتعيّن علىّ أن أصف له كيف تنبت الزهور وتنمو.. تلك كانت وظيفتى. وهذا ما كانت تقوله لى أخواتى، أخواتى اللطيفات الظريفات. وذات مرة، وقد فاض بى، أردت أن

أضع النقاط على الحروف، فقلت له: "بابا، ماذا تجد فى الحياة من متعة؟ أليس من الأفضل لك أن تموت؟" فأصابته صدمة.

وكان بو يُعير سمعه للريح التى كانت تشتد، وقد شعر هو بالجزع.

– أين ذهبوا جميعًا هذا المساء... هل سنظل وحدنا هكذا هنا!

وذهب بو حتى الباب وقال:

– آه النمل!

ونزلت مس تابلى من فوق الكرسى المرتفع. وحدّث بو نفسه قائلاً: "بقرة حقيقية تتسربل فى الحرير". وركعت، وأشرق وجهها وهى تقول:

– هذه الحشرات على حق. فهى تعود مع تغير الجو. هذا المطر وهذه الرياح. ما أخبار النشرة الجوية؟

– أنا لا أقرأ النشرة أبدًا. دائمًا كنت أسمع أن البحّارة يعرفون أحوال الجو. أما أنا فلا أعرف فيها شيئًا.

ولاحظت مس تابلى قائلة:

– الرياح شديدة اليوم. كدت أتعرى من ثوبى وأنا قادمة إلى هنا. عاصفة شديدة.

وعادت إلى كرسيها المرتفع أمام المنضدة. أما هو فقد جلس أمامها، وقال:

– ألا نشرب شيئًا احتفالاً بالزوبعة؟

– مثل ماذا؟

– لا أعرف، أنا. اختارى شيئًا.

مرة أخرى، يحاول أن يحافظ على ثباته، فسحب سيجارًا من جيب قميصه، وقطع طرفه وجلس والسيجار بين شفتيه، ثم أشعله بعد ذلك أمسك بالزجاجة من خلفه وفتح

زجاجة ليمون وضغط محتواها فى الزجاجة وأضاف إليها ثلاثة أنواع أخرى من الشراب، وصاح قائلاً:

- كوراساو(*).

وصب كأساً طافية، ثم وضع الزجاجة أمامها، فشمشمت وهى تفكر وقالت:

- لم يبق سوى أن تضيف ذرة من كريم النعناع.

فاستجاب لطلبها. ثم هز الجميع ثلاث مرات وملأ كأسين. فشربت وقطبت جبينها وقالت:

- **هذا يساوى أى عاصفة.**

ورفعت كأسها، وغمزت بعينها، وصاحت تقول:

- والآن انفخ أيها الملعون!

- هيا، هيا، لا تتعصبى.

وقالت مس تابلى:

- عندى حجرة مدهشة فى البيت؛ طريق الآلام داير داير، والمحراب، والمسيح المصلوب. وعلى الجدار صورة رائعة للسيدة العذراء بريشة رافائيل. أركع للصلاة. أحياناً ساعات عديدة. ثم أسقط مغشياً علىّ من فرط النشوة.

لم أكن أعرف أنك متدينة إلى هذه الدرجة.

طبعاً متدينة. وكان من الممكن أن أدخل أحد الأديرة فى وقت ما.

(*) شراب مسكر منكّه بروح البرتقال أو الليمون.

فقال:

- ارفعى صوتك. أنا لا أسمع شيئًا مع هذه الريح التى تهب.

- كان من الممكن أن أكون راهبة، أو محظيّة. فأنا لا أحب الحلول الوسط.

ورمقته فى بياض عينيه، فشعر بالخجل. لكنها كانت تفكر فى شىء آخر.

- وذات مرة، أوشكت أن أتزوج.

- ومن كان ذلك المحظوظ؟

- آه! القاضى جورو.

كيف! كادت تتزوج القاضى جورو. كان يعرفه صديقًا لعائلة تابلى، ذلك الكهل أبيض الشعر الذى يكبرها بنحو ثلاثين عاما.

- كيف أوشكت أن تتزوجى القاضى جورو؟

فأجابت:

- هكذا، كنت فى الخامسة عشرة من عمرى.

وكان يبدو أنها تقول الحقيقة.

- أرجوكِ احكى لى هذه القصة.

- لو وجدت فيما أحكى لك شيئًا لا تحب أن تسمعه، فأخبرنى على الفور يا بو. سأرويها لك فى العاصفة.

- كلاّ. أنت تعرفيننى.

فجعلت تصيح فى العاصفة أشبه بملاح حقيقى.

كنت فى الخامسة عشرة، حينما أدار عقلى هذا القاضى الوغد. كنت أنزل خفية وأتلصص عليه من وراء الأستار، حينما كان يأتى لزيارتنا فى البيت. كان يشرب نبيذ أبى ويدخن سجائره. كنت أراه جميلاً، فقد كانت تعجبنى حلله البيضاء الكاملة التى كان يرتديها وكلامه الناعم الرقيق. أنت لم تعرفنى. كان يجب أن ترانى فى ذلك العصر. فقد كنت فتاة رائعة. المهم، لقد اكتشفت الطريق الذى كان يسلكه فى ذهابه إلى المكتب. كان يأخذ شارع دومورييه. فذهبت لأستقل حافلة المدرسة من هناك أسبوعًا كاملاً. فى الصباح، كان يتوقف ويطلب منى أن أركب معه فى سيارته. كان يبدو على مظهرى سيماء الفتاة الساذجة، وجعل يحدثنى عن مدارس البنات ومباريات كرة القدم. وأنا أهز رأسى وأقول: "نعم، أستاذ"، أو "لا، أستاذ". ثم قلت لنفسى فى اليوم الثالث: "كفى لعبًا بهذه الطريقة " وحينما فتح باب السيارة بعثت إليه بابتسامة! تمامًا ابتسامة المرأة السّيئة إلى أفضل زبون عندها. لا أتصور أن هذه الحركة كان لها أثر عليه. فقد ظل هادئًا طيلة الطريق. ولكنه حينما فتح لى أبو جلمبو هذا الباب – مال علىّ وقال: "بعد المدرسة، مساء اليوم، على ناصية الشارع...".

كنت نحيفة القوام أشبه بالعنزة، فى ذلك الوقت، ساقان هزيلتان، عظام فى كل مكان، وثديان أشبه بليمونتين معصورتين. لكن كانت عيناى واسعتان برموش طويلة (كانت طويلة، لكنها سقطت بعد ذلك) كذلك كان لون بشرتى لا بأس به... آه! الوسكى ... واعتدنا أن نذهب إلى مزرعة كان يملكها. وكان هو فى الخامسة والأربعين وأسنانه كاملة. ومن ناحيتى كنت قوية. ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً. فالقضاة يهتمون بأمر سمعتهم ويحافظون عليها. وتمكن هو من أن يجعل والدى ينزلنى فى أحد البنسيونات الصارمة. ومع ذلك فقد كنت أتمكن من الخروج. وحينما وصلت عنده شحب لونه من الخوف. ما كنت أريده هو أن يفاجئونا ونحن معًا. كان من الممكن أن يغير ذلك حياتى بأسرها.

وقال بو في نفسه "قد تكون مجنونة. لكن لا تنقصها الشجاعة" ثم سألها قائلاً:

هل أعجبك الكوكتيل؟

وزمجرت هبة ريح منعتها من الرد. هزة أعنف من سابقاتها. وانكمش بو وتشبث بالمنضدة. وسمعت طرقعة هائلة. فقد طار السقف الخشبي.

وأفرغ بو كأسه. أدرك أن المغامرة؛ في قمتها، ذلك الشيء الآخر، ذلك النور الخادع السحري هو الذي جرّه وراءه كل هذه المسافة وكل هذا الوقت، لقد قبض عليه في النهاية.

حينئذ هبت على الجدار الأيسر، فرأى بو الجدار الأيمن يتقدم بدوره. ثم تجاوزت المنضدة بو في قفزة واحدة، في حين تمايلت الزجاجات ثم تحطمت على الأرض، دون ضوضاء على ما يبدو. وانقض ظل ضخم على البطل والمالك الذي رآه وهو يسقط فقفز فوق المنضدة وأمسك بمس تابلي وانطرح فوق الأرض، شيء غريب. كان يشعر بأنه أبله. لكن ضوضاء تحطيم الزجاجات غطت تماما على صوت العاصفة. فرفع بو بصره فلاحظ سدىً جديداً، أو على الأقل ملاذاً جديداً. وفسر ذلك فقال:

- إنه الجدار. سقط فوق المنضدة.

فعقبت مس تابلي قائلة:

- آه! كأسي لا تزال مملوءة، وكأسك؟

وجعل يزحف على ركبتيه ثم عاد بالزجاجة.

- جدار النادي ينهار أيضاً.

كانا قد استقرا فيما تبقى من فراغ بين نهاية الجدار وبين ما تبقى من المنضدة. وفوجئا بمطر أفقي خلفهما ينهال على منظر طبيعي يكشف شيئاً غريباً جديداً، كأنما

نبتت فجأة فوق البحر أشجار وبيوت وحشائش. وإذا بشجرة قرو ضخمة تهوى على الطريق، وذلك قبل أن تختفى فى المنعطف.

وضاقت عينا مس تابلى كأنما أصابها انفعال مفاجئ. أما بو، فعلى الرغم من الرعدة التى أصابته، فقد كان يشعر بأنه الرجل فى الموقف. فمال ووضع شفتيه على خد مس تابلى التى لم تتحرك، لكن شفتيها كانتا تقولان: أحبك.

وخر على ركبتيه وأحاطها بذراعيه. فأمسكت بيده. وسقط من السقف بعض أغصان من الشجر فوقهما، ثم طارت.

فقالت مس تابلى:

– يجب أن نشرب شيئًا آخر.

فقال بو:

– لا أعتقد أن العاصفة انتهت. فمثل هذه العواصف تهب فى العادة مرتين. فمن الأفضل إذن أن ننزل إلى القبو.

– لو نعثر على شىء آخر نشربه؟

فبحث خلف المنضدة، فوجد زجاجة لم تمس، فشرع يفتحها بواسطة مطواته، ورفع رأسه، فرأى الرجل يجرى. كان رأسه رأس طباخ فى باخرة. فصاح قائلاً:

هولا! من الأفضل أن تأتى إلى النادى.

فأجابت مس تابلى:

– لا داعى، فهنا على الأقل نجد ما يسلينا ويلهينا.

***

غابة فوق الرصيف

تأليف: ليونارد أوهر Leonard Uhr

من الولايات المتحدة

أنا أرسم فوق الرصيف.

ذات يوم، وصل هذا الغلام وسألنى:

- ماذا ترسم؟

كان يبدو أنه فى الثانية من عمره، أو فى السادسة. الحقيقة أنا لا أفهم كثيراً فى الأطفال. فقلت له:

- ماذا تريد أن تعرف من سؤالك لى: "ماذا ترسم؟".

- نعم، ماذا ترسم؟

كان صوته مثل فرامل السيارة التى تصر، وكان بنطلونه كبيراً بالنسبة له. كبيراً جداً جداً. بخلاف ذلك، فقد كان يشبه أى طفل كان. ولكننى أعترف لكم بأنه ترك تأثيراً كبيراً جداً فى حياتى حيث ينبغى أن أقص عليكم حكايته. ها هى ذى:

كان يمسح فمه بيديه القذرتين، ثم اجتاز رسمي، ونظر إليه من أعلى إلى أسفل، وأدار رأسه وهو ينظر إليه، حيث إننى خشيت أن يُصاب رأسه بسوء، ثم قال:

- هذا فيل!

لتبتلعنى الأرض أو تسقط فوقى السماء! أهذه إذن فيلة التى أرسمها فوق هذا الرصيف الملعون منذ خمس أو ست سنوات؟ صحيح أن النّساء تنفض فوق رسومى سجاجيدهن وخرقهن. والمارة يتجنبوننى، والصغار يدخلون فيها أو يدوسونها بأرجلهم القذرة. وأنا بكل بساطة، فى البرد أو الحر، أرسم!

قلت للغلام:

- ألم تنظر؟ حاول مرة أخرى.

أنا صبور جداً مع الأطفال. لأننى أعتقد أنهم دائمًا أذكى مما يبدو عليهم. يجب أن أشرح له.

- ابتعد عن رسمى. فأنت تفسده بحذائك الضخم هذا.

فجحظ الغلام عينيه. ثم قفز عدة قفزات مثل الكونجورو. ثم نظر مرة أخرى إلى رسمى.

- أليس هذا فيلاً؟

فتح عينيه على آخرها. وخفض رأسه. ينبغى أن أتذكر أنه طفل، وكنت أخشى أن يشرع فى البكاء. كنا كأننا فى الصحراء فى الشارع الخالى الملىء بالعفار.

- لا تعكر دمك لأمر تافه، يا صغيرى. على العموم إذا لم تفعل ما يؤذيك وبقيت عاقلاً، فقد أرسم لك فيلاً، يومًا من الأيام.

حينئذ أخرج لى لسانه. ولكن سيان بالنسبة لى. فأنا أعرف أنه يمزح. ثم هو طفل من هؤلاء الأطفال الذين نحبهم مهما فعلوا، لأنه طفل سعيد.

وقال:

– هذه طائرة نفاثة. طائرة نفاثة قديمة قذرة.

ثم مسح ذيلها بنعل حذائه.

وهممت أن أضربه على مؤخرته. صحيح. لما بذلت من جهد كبير فى إنجاز هذا الرسم. خاصة الذيل.

– إذن ماذا؟ ماذا بك؟ ألا تحب الطائرات؟ أم أنك مجنون؟

– طيارة نفاثة قذرة.

كان غاضبا... ثم اتخذ هيئة جادة وكئيبة:

– إذا أردت، سأعلمك كيف ترسم فيلاً. هل تحب؟

ومر رجل يعرج، وأراد أن يبتعد بسرعة. لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إلى اللوحة التى نشكلها نحن الثلاثة: أنا والغلام والطائرة النفاثة.

– أنت على حق يا غلامى. تعال ذات يوم وعلمنى.

وانطلق الغلام خلف الرجل الذى يعرج. تبًا له. لقد قلتها، وأكررها، ليس بى أى رغبة لرسم فيل. وحتى لو كانت بى رغبة لعمل فيل، فإننى لن أتعلم ذلك من طفل قذر كهذا . الناس كلهم يعجبون برسومى.

أنا أرسم هذه الرسوم الملونة فوق الرصيف منذ سنين، قبل أن يولد هذا الغلام. أرسم هذه الرسوم الملونة منذ كنت هكذا فى مثل طوله. وعندى جميع نماذج الطائرات التى خرجت إلى النور، هذا فى رأسى. وهى واقفة، وهى محاربة، وهى تصعد نحو السماء، وهى تهجم على طائرة عدو. ربما تفضلونها ثابتة؟ ليكن. فهذا أيضا عندى. كل ما تريدون. بشرط أن تكون طائرة.

إذن، هذا الغلام اللعين يريد منى أن أرسم فيلة وكونجورات! فيلة وكونجورات، العالم ملىء بها ولا تحتاج منى إلى مزيد.

ها هو ذا يعود على ذكره، كأننى كنت أتمنى أن يعود.

- هيا، أيها الغلام، اغرب عن وجهى، لو سمحت!

فانصرف.

حينئذ شرعت فى إصلاح ما أفسده فى الرسم، وإعادة رسم الذيل الذى محاه بكعب حذائه. لكننى لم أتمكن من التركيز فيما أقوم به من عمل. ثم إن الذيل الذى قمت بإضافته، من الظاهر أنه ذيل مضاف إلى طائرة مرسومة فوق الرصيف.

الله المستعان! محوت كل شىء بقطعة من الإسفنج. فلتذهب إلى الشيطان هذه الآلة الشيطانية الطائرة التى لا توجد منها نسخة أخرى. إلى الأمام! لكننى لم أتمكن من عمل شىء ذى بال. فشاهدت التلفاز لحظة. ثم بدأت فى التفكير، والغريب أننى لم أستطع صرف تفكيرى عن الغلام.

من الطبيعى أن يفسد الأطفال علينا تفكيرنا من آن لآخر، لذلك فقد أخذت عُددى، ودون أن أفكر فى الغلام، شرعت أرسم من جديد طائرتى النفاثة فوق الرصيف. لم تكن رائعة هذه المرة، ولكن على أى حال كانت طائرة نفاثة، وأى شخص غبى لا بد أن يعترف بذلك من الوهلة الأولى، حتى دون أن يقترب منها كثيراً.

ومن جديد، أشرقت الشمس. لكن الوقت كان مبكراً جداً حتى يخرج الناس من بيوتهم، خاصة يوم الأحد. فقد كان اليوم يوم أحد. ويوم الأحد بالنسبة لمهنتنا هو اليوم المنتظر.

لم تمر خمس دقائق حتى رأيت، من؟ غلام الأمس. لكنه هذ المرة يمشى على [illegible] للتزحلق. وما أن رآنى، حتى صاح بى قائلاً:

- أنا قلت لك ارسم فيلاً!

وفجأة ظننت أنه طفل كغيره من الأطفال. فقلت له:

- ألا ترى أننى رسمت فيلاً، أم ليس لك عينان؟

وشرعت فى الضحك، نعم فى الضحك.

وبدت عليه الدهشة! وقطب جبينه كما يحدث حينما تطلب الأم من صغيرها أن يذهب لينظف يديه، فيجد أن يديه نظيفتان ليس فيهما ما يحتاج إلى تنظيف. وسأل قائلاً:

- أنت تعتقد أن هذا فيل؟

- طبعًا، هذا فيل. فيل كبير وردى اللون، بدوائر صفراء على جسمه، مثل جميع الفيلة.

الحقيقة أننى كنت أضحك من مزاحى هذا، لكننى حاولت أن أكون جاداً. فسألنى مرة أخرى:

- وأين القرون؟ إذا كان هذا فيلاً، فأين القرون؟

- ولكن، يا أيها الأبله، الفيلة ليست لها قرون، وأنت ليس عندك فيلة.

- بلى، عندى فيل بدوائر صفراء على أرضية وردية. مثل جميع الفيلة. وبقرنين، مثل جميع الفيلة.

- حسنًا! فى هذه الحالة، هو جالس عليها. قرونه بالضبط خلف مقعد القيادة.

وهنا، لم يقل شيئًا. بل جعل يدور حولى فى أنصاف دوائر. ليكن ذلك، المهم ألا يفسد رسومى.

ثم توقف فجأة وتطلع إلىّ، وأشار نحوى بإصبعه وقال:

- أنت ليس لك ساقان! ليس لك ساقان بالمرة

وكان يبدو مغتبطًا لذلك.

وحاولت ألا أنصت إليه، حتى تسير الأمور! الأطفال أحيانًا يكونون ظرفاء.. لكنهم غالبًا ما يكونون متعبين. وسألنى قائلاً:

- أين وضعتهما؟

ولم أعرف بماذا أجيب. لكننى قلت.

- فى البانيو، وضعتهما فى البانيو.

فانفجر ضاحكًا، كأنه لا يصدقنى. كأنما هو أذكى من أن يصدقنى.

- أنا، ماما لا تسمح لى أبدًا بأن أترك ساقىّ فى البانيو.

- آه! آه! أما أنا فقد تركتهما فى البانيو. ونزلتا فى البالوعة مع الماء. وهذا شىء طبيعى، فقد كانت سدادة البانيو مرفوعة من مكانها، ولم ألحظ ذلك إلا بعد فوات الأوان.

- وماذا فعلت لكى لا تسقط أنت فى البالوعة؟

سألنى هذا السؤال بطريقة جادة واهتمام شديد، كأنّ الموضوع يتعلق بحياته.

- ولكن من قال لك إننى لم أسقط فى البالوعة. أيها الخبيث؟

وهنا أحسست أننى انتصرت عليه. وغفرت له كل ما قال قبل ذلك.

- آه، آه، وماذا رأيت هناك؟ صف لى ما رأيت.

- هل رأيت فى حياتك غابة مليئة بالخفافيش والقردة والنسانيس والبوم التى تولول، وحيوانات كثيرة أخرى؟

– هل رأيت أنت غابة فى حياتك؟

– حسنًا، كان الوضع كذلك، ولكن بطريقة أفظع. إذن، يجب أن تأخذ حذرك أنت أيضًا حتى لا تسقط مثلى.

– إذن، توجد غابة تحت بالوعة الحمام؟ غابة حقيقية؟

– نعم، غابة حقيقية. مظلمة مثل الجحيم، ومليئة بالأوحال التى تلتصق بك وأشياء تأكلك، وثعابين وخفافيش وقردة ومصاصى الدماء، والقراد الذى يغطى جسمك ويمنعك من التنفس. بل أسوأ من ذلك، أسوأ بكثير.

-- أنا شخصيًا شاهدت الغابة، بالقرب من جامايكا. هل شاهدتها أنت؟

كلا، لا فائدة ترجى معه. إنه سعيد، وأنا كنت أريد أن أقحمه بوصفى.

– هل تعرف أين؟ والقراد، يوجد قراد أيضا، ولكنه ليس خطيرًا؛ فمن الممكن أن ننزعه بسهولة.

فعقبت قائلاً:

– كلا. أنا لم أذهب إلى هناك. أنا لا أعرف سوى الغابة الموجودة أسفل بالوعة الحمام.

– أنا سعيد، هل تعرف لماذا؟ لأن لى ساقين؟

– حسنًا، حسنًا.

وتمنيت لو استطعت أن أقطعهما له؛ وفوْرًا.

– ولماذا أمك لم تشتر لك زوجًا جديدًا من السيقان؟

– لم تجد المقاس المناسب.

- آه... وما مقاسك؟

- مقاس خاص، مقاسى أنا .

- ليس هناك مقاس لك وحدك. فأنا أرتدى مقاس ابن عمى نفسه.

- قلت لك إن مقاسى فريد . لذلك لم نعثر على زوج غيار.

وراح يلف حول الرسم من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، ومن الأمام إلى الخلف، وبالعكس.

- هل تريد ساقىّ؟

- كلا، فهما صغيرتان جداً .

- لكنهما سيكبران. أمى قالت لى ذلك.

كان يبدو جاداً للغاية.

- لماذا؟ هل تريد أن تعطينى ساقيك؟ ماذا فعلت لك؟

- رسمت لى فيلاً، كما طلبت منك.

- وماذا ستقول لأمك إذا سألتك عن ساقيك؟

- سأحكى لها الحكاية... ولن تؤنبنى. فهى دائمًا تقول إنى "لطيف".

من المؤكد أنه طفل رائع، فأردت أن أشرح له لكى يفهم.

- تعال هنا بالقرب منى! سأقول لك شيئًا . ماذا ستفعل إذن حينما تريد أن تلعب كرة البيسبول، وأنت بدون ساقين؟

- أنا لا أحب البيسبول.

- ألا تحب البيسبول؟

يجب أن أفكر قليلاً فيما قال لى. إنه طفل غير عادى. أو لعله أصغر من أن يفهم معنى البيسبول. ينبغى أن يكون أذكى من ذلك حتى يفهم البيسبول.

– اسمع يا عزيزى. حينما تكبر، ستحب البيسبول، إذن ماذا ستفعل؟

فأجاب صائحًا:

– طيب، طيب، طيب، طيب.

وقفز من قدم لأخرى، اثنتى عشرة مرة أو ثلاث عشرة مرة متتالية دون توقف. وكاد يسقط من فوق القبقاب، ثم قال لى:

– بالضبط، سألعب فى سيارتك. سأكون بطل السرعة فى البيسبول، فلن يكون هناك من هو أسرع منى فى الملعب.

– ولكن لن يلعب أحد معك!

– آه! لماذا؟

قالها وكأننى قلت له أغبى عبارة يمكن أن يكون سمعها.

– ولماذا لا يلعبون معى، فهم يلعبون مع الجميع. ألا يلعبون معك؟

هل شعرتم بالرغبة فى تقبيل وضرب مؤخرة شخص واحد؟

إذن، ظللت أحكى له الحكايات. وهى لا تنفض. فهناك الكثير من الأشياء التى لا يمكن عملها دون سيقان، وبرهنت له على ذلك؛ فظل يضرب الأرض والقبقاب فى قدميه، ثم تساءلت لماذا أحاول إقناعه وكأننى مأجور على ذلك.

– ماذا تفعل إذا أرادت أمك أن تقبلك وأنت لا تستطيع أن تبسط لها ذراعيك، هه؟

– إنها دائمًا تركع على ركبتيها حينما تقبلنى.

– لكنها لن تركع بعد الآن، لأنها ستخشى أن تجرح ركبتيها فى سيارتك الصغيرة. ولن تحبك.

فقال:

– يا ستاذ! يا ستاذ!(*)

قالها هذه المرة وكأنه يهمس. كما يفعل طفل صغير فى الشارع مع شخص لا يعرفه، ويسأله أن يدله على الطريق، ويخشى أن يخطفه هذا الشخص.

– يا ستاذ (وعيناه تخرجان من رأسه) يا أستاذ! أنا لا أريد أن أعطيك ساقى. ما رأيك لو أننى احتفظت بساقى؟ هل تحب؟

وظل يروح ويجىء. وفجأة، لم أحقد عليه، لكننى شعرت بالحقد على نفسى، واستطرد قائلاً:

– يمكنك أن تأخذ قبقابى بدلاً منهما. فأنا لا أريد أن أعطيك ساقىّ يا أستاذ!

– يا غلام؛ أنا لا أريد ساقيك. أنا كنت أمزح. وعلى أى حال، فأنا لا أريد ساقيك.

– يمكنك أن تثبت القبقاب مكان ساقيك اللتين ذهبتا .. وسأعلمك أشياء كثيرة. سأعلمك كيف تصعد السلالم بالقبقاب. أنا أعرف ذلك. تحب أن ترى؟

– طبعا أحب أن أراك تفعل ذلك. لكننى لا أريد ساقيك. احتفظ بهما. ولا أريد قبقابك. فلن ينفعنى فى شىء. وحتى إذا كانت ستنفعنى فى شىء، فأنا لا أريدها.

(*) هكذا قالها فى الأصل.

فجعل يجعر، يجعر عالياً، لم أسمع فى حياتى طفلاً يجعر هكذا.

- هيا، يكفى، يكفى ذلك. أنت طفل لطيف. ولا ينبغى أن تبكى هكذا.

وهممت بالاقتراب منه، أردت أن أطيب خاطره. لكنه قفز إلى الوراء كأننى شخص مصاب بالطاعون. ولكن سرعان ما علمت أنه إنما شرع فى البكاء لأنه تصور أننى إذا كنت بدون ساقين فذلك بسببه هو. لأنه لا يريد أن يعطنى ساقيه. فبسببه هو لا أستطيع المشى.

- هيا، هيا، يا غلام، كف عن البكاء وسأرسم لك فيلاً.

- ومن حسن الحظ أنه استطاع أن يسمعني ويفهمنى على الرغم من الجلبة التى كان يثيرها.

- ومتى سترسم لى هذا الفيل؟

- ابق هنا. وسأرسمه لك فوراً. وسيكون أكبر وأجمل فيل فى العالم. انتظر لحظة.

حمداً لله أن كف عن البكاء؛ لأن المارة كانوا قد بدءوا يهتمون بأمرنا ويتجمهرون حول سيارتى الصغيرة.

وبدأت أمحو الطيارة النفاثة بالإسفنجة، ثم رسمت حدود الفيل بالفحم. وبدأ الماء يجف فوق الحجر حيث لم ينتشر اللون. والطفل ينظر لى. لم أر فى حياتى صبراً كهذا. ساعة كاملة أنفقتها فى رسم الفيل، ساعة كاملة. وطوال هذه الساعة لم يبرحنى ولم يفارقنى بنظره. وكان فيلاً رائعًا. وسألنى:

- والدوائر الصفراء؟ أين هى؟

من الطبيعى أنه غير راضٍ. لكننى رسمت هذا الفيل الوردى كأننى أنا الذى يعيش فى وهم الفيلة الوردية، بدوائر صفراء على جسمها. وسألنى مرة أخرى:

- والقرون؟ أين القرون؟

- أيها الأبله، ألا ترى القرون؟ في مكانها! في المكان الذي توجد فيه القرون دائمًا.

وعلى حين فجأة، لصقت له قرنين كقرون الرنّة، فوق أذنيه بالضبط.

فجن الغلام من الفرح وصاح:

- هذا فيل! هذا فيل!

وجعل يقفز من قدم إلى أخرى، ويهبط الرصيف ثم يصعد الرصيف بقدر ما يسمح له القبقاب بالسرعة. بل صدم بعض المارة الذين التفتوا نحونا. وجعل يصيح قائلاً:

- هذا فيل! هذا فيل!

وبطبيعة الحال، أراد المارة أن يكونوا ظرفاء مع الغلام فجعلوا يربتون رأسه وهم يمرون. لكنهم لم يهتموا مطلقًا بالفيل الذى رسمته، مع أنه كان فيلاً جميلاً. ولكنه بالمقارنة بالطائرة النفاثة، فمن الذى يرغب فى النظر إلى فيل إذا كان بإمكانه النظر إلى طائرة نفاثة؟ إلاّ إذا كان شخصًا استثنائيًا.

ثم هدأ الطفل قليلا، وشرع ينظر إلى الفيل باهتمام. ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال.

- تعرف، سأصحبه معى إلى البيت. أنت لا مانع لديك، أليس كذلك؟

- يا إلهى! ولكن كيف تفعل؟ وهو فوق الرصيف؟ هل تريد أن تصحب الرصيف معك أيضًا؟

- قل للفيل أن يرحل عن الرصيف.

- مستحيل. فهو ليس له ساقان.

ومرة أخرى، نظر الطفل إلى الفيل. ثم وقف على رأسه. ثم نظر إلى الفيل. ثم ابتسم وقال:

- ارسم لى قنقراً، ممكن؟

بكل بساطة: ارسم لى قنقراً. وارسم لى خرتيتًا، وارسم لى بومًا، وارسم لى فهداً، وارسم لى قردا و...

وكاد يطلب منى أن أرسم له ما لا تكفى حياتى كلها لتنفيذه. ثم تطلع لحظة إلى الفيل ولم يلبث أن سئم ذلك، ثم استأذن.. هذا كل شىء، وانتهى الأمر. ولم أره بعد ذلك على الرغم من شوقى لرؤيته.

منذ ذلك الحين، شرعت أرسم الحيوانات، الحيوانات فقط تقريبا؛ مع أننى لست ماهراً فيها كثيراً مثل مهارتى فى رسم الطيارات النفاثة. ولكننى مع ذلك أكسب منها قوتى. ربما لا يلقى لى المارة بنقود كثيرة ولكن ما العمل؟

***

عملاق فى لعبة الكريكيت

تأليف: جليدوين هوجيس GLEDWYN HUGES

من إنجلترا

عاش سام إيفان دائمًا وأبدًا من أجل لعبة الكريكيت، وفى المناطق المحيطة والأحياء القريبة، كان الجميع يعرفونه ويقدرونه لشهرته كأستاذ فى لعبة الكليكيت. فى أى ملعب، وفى أى ظروف جوية، كان دائمًا رائعًا. إلى درجة أنهم يقولون، لولا إعاقته، لكان من الممكن أن يلعب لأى مدينة، بل ويُختار ضمن الأحد عشر لاعبًا الذين يمثلون إنجلترا. جميع الضربات، السريعة منها والبطيئة، كان يتحكم فيها سام إيفان.

كان بإمكانه مواجهة الضربة الماكرة الضعيفة، أو الضربة القوية السريعة، أو الكرة الدائرة. حينما يكون رصيده ضعيفًا، كان يلجأ إلى الضربات المشهورة العنيفة التى تضطر الخصم إلى الجرى حتى حدود الملعب. أما إذا كان الرصيد طيبًا ولم تكن هناك ضرورة ملحة لإظهار مهاراته، فكان يعاكس خصمه ويضايقه ويجعله يتشقلب أو يدفعه دفعًا عنيفًا إلى الأمام، مما ينتج عنه اندفاع الحكم والرامى إلى جهة واحدة، كذلك يتمتع سام بحس حاد لسلوك اللعبة وردود أفعال المشاهد. يعرف أن فى اليوم الشديد الحرارة، فإن الجمهور يميل إلى أن تسير المباراة سيرًا بطيئًا، أما فى الجو الردىء فالعكس صحيح، فهو يحتاج إلى الحركة والحيوية.

وكان سام إيفان، بفضل استعداده الطبيعى وتعمقه فى اللعبة، يعد أفضل "عصا"(*) فى غرب إنجلترا. وكان بعض اللاعبين المرموقين يأتون من لندن بغرض الاحتكاك به ومقارعته. ولم يكن هناك أحد من الرماة المشهورين فى عالم الكريكيت يقدر على هزيمته. كان بحق أعجوبة فى هذه اللعبة الوطنية الإنجليزية، وكان من الممكن أن يحقق مجداً أعظم لولا نقطة الضعف التى يعانى منها، فقد كان هذا اللاعب المرموق بساق واحدة. وكانت ساقه الأخرى صناعية. لذلك، ففى كل مباراة، كان يتواجد إلى جواره لاعب آخر يجرى بدلاً عنه. وكان من المستحيل اتباع هذا الأسلوب فى الملاعب التى تقام فيها المباريات الكبرى، لذلك فقد كان سام، طوال الثلاثين عامًا التى استغرقها نشاطه الرياضى، يكتفى بأن يكون مجرد بطل قرية أو لاعب من الدرجة الثانية.

ومع ذلك فلم يسبب له هذا الوضع أى ضيق أو شعور بالمرارة. كان الجمهور يتعاطف معه، والنقاط التى لا يستطيع أن يسجلها بالجرى، كان يحققها بدقته العجيبة فى التصويب. ومع كل، فإن انتصاراته الباهرة ما كانت لترضيه وتشبع طموحاته، لولا وجود ابنه جاك إيفان.

ولد جاك الصغير فى شهر يونيو، ومنذ شهوره الأولى، كان والده يصحبه فى سيارته إلى أرض الملعب لكى يسمع الضجيج الذى تحدثه الكرات فى "العِصىّ". أما مدام إيفان فلم تتخلف عن مباراة واحدة اشترك فيها زوجها. كانت تُرى دائمًا فى الملاعب عاكفة على رفى الجوارب فى الشمس.

ومن الطبيعى أن يشعر جاك الصغير نحو كرة الكريكيت بالحب الذى يكنه لها جميع الأطفال الصغار. وحينما بلغ الثالثة من عمره، أهداه أبوه أول "عصا" يلعب بها.

(*) التى تؤدى بها لعبة الكريكيت ومن ثم ترمز إلى اللاعب نفسه.

وسرعان ما تبين أن الطفل ورث عن أبيه مهارته. ومنذ اليوم الذى ألقى فيه الطفل كرة فى حديقة المنزل المجاور، بدأ أبوه يعلمه اللعبة.

فعل ذلك بكل صبر ورفق، فالعملية تجمع بين أكبر عاطفتين للأب فى حياته: الكريكيت وجاك. وفى البداية، كانت مدام إيفان تجد ما يسليها فى مشاهدة ابنها وهو يتعلم اللعبة، لكنها بعد ذلك أصبحت مشاركة. فقد شرعت تشغل سترات جميلة لابنها الصغير وفصلت له صدرة وبنطلونًا أبيضين.

بعد ذلك ذهب جاك إلى المدرسة. وكان يشعر بالسعادة فيها فى فصل الصيف حينما يلعبون الكريكيت، والعكس صحيح، فقد كان يشعر بالضيق خلال الشهور التى يضطرون فيها إلى أن يلعب كرة القدم فى الطين. ومن حسن الحظ، كان والده يدّربه طوال فصل الشتاء، وذلك فى الحديقة فى البرد القارس، أو فى قبو البيت حينما يسقط الجليد أو المطر فى أرض الملعب.

وفى الوقت المناسب، بلغ الطفل من النضج ما أهّله للحصول على منحة دراسية فى المستوى الإعدادى. فى ذلك الوقت كان قد أصبح أحد لاعبى المدرسة التى تضم أفضل فريق فى المنطقة. وفى المستوى الثانوى شعر بسعادة غامرة لأن مدرسه كان سبق له أن لعب ضمن فريق " يوركشاير ". فعلّمه بعض دقائق لعبة الكريكيت التى لم يتمكن والده من شرحها له. وعلّمه كيف يرضى الحكم وكيف يكون وضع قدميه فى لحظة رمى الكرة. وقد أكّد له هذا المدرس أنه سيصبح فى يوم من الأيام من أكبر لاعبى الكريكيت فى البلاد.

وهكذا مر الزمن، ولعب جاك بعض المرات لفريق المقاطعة. ولم يكف عن التدريب مع أبيه كل مساء، وكذلك فى الإجازات الأسبوعية. كذلك فقد صنعت مدام إيفان لابنها المزيد من السترات الأكبر حجماً نظرًا لتقدمه فى السن. أما سام إيفان فقد ضاعف جهده فى العمل فى محل البقالة الذى يملكه لكى يتمكن من الإنفاق على تدريب ابنه.

وفى أوائل الصيف وقع اختيار لجنة التصفيات بالمقاطعة على جاك للمشاركة فى إحدى المباريات المهمة التى يجرى التنافس عليها منذ سنين. فقد كان على المقاطعة أن تتقابل مع فريق إحدى الجامعات. وكان من المفروض أن تجرى المباراة على أرض ملعب المقاطعة. وقد أخبر المدرب جاك بأنه سيكون ضمن رماة الافتتاح. وقد طلب من سام إيفان أن يكون أحد حكام هذه المباراة المهمة، كما حدث مرارًا فى السنوات الأخيرة، فقد كان يحب التحكيم.

وتصادف يوم المباراة الكبرى التى يشارك فيها جاك أن كان الجو جميلاً والسماء صافية.

كان ملعب المقاطعة يقع على حدود سوق المدينة... كان مكانًا رائعًا تكثر فيه أشجار الدردار الظليلة، وتوجد به كنيسة كبيرة تسد الأفق.

وفى العاشرة والنصف صباحًا، توجه سام إيفان وابنه جاك إلى ذلك المكان. وقد وصلا فى الحافلة حاملين معهما حاوية تضم صديراتهما وقفازاتهما وعصا الإرسال التى يستخدمها سام إيفان خلال النهار. وكان من المفروض أن تلحق بهما مدام إيفان بعد قليل، أى بعد أن تكون قد انتهت من أعمال البيت.

وفى الطريق إلى الملعب، أنفق الأب والابن وقتهما فى الثرثرة متغلبين بذلك على الانفعال الشديد الذى كانا يشعران به فى ذلك اليوم.

– أتعشم ألا تمطر السماء، يا بابا.

– الريح تهب فى الاتجاه الجيد، وجهاز ضغط الهواء مرتفع. لو نزل المطر ستؤلمنى ساقى.

كان جاك يعرف أن أباه عصبى، لذلك كانت هذه الإشارة منه إلى ساقه المعاقة.

– يقولون إن فريق الجامعة هذا يضم لاعبين خطرين.

– لا يمكن أن يكونوا أخطر من فريق لندن

وضحك الاثنان واقتربا من أرض الملعب. وكان بعض الأشخاص يتوجهون إلى باب الدخول، وكان ثمة جرار ينقل العشب.

وفى الناحية الأخرى كانت تنهض آخر بيوت المدينة. وكانت جدرانها الطوبية تلمع فى شمس الصباح. ودخل الأب والابن أرض الملعب وتوجها إلى حجرة خلع الملابس.

وفى الوقت المحدد، تم عمل القرعة لتحديد الفريق الذى يبدأ الرمى؛ ففاز بها الفريق الزائر. وبدأ اللعب فى حرارة وضوء شمس الصباح، تحت عين وبصر قبة الكنيسة المذهبة.

لم يكن جاك راميًا محنكًا، لكنه كان يملأ الملعب بالجرى بأقصى سرعته. وفى بعض الأحيان، وبعد ضربة معينة، كان يبتسم لوالده حينما ينتقل إلى موقع جديد فى التحكيم. لكنهما لا يتبادلان الكلام، لأن الملعب ليس فيه سوى لاعبين وحكم. ليس هناك آباء ولا أبناء ولا أخوة ولا أصدقاء.

واستمر اللعب بإيقاع يزداد سرعة. وبعد نصف ساعة تقدم الفريق المضيف. وقد تحققت هذه النتيجة بفضل أحد الرماة ويدعى بيركين. وكان بقية اللاعبين المحليين يعرفون ضربة بيركين، فلا يمكن مواجهتها إلا بالابتعاد عنها كثيرًا للتمكن من صد الكرة وإرسالها.

وامتلأ الملعب بالجمهور. وساد ذلك الجو من الهدوء الغريب الذى يكون حينما تصبح المباراة سجالاً بين الفريقين. واشتدت حرارة الشمس وهدأت الريح. ورفع المشاهدون الصحف فوق الرءوس لحمايتها من حرارة الشمس، وزاد الطلب على المرطبات، ومن آن لآخر، كانت ساعة الكنيسة تقرع دقاتها الحزينة. وفى بعض الأحيان

كانت بعض الطيور فوق أشجار الدردار التى لا تظهر للعيان، تشدو فنسمع شدوها الذى يشبه الأنين.

وفى غمار اللعب، تمكن الأب من أن يوصل لابنه هذه الرسالة:

- حظًا سعيدًا يا غلام، أمك بين الجمهور، تشتغل بالإبرة.

واستطاع جاك أن يجيب، حينما أقبل الرامى نحوه ليرسل الكرة إلى زميل له:

- شكرًا يا أبى، هل ساقك بخير؟

ولم يجب سام إيفان بشىء، لأن الرامى كان يتعامل مع الكرة، وكان جاك يتطلع إليه أيضا. كان الرامى شابًا نحيفًا وكانت الكرة سريعة للغاية، فأقحمت اللاعب الآخر حيث مرت بالقرب من عصاته. وهاج الجمهور.

ونظر جاك إلى أبيه ولم يقل شيئًا. وتلقى اللاعب تحيات زملائه.

واستمرت هذه المباراة المثيرة خلال فترة ما بعد الظهر حتى تمكن الفريق المضيف من تحقيق ٣٨ هجمة فقط، منها ٣٥ بفضل جاك الذى أثبت مهارة فائقة وحذرًا شديدًا.

والآن وقد مال الظل، وازداد قرع ساعة الكنيسة، مازال على جاك أن يواجه رميات الخصم. كان يدرك أن عليه أن يلعب حيث يحتفظ بالإرسال لفريقه أطول فترة ممكنة. وكان آخر اللاعبين فى جواره هو بيركين وهو من أمهر الرماة. وقد حدث أنه رمى الكرة على هذا الملعب نفسه فى إحدى المباريات حيث لم يعثروا على الكرة. ومرة أخرى أخطأ الكرة وأفلتت منه العصى فطاحت وأصابت أحد الحكام. إذن هذا اللاعب، كما يعرف ذلك جاك جيدا، ليس اللاعب الذى يمكن الاعتماد عليه حينما يكون الرصيد مثل اليوم ثمانية وثلاثين ضد ثلاثة وسبعين.

أصبح على جاك الآن أن يواجه الرامى النحيف السريع. وحاول اللاعبان تنظيم اللعب حيث يتولى جاك معظم الرميات. وفى مرة، وفى غمرة احتداده، طيّر بيركين الكرة حتى وصلت إلى المقبرة العامة. ومرة أخرى ضرب الكرة ضربة من القوة حيث انشق غلاف الكرة.

وتعاون اللاعبان حيث تمكنا من الوصول بالرصيد إلى ثمانية وستين. ولزم الجمهور السكون. وتوترت الأعصاب، حيث لم يبق سوى ست نقاط لكسب المباراة. ويكفى لذلك ضربة جيدة من بيركين أو مهارة جاك.

وتمكن جاك من إحراز أربع نقاط. واقترب بيركين من زميله وصاح قائلاً:

– نقطتان فقط ونكسب المباراة.

وبدأ بيركين يعرق ويضطرب.

– كرة واحدة أخرى لى، يا صديقى وينتهى الأمر.

– هذه مهمتك أنت يا بيركين؛ لكننى سأبذل كل جهدى.

وكان جاك على الخط حينما جاءته الكرة فقابلها بضربة أصابت الهدف. وصاح الجمهور "آه! آه!" ونظر جاك إلى الحكم الذى كان يراقب الخط.

وكان الحكم الذى تصادف وجوده عند هذا الخط من الملعب هو سام إيفان، والد جاك الذى ضرب الكرة. لقد أحسن جاك وضع الكرة، لكن الخلاف الآن حول وجوده لحظة ضرب الكرة، هل كان فى الموضع الصحيح، أم كان خارج على الخط. ولحسم الموقف لجأ مراقبو الخطوط إلى الحكم. وحلت لحظة راحة بعد صيحة الجمهور. ودقت الساعة الخامسة، وكان سام إيفان يقف فى الملعب فى انتظار أن تنتهى الساعة من دقاتها الخمسة لكى يرفع يديه فى الفضاء.

وطالت الظلال مع نور المساء. وكان الفريق المحلى ينتظر بفارغ الصبر، أما الآخرون فقد سكنت جميع خلجاتهم وراحوا يتطلعون إلى اللاعب القديم الذى كان عليه إصدار القرار الفاصل. وعلى العشب الأخضر وقف بعض المشاهدين يرقصون فى ثيابهم البيضاء. وظل بعض آخر واقفًا . هل ستضيع المباراة، أم أن جاك كان فى الوضع الصحيح؟

حينئذ، وبكل هدوء، وبابتسامة حزينة، أشار اللاعب القديم سام إيفان بسبابته نحو الأرض. وندّت زفرة طويلة عن الحضور. لقد كانت ضربة جاك من خارج الملعب، وخسر الفريق المباراة. سمعت بعض الضحكات. وتوجه الحكام والمراقبون إلى حيث يشربون الشاى، أما سام فقد توجه إلى الخلف فى بطء شديد لأن ساقه كانت تؤلمه بعد هذا اليوم الحافل بالنشاط. وصحبه كل من بيركين وجاك. وكان بيركين أول المعلقين:

– كان قرارًا صعبًا، يا سام.

أما اللاعب القديم، الذى لم يخسر أى مباراة لفريقه، فقد نظر إلى بيركين ثم التفت وهو يبتسم نحو جاك؛ كانت ابتسامة رجل تجللت رأسه فجأة بغاز القداسة كأنما بلغ مستوى أسمى من أى صواب وأخطاء. وبعد لحظة، وبينما هو مستمر فى السير إلى الخارج وهو يعرج، قال دون أن ينظر لا إلى بيركين ولا إلى ابنه:

– كانت مباراة رائعة؛ كانت ستكون خسارة لو لم يفز بها أحد الفريقين. على أى حال أنت تعرف جيداً يا بيركين أن جاك لم يكن على الخط.

وأيده بيركين، وساعده فى صعود السلم، وكان جاك خلفهما يحمل العصا . وما أن أصبحوا داخل المبنى، حتى كف كل منهم عن الكلام.

إذن، لقد وضع الرجل الشرف فوق النصر، نصر ابنه، وجلل بالمجد اللعبة الإنجليزية التى تقام كل عام تحت شمس الصيف، بالقرب من الكنائس التى تقرع الأجراس.

***

المكسيكى الصغير

تأليف: وليام سيلفيستر William Sylvester

من الولايات المتحدة

قبل أن يموت بعشرين دقيقة تقريباً، تسلق المكسيكى الصغير الدرابزين وقال:

- أغْطَس أستاذ. أغطس، أنا أعمل غُطساً للأستاذ؟

- أغرب عن وجهى!

- غطس هائل!

وأشار بذراعه السوداء إلى مجموعة من الصخور على الشاطئ.

- غطسة هائلة فى الماء، أستاذ!

- قلت لك أغرب عن وجهى.

لكنه لم يرد أن يسمع الكلام. وبقى حيث هو. وجعل يلح قائلاً:

- أستاذ. غطس هائل بدولارات قليلة.

- ألا تريد أن تغرب عن وجهى؟ ألا تسمع؟

ودعته جانيت إلى الهدوء.

– هنرى، ماذا بك. أنت حينما تشرب تزعج من حولك.

– اسكتى. وأنت، اذهب بعيداً.

وأقبل كبير خدم الفندق مسرعًا، واجتهد فى صرف المكسيكى الضئيل بالفوطة، وهو يتحدث إليه بلغته الإسبانية:

– اذهب. الأستاذ لا يريد أن يراك.

وبحركات من ساقيه، جعل المكسيكى يتراجع خطوة ويتقدم خطوة.

واحتسى هنرى جرعة أخرى من الشراب وتطلع إلى المحيط. كانت الصخور تنحدر فى سلسلة حتى البحر. مياه زرقاء لامعة كانت تسيل من الحجر، ثم ترتفع فى أمواج، ثم تسقط مكونة رغوة بيضاء كالثلج، قبل أن تهدأ وتسيل من جديد بحذاء المنحدر.

وقالت جانيت:

– لم يكن هناك ما يدعوك للعراك مع ذلك الصبى.

فصاح هنرى قائلاً:

– آه!

– أنت جبان؛ لأننى لا أوافق على مشروعاتك الخائبة. هل أنت مدرك لجبنك هذا؟ هل أنت مدرك لصبيانيّتك هذه؟

فقال هنرى:

– أنا أريد أن أذهب إلى تواناّب.

فقالت جانيت:

- تو - هوان - بيك.

- نعم، أريد أن أذهب إليها. أنا أكره البحر، هذا البحر الذى لا يكف عن لطم الصخور.

فقالت:

- غريب!

كانت تمسك بسيجارها على بعد ثلاثة سنتيمترات من شفتيها، كانت رائعة، رائعة مع شيء من العزة؛ يدان رقيقتان، بشرة صافية، ووجه مستدير يحيطه شعر طويل أشقر ممشط فى خصلات، ونظرة رائعة تتطلع من فوق كتف زوجها.

فقال هنرى فى نفسه: "لطيفة منها. غريب. فقط دون أن تبدى أسبابًا أخرى".

ولم تضف شيئًا. ومهما حاول الكلام بلا انقطاع، فلن يستطيع أن يلفت انتباهها. لم تكن تستمع إليه.

وصاح بالإسبانية:

- جارسون، جارسون. مارتينى. كأس مارتينى أخرى.

فقالت:

- هنرى، أرجوك.

- أريد أن أشرب كأسًا؛ وإذا كنت أريد أن أشرب فلن تمنعينى.

- رئيس الخدم يتحدث الإنجليزية. كيف تتكلم بهذه الطريقة، وبعد ثلاث سنوات؟

وتظاهر بعدم سماعها.

- مارتينى!

– اثنان يا أستاذ؟

– كلا، واحد فقط.

– طيب، يا أستاذ.

فاستطردت جانيت تقول:

– لو يستغرق الرسم وقتك هذا كله!

– هذا بالضبط ما أريد أن أحدثك عنه، الرسم. إن تيهوونتبيك مكان يصلح للرسم. ولكن هذا لا يعجبك. ستسخرين طبعًا إذا علمت أننى سأعود إلى فرشتى مرة أخرى.

فأومأت إيماءة استفهام!

فقال:

– نعم، هذا صحيح. أستطيع أن أرسم فى توو نابيك. أرسم حقا.

كانت قد وضعت يديها فوق المنضدة. وكان سيجارها فى إحدى يديها وفى الأخرى خاتم سوليتير يلمع:

– كلا. الموضوع لا يهمك. كلا. لا يهمك أن نختنق هنا فى هذا السجن القذر.

كانت ضوضاء الأمواج تتصاعد، وقد عيل صبرها، صارخةً، على النقيض منها. هى التى كانت تستطيع أن تجلس صامتة ساعات، وشهوراً، بل وسنوات. هى التى كانت تستطيع أن تمشى من الحجرة إلى الشرفة التى يوجدان بها الآن، وتوزع التحيات، كما نوزع الصدقات، على الخادمة والبواب ورئيس الخدم... وبعد العشاء كانت تنتظر فى هدوء، وقت النوم. لم يكن ضجيج البحر ليزعجها على الإطلاق. لم تكن

امرأة، بل كانت جبلا من الثلج، كتلة ثلجية، ألماظة وسط البحار، جبلاً ثلجياً يمسك بين أصابعه كأساً من الشراب. ومع الوقت كانت تذوب لتصبح بركة من الماء البارد:

- أنت لا تسمعين البحر أبداً. وهذا أفضل.

- ماذا تقول؟

- أنت سمعت ما أقول. قلت إنك لا تسمعين البحر أبداً. إنه لا يتوقف أبداً. يلطم الصخور دائماً، دائماً. اسمعى، انظرى، إنه لا يكف عن اللطم. أنت لا تلطمين، لا تسمعين شيئًا، لا ترين شيئًا. تجلسين فقط لا تفعلين شيئًا. حقًا، أنت لا تحسين بشيء، لا تفكرين في شيء.. لماذا لا يفعل البحر مثلك؟

- حينما تشرب، تفقد أعصابك.

- أتظنين ذلك؟ أسهل طريقة للخروج من الموضوع. أى واحد يمكن أن يقول ذلك: أنت سكران! هذا أهم شيء قلته حتى الآن: أنت لا تسمعين البحر أبدا.

وجاء رئيس الخدم بكأس مارتيني أخرى. وتذوقها هنرى كرجل خبير بألوان الشراب.

وقالت جانيت:

- على أى حال، يمكنك أيضاً أن ترسم فى الولايات المتحدة، كما يمكنك أن ترسم فى المكسيك.

- مستحيل.

- ويمكنك أن ترسم هنا كما ترسم فى تيهووانتبيك. اسمع يا هنرى، حقا! بعد ثلاث سنوات من البطالة هى شهر العسل الذى قضيناه هنا.

كان كلامها مع أفكارها يضيع بعيداً . فى الولايات المتحدة، قبل زواجهما ، كان أيضا يشرب المارتينى. ولكن بدون متعة كبيرة. فى تلك الفترة، باختصار، لم يكن يشعر بالراحة. لم يستطع مرة أن يجلس مسترخيًا على هذه الكراسى الخشنة الخاصة بعصر النهضة الإيطالية. ربما كان ذلك بسبب كل هذه الوجوه الجميلة، وكل هذه النظرات البراقة المسلطة عليه التى كانت تجذب انتباهه. والصياح المنغم لكل هؤلاء الشبان و"جمالهم" الأنثوى البغيض!

- أوه! لكنها حصلت على جائزة!

- يا لها من لوحة غريبة!

- أنا، أجدها رائعة.

على الرغم من رد فعله العنيف، فإنه لم يملك نفسه من التثاؤب. كانت الوجوه الضاحكة تموج حول جانيت، وهى جامدة، بلا إحساس، لا تسأل ولا تنفعل؛ بل تقول بكل هدوء:

- جميلة جداً .

واليوم، هى هنا حاقدة. يتعين أن نضعها وسط المنزل الفسيح المظلم، ونحيطها بلوحات لكل من ماتيس وسيزان وبيكاسو. والكل سيعجب بها . "انظروا إلى لوحة فان جوخ هذه؛ انظروا إلى قوة هذه الانحناءة الأليمة...".

لكننا لا نعود إلى الوراء. طبعًا حينما نكون "هنرى أرجيل" الطبيب، أو "هنرى أرجيل" المحامى، فهذا ممكن. ولكن ليس حينما تكون هنرى أرجيل الرسام. فالواقع أن هنرى أرجيل الرسام سيظل كذلك، يتعين عليه أن يظل كذلك. ربما كان من الأفضل أن يكون هنرى أرجيل هاوى الفن، نعم!

وصاح قائلاً:

– لن أصبح فناناً أبداً! أبداً! لقد ضيعت أفضل سنوات عمرى، لقد وهبتها للفن. هذا ما فعلته.

– اهدأ يا هنرى. أرجوك. لا تكن عاطفياً هكذا. وبعد؟ لن تصبح فنانا، وبعد؟ دعك من ذلك وانظر إلى غروب الشمس، لا تكن مستفزا!... لماذا لا تعيش، بكل بساطة؟

– لماذا؟ حسناً، سأقول لك لماذا...

وضغط أصابعه كما لو كان يحطم شيئاً ما.

– لأن يديه هاتين المليئتين بالعقد، المعبّرتين، قد تصلحان لوحة. هذا شىء أكيد. هاتان اليدان المصبوغتان بلون القواقع الرمادى، والأبيض القذر، والأسود، واللتان تخرجان من الكتلة، هاتان اليدان تبدوان خارجتين من اللوحة لتخنق من ينظر إليهما. لوحة صغيرة، وأمام هذه اللوحة الصغيرة، الجماهير فاغرة أفواهها، مفتونة.

– بالله عليك، ماذا نفعل وأنت تنظر إلى يديك هكذا؟

فتهكم قائلاً:

– ماذا! دائماً هذه البقعة! اذهبى أيتها البقعة الملعونة! اذهبى قلت لك(*).

"هاتان اليدان" وواصل تهكّمه. التهكم نفسه الذى صدر عنه يوم سكب الشراب الأحمر على الحلة البيضاء التى كان يرتديها للمرة الأولى. أو فى المرة التى قدم فيها ورد الحمير إلى جانيت:

(*) إشارة إلى عبارة ليدى مكبث فى مسرحية شكسبير.

– ورد حمير! يوجد قمل وحشرات بداخله. ألا تعرف ذلك، يا هنرى؟ سبحان الله.

وظل يومها فى إطار الباب يتهكم، وهو ينظر إلى ورد الحمير فى يديه، بينما سائس الخيل يقف على مسافة منه. تهكم كما تهكم حينما جعلت الثياب الحريرية تهفهف من حوله. لكن جانيت كانت هادئة ومطمئنة. هى وحدها، أما الآن فهى جبل حقيقى من الثلج. جبل من الثلج حينما يريد أن يأخذ قرص أسبرين، حينما يحضر الخادم الطعام الذى لم يُطلب منه.

– حسنًا. لن تفهمى. لن تفهمى تيهووانتبيك.

– كفى! حينما تكون فى مثل هذه الحالة، تكون غير محتمل، من المستحيل التعامل معك. فيك نزوات أطفال فى سن الرابعة. إذا كنت تريد فعلاً أن تعمل، اعمل هنا. لكنك لا تريد. تتخذ منى حجة؛ تتخذ من المكان حجة. كل الحجج جاهزة لك لكى لا تقف أمام لوحة لترسم.

كان المطبخ بروائح دهونه الكثيرة، والمشهيات التى كان قد تناولها، يُثير عنده الشعور بالقرف الذى يثقل على معدته. فكان يتلوى تحت سيل عبارات زوجته:

– دعك من هذا السخف... فى تيهووانتبيك الجو حار، والألوان ستذوب داخل أنابيبها؛ وستفقد أعصابك من شدة الحرارة، وستصاب بالديزينتاريا، بالإضافة إلى الهيجان، لأنك لن تجد ما تشربه!

كل ما أمامه من ألوان وشراب وبغض، ووجه جانيت، كل ذلك كان يختلط ببعضه وتتفجر أمامه سهامًا صارخة. خاصة هذا الجبل من الثلج الذى يواجهه. كانت تستولى عليه رغبة فى أن يعض، أن يمزق، أن يركْل، أن يحطم هذه الكتلة، كانت تستولى عليه الرغبة فى التقيؤ.

– وإذا كنت أنا أريد أن أحترق هناك؟

– اسكت! اسكت!

– قلت لك أريد أن أحترق هناك. الحرارة مفيدة. أريد أن أشعر بالحرارة وكأنى فى الجحيم.

– الغابة العذراء هناك! لا يوجد شىء.

– أريد أن أجرى حتى أشعر بالألم فى جميع عضلات جسمى. أريد أن أتصبب عرقًا، ثم أشرب خمسة لترات من مياه الآبار.

– مياه الآبار! أنت لا تدرى ما هى. لم تذقها فى حياتك.

– أريد أن أشرب خمسة لترات منها، وأجرى فى الغابة. وأقطع الأشجار بالبلطة وأتصبب عرقًا حتى العظام. أريد أن "أتشوى"، "أتشوى".

وجعل يدق بقدمه. وانتظرت حتى يهدأ قليلاً لكى تكلمه:

– وأنا التى كنت أظن أنك تريد أن ترسم.

– آه. كلا، كلا، لن أرسم بعد الآن.

لقد أجابها دون تفكير. وما أن وعى ما قال، حتى أصيب بالذهول، وأدرك معنى ذلك، فانفجر فى البكاء. لكن الدموع الحارة التى سالت على خديه أفادته.

– كلا، لن أرسم أبدًا، لن أرسم بعد الآن. لا أحد يثق فى قدرتى، ولا حتى زوجتى.

وانتظرت جانيت أن يتبدد الدخان الذى يغطى وجهه وقالت:

– والآن، العبارات الجاهزة، الكليشات.

فرفع هنرى يده عليها:

– سأحطم فمك.

لكن جانيت ظلت جامدة، تتطلع إليه بلا مبالاة.

– كفاية ميلودراما.

وفجأة خرجت عن هدوئها وصاحت هائجة:

– لو سمحت، بطّل هذه السخافات. وكف عن الشرب. وعن تعذيب نفسك. لا تفعل شيئًا ولا أريد أن أسمعك.

– لكن لماذا لا نذهب إلى تيهووانتبيك؟

– لماذا؟ لأن الحرارة فيها من نار جهنم.

وانتهت المناقشة عند هذا الحد، وزال غضب جانيت. وعادت مرة أخرى مالكة زمام أمرها. وجعلت من جديد تنظر إلى بعيد "من خلال" زوجها. ومهما ضرب بقدمه أم شتم أم صاح، فهى لا تسمعه، بل هى حتى لم تعد واعية بوجوده.

وذلك المزيج الذى يشعر به فى معدته، وذلك الحقد البارد الذى يستولى عليه. سنرى... ذات يوم... سوف... إنه لا يعرف بالضبط ماذا... ولكن... ذات يوم.

– فرصة، فرصة... أستاذ غُطس بدولارات قليلة.

– اذهب، أيها الوغد!

ولم تعقب جانيت هذه المرة.

– غُطْس بدولارات قليلة، أستاذ، غطس هائل.

كانت أسنان المكسيكى بيضاء لامعة، ولسانه صغيرًا بنفسجيًا، كان طرفه يتقدم ويتأخر بسرعة البرق.

- أغلق فمك أيها القذر!

ولكن جانيت بتقطيبة من أنفها، جعلت الولد يلوذ بالفرار:

- دعنا! دعنا!

وهناك قال الزوج.

- دعيه وشأنه. وأنت، تعال هنا .

- صحيح يا هنرى؟

- تعال هنا، هيا، تعال.

فابتسم المكسيكى واقترب. فانتصبت جانيت واقفة.

وسأل هنرى المكسيكى!

- اسمع. هل تعرف تيهووانتبيك؟

- تيهووانتبيك؟ نعم أستاذ، أعرف.

- أنت لطيف جداً. وهل تعجبك؟

فهز الولد المكسيكى رأسه بالإيجاب.

- هنرى ... متى ستنتهى ...

- أظن أنك لن تمنعينى من الكلام معه، هه؟ ماذا بينك وبينه؟

- دع هذا الولد فى حاله. سيظن أنك تريد أن تراه وهو يغطس. اسمع.

- أغطس، أستاذ، أغطس! غطس هائل، ببلاش. فرصة كبرى.

- أرأيت؟ تأكدت أننى كنت على حق؟ لن تستطيع الخروج من هذا المأزق.

- لكننى أريد أن أراه وهو يغطس. بكم؟

- لم أسمع بهذا فى حياتى.

- دعك منها. لا تستمع إليها.

وقال الولد المكسيكى:

- بثلاثين دولارًا.

واختنقت جانيت:

- ثلاثين دولارًا، مستحيل!

- الصخرة مرتفعة جدًا... غطس هائل. خطر.

- أنت على حق. خطر. الصخرة مرتفعة جدًا. خذ. هذه مئتا بيزة. والآن أرنى كيف تغطس.

وصاحت جانيت قائلة:

- غبى... غبى قذر.

ولكن الولد كان قد ابتعد وهو يجرى.

- سواء أعجبك هذا أو لم يعجبك، أنا أريد أن أراه وهو يغطس.

- حسنًا، حسنًا يا هنرى، كما تريد. ستراه يغطس. حاجة لطيفة، لا شك فى ذلك.

- سيكون شيئًا رائعًا. غطس هائل فى ضوء الشمس الغاربة، الشمس الحمراء بلون الدم... هب، وسط الباسيفيك.

كان الولد قد جمع بعض أصدقائه. وجعلوا يتحدثون بحماس، وهم يشيرون إلى الصخرة المرتفعة بأصابعهم.

– سيكون شيئًا رائعًا، سترين. يا ترى، سيصل إلى أى ارتفاع من الصخرة.

– أرجوك.

– بلى، بلى، شىء رائع حقًا. انظرى إلى الصخرة. كم هى شاهقة حقا! فعلا تساوى ثلاثين دولاراً.

وعلى مقربة من الصخرة، كانت تجرى شعائر طقس صغير. فقد تجمّع عدد كبير من الصبيان حول الولد الذى كان سيقوم بالغطس، وهم يرجونه أن يعهد إليهم بالنقود التى قبضها من الرسام الأمريكى. وفى النهاية وقع الاختيار على رجل كان أطولهم، فشوهد وهو ينحنى بكل أدب حينما تسلم النقود. كذلك انحنى له الغطاس.

وقالت جانيت:

– سينجح. أنا متأكدة من أنه سينجح. إنهم ينجحون دائمًا فى هذا النوع من الأعمال.

– اسكتى من فضلك.

– المرشد نجح. هل تتذكر؟ أنت راهنت على أنه لن يستطيع أن يتسلق حتى القمة. وقد دفعت أنت له كثيراً. صحيح أن قدمه زلت، لكنه وصل مع ذلك. ومصارع الثيران، الذى ظننا أنه هلك. ومع ذلك فلم يتمكن الثور منه... صحيح أنه سقط. لكن الثور لم يبقره، لم يشق بطنه. و...

– قلت لك كفاية ... أريد أن أراه وهو يغطس.

– على أى حال، أنا أودّ أن أرى إلى أى حد يمكن أن يصل دون أن يقتل نفسه؟ أقصد لو أنه كسر ذراعه أو ساقه، فهذا لا يهم، أليس كذلك؟

– يا إلهى، ألا تسكتين؟

– على أى حال، إن لم ينجح، فلا بأس، فهى تسلية على أى حال. سيكسر هذا من رتابة الحياة التى تعيشها، أليس كذلك؟ لعل ذلك ينسيك حرارة تيهووانتبيك الجميلة. هل تعتقد أنك ستصرف النظر عن ذلك؟

– قلت لك اسكتى.

– إذا كنت قد فهمت جيداً، فإنك تود ألا ينجح. لماذا تدفع لو كنت واثقا من عدم وجود خطر؟ وإلا لما أعطيت نقودا للآخرين، أليس كذلك!

– بالله عليك اسكتى.

– لا تغضب هكذا. على أى حال هى ليست غلطتك أنت، فهذا شأنه هو على أى حال.

كان المجتمعون هناك يشكلون حلقة حول الصبى الذى كان يخلع ملابسه استعداداً للغطس. وكان يرتدى تحت الشورت سروالاً لاصقًا بلون بشرته، فيظنه الناظر من بعيد، عريانًا.

واستطردت جانيت قائلة:

– بطبيعة الحال إذا سقط فوق الصخرة، فلن يكون المشهد جميلاً. هذا مؤكد... وأنا أتساءل ماذا سنرى من هنا. هل سنتمكن من تمييز العظام المحطمة، مثلاً؟

– أيتها اللعينة، لن يقتل نفسه.

– لا تقل بعد ذلك إننى لم أحذرك، يا هنرى. ومن فضلك، دعك من التهديد.

ورفع يده ثم خفضها دون أن يقول شيئًا.

دائمًا هذه التحذيرات. لقد حذرته، حذرته قبل ذلك من المطبخ المكسيكى، وقد أصيب فى معدته. ومن الشرب، نعم. لقد حذرته. والآن، هو يتمنى لو يخنقها.

***

الفـــــــرار

تأليف: تاكيس هاتزيانا نجوستو Takis Hatziana ngostou

من اليابان

كنا قد عبرنا النهر، ومع ذلك فقد كانت أختنا "روزى" تواصل البكاء. كنا نواصل السير منذ ساعات، وقدماها الداميتان تتركان آثاراً حمراء فوق حجارة الطريق حيث كان من الممكن أن نرى، بعد مرورها علامات غريبة، كان قلبى ينقبض لها. إن جميع المحن التى عرفناها منذ قليل: هربنا فى الليل القارص، والرياح، والمطر الذى كان يهدد بالهطول، ومياه النهر المتجمدة، والجوع الذى أصبحنا نشعر به، كل ذلك لم يكن يعد شيئًا بالنسبة لدموع شقيقتنا الصغيرة "روزى".

لم يكن والدنا يقول شيئًا وكان يسير محنى الظهر. وكانت "أورور" شقيقتنا الكبرى تضغط على أسنانها وتتقدم دون شكوى أو أنين.

لم يكن أحدهما يلقى نظرة إلى الوراء، ومهما بكت "روزى"، فقد كانا لا يريانها. كنا نسير بسرعة عظيمة، كما لو كان هناك أشخاص يطاردوننا. ولقد تمنيت لو ناديت "أورور" ووالدى، وأجبرتهما على الالتفات، وعرضت عليهما الدموع التى كانت تسيل فوق خدى "روزى" والحجارة الملطخة بالدماء. تمنيت لو سألتهما عن السبب الذى دفعنا إلى الفرار من قريتنا، ولماذا تركنا شجرتنا الكبيرة، شجرة الدلب، للوحدة واليأس – شجرتنا العزيزة التى كانت تلعب فوقها طيور القرية بأسرها –

ولكننى كنت أشعر بإرهاق شديد حيث لم أكن أقوى على توجيه الأسئلة، وكانت قدماى ثقيلتين.

وفجأة، إذا بصورة أمى تظهر أمامى. "حقًا، إن أمنا ليست معنا"، راودتنى هذه الفكرة، وقد جف حلقى. كان والدنا و "أورور" ينظران أمامهما فى إصرار، ولكننى كنت أعلم جيدًا أنهما لا يفكران إلا فى ذلك؛ أمنا، أمنا ليست معنا. وعادت بى الذاكرة فجأة، فرأيتها، هناك، قرب النار المطفأة راقدة فوق البلاط ومقبض الخنجر يخرج من صدرها.

وعشت مرة أخرى كل تفاصيل تلك الليلة الرهيبة؛ النيران التى كانت تدمر قريتنا، فتحيل كل شىء إلى رماد، وألسنة اللهب التى كانت شديدة النهم وهى تلعق الجدران، والنوافذ، والأشجار - أشجارنا. والصراخ الفظيع الذى كان يدوى فى الشوارع، والدماء الغزيرة التى كانت تلطخ الحجارة، والناس الذين كانوا يهرولون من هنا ومن هناك وهم يصطدمون بشدة بالأبواب، والصراخ. فأسرعت أمنا إلى رأس سريرنا، وأخذتنا بين ذراعيها. ولقد دهشت لأننى لم أر "أورور" ولا والدى الذى كان مريضاً منذ عدة أيام. كانت الظلمات، وأنفاس أمنا الفاترة تلفنا فى طياتها. وإذا بأختى الصغيرة تسأل قائلة:

- لماذا بابا و"أورور" ليسا معنا؟

فأجابتها أمنا بسرعة:

- لأنهما لا يريدان أن يقعا فى أيديهم.

كانت تتحدث بصوت خفيض خشية أن يسمعها أحد.

فسألت "روزى" مرة أخرى:

- يقعان فى أيديهم؟ ولكن عمن تتحدثين؟

فعضت الأم على شفتيها، وهى لا تدرى بماذا تجيب. كانت عيناها تلمعان، كما لو كانتا تريدان أن تخترقا الجدار لتهرب معنا.

فجأة، إذا بالباب ينفتح فى دفعة واحدة، وشبح مخيف يظهر عند العتبة. فقفز قلبى من الرعب، وساد الحجرة برد قارص.

- أين زوجك؟

كانت عيناى مثبتتين على أمى. لم تنطق بكلمة واحدة.

فاستطرد الشبح المرعب قائلاً:

- حسنًا. ترفضين الإجابة؟

فتجمدت الدماء فى عروقى.

وأخفيت جبينى فى صدر أمى. كم كان الجو فيه لطيفًا وفاترًا! ولكن هذه المهلة لم تستمر. فإذا بيد من حديد تنتزعنا، أنا وأختى، من أكتافنا وتدفعنا إلى ركن من أركان الحجرة. ولمع نور الصباح وسط ظلمة الليل. وغاص الخنجر حتى قبضته فى صدر أمنا الحبيبة؛ فتدفقت منه الدماء الغالية، وإذا بعينيها - عينيها اللتين كانتا ملاذنا - تغمضان إلى الأبد. ثم التهمت النيران كل شىء، وانطلقت تزمجر من النوافذ. كنت أظن أننى أعانى من كابوس. وكانت ألسنة اللهب تتراقص أمامنا كالمجنونات. كانت تشبه مخلوقات جهنمية، تفتح أفواهها على سعتها لكى تبتلعنا. فكنا نرتعد من الخوف. ولم يكن هناك أحد لينقذنا، فقد كنا وحدنا مع أمنا التى كانت ترقد بلا حراك فوق البلاط. وكانت ألسنة اللهب تداعب جثتها، التى كانت الدماء تلمع فوقها بطريقة غريبة.

حينئذ انفجرت "روزى" فى البكاء، وتذكرت الوقت الذى كنت أتركها فيه وحدها، وسط الغاب، وهى التى كانت تخاف كثيراً من الأفاعى.

ورحت، وقد تملكنى الخوف، أجذب أختى من يدها، وأجتاز الباب وأنا أعدو. كانت ألسنة النيران تضىء الشارع وكأننا فى وضح النهار. وكانت الدماء تسيل. وكان الأنين وصراخ الرعب يتدفقان من كل مكان ومن أى مكان. كنا نختار مناطق مظلمة، ومن جديد كانت ألسنة النيران تقفز أمامنا فى كل مكان نذهب إليه.

وكنت أصرخ بأعلى عقيرتى:

- "أورور"! "أورور"!

كانت "روزى" تبكى من الذعر، ولكن ما من أحد كان يستطيع أن يسمعنا. وكان ثمة مجرى يسيل من الطريق إلى الميدان. هل كان من الماء أم من الدماء؟ لست أدرى. كانت شجرة الدلب المليئة بحفيف الطيور تقوم غير بعيد من هنا. كنا، معشر أطفال القرية، نحب أن نأتى لنلعب تحت ظلها. لقد اختفت هى أيضاً.

- "أورور"!

كان حلقى جافًا مثل نبات الصوفان. وكنت قد فقدت صوابى تمامًا. ولم يعد عقلى سوى فتحة كبيرة سوداء. فكرة واحدة ملحة كانت تطفو فى غمرة ذهولى: أين " أورور" وأين والدى المريض؟

- "أورور"!

وفجأة، إذا بها تنتصب أمامنا. شعثاء شاردة، فخِلتها إنسانة غريبة عنا. وإذا بها تضمنا بين ذراعيها، وتقبل منا الخد والجبين وتضمنا إلى صدرها بشدة كما لو كانت ترانا لأول وآخر مرة. كان وجهها حزينًا. وكانت تتحدث بعجلة.

- سيرًا فى الطريق حتى البئر، وانتظرانى هناك.

فتعلقت بثوبها، وقلت لها:

- أورور، لقد قتلوا أمنا.

ففغرت فاهها على سعته، وسقطت يداها إلى جنبيها. ومكثت على تلك الحال بضع لحظات ثم اندفعت من جديد وسط اللهب.

وسرنا فى الطريق الذى كان يؤدى إلى البئر. كان الناظر يظن أن الليل قد تمزق قطعًا صغيرة لا حصر لها اتخذت هيئة عفاريت لها ذيول طويلة، وعيون صغيرة شنيعة يتراقص فيها اللهب. لقد رأيتها وهى تقفز وتتلوى وتلعب وجوهها خلفنا، وهى سعيدة بتعذيبنا. فجذبت يد "روزى" وانطلقت أجرى. فانطلقت العفاريت فى أعقابنا. وكانت الأرض صلبة فكانت الحجارة تمزق أقدامنا. وكانت رئاتنا الصغيرة على وشك الانفجار. وفجأة فكرت فى والدى. ذات يوم بصق دمًا، كان يسعل وكنا نحن نعلم أنه يعانى من مرض شديد.

أين هو الآن، يا إلهى؟ وضغطت بشدة على يد أختى. وكنت منهكة القوى من فرط الحزن والقلق، وعندما بلغنا البئر، وحيدتين بائستين، عرفنا عدة لحظات من الانهيار التام. ولقد انهارت كل شجاعتى وضممت "روزى" إلى صدرى وقد تعلقت كل منا بالأخرى وبكينا طويلاً.

منذ متى ونحن نسير؟ لا أستطيع أن أعرف بالضبط. إن الصغيرة "روزى" تواصل البكاء والنشيج. لقد عبرنا النهر. الوقت نهار وها هو والدى و "أورور" معنا، ولكن الدموع لا تزال تسيل فوق خديها.

لماذا كانت تبكى؟ حقًا... لقد تركنا أمنا وراءنا.

إننا الآن نسير على طول طريق لا ينتهى، صلب بفعل الجليد. وراءنا تقوم الجبال التى تحمى قريتنا. ولكننا لم نعد نستطيع أن نلتفت لننظر إليها. إنها بالتأكيد حزينة إذ ترانا نرحل. إن الرياح التى تكنس قمم الجبال لا بد أنها همست لها بسر الفظائع التى وقعت فى الليل. ولعلها تخشى ألا ترانا بعد ذلك أبدًا.

كنت أحب جبالنا. فقد كانت تسهر فى حراسة القرية فى يقظة مهيبة. كانت بالنسبة لنا معشر البنات، سقف العالم. كنا نعيش وكنا ننام فى حمايتها. كان بعض الطيور الجارحة قد اختارت لنفسها مأوى بالقرب من قمم فصل الشتاء. كنا نراها تحلق فوق الأودية الصغيرة الجرداء وهى تطلق أصواتًا كئيبة. وعندئذ كنا ندرك أن الرياح ستهب على الوادى. فكنا نشرع فى العودة إلى منازلنا الفقيرة ونغلق الأبواب والنوافذ حتى نمنع الأشباح من التسلل إليها.

كل شىء كان يتغير مع عودة الربيع. كانت وجنتا " روزى " الصغيرتان تصبحان مستديرتين وحمراوين. وكانت موجات من النور الأخضر تهبط من الجبال. وكانت البلابل تعود. وكانت شجرة الدلب تكتسى بأوراق صغيرة لا حصر لها تلعب فى رقة مع النسيم. وكنا نذهب لنتنزه فى الريف، مع بابا وماما و " أورور ". وكانت الأرض تعود فاترة خصبة من جديد. وكانت الغصون الصغيرة الخضراء الندية تتخلل الفروع الذابلة القاتمة، بقايا شتاء آخر. وكانت " روزى " تضحك من السعادة. وكان والدنا وهو فى وضع الاسترخاء يداعب شعرها.

ثم يقبل الأصيل، الذى يهبط رويداً رويداً فوق الجبال، ثم فوق عيوننا وفوق أشجار القرية. وكان والدنا يعطى إشارة العودة، فنعود ونحن نغنى بينما تميل الشمس إلى الغروب.

نعم، قد تغير كل شىء مع عودة ربيع جديد تمامًا، يحمل وعداً بالصيف.. الربيع والصيف، كانت حياتنا، حياة الأطفال، تتمثل كلها فى هذين الفصلين. وكانت جبالنا العزيزة تمثل رمزها. فما أشد حزننا إذ نتركها إلى الأبد، دون أن نستطيع حتى أن نلتفت إلى قممها، لنلقى عليها نظرة وداع أخيرة.

وقالت "أورور":

– أنا متعبة، ثم جلست.

فحذونا حذوها. لم يكن أحد يتكلم، وكنا لا نكاد نجرؤ على تبادل النظرات. ولقد تمنيت لو سألت عن الهدف وراء هذا السير المضنى، غير أن الخوف كان يمنعنى. كانت أختى الكبرى تضغط على أسنانها. وكان شعرها الأشعث يداعب جبينها الأملس فى رقة وعذوبة. كان عمرها لا يربو على الخامسة عشرة، وكان الألم يضفى على وجهها تعبيراً بالحزن. إنها لم تعرف فى حياتها فرحة أخرى سوى الحياة بين شقرائنا "روزى" وأنا ووالدينا اللذين كانا يحباننا لدرجة العبادة. كانت الحقول والمنزل تشكل كل عالمها، كانت كل فكرة من أفكارها تدور حول أبوابها أو شقيقتيها. وكانت نظرتها، وهى فى زرقة البحر، تحط علينا، رقيقة هادئة. وذات يوم أخذ والدنا يحدثنا عن البحر. كان ذلك فى إحدى أمسيات الشتاء. وكانت ثمة نار هائلة تضطرم فى المدفأة. أمى تحمل "روزى" بين ذراعيها والطفلة تنصت بافتتان إلى قصة البحر اللا نهائى. حدث ذلك أيام كان والدنا يذهب من مدينة إلى مدينة باحثًا عن عمل. كان يتحدث بصوت خفيض وكان يسعل من وقت لآخر. وكانت "أورور" تنصت فى سكون. وأنا أتأمل عينيها. إننى لم أر البحر فى حياتى، ولكنه بدا لى فى تلك اللحظة أن عينيها كانتا انعكاسًا له، انعكاسا لبحر بعيد مجهول، حافل بالأسرار وبسحر غريب.

والآن، فإن هاتين العينين تهيمان بعيداً… فيما وراء الحقول التى أصبحت صلبة بفعل الصقيع. كنت أتمنى أن أعرف… أن أعرف لماذا عشنا تلك الليلة الرهيبة. لماذا أقبل الرجال ليحرقا القرية ويقتلوا أمنا. إننى على ثقة من أننا لم نمس أحداً بسوء. كنت أنا و"روزى" نكتفى باللعب تحت شجرة الدلب، مع الطيور، كنا نحب الإله الخالق وجبالنا. من أين أتى هؤلاء الرجال الذين هاجموا منازلنا وهم ينشرون الرعب ويريقون الدماء؟

كانت السماء المنخفضة تثقل على صدورنا. وعاد والدنا إلى السعال، وكان ينتفض من البرد. وكانت "روزى" الصغيرة تغمض عينيها.

ورحت أسأل أختى الكبرى:

– هل سنظل نسير طويلاً؟

فلم تجب. واستمرت عيناها الزرقاء تهيم بعيداً، بعيداً لدرجة أن نظرتى تاهت وهى تتبعها. كنت أشعر بالبرد. فالتفتت نحوى، وراحت تزرر معطفى. ثم أخذت بين ذراعيها "روزى" التى كانت تغط فى النوم. وكان شعرها الذهبى يسقط فوق وجهها المتجمد. وسمعت أبى وهو يطلق الزفرات.

منذ متى دخلنا غابة الصنوبر؟ كنت عاجزة عن معرفة ذلك. كنت قد فقدت الإحساس بالزمن. وكنا نسير فى سكون، ونحن نصغى السمع لطقطقة الأغصان الجافة تحت أقدامنا. آه! لو كنا فقط نستطيع أن ننسى.

كانت أشجار الصنوبر ترتفع عاليًا حتى إنها كانت تحجب السماء عنا، حتى إن المطر كان قد شرع فى الهطول دون أن يلحظ أحدنا ذلك. وتوقفت "أورور" على حين فجأة وولت وجهها ناحية السماء. فنظرنا إليها باندهاش.

وسأل أبى قائلاً بصوت خفيض: هل تمطر السماء؟

وإذا بأشجار الصنوبر تجيب فى حزن:

– أجل، إنها تمطر.

كان المطر رذاذًا دقيقًا. وكان يسقط فى بطء ودون أن يحدث أى ضوضاء. فقد كان يسيل على الأوراق فيشبع الهواء والأرض. وكان ثمة سكون عميق يلف الغابة، فلم نكن نسمع سوى المطر الذى لا يكل من السقوط على أوراق الأشجار. وكنا نتابع مسيرتنا اللا نهائية بين سيقان الأشجار السوداء التى جمدت فى ثبوتها وسكونها.

كنت أقول لنفسى إن الليل لن يلبث أن يهبط على الغابة حتى دون أن ندرك ذلك. وقد نظل سائرين، سائرين، بلا هدف، حتى نهاية الأحقاب، دون أن نرى منزلنا مرة أخرى. وقد تظل الليالى تتتابع فى أثر الليالى. وقد لا يشرق فجر بالنسبة لنا مرة

أخرى. الأشجار الضخمة ستقوم من حولنا، بعدم اكتراثها الهائل. وقد يظل المطر يتساقط إلى الأبد فوق عالم من السكون والموت، ولن يلتفت إلينا إنسان، ولن يشفق أحد على هذه المخلوقات الملقاة وسط البرد والنسيان. فقط أمنا الحبيبة قد تأتى لزيارتنا فى أحلامنا وهى تداعب شعورنا التى يبللها المطر. وستقضى الظلمات علينا من جديد وسط الأشباح وألسنة اللهب التى تكون بلون الدماء. وستأتى الطيور الجارحة، وهى تضرب بأجنحتها وتطلق صيحات الرعب، فتنزع عيوننا وتخترق أجسادنا بمناقيرها ومخالبها.

وفجأة صحت قائلة: أبى!

وتوقف المطر فجأة. وكانت الغابة تتطلع إلينا فى برود. فقد كان يبدو أن الطبيعة المعادية، تنبذنا هى الأخرى. وانخلع قلبى من صدرى. فأسرع والدى نحوى فأخفيت، وجهى بين يديه.

وتمتمت قائلة: إنى خائفة.

فضمنى أبى إلى صدره بشدة، ثم رفع نحوه وجهى، وراح وهو يتطلع فى عينى، يحاول أن يبتسم.

وبينما نحن نستأنف الرحيل، إذا بالمطر يأخذ فى السقوط.

كان أبى يمسك بيدى، ولم أعد أشعر بالخوف. وكانت "أورور" و "روزى" تسيران وراءنا. كانت المياه تسقط من الأغصان نقطة نقطة، فتخترق ملابسنا وتبرد قلوبنا.

وفجأة إذا بصوت "روزى" يقطع صمت الغابة فى قوة خارقة.

– أنا جائعة!

ثم كرر فى عناد:

– أنا جائعة!

كانت "أورور" تتأملها فى يأس. وكانت عينا شقيقتى الكبرى قد فقدتا بريقيهما، كأن غلالة من التراب قد حطت عليهما.

وقال أبى:

– هيا، فلنواصل السير قليلاً. أرجوك يا حبيبتى.

وسألته "أورور" بصوت مبحوح بفعل الدموع:

– أوه، يا والدى، كم من الوقت سنسير؟

لقد راودتنى هذه الفكرة؛ أجل، كم من الوقت؟ هذه الغابة، ألن تنتهى أبدًا؟ وهذه الأمطار، ألن تكف أبدًا؟ أنا أيضًا كنت جائعة. لقد أدركت ذلك حينذاك لأن معدتى كانت بالتأكيد مليئة بالديدان التى تلتهمنى، وتحفر حفرة ضخمة، حفرة عميقة، مظلمة مثل الموت، حفرة كانت تصيبنى بالدوار وتهدد بابتلاعى.

وقلت بدورى: أنا جائعة.

فصاح أبى بما بقى لديه من قوة: أنتما جائعتان؟ وأنا،هل تظنان أننى لست جائعًا؟ هل تظنان أننى لست مرهقًا مثلكما. لقد فاض بى. يجب أن نواصل السير قليلاً. فقد نصل... وإذا بنوبة سعال تمنعه من مواصلة الكلام. كان وجهه فى غاية الشحوب من العذاب.

لقد كان المطر يشتد شيئًا فشيئًا. ونظرت إلى "روزى". وكان شعرها يتدلى فى خصلات طويلة هامدة. وكانت تهمهم وتتمتم بصوت خافت: "أنا جائعة، جائعة" لقد تظاهرت بعدم سماع الرجاء الذى وجهه أبى يحثنا به على مواصلة طريقنا.

كانت "أورور" تبدو منهكة تمامًا، وقد تقلص فكاها، والتصقت ملابسها بجسدها، وراحت تقطر ماء، وكان صدرها الضئيل يرتفع ويهبط بسرعة وتبادلت مع والدنا نظرة ضعيفة، فطأطأ لها رأسه.

ثم قال بصوت خفيض: يجب أن نسير. إننا لا نملك الاختيار.

وحملت الأمطار كلامه الذى راح يتبدد وسط الغابة فى حزن وأسى.

وتطلعت حولى. كان الغروب يهبط، أشبه بسائل كثيف أسود يملأ وحده الأرض رويداً رويداً. وكانت الأشجار تكبر للعين المجردة، وكانت قممها تختفى فى السماء. وكانت جميع الطيور قد هجرت هذه الأماكن الملعونة. فلم نكن نرى سوى قطرات المطر وهى تلمع بطريقة غريبة أشبه بعيون صغيرة يقظة تسخر منا ومن آلامنا.

كنت أشعر بالخوف، فاحتضنت يد والدى وعاودت السير بخطى حثيثة... كان يتبعنى وهو يسعل ويزفر. وكانت "روزى" و"أورور" تسيران خلفنا. وكانت ضوضاء خطواتهما تضاعف من فزعى. فأسرعت الخطى. وكانت الأغصان تطقطق وكنت أسمع الأنين المؤثر الذى يصدر عن المياه الساقطة. وأخذت أجرى. واندفع الآخرون فى أعقابى. كانوا يسرعون كالمجانين. ولم أكن أرى شيئًا على مسافة ثلاثة أمتار أمامى. وكان قلبى ينبض بجنون. وكنت أسمع الأشجار وهى تضحك ساخرة على طريقتنا. وثمة عواء كئيب يخترق الغابة. ولم نعد سوى أجساد بلا أرواح تسرع إلى الهاوية. الغابة بأسرها كانت تطاردنا.

فسقطت على الأرض جاذبة أبى الذى انهار فى أعقابى. وعاودت الرحيل وأنا أعدو. ولكن جذع شجرة هائلاً كان يسد الطريق فاعترض سبيلنا. فسقطت من جديد. وفى هذه المرة عجزت عن النهوض. كانت ركبتاى تؤلمانى ألمًا شديداً. وكنت أشعر بألم فظيع فى معدتى: كنت أتنفس بصعوبة، وكان قلبى ينبض كعصفور وقع فى الشبك.

فأغمضت عينى. وإذا بألف صوت يهمس فى أذنى. وسرعان ما فقدت الشعور.

وعندما فتحت عينى من جديد، كانت شمس شاحبة تلمع فى السماء. وكانت "أورور" بجوارى. وكان أبى قريباً منا ينام بجوار "روزى".

فسألت وأنا أتطلع حولى فى ذعر:

- أين نحن؟

ولم تجب "أورور" على الفور. كانت تتأمل السهل الفسيح الذى كان يمتد أمامنا. ثم وضعت يدها فوق جبينى. وقالت:

- بماذا تشعرين؟

- "أورور" إننى لم أعد أرى الغابة.

فتمتمت قائلة:

- اطمئنى. لقد تركناها وراءنا.

- ولكن كيف وصلنا إلى هنا؟

- لقد حملتك فوق ظهرى. وحمل والدنا "روزى". وكنت طوال الليل تنتفضين من الحمى. كنت تنادين ماما. أخبرينى. هل تشعرين الآن بتحسن؟

وجلست أنا وضممتها إلى صدرى بكل قواى. وتمنيت لو احتفظت بها إلى الأبد بين ذراعى. كنت أخشى أن أفقدها. أوه! أجل، كنت أشعر بتحسن، مادام قلبها يدق بالقرب من قلبى، وما دامت عيناها تتأملانى بحنان. كانت معدتى خاوية، وكان رأسى يملؤه الطنين، ولم أشأ أن أخبرها بذلك نظير أى شىء فى العالم.

وجعلت أنظر إلى الصغيرة "روزى". كانت لا تزال نائمة. ونظرت إلى الشمس الشاحبة التى كانت تتأملنا من عليائها فى ذهول. كانت حالتى طيبة. ولم أكن أتمنى شيئًا آخر. وكنت أتمنى فقط أن أظل على تلك الحال إلى الأبد، بين ذراعى "أورور" أقبل يدها من وقت لآخر وأكون فى حمى نظرتها الحانية.

وسألتنى أختى الكبرى:

- هل أنت جوعانة؟

- فقلت: لا.

كنت أبتسم للشمس في حبور. وسرعان ما استيقظت "روزى" فتركتنى "أورور" لتسرع إليها وقالت لها:

- هل نمت نومًا طيبًا، يا حبيبتى؟

ولم تجب الطفلة. كانت - تنقل حولها نظرة مليئة بالفضول، وتأملتنى بإمعان كما لو كانت ترانى للمرة الأولى. فابتسمت لها وصحت بها، أن تأتى لتجلس بجوارى. كنت أريد أن أخبرها بأنه لم يعد لدينا أى سبب للخوف. ولكن الوقت لم يسعفنى. فسرعان ما صرخت " أورور " قائلة: دم!

فارتعدت أوصالي.

وكررت هى قائلة: دم! أوه! أبى.

وتحطم صوتها كما يتحطم كوب من الزجاج. وتوارت "روزى" وهى مذعورة وراء أختها. وعندئذ رأيت شريطًا من الدماء يسيل فى بقع كبيرة من فم والدى النائم ليسقط فوق الأرض المتجمدة. كنا نعرف مُنذ مدة طويلة أنه مريض، ولكننا كنا نجهل أن مرضه كان بهذه الخطورة. وإذا بألم فظيع يخترق قلبى. وسرعان ما اختفت الشمس خلف سحابة من السحب. وعاد كل شيء رماديًا يبعث على اليأس. فانضممت إلى "أورور". واحتضنت كل منا أختها ونحن نتأمل والدنا الذى لم توقظه من نومه صرخة أختى كان هادئًا. ولم يكن وجهه يعبر عن أى ألم. كان يلوح عليه أنه نسى المتاعب التى اجتزناها: موت أمى، القرية المشتعلة، الليل وسط الغابة. كان والدى ينام فوق العشب، وكانت الدماء التى تتدفق من ركن شفتيه تكون بركة صغيرة تكبر شيئًا فشيئًا.

وقالت "أورور" وهى تربت يده اليمنى: أبى!

كنا نرتعد.

وصاحت "روزى" بغتة: أبى!

وتمزقت طبقة السحاب، ولاحت الشمس فى السماء، وسقط شعاع فى جفنى والدى الذى فتح عينيه ورآنا مائلات عليه. كنا نتنفس فى حذر، خشية أن نزعج تلك النظرة الهادئة، التى غسلت من كل همها وغمها. وكنا نقرأ فى عينيه أنينًا، ورقة فائقة، وطيبة تمزق قلوبنا.

واختفت الشمس، واستولى السحاب من جديد على السماء، وأغمض الجفنان مرة أخرى وبسطنا إليه أيدينا.

وإذا بالجفنين ينتفضان. وحاول أن ينتصب واقفًا. وإذا بموجة من الدماء تتدفق من فمه. وأراد أن يوقفها، فرفع يده إلى شفتيه، ولكن الأوان كان قد فات. فتدفقت الدماء مغرقة ثيابه وثيابنا. وكان وجهه شاحبًا للغاية. وثمة تجاعيد عميقة تحفر جبينه. وأخرج من جيبه منديلاً قذراً وجفف شفتيه. وكانت السحب، وهى لا تكترث لنا، لا تزال معلقة فوق رءوسنا. وكنا ننظر إليه وقد تحجرنا من الألم.

وتمتم وهو يبتسم بمرارة: لقد فات الأوان.

وحطت نظراته على كل واحدة منا ثم توقفت على "روزى". وبسط ذراعيه، وداعب الشعر الأشقر الجميل.

وقال، بينما دمعتان كبيرتان تسيلان فوق خديه: حبيبتى. ثم أضاف بصوت خفيض وكأنه يشعر بالخجل:

- أننى لا أستطيع أن أذهب أبعد من ذلك.

كانت الدموع تسيل فوق خدى.

وشعرت بغصة فى حلقى واعتقدت أننى أختنق. ولبثت صامتة وأغمضت عينى، ولكننى على حين فجأة سمعت صوتًا مكتومًا جعلنى أقفز من الرعب. كان والدى راقدًا

على ظهره وكانت الدموع لا تزال تبرق فى عينيه المفتوحتين على سعتيهما.

فأطلقت صرخة:

– "أورور"!

وسمعنا ما يشبه الصدى:

– أبى!

ومر طائر الزاغ من فوق رءوسنا وهو ينعق، ومست شعورنا رياح خفيفة. واختلطت أصواتنا بصياح الطائر وهبوب الرياح.

وناديت مرة أخرى:

– أبى!

وأخذت يده وهززتها، وحركت رأسه يمينًا ويسارًا، ولكنه لم يعد يتكلم. كان من العسير التعرف على "أورور". لقد تخلت عنها كل سطوتها وكل قوتها. وضاقت عيناها الزرقاوان. وكانت شفتها العليا ترتعد.

فدفعتنا فى قسوة، وأطبقت الجفنين الميتين. ثم ألقت بنفسها فوق جثة والدنا الحبيب، وضمته بين ذراعيها فى يأس، وأخذت تولول وهى تطلق صراخًا مبحوحًا يؤذى سماعه الآذان.

إن الكلمات لا يمكن أن تصور آلامنا، وكانت الدموع أعجز من أن تخففها. لقد ظلت فى داخلنا، هائلة، بلا حدود. وغدت عمودًا راح يصعد حتى السماء ويسقط فوق قلوبنا.

وضغطت على يد "روزى" قائلة: ماذا سيكون مصيرنا الآن؟

وقالت "أورور" وهى تتوجع:

- ماذا سيكون مصيرنا؟

ورأيتها تنهض. وكانت عيناها أشبه بطائرين مسكينين جريحين.

وكررت فى يأس قائلة:

- ماذا سيكون مصيرنا الآن؟

وا أسفاه! هل كنا نعلم ذلك؟ كانت الشمس قد غابت ... ونعق أحد الغربان ثم اختفى. وظهر فى السماء خط من النور، بعيداً.

وأعقب ذلك رعد هائل، كما لو كانت تتفكك، وكما لو كانت نهاية العالم وشيكة الوقوع. كانت "أورور" تعض على شفتيها، وألقت حولها نظرة أشبه بنظرة بهيمة يطاردها الصياد. وتقدمت خطوتين إلى الأمام. وتوقفت، وتفرستنا بضع لاحظات، ثم استأنفت سيرها. وسرعان ما غابت عن أنظارنا. ونشر البرق نوراً صاعقًا. فأطلقت "روزى " صرخة فزع:

- "أورو - و - و - ر!"

وسمعناها وهى تنادينا. وكانت السحب تحوم على ارتفاع منخفض فوق رءوسنا أشبه بكفن على أهبة أن يلفنا فى طياته:

- هو - هو - هو!

وضعف الصوت وتحطم فى حزن وأسى، وظننت أننى أسمع نحيبًا. ولم نكن نقوى، أنا و "روزى"، حتى على الرد على هذا النداء. وعندما عادت شقيقتنا، ألقتنا فى الوضع نفسه الذى تركتنا عليه: الرأس محنى على الصدر. ثم عاودنا البكاء من جديد.

وتتابع البرق، وكانت زمجرة الرعد تقترب. وشرع المطر يسقط بعيداً. وانتصبت "أورور" واقفة، وقد دكنت زرقة عينيها بفعل العاصفة. كان المطر على وشك النزول. فلمحت دغلاً من الشجيرات، غير بعيد عنا، وشرعت تقطع منه الأغصان لكى توارى

جثة والدنا . وحذونا نحن حذوها . وإذا بالمطر فى نهاية الأمر يبلغ مأوانا . كان البرق يمزق السماء، وكان يلوح أن كل زمجرة من الرعد تخلع قلوبنا . وراحت الطرق المجهولة التى ستبتلعنا تفتح أبوابها . فأمسك بعضنا بأيدى بعض آخر . وبدأت المسيرة الطويلة المنعزلة. "روزى" وحدها حولت رأسها الشقراء وتأملت لآخر مرة الجثة التى كانت تغطيها الأغصان تماماً... ولكنها كانت صغيرة جداً حيث لم تدرك أنها كانت آخر مرة.

***

الشقيقان

تأليف: الكاتب الفرنسي: م. إيميه

من فرنسا

كنت أعمل سكرتيرًا عند السيد **ألفريد ليجندوم**، ذلك العالم الكبير في اللغة اللاتينية. وكان سيدي هذا لا يراسل إلا شخصين اثنين فقط: ابنة عمه، وكان يرد عليها بنفسه، ثم محصل الإيرادات.

وذات صباح وصل المكتب خطاب من أمريكا قرأت فيه ما يلي:

أخي العزيز.. ها قد مضى سبع وأربعون سنة على فراقنا، وفي تقديري أنها قرن كامل فإلى اللقاء قريبًا. أخوك الحبيب **جيروم**.

قدمت الخطاب إلى سيدي الذي بادرني بقوله:

- يا سيد **بيرونيه**. وصلني أمس خطاب من زولما ابنة عمي؛ تخبرني بأنها ستصل مساء الأحد، فبلّغ الخدم بإعداد غرفة النوم الوردية. وأطلع سيدي على بريد اليوم فعلّق قائلاً:

- آه، آه. خطاب من أخي الصغير الذي كنت أعتقد أنه مات قبل أربعين عامًا. بدليل أنني ورثت عنه مبلغًا هائلاً من المال ولا بد أن لديه ما يستند عليه قانونيًا

للمطالبة باسترداد ماله، إذن لا بد أن نحتاط للأمر وطبعًا أنت تفهم الآن ما يجعلنى مضطرًا لتخفيض راتبك. وبما أننى كنت أنوى أن أمنحك زيادة فسأكتفى بخصم خمسين فرنكًا من راتبك الشهرى.

– آه يا سيدى.

– كلا، كلا، لا تشكرنى، الحقيقة أنك كنت تستحق هذه الزيادة.

وفى يوم الأحد التالى، استدعانى سيدى فوجدت عنده سيدة غاية فى الجمال وقال السيد ليجندوم وهو يقدمنى إليها:

– زولما. هذا السيد بيرونيه، مستخدم عندى.

فاعترضت قائلاً: سيدى، أنا لست مستخدمًا عندك، بل أنا أمين سرك وكنوز الدنيا بأسرها لا يمكن أن تجعلنى مستخدمًا عندك.

كانت **زولما** تنصت لى بكل انتباه ودية فاغرة فاهها بشفتيها الورديتين. وأدرك **السيد ليجيندوم** أنها لا تقرّه على تصرفه، الأمر الذى أسخطه. فأردف قائلاً:

– يا سيد **بيرونيه** إننى أعلنك أن تبحث لك عن عمل آخر. فما دامت **زولما** ستبقى عندنا عامًا كاملاً، فهى ستتولى مهام عملك. فاعترضت **زولما** معلنة أنه لا ينبغى أن يعتمد عليها فى ذلك.

– ليكن، فلتبق فى خدمتى. ولكن ما دمت أحتفظ بك على الرغم منى فإننى سأخصم منك الزيادة التى أمنحك إياها، وعلى ذلك وابتداء من اليوم سأدفع لك مئتى فرنك فى الشهر.

– إن الأحبة يعيشون على الخبز الجاف. وقد وطنت نفسى على ذلك.

ولقد عكفت كل صباح على أن أضع بباب زولما باقة صغيرة من الأزهار. وكنت أرفق هديتى ببعض أبيات من الشعر. ولم ألحظ على زولما أى بادرة سرور لما أقدم لها.

وذات صباح وأنا أمر أمام حجرتها فوجئت بسيدى يزج بنفسه من فتحة الباب حاملاً باقة أزهارى بين يديه قائلاً:

عزيزتى، لقد أسرعت بحمل هذه الأزهار إليك لتحيتك حال نهوضك من النوم، ولكن ها هى ذى قد أصيبت بالذبول إذا تأملت أزهار شبابك الغض.

وفى اليوم التالى، اعتقدت أن من الواجب أن أسلم أزهارى لزولما بين يديها وبعد دقائق استدعانى السيد **ليجيندوم** فى مكتبه وقال لى بلا مقدمات: لقد قررت أن أطردك.

فقلت: سيدى – وشعرت بالرغبة فى أن أغرز قلمى فى عنقه – سيدى – أنت تعرف مدى إخلاصى فى خدمتك، ولكن إذا كنت قد قصرت فى أداء عملى بوصفى أميناً لسرك فلتكن مشيئتك، وإذا شئت أن تعود فى قرارك. فستجد أن كل شىء سيعود إلى مجراه ابتداءً من صباح الغد.

– يا سيد **بيرونيه**. أنا آسف، إذا أردت أن أعيدك للعمل فلن يكون ذلك إلا بتخفيض راتبك إلى النصف، وبالنسبة لشاب حسن السير والسلوك، فإن مئة فرنك تعتبر مبلغاً معقولاً.

وفى أواخر شهر نوفمبر وصل خطاب آخر من شقيق السيد ليجيندوم يعلن فيه عن صوله خلال الأيام الأولى من ديسمبر. وهنا قال سيدى:

– الخطر يقترب. لذلك فأنت ترى أن المصلحة تقتضى أن أخفض راتبك إلى خمسة وسبعين فرنكاً فى الشهر.

وصرت إلى حال يرثى لها من البؤس، ولم أعد أضع أمام باب زولما سوى بعض أزهار البنفسج الرخيص مما عكر مزاج السيد **ليجيندوم**.

وذات صباح عكف على العمل بكل نشاط، حينئذ أمكننى أن أفكر فى الانتحار فى راحة وهدوء وكتبت خطاباً من مجهول إلى مفتش الشرطة أتهم فيه السيد **ليجيندوم**

بقتل أمين سره بطريقة غادرة وإلقاء جثته فى البحر، ثم غادرت المنزل من باب خفى لأنفذ خطتى.

كانت ثمة نسمة عليلة تهب من الجنوب وغيوم خفيفة تحجب قمة الصخرة التى نويت أن ألقى نفسى من فوقها، وكان ثمة رجل عجوز يشرف على البحر من أعلاه وينظر إلى الهوة بمنظار مكبر، فأقتربت منه وسمحت لنفسى وأخبرته بأننى أنتهز هذا اليوم الميل من شهر ديسمبر لكى أنتحر. فلمس العجوز قبعته ودون أن يتحول عن تأمله، أجابنى بأدب قائلاً: أرجو ألا يزعجك وجودى يا سيدى، كل ما أرجوه منك أن تسمح لى بمشاهدتك.

تراجعت بضع خطوات لأهيئ نفسى للقفز. حينئذ أخرج العجوز من جيبه رزمة كبيرة من الأوراق المالية فئة الألف فرنك وسحب منها ورقة، ورفعها فوق رأسى ثم تركها فى الفضاء. فحملتها النسمة قليلاً ثم سقطت نحو البحر بطيئًا بطيئًا، وهنا صدرت عن العجوز حركة ضيق، ثم سحب ورقة أخرى وفعل بها ما فعل مع الأولى، ثم ورقة ثالثة فرابعة فخامسة. حينئذ أجلت انتحارى دقائق لكى أسأل هذا المهراجا عن الهدف من وراء هذه التجارب الباهظة التى يقوم بها. فرفع العجوز منظاره المكبر ومسح عنه بخار الماء بورقة من فئة الألف فرنك ألقى بها فى البحر وأجابنى فى أدب جم قائلاً:

– أنا أبحث عن مصدر الريح. فلما أخبرته تأملنى قائلاً:

– شكرًا أيها الفتى، وعفواً إن كنت تسببت فى تأخير انتحارى، إنى أترك لك مكانى. ورفع قبعته ومضى سريع الخطى نحو أسفل المرتفع، فأسرعت وراءه.

– سيدى، لقد أخبرتك باتجاه الريح فأدفع لى أجرتى. ألف فرنك، فثبت العجوز منظاره وراح يتأملنى من أخمص قدمى حتى أم رأسى باحتقار شديد.

– أيهار الفتى، إن أسعارك باهظة للغاية، صحيح أنك أطلت إقامتك بضع دقائق في وادى الدموع هذا من أجلى، ولكننى لم أسألك رأيك، وأعتقد أننى أكون كريمًا جدًا إذا أعطيتك عشرة فرنكات مقابل تلك الاستشارة البسيطة.

– ليكن. أوافق على منحك هذا التخفيض. ولكن هل فكرت فى أنك رجل عجوز وأنه ليس هناك شاهد علينا.

– هذا صحيح، لم أفكر فى ذلك. ولا اعتراض لى على كلامك. وهنا سلمنى العجوز حافظة نقوده وساعة معصمه وحفنة من الأوراق المالية. ولم أشأ أن أحتفظ إلا بالأوراق التى تبلغ قيمتها ثمانى مئة ألف فرنك. ومقابل ذلك طلبت منه أن يعطينى المسدس الذى يحمله فوافق عن طيب خاطر. بل وكان لطيفًا إذ حذرنى من أن السلاح محشو.

– إننى أخبرك بذلك فى حالة ما قد يروق لك هذا النوع من الانتحار.

– الحقيقة أننى أصبحت أعتقد أن موتى الآن سابق لأوانه. فأنا شاب فى مقتبل العمر وهناك فتاة جميلة أحبها وهى لا تصدنى، الواقع أننى لا أفهم كيف اتخذت هذا القرار. أين كان عقلى صباح اليوم؟

فى تلك الأثناء كنّا نتجه شطر المدينة ونحن نتبادل الخواطر عن المناظر التى نصادفها وعلى حين فجأة. قال رفيقى:

– بالمناسبة، أعطنى عنوان مفتش الشرطة؛ فأنا أنوى أن أقدم ضدك شكوى ولا داعى لتأجيل ذلك.

– شىء سخيف، كان ينبغى أن تقول ذلك ونحن عند الصخرة حتى أجهز عليك هناك. أما الآن فكيف أفعل بجثتك هنا. أين أخفيها؟ ونمّت عن العجوز حركة أسف واعتذار لى عن المتاعب التى يسببها لى بإهماله. ولكننى أخبرته بأننى سأتصرف ولا داعى لكى يزعج نفسه. ثم قبضت على المسدس وسألته

إن كان يرغب قبل أن يموت فى أن يكلفنى بمهمة فى المدينة أو غيرها، فأجاب قائلاً:

- فعلاً، كنت سأطلب منك أن تمر على المنزل رقم ٣ بشارع تورنبريك وتخبر السيد **ألفريد ليجندوم** بأنك قتلت أخاه **جيروم**. وسيعلم السبب الذى جعلنى لم أقم بزيارته كما أخبرته فى خطابى الأخير.

فقلت وأنا أعيد المسدس إلى جيبى:

- **آسف جداً لا أستطيع أن أقتلك. إننى أعرف أخاك.**

فقال السيد **جيروم**:

- أنت سيئ الحظ. تخشى على أخى من الصدمة والانفعال فلا شك أنك تحبه كثيراً.

- أبداً، إن أخاك أفّاق كبير. شيطان مريد. بل أنا أحب فتاة لطيفة تسكن معه تحت سقف واحد. وهى أيضاً ابنة عمك.

- هل هى جميلة؟

- آه يا سيدى لا أستطيع أن أصف لك جمالها.

- حسناً ربما تذهب لتزورك فى السجن.

- كلا يا سيدى، أنا لا أذهب إلى السجن لأننى سأعيد لك نقودك. لم يكن ذلك كله سوى دعابة. وقد أدركت أنت ذلك الآن، أما أنا فسأعود إلى الصخرة لأضع حداً لحياتى.

وقام السيد **جيروم** بعد الأوراق المالية. ثم أشعل سيجارة بواحدة منها وتمنى لى حظاً سعيداً. وعدت على أعقابى فصاح بى العجوز قائلاً:

– أيها الفتى. لقد نسيت أننى مدين لك بعشرة فرنكات مقابل الاستشارة التى قدمتها لى وليس معى قطع معدنية كافية. ولكن إذا وافقت أن تعمل لى خصماً مقداره خمسون سنتيماً برئت ذمتى.

– لا يمكن يا سيدى. لقد سبق أن منحتك تخفيضًا مقداره ٩٩٠ فرنكًا ولا أستطيع أن أخفض أكثر من ذلك. فقال العجوز: إنه لا يستطيع أن يتحمل أن يكون مدينًا لأحد. وتوسل إلىّ أن أصحبه إلى المدينة ليغير العملة. ويعطينى حقى. زاعمًا أنه رجل شريف وأنه لم يحدث أن أكل مليمًا لأحد.

– لا يهم. إننى أريد أن أموت قبل غروب الشمس. وأحمل إلى قبرى صورة الأصيل الرائعة.

– أيها الفتى يمكننى أن أفتح لك باب الحظ.

– أنا لا أريد سوى أن أموت.

– أيها الفتى. يمكننى أن أساعدك فى حبك؛ بدلة جديدة وساعة ذهبية بسلسلة وعصا من العاج الأصلي يمكن أن يكون لها فعل السحر في عيون النساء.

– هزنى اقتراحه، خاصة أنه راح يلح ويزيد فى الإلحاح. وبالذات حينما نطق باسم زولما استسلمت لرغبته. وعند أول دكان أعطانى ورقة من فئة الألف فرنك وطلب منى أن أصرفها. لكننى خرجت من المحل حانقًا:

– سيدى، إن ورقتك زائفة.

– ربما هذا ممكن. سأعطيك أخرى. ومن جيب سرى لم أفطن إليه أخرج حافظة صغيرة وأعطانى منها ورقة من فئة المئة فرنك. وبعد أن دفع لى الخمسين سنتيماً سألنى: هل سأذهب إلى زولما، فقلت من فورى:

– كـلا ليس الآن، لأننى ينبـغـى أن أذهب إلى الشـرطة لأقـدم بلاغًـا ضـد أحـد المزورين وهو أنت. أيها الوغد. فـعـلاً أنت شقيق السـيـد **ليجيندوم**. آه تعمل فى تزوير العملة.

واسـتـدعيت رجلين. وأبلغـتـهـمـا بـالمزور. فـقـبـضـا عليه وأخبـره أحدهمـا بأن هذه الجريمة ستُقضى به إلى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة كنص القانون.

وحينما وصلنا إلى قسم الشرطة، فوجئت بالسيد **ليجيندوم** الذى أعمل عنده يدخل القسم أمامنا يقوده شرطيان، سمعته يحتج بصوت يتميز غيظًا: **أنا عالم مـحـترم ولا يجوز لكما**.

وحتى لا أعرض نفسى لطائلة القانون وأحـرم نفسى من متـعة التشفى فى سيدى، غيرت ملامح وجهى واتخذت هـيئة شـخص أبله. حيث يصـعب التـعرف على شـخصى. وخرج مـفتش الشـرطة من مكتـبه فى اللحظة التى كـان فـيـهـا المتـهـمـان يدخلان قـاعـة الانتظار. وقال موجهًا حديثه إلى سيدى:

– أنت السيد **ليجيندوم**؟ فأجاب سيدى قائلاً:

– نعم أنا السيد **ليجيندوم**. وهنا تدخل السيد جيروم قائلاً:

– عفواً. لكن أنا السيد **ليجيندوم**. حينئذ أمر المفتش الشرطيين وأخرجا منهما كل ما فيهـا من أوراق وسـاعـات ومـحـافظ. وجعـل المفتش من هذه الأشياء كومتين ونزع من كل كومة بطاقة وقرأ بصوت مرتفع:

– السيد **ألفريد ليجيندوم** عالم... السيد **جيروم ليجيندوم** ملياردير.

وفى غفلة من حراسـهمـا. اندفع جيروم وألفريد وألقى كل منهما بنفسـه فى حضن الآخر.

– أخى. هـأنذا أعثر عليك بعد فراق دام سبعًا وأربعين سنة.

ويكى الجميع تأثرًا حتى رجال الشرطة اغرورقت عيونهم بالدموع. وقال الملياردير للعالم:

- أنت لم تتغير تقريبًا يا **ألفريد**. أؤكد لك ذلك بالمناسبة أنت مدين لى بأحد عشر ألف فرنك ورثتهما عنى زورًا لأننى ما زلت حيًا أرزق.

فأحمر وجه العالم من الاضطراب وقال:

- أبدًا. القانون فى صفى. وسأثبت ذلك.

- ليكن، سنلجأ إلى القضاء. فأنا لن أترك لشقيقى الأكبر الفرصة ليأكل مالى.

- آه، وأنت لم تتغير. ولكننى لا أعتقد أنك شقيقى.

وقال مخاطبًا المفتش:

- هذا الشخص ليس هو **ليجيندوم**. فالواقع أن أخى مات منذ أكثر من أربعين عامًا. والأحوال المدنية سجلت وفاته.

فانفجر المفتش قائلاً للملياردير:

- آه! آه! أنت تزور الشهادات الرسمية؟

- سيدى المفتش. أنا لا أعلم أن وفاتى سجلت فى الجهات الرسمية.

فصاح العالم قائلاً:

- لقد مات. لا تستمع إليه.

فاستطرد المفتش ساخرًا:

- آه يا للعائلة الكريمة. ميت يزور النقود وعالم يقتل سكرتيره المسكين. وهنا صاح السيد ألفريد ليجيندوم محتجًا على المفتش:

– أيها المفتش. أرى أنك قليل الحياء إذ تجرؤ على توجيه هذه الاتهامات.

– على أى حال إن جثة هذا الفتى المسكين تم اكتشافها قبل قليل على شاطئ البحر.

وانزويت فى أحد الأركان حتى لا ألفت انتباه سيدى. ولحسن الحظ كان قد نسى نظارته. كما أن الغضب أجهز على بقية بصره وقال صائحاً:

– أحسن. فهذا الفتى يستغفلنى ويغازل ابنة عمى الصغيرة **زولما ليجيندوم**.

فقال المفتش:

– يا سيد **ليجيندوم** يبدو لى أن الغيرة كانت هى الدافع وراء الجريمة... تفضل فى مكتبى.

حينما غادرت قسم الشرطة كانت أول فكرة راودتنى هى أن أزور زولما.

كان الليل قد أسدل أستاره فاقتربت من البيت خفية وكان الطابق الأرضى مضيئًا. ولمحت فى مكتب السيد **ليجيندوم** حبيبتى زولما جالسة. وحملت معى هذه الصورة إلى أمريكا التى سافرت إليها فى مساء اليوم نفسه أبحث عن عمل فى مطعم أو فندق ككل من يريد أن يصبح مليارديراً.

ولكن شوقى إلى **زولما** جعلنى أعود بعد ستة أشهر قبل أن أكون ثروة طائلة. وأسرعت إلى منزل السيد **ليجيندوم** فإذا بحبيبتى **زولما** ترتق بعض الجوارب. فأخذتها بين ذراعى بقوة. الأمر الذى ضايقها وقالت: ما أغرب هذا من ميت... وانتابنى شعور بالغيرة والحنق فصحت بها قائلاً:

– **زولما**، لمن هذه الجوارب؟

– لزوجى. فقلت: يا للعنة لقد كنت أحبك.

– تخبريني بذلك الآن. لقد فات الأوان، ثم على أى حال أنت كنت موظفًا بسيطًا. أنا هنا فى بيتى. ابن عمى **ألفريد ليجيندوم** ترك لى كل ما يملك. ابن عمى المسكين.

– صحيح أنه حكم عليه؟

– لقد شنق بالمقصلة صباح أمس.

– وأخوه؟

– بُرئت ساحته وهو الآن فى أمريكا ملك العملة المزيفة، ولكن إذا أردت رؤيته يمكنك أن تصعد فقد أجرت له الحجرة التى كنت تشغلها فى الطابق الأول.

– وداعًا يا **زولما** لقد تحطم قلبى. ولكن المستقبل حافل بالأسرار.

وفى الطابق الأول وجدت السيد **ليجيندوم** الصغير مستغرقًا فى دراسة خطة لإصدار عملة بلغارية مزورة فأعتبرته لصًا وطالبته بالتعويض لما أصابنى من جراء عدم وفائه بوعده فى مساعدتى فى الحصول على **زولما**.

– لقد تبخرت كل أحلامى. ولكننى سألجأ إلى القضاء.

– مستحيل أيها الفتى. فأنت تعلم جيداً أننا فى حكم الأموات أنا وأنت.

ولكن بما أننى إنسان نزيه فيما يتعلق بالمعاملات. فإننى أقترح عليك أن تعمل عندى فى منصب مراقب العملة المزيفة التى أصدرها فى أمريكا الشمالية. لقد كثر التزييف اليوم حيث فكرت فى أن أفتح هذا الفرع الجديد.

وعلى الفور وقعت على العقد. ولم تمض ستة أشهر حتى دخلت أحد السجون الأمريكية الكبرى لأقضى فيه عشرين عامًا. وحينما خرجت منه بعد سبعة عشر عامًا وثلاثة أشهر كان يحدونى الأمل فى أن أجد **زولما** أرملاً.

***

جيرمين

للكاتب الفرنسى بولانجيه

من فرنسا

- أنا ترتبيت على الأمانة يا سيدى!

- طبعًا، **جيرمين**!

- ألا تصدقنى يا سيدى؟

- بلى أصدقك يا **جيرمين**!

- لقد عملت فى ثمانية منازل قبل أن أشتغل عندك، ومن الممكن أن أشتغل عند غيرك.

- ألست على ما يرام هنا؟

- لا، لا أقصد ذلك، ولكن الفكرة تراودنى.

- هل أنت نادمة على مخدومك السابق؟

- لقد انتهى الأمر يا سيدى، وأنا لم أترك العمل عنده لأعود إليه، والحمد للّه تركت العمل عنده دون أن يُؤخذ علىّ شىء.

- أراكِ دائمًا ثائرة، تحدثى عما يضايقك.

– إنك تنوى تلفيق الاتهامات لى، كما فعلت فى الشهر الماضى. لقد سكت. ومع ذلك لا أعجبك. ولا أعرف لماذا تشكو منى.

– لقد كسرت الزهريتين اللتين كانتا بالمدخل.

– أوه! لم أقصد كسرهما!

– كنت متعلقًا بهما جدًا تصورى.

– فلندع الزهريتين جانبًا. ماذا غير ذلك؟

– الحسابات. كل أسبوع يأتى الحساب ضعف الأسبوع الذى قبله. إلى أين ستذهب بى هذه الحسابات؟ أنا لا أستطيع ملاحقتك.

– ليت المسئولين يحسنون التدبير! إذا كان سعر كل شىء فى ازدياد، فما شأنى؟ أنا مجبرة على تسجيل الزيادة فى أسعار الأشياء التى أشتريتها. هذه الزيادة لا تدخل جيبى، تأكد من ذلك.

– ونزلت إلى مخزن عصير العنب يا **جيرمين**.

– ربما تود أن تتهمنى بشرب العصير.

– أنا لم أقصد بالطبع عدد الزجاجات. ولكن ما هذا الذى وجدته؟ كان المخزن يحتوى، فى مطلع هذا الشهر، على خمسة خزانات مملوءة بزجاجات العصير، وأنا لم أستقبل أحدًا فى بيتى، كما أننى أتناول طعامى فى الخارج.

– ماذا؟.

– انتظرى، أرجوك.

– أكمل، أكمل.

– لم يبق سوى خزانتين مملوءتين فقط من خمسة خزانات.

- أتظن أنه من الممكن أن أستيقظ فى الساعة التى أصحو فيها من النوم وأقوم بما أقوم به من أعمال المنزل وإعداد الطعام، وتهيئة المدفئة، وتسليم واستلام الرسائل، وتحضير المائدة دون أن أتناول ما يساعدنى فى ذلك.

- إذا كنت أنت التى تشربين العصير، فلا بأس.

- أنا؟ الأمر لا يتعدى كوباً من هنا وكوباً من هناك أقدمه إلى ساعى البريد، أو صبى الزار، أو إلى **إيميل**.

- **من إيميل هذا؟**

- **أنت تعرفه جيداً.**

- **لا، لا أعرف شيئاً.**

- واحد من بلدتى. يعمل فى المحطة، ويقطع مدينة باريس كلها ليلقى علىّ تحية الصباح. فلا أقل من كوب من العصير أقدمه إليه. على كل حال، إذا كنت قد قررت عدم استمرارى فى العمل عندك، فلا داعى لتلفيق الاتهامات. لقد فهمت.

- أنت تثورين لأمر تافه.

- ... أمر تافه؟ تتهمنى بشرب مخزن العصير، وتقول أمر تافه! سند كثيرات غيرى.

- ماذا قررت؟

- أعترف بأنه كان يجب ألا أضع الملابس الملونة مع الملابس البيضاء. أعترف بذلك.

- ماذا؟

- طبعًا أنت لم تعرف بعد. قمصانك التى تزعجنى كثيرًا.

- قمصانى البيضاء.

- الآن من الأفضل لك أن تصبغها باللون الأسود؛ فهذا اللون يناسبك. أعترف بذلك. ولكنك لا يمكن أن تقول إننى لا أقوم بعملى.

- لا تجعلنى أفقد صبرى يا **جيرمين**. أنت لا تغلقين الأبواب.

- ماذا؟

- جميع الأبواب مفتوحة، دائمًا مفتوحة. عشرون منها مفتوحة.

- إذا كان عندك عشرون بابًا، فمعنى ذلك أن العمل فوق طاقتى. لن أستمر فى العمل عندك.

- ستبقين، أليس كذلك؟

- أنا أشفق عليك. ماذا ستفعل بدونى، على كل حال لن أتخلى عنك هكذا.

- أسمعى يا **جيرمين**. دعى موضوع الأبواب أيضًا. والغاز؟ أنت تطفئين الغاز وتتركين الصنبور مفتوحًا فينتشر الغاز فى البيت كله، مما يهدد بالاختناق، وتعريض البيت كله للانفجار.

- لقد قمت بتهوية المنزل فى الحال.

- لكن حدث بالفعل أنك تركت صنبور الغاز مفتوحًا! آه! لا تبكى، فأنا أكره البكاء أمامى. سنستأنف هذا الحديث فى يوم آخر. اذهبى. لا أود أن أشفق عليك، وإن كان يصدر منك أحيانًا ما لا يطاق، أتفهمين؟

- نا... نا... نعم.

- ما هذا؟

- فاتورة عصير العنب.

- ثمانية عشر ألف فرنك؟

- لقد شرحت لك. ثم إننى أضفت إلى حسابى الزيادة البسيطة التى وعدتنى بها.

- لا تبكى. ماذا فعلت بقدمك؟

- لا تذكرنى، إبهام قدمى ما زال يؤلمنى.

- هل فعلت ما نصحتك به؟

ليلة ميخائيل

تأليف: جوليا لاتريدى Julia Latridi

من اليونان

كانت الطاولة الضّيقة القائمة فى منتصف الحجرة تحمل النعش الذى يضم الجثمان؛ وكانت هناك شمعتان، إحداهما عند الرأس والأخرى عند القدمين، تنصهران فى نور هادئ. وكانت هناك امرأتان.

المرأة الأولى تدعى بيليو، كانت ترمق منذ فترة طويلة الأريكة الخالية التى كانت، تحت النافذة، تمثل بقعة فاتحة اللون داخل الحجرة المظلمة. وكان ثمة تعبير غريب على وجهها، كان يبدو أنها تلمح فوق الفراش رؤى مفزعة.

وعلى الجانب الآخر من النعش، وفى مواجهة المرأة الأولى تقف الخالة اجزانتى، أم الميت. ساكنة، صامتة. ويداها مضمومتان فى تضاد مع لون ثوبها الأسود الحالك. مطأطأة الرأس، فى نظرة غائبة خارج المكان.

ولعل بيليو عجزت عن تحمل منظر الأريكة الخالية - وهو منظر رهيب بالنسبة لها وحدها، فحولت نظرها نحو الميت، وجعلت تعانق بنظرها كل ما تبقى من ميخائيل، وعبرت وجهها مسحة من الرقّة، موجة من الارتياح، كأنما المرأة الشابة قد عثرت على السلوى التى كانت تحتاجها. ثم غرقت فى أفكارها.

تاسو أصغر من ميخائيل بخمس سنوات. تاسو زوجها. ميخائيل مات. وجعلت تفكر... "كم هى مشدودة بشرته فوق جفنيه المسدلين، وكم نُخَمّن تحتهما كرة العين القاسية! تمامًا كما كنت وأنا طفلة نلعب معا؛ كنت أغمض له عينيه، وكنت أضع أصابعى فوقهما... كنت أشعر بعينيه ترتعشان تحت الجفن، وكان ذلك يضحكنا... كأنها كرة صغيرة تدور... وكان ذلك يدغدغه... مسكين يا ميخائيل، كم تغير! شفتاه زال لونهما؛ وصارتا رقيقتين جداً. هذا هو ما يجعله يبدو مغيظًا، أو بالأحرى حزينًا. حينما كان حيًا، كانت شفتاه دائمًا رطبتين وشديدتى الإحمرار رغم المرض. "آه، ماذا مر بخاطرها الآن؟ إنها صفعت ميخائيل، فيما مضى... ينظر المرء إلى ميت ويتذكر فجأة أنه صفعه، يا لها من فكرة رهيبة!

تلك الحادثة وقعت يوم خطبتها لتاسو. كانت قد حملت صينية عليها حلوى ومشروبات ودخلت بها الحجرة التى كان بها والدها وتاسو يتحادثان. وطرق الباب، فأسرعت إلى الممر لتفتح، فوجدت نفسها وجهًا لوجه أمام ميخائيل. كان يبدو غريب الأطوار كما هى حال الإنسان الذى تلعب الخمر برأسه، وجعل يتكلم كيفما اتفق، وحاول أن يقبلها، دون إذن منها. وجذبها إلى أحد الأركان بجوار شجرة الليمون، هناك صفعته بكل ما أوتيت من قوة.

كل هذه الأفكار التى كانت تتسارع فى مخيلتها، زادتها صورة الخالة اجزانتى الجالسة أمامها، وقد توترت يداها بفعل الجزع والحزن.

- اذهبى وارقدى.

قالتها الخالة بعد لحظة، ويبدو أن ذلك ما كانت تنتظره يداها لكى تعودا من جديد إلى سكونهما، فوق الثوب الأسود.

ولكنها لم تتلق أى إجابة. وبعد برهة، شرعت اليدان من جديد تتوتران؛ وقالت الخالة وهى تلح فى طلبها:

– اذهبى وارقدى. لقد أتعبك السفر.

كان صوتها هذه المرة أشد قسوة، ينم عن شىء من الاحتجاج؛ هل ستسلبها بيليو هذه الساعات القليلة التى بقيت لها أن تمضيها بجوار ابنها؟ وكررت قائلة:

– اذهبى ونامى.

ومرة أخرى، عادت يداها إلى السكون فى انتظار الرد. لكن بيليو لم ترد.

كانت ليلة صيف يغشاها سكون تام. كان الجو حاراً. وكان نور الشمعتين يخفّف أحياناً من ظلمة الحجرة، ثم يترك الظلمة تغشى المكان من جديد. هذا التناوب بين الظلمة والنور كان وحده يضفى شيئًا من الحركة حول الميت، ويبرز سكون المرأتين الساهرتين عليه. وتحت النافذة، جعلت الأريكة تشارك فى هذه الحركة، فقد كان لونها الأبيض يلقى، من حين لآخر، دعوة، ثم لا تلبث بعد برهة أن تغرق فى شبه الظلام. وحطت نظرة المرأة الشابة على الأريكة مرة أخرى حيث جذبها الغطاء المنير؛ وفجأة تنبهت بيليو إلى نبضات قلبها العنيفة. كان جسمها كله ملتهبًا. وكان الإيقاع المرتفع لنبض قلبها يغطى على كلام خالتها:

– يجب أن تذهبى إلى الفراش.

ثم، وفى محاولة أخيرة، على أمل أن تبقى وحدها مع ابنها، أضافت بصوت رقيق لا يخفى مرارة السخرية:

– لن يؤلمه الآن، أن تتركيه.

هذه المرة أيضًا، لم ترد بيليو، وحوّلت وجهها نحو الميت، محاولة ألا تنظر إلى الأريكة وغطائها الناصع. كان ذلك هو كل تفكيرها فى تلك اللحظة، كان جهدها الوحيد.

وأطلقت إحدى الشمعتين شرارة، راحت وهى تطير تضىء طرف حذاء ميخائيل، حذاء جديد، آخر موضة، لامع تماما، بنعل أسود.

وجعلت بيليو ترمق الحذاء حتى اللحظة التى بدأت تشعر فيها بأنها ليست هى فى الواقع التى تجلس عند قدمى ميخائيل. لكنها وجدت صعوبة فى إقناع نفسها بذلك، لأنها لا تستطيع أن تنكر ذلك، لأنها هى فعلا، التى استلمت صباح اليوم، وهى فى الجزيرة، البرقية من الخالة اجزانتي؛ هى التى أخذت الأطفال من أيديهم وأسرعت إلى حماتها؛ هى التى كانت تقف على ظهر السفينة وهى ترفع هلبها. وكانت سعيدة، سعيدة حقا؛ حتى هذا يجب عليها أن تتقبله.

وما أن وصلت إلى هذه النقطة، حتى توقف مسار أفكارها فجأة. ومن جديد، راحت تنظر إلى الميت، كأنما لكى تطلب العون منه. حينئذ لاحظت أن قميصه مزرّر بطريقة خاطئة؛ فنهضت؛ ومست بأصابعها صدره البارد الرقيق. وفكت الأزرار، وعدلتها. وبدا لها أن أطراف أصابعها جامدة كأنها من الصلصال.

وكانت الخالة اجزانتي تتابع المشهد من قريب. وبدورها، مالت على وجه ابنها: لقد تأكدت الآن، ليس ذلك مجرد انطباع، لقد ابتسم ميخائيل بطريقة غير محسوسة، حينما مست بيليو صدره. تبسم كما كان يفعل حينما كانت أمه تعده بأنها ستزوجه من فتاة غنية تصحبه بعيداً وتنسيه بيليو. وفجأة شعرت بأمل مجنون جعل الدم القليل الذى بقى فيها يصعد إلى رأسها. ودوّت أذناها بطنين كالذى تحدثه أجراس عيد الفصح، أشبه بموسيقى أيام الأعياد. واشتدت الظلمة ... وشعرت بأنفاسها تركض، ولهثت بالأمل، ولكى تتأكد أكثر، جرؤت وسألت:

– ماذا يحدث يا بيليو؟

وانتظرت الإجابة لحظة قبل أن تقول:

– لا شىء، لا شىء، يا خالتى. قميصه كان مقلوباً، فعدّلته له.

وارتدت اجزانتى إلى صمتها. وعادت بيليو إلى الجلوس. مكان النور والظلمة يشكلان حركة خفيفة حول الجثة. وبدأت عينا بيليو تلتهبان من كثرة متابعتها لألعاب النور، من فرط تركيزها النظر فى ميخائيل. وشيئًا فشيئًا، شعرت بجو الموت المحيط يتسرب إليها؛ وغشيتها البرودة، وكفت عن الوجود. وحينئذ تملكها الفزع، فحولت تفكيرها إلى ما جرى قبل قليل، إلى تلك الأشياء التى تؤلم، التى تطعن، لكنها تثبت للمرء أنه لم يمت.. لم يمت.

... على ظهر السفينة التى كانت تنقلها، كانت قد رأت القمر يخرج من البحر ويصعد، ضخمًا هائلاً مستديراً، فى عرض السماء، فى حين كان انعكاسه يفتح فى الماء شقًا من الفضة. وصاحت قائلة: "تاسو"؛ لأنها كانت لا تستطيع أن تمنع نفسها من النداء عليه حينما يكون كل ما يحيط بها بهذا الجمال.

هكذا كانت تستشعر كل فرحة لها: "تاسو"... وفى الولادات الثلاث، وهى فى حالة الوضع، حينما كانت تدعوه، كان يقترب منها، وينحنى عليها ليطبع قبلة على جفنيها.

كانت الخالة ترقب بيليو. لماذا ترمق ميخائيل بكل هذا التركيز؟ ما أغربها، هذه الليلة! ألم يكن الجميع يعلمون أن أيام الفتى معدودة، وأنه لم يبق له منها الكثير؟ واقترب الليل من آخره؛ وفى ظرف ساعات سيحضرون لأخذه، سيحملونه.

- اذهبى وارقدى يا بيليو. يجب أن ترقدى، أنت متعبة.

يا إلهى، كيف تفعل لكى تخرج بيليو من هذه الحجرة؟ بعد ساعات سيأتون ليأخذوا منها ميخائيل. لماذا بيليو تفعل معها هذا؟

- نامى فوق أريكة حجرة الطعام. لقد غطيتها بمفرش نظيف.

ولم ترد بيليو. فلديها مهمة أخطر؛ أن تستعيد فى رأسها جميع أحداث الليلة.

كانت ساعة الميناء تعلن الثانية عشرة وعشر دقائق ليلاً، حينما غادرت السفينة. وقطعت الطريق كله جرياً. وكانت كلما اقتربت من بيتها، كبر شعورها بالفرحة المجنونة التى جعلتها تأخذ قرارها العاجل بالقيام بهذا السفر. ودست يدها فى حقيبة يدها لتخرج منها ربطة المفاتيح، ثم استأنفت الجرى، وهى تقبض عليها فى يدها. وما أن بلغت مستوى المخبز حتى دارت مع زاوية الطريق. وقالت فى نفسها: "سيكون تاسو مستغرقًا فى النوم". لم تكن تستطيع أن تفكر فى شىء آخر: "سيكون تاسو نائما"، وراحت تندس فى الفراش، إلى جواره، فى المكان الضيق.

لم تكن رأته منذ شهر، منذ اليوم الذى أخذت فيه الأولاد إلى الجزيرة. وجاءت جنازة ميخائيل لتتخذها سببًا لتعود إلى زوجها.

وبلغت باب الفناء، ولم يكن موصداً بالمزلاج. فدفعته ودخلت، وجعلت تصعد الدرجات الحجرية الأولى. وفى الطرف الآخر من الفناء، لمحت أوراق شجرة الليمون تبرق بالندى تحت نور القمر. وثمة صوت فى داخلها ينادى: "تاسو!".

ثم توقفت وخلعت حذاءها حتى لا تحدث ضوضاء، وتوقظه. وصعدت عارية القدمين. كانت كل درجة من السلم فوق طرفها إناء؛ آنية أزهاره. ودست إصبعا فى إناء البيجونيا؛ عظيم، لقد سقاها تاسو؛ والتصق الطين الرطب بإصبعها. وبلغت أعلى السلم، وباب البيت. واستسلم الباب بمجرد أن مسته، فهذا الباب أيضًا لم يكن موصداً بالمزلاج. وقالت فى نفسها ودون أن تتملكها سعادة غامرة: "غريبة! عجيبة، أى لص بسيط يمكن أن يدخل.."، وولجت إلى المدخل. كانت حلّة تاسو موجودة فوق أحد الكراسى؛ فوضعت حذاءها بجوارها؛ حينما كانا يخلعان ملابسهما ليخلدا إلى النوم، كانا يتركان ملابسهما دائمًا معًا. وعلى أطراف أصابعها، توجهت إلى حجرتهما. وفجأة، توقفت. وخيل إليها أنها تسمع أنفاسًا، همسات. كان ذلك آتيًا من الصالون. فالتفتت إلى ناحيته فوجدت الباب مفتوحًا على مصراعيه. "يا إلهى!". كادت تصرخ. لكن يديها المتجمدتين صعدتا إلى فمها لتكتم صوتها. وظلت هناك، تنظر. كانت هناك

كومة غامضة ترتفع فوق الأريكة. كان تاسو بصحبة امرأة. لا يُرى منها سوى شعرها. كان القمر ينشر نوره الأبيض من النافذة فوق جسد زوجها العارى. "يا إلهى، يا إلهى!" وبقيت الصرخة بداخلها كأنها صدى لرعبها. وراحت تعبر مرة أخرى باب الصالون، بالقهقرى، بخطوات قصيرة مترددة، على أطراف أصابعها العارية. وهى تضغط بيديها فوق فمها خشية أن تفلت منها صرخة، وعادت إلى المدخل وأخذت حذاءها دون أن تمس الملابس. ثم فتحت الباب وأعادت غلقه دون ضوضاء، وهبطت السلم بكل حذر.

كانت الطريق، تحت نور القمر، يمتد بيضاء ناصعًا، فراحت تسير فى منتصفه لحظات دون أن تدرى إلى أين. وفجأة رُدّت إليها الذاكرة. لقد مات ميخائيل. وفيما كانت تقترب من بيت الخالة اجزانتى، أدركت أن قدميها عاريتان. فتوقفت ولبست حذاءها الذى كان بيدها؛ ثم شرعت تجرى كأنها كانت تشعر بمن يلاحقها. وراحت تلوذ بالبيت الذى يرقد فيه الميت.

كانت الخالة اجزانتى تنظر إلى بيليو مليًا منذ فترة طويلة. وشحب نور الشمعة؛ وتراجعت الظلمة فى أركان الحجرة. وشرع النهار يتسلل من شقوق شيش النافذة، ويغشى الحجرة. لم يتحرك شىء. لكن كل شىء اتخذ هيئة مختلفة.

– ها هو ذا الصباح.

قالتها اجزانتى بصوت خفيض للغاية، بصوت يرتعش باليأس وخيبة الأمل.

لقد انتهى كل شىء. لن تتركها وحدها مع ابنها. حتى وهو ميت، لن تسمح له بيليو بالانفراد بأمه بالكامل.

وبذلت محاولة أخيرة.

– اذهبى إذن وأعدى لنا قليلاً من القهوة.

ورفعت بيليو عينيها نحو اجزانتى كأنها لتوّها فقط أدركت وجودها. كما أدركت الشبه العجيب بين هذا الوجه ووجه الميت. حتى إن الخالة رمقتها بعينين مفتوحتين قائلة:

– أتظنين أن ما قمت به هذه الليلة يمكن أن يبعث فى نفسه السرور؟

السرور؟ أى سرور؟ عم تتحدث خالتها إذن؟ هل هى بسببها إلى فقدان عقلها؟

واستطردت اجزانتى قائلة:

– مرة أخرى، تتركين زوجك من أجل ميخائيل. هو الذى اخترته أنت... وكان لا بد أن يكون ذلك هذه الليلة.

ونهضت بيليو لتذهب لعمل القهوة. وما أن بلغت الباب، حتى عادت. كانت الشمس أكثر ارتفاعًا، وكان وجه الميت قد اتخذ لون الرماد. وتحت النافذة، كانت تبرز الأريكة، أكبر حجمًا، وأكثر اتساعًا، على ما يبدو، وكان بياضها يبدو أنه يريد أن يلف بيليو كأنه كفن. فأغمضت عينيها، وظلت على هذا النحو لحظة، الوقت الكافى لاتخاذ قرار.. إنها لم تر تاسو، إنها لم تر فى بيتها زوجها راقدًا فوق الأريكة مع امرأة أخرى. إنها لم تر شيئًا. وفتحت عينيها من جديد. وبكل سرعة، جرى النفس، فقالت لخالتها:

– لا تخبرى تاسو بأننى أمضيت الليلة هنا. هل سمعت يا خالتى؟ يجب ألا يعرف ذلك. سنقول له إننى وصلت على سفينة الصباح.

ثم اختفت.

ونهضت اجزانتى بسرعة، وذهبت وأغلقت الباب. وقالت لنفسها: "الحمد لله! أخيرًا قررت بيليو أن تتركها وحدها مع ابنها. وانحنت على الميت. وداعبت جبينه، ووجنتيه المحفورتين، ومست شفتيه بأصابعها؛ ثم ازدادت انحناءً ووضعت فمها فوق الأذن الباردة، وقالت بصوت خفيض، وبفرحة مكتومة.

-- هل سمعت يا حبيبى؟ سيغار منك تاسو.. سيغار منك. لن نخبره بأنك استأثرت وحدك ببيليو طوال الليل. لن نخبره بذلك...

وبدأت الشمعتان، فى نهاية المطاف، تصدران نورًا مرتعشًا ضئيلاً. لعلهما لن تستمرا كذلك طويلاً.

قصة لم تنشر

تأليف: مارجيت فينسينز Margit Vincenz

من جامايكا

ها نحن أولاء، فى نهاية يوم من أيام الصيف الجميلة، جالسون أمام النوافذ المفتوحة، نثرثر، ولا أرى شيئًا أقصه عليكم أفضل من قصة عم زوجتى والسيدة العجوز، صاحبة المنزل الذى كنت أسكنه.

ليست هذه المرة الأولى، أيها الأصدقاء، نجتمع فيها على هذا النحو، ساعة الغروب، ويجب أن تعرفوا أننى أنا دائمًا الذى أبدأ بالحديث. صحيح أن لسانى يأكلنى بلا انقطاع، وأننى أشعر برغبة عارمة فى أن أسرد عليكم قصصى الغريبة. تذكروا كل تلك القصص التى رويتها لكم! مليئة بالحركة، والإثارة، والمغامرات. كنت أقدمها لكم كما وصلتنى تمامًا... دون تضخيم فى الأحداث، ودون محاولة للتخفيف منها، أو تلطيفها أو صقلها. كنت أقدمها لكم ثمارًا ناضجة مفعمة بالعصارة، داخل قشور يابسة، بالضبط كما كنتم تحبونها. وعندما كان يحدث، فى بعض الحكايات العنيفة بنوع خاص، أن أتجاوز الحدود، كنتم تنهالون علىّ بضوضائكم وصخبكم. يا للمناقشات الحامية التى كانت تدور بيننا حينئذ! كنا نتقاذف فوق الرءوس بكلمات أحسن تصويبها، كلمات وعرة مثل الجرانيت، مدببة مثل السهام، أو محملة بالشرر؛ كلمات مستديرة، مصقولة كالحصى الذى تصقله مياه البحر، ويستمر فى التدحرج بلا مجهود... وكلمات أخرى أشبه بحجارة هينة، تتفتت وتستحيل ترابًا. وكنا نلزم الصمت...

فى وقفات لطيفة مريحة... وبعد ذلك كان كل منكم يعود إلى منزله، محتداً بعض الشىء، متعباً بعض الشىء، ولكنه يكون باسماً سعيدا.

ولكننى اليوم أشعر باكتئاب. لا تسخروا منى، أيها الأصدقاء، فهذا جزء من طبيعتى. واسألوا زوجتى. لقد اجتهدت دائمًا فى ألا أقصّ القصة نفسها فى حضرتها مرتين، فإننى أخشى أن أضايقها. ومع ذلك فهى تعرف هذه القصة التى سأرويها لكم الآن. فيبدو أن جو هذا المنزل قد أصبح مشبعًا بهذه القصة. هل اقتراب الخريف هو الذى يذكرنى بها؟ أم الزهرة التى تنوى على غصنها، أم الغبار الذى يدكن كل ورقة، الغبار رمز الأشياء المنسية المهملة؟ أم نهاية النهار، ساعة الغروب؟ لست أدرى.

إن القصة التى سأرويها لكم قصة قديمة جداً. كنت، فى ذلك العصر، لا أزال شاباً خالى البال، قليل المال والمتاع، أتنقل هنا وهناك بحثًا عن الآفاق الجديدة والمناظر الجذابة التى تصلح للتصوير. ويجب أن أخبركم بأننى كنت أدرس فن التصوير. وذات يوم اجتزت مدينة صغيرة، خلبنى سحرها الغريب القديم لدرجة أننى قررت ألا أبحث أبعد من ذلك، وأن أستقر فيها. واستطعت ببحث سريع أن أهتدى إلى مسكن رخيص. وقد عاهدت نفسى أن أشكر السيدة الشابة التى عثرت بفضلها على ذلك المسكن، وبالطبع نسيت عهدى.

كان المسكن يختفى وراء جدار ضخم من الحجارة لدرجة أننى كدت أمر من أمامه دون أن أراه. كنت أسرع فى السير، وكانت الريح تتوغل فى معطفى الذى كانت ثناياه تطرقع مثل الغسيل على الحبل، وكانت ثمة أوراق من جميع الألوان تتطاير أمامى على طول الطرق الضيقة؛ ولم تكن تلك الطرق سوى شوارع ضيقة متعرجة. وكانت هى مغطاة بالأوراق التى تلمع مثل الصدف، أشبه بالأفاعى الضخمة التى تنام تحت شمس الخريف.

ودفعت الباب الحديدى الذى اندفع فى سكون. ولقد دهشت لذلك. فقد كنت أتوقع صرير مقاومة، كما لو كنت أعرف خصائص ذلك البيت الذى كنت أراه للمرة الأولى فى حياتى.

ولمحت بعض سلال الزهور وعرفت من بينها الداليا واللؤلؤ والأقحوان ذى الشعور الذهبية، ورأيت وسط هذه الزهور بستانيًا عجوزًا، أحناه عبء السنين، كان يتأمل إنتاجه بعين المندهش.

وتحدثت إليه، ولكنه لم يجبنى، وشعرت إلى أى حد كان يشكل جزءًا من ذلك المنزل الذى كان يعيش منطويًا على نفسه، معزولاً عن العالم.

وأقبلت خادمة لطيفة، ففتحت الباب وطلبت منى أن أنتظر فى الردهة، وكانت فسيحة، ولكنها كانت مزدحمة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يجتازها إلا بعد سلسلة من اللف والدوران. وعلى الجدر علقت بعض الطيور المحنطة التى كانت تنشر أجنحتها المعفرة كأنها فى تأهب للطيران. وخلف بعض الواجهات الزجاجية، لمحت أسماكًا محنطة ترمقنى بعيونها الزجاجية الضخمة. وكان خشب الخزانات الثقيلة المصقول، وجلد الكراسى القاتم يلمعان خفيفًا فى شبه الظلمة التى كانت تشمل المكان. وكانت توجد بعض الزهور الصناعية التى زال رونق ألوانها، موضوعة فى إناء زهر قديم فوق كرسى معوج القوائم، وكان يلوح أن تلك الزهور موجودة فى ذلك المكان منذ عشرات السنين. وكانت هناك بعض المرايا القديمة تشغل الفراغ القليل الموجود. وفوق ذلك كله يحلق هيكل ثريا هائلة.

كنت أفتح عينىّ على سعتيهما، وسرعان ما لمحت وسط تلك الأشياء القديمة، بعض السيوف التى أكلها الصدأ، ولم أستبعد أن يخرج واحد من أهل الدار مهرولاً إلى تلك الأسلحة لكى يدافع عن المنزل الغريب ضد أحد المعتدين.

ولكن كان قد جاء من يستدعينى. وبينما أنا متأثر بالطابع الغريب الذى يلف تلك الردهة التى مكثت فيها وحدى عدة لحظات، دخلت على عجل، وكانت حجرة استقبال صغيرة أدخلتنى إليها الخادمة الشابة. وظننت حينئذ أن حلمى قد توقف عند ذلك الحد، لأن حجرة الاستقبال لم تكن تتشابه فى شىء مع الردهة الخرافية. بل على العكس كانت مؤثثة بطريقة تنم عن البساطة والتقتير. ولكننى ما أن تخلصت من وطأة الظلمة التى كانت تغمر قطع الأثاث، حتى لمحت عجوزًا طاعنة فى السن جالسة بالقرب من معزف حالك السواد، تثقله تماثيل من الخزف ران عليها الدهر. أما الشىء الذى أثار انتباهى فى بادئ الأمر، فقد كان ذلك الانسجام التام بين العجوز وبين المكان الذى كانت تعيش فيه، لقد كانت، مثل السيوف أو الطيور المعفرة، تمثل جزءًا من الكل. وبينما كنت أتقدم نحوها، أدركت أنها قعيدة، فقد كان ثمة عكازان ثقيلان يستندان إلى كرسيها الموسد.

وقالت فى لهجة مقدمة أو ديباجة:

- إن زيارتك تثبت لى أن العالم الخارجى موجود بالفعل.

ولقد رسخت هذه الجملة فى ذهنى، لأننى كنت أشعر حقًا بأننى فى نظرها رمز للعالم، ولم أدخر وسعًا فى استخدام كل مصادر الخيال عندى لكى أؤكد لديها هذه الفكرة الثمينة. ومازلت بها حتى أقمت فى المنزل بعد حديث طويل مع العجوز التى بلغت من الكبر عتيًا.

الآنسة "سيبيل جيندين" لم تكن متزوجة. ومنذ خمسة وعشرين عامًا لم تطأ قدمها خارج الدار. وعندما أصبحت قعيدة على أثر حادث ألمّ بها، اعتكفت فى منزلها ولم يعد للعالم الخارجى وجود بالنسبة لها. ولم يكن يدخل المنزل الرمادى الساكن أى خبر، بل ولا حتى صدى الحياة التى كانت تجرى وراء الجدّار الحجرى. إن كل ما كانت ترتديه،

من ثياب وحلى عُنى باختيارها، والطريقة التى كانت تسوّى بها شعرها، ذلك كله يرجع إلى العصر الذى قررت فيه ألا تطل برأسها خارج الدار.

ولم تكن صاحبة البيت لتخلو من العيوب. معاذ الله. فقد كانت امرأة عنيدة، مدّعية، مسرفة فى الشح - مع أن الإيجار لم يزد مليمًا واحدًا منذ عشرين عامًا. ومع ذلك فإننى لم أكن أنظر إليها فقط بعين المصور، فى تلك الإضاءة الغريبة. وكنت أكثر من زيارتها، ولكننى نادراً ما كنت أصورها. ولقد كانت تنشر حولها جوا من شأنه أن يفرض الاحترام، ويصرف الضحك أو البكاء. وكانت الآنسة "سيبيل" سريعة الغضب وكانت تسعى إلى العراك معى، وترسل إلىّ خطابات عدائية، وكانت تحاول أن تتجاهلنى، وتتخذ هيئة الملكة المهانة، وهى تجلس فى ركنها، متحصنة بصمت يتسم بالاستهجان. ولكنها كانت تعبس بوجهها وتغير سحنتها بشكل يثير الضحك، حينئذ كنت أغفر لها كل شىء.

وفى كل مرة كانت تدعونى فيها لزيارتها، كانت تنتقى من صوان ملابسها العتيق أروع ما فيه من زينة، وتصبغ خديها بطريقة تنم عن تعاجب بوجهها، وتتوسل إلىّ أن أبقى بعض الوقت. كانت، على حد تعبيرهم تمثل جمهوراً ممتازاً. وكانت تظل متعلقة بشفتى، لاهثة، دون أن تنبث بكلمة، خشية أن تفسد سحر الخيال. وما أن كانت القصة تنتهى حتى تبدو أكثر حزنًا وأكثر بعداً مما كانت. وفى بعض الأحيان كانت تجلس إلى المعزف وتعزف من أجلى أنا وحدى، ولكننى كنت أفضل أن أستمع إليها وهى تروى لى قصصها الخاصة. ولقد كانت لديها قصة عن كل تمثال من التماثيل التى كانت تغطى المعزف، والتى كنت أطلق عليها: "يوميات الآنسة جيندين الخرفية"، وكانت قصصها ذات وقع غريب، وسحر عجيب، لزمنى فترة طويلة بعد أن تركت صديقتى العجوز، بل إنه يحدث لى فى بعض الأحيان أن أتناول لوحة وأترجم عليها تلك الصور الحافلة بالألوان التى كانت تولدها فى خيالى.

كانت لدى الآنسة "جيندين" "حديقتها السرية" التى كانت تمنع دخولها بدافع الغيرة. لهذا كانت ترفض دائماً أن تروى لى قصة حارس ليلى صغير من الخزف.. كان يبدو أنه يحتل فى قلبها مكانة كبيرة. فقد كنت أراها تشحب من فرط الانفعال بمجرد أن تمس أصابعها ذلك التمثال الصغير، وكانت تتجشم مشقة كبيرة لكى تستعيد حالتها الطبيعية، وكان وجودى فى حجرة الاستقبال، فى تلك الأثناء، لا يؤدى إلا إلى زيادة اضطرابها وارتباكها. كم كنت أراها مؤثرة، حينذاك! ثم تضغط على شفتيها، ويستغلق وجهها تماماً.

فى الطابق العلوى الذى لا يستطيع أن تبلغه الآنسة "جيندين" كان يسكن سيدان متقدمان فى السن. وأعتقد تماماً أنها لم ترهما على الإطلاق. ولقد صادفتهما أنا مرتين أو ثلاث مرات على السلم. فوجدتهما رجلين لا غبار عليهما ولا يثيران الاهتمام.

وكانت الخادمة الشابة لا تنفك ترتدى ثوباً أسود لا يعاب ومئزراً أبيض منشياً، لأن الآنسة "جيندين" ما كانت لتسمح أبداً بأدنى إهمال فى زينتها، وكانت الخادمة تخصص وقتاً قصيراً للغاية للعناية بالحجرتين اللتين يشغلهما المستأجران. وكانت تقضى جل نهارها جالسة فوق كرسى فى المطبخ الذى يفضى إلى مخزن تكدست فيه برطمانات الفواكه والخضر المحفوظة، وأكياساً صغيرة بيضاء من القماش تحتوى على خبز جاف. فلقد كان يبدو أن صاحبة الدار العجوز تخشى بصفة خاصة وقوع مجاعة وكانت تحتاط لذلك.

وذات يوم، لاحظت أن جو المنزل المقفول المشبع بالعفار وطابع المدينة العتيق أصبحا بالنسبة لى شيئاً لا يطاق. إن كل ما كان فى الماضى يجذب خيالى أصبح الآن يثير أعصابى. ربما كانت هذه حال أجمل الأشياء. ولما رأيت أننى لن أغير الجو منذ عهد بعيد، حزمت حقيبتى.

وعندما ذهبت لأودع صديقتى العانس، شحب وجهها، وراحت، وهى تستند بيدها على عصاها، تنقب بين مجموعة تماثيلها العزيزة. كانت أصابعها ترتعد وكان وجهها يرسم تعبيراً رقيقًا حالمًا لدرجة بالغة. وظننت لحظة أنها نسيتنى. وكنت أنتظر بفارغ الصبر وأنا أتخطر فى المكان. ثم التفتت نحوى ودست فى يدى تمثالها المفضل، الذى يمثل الحارس الليلى الصغير، وهى تهمهم قائلة:

- حاول ألا تنسنى تماماً.

كنت بالغ التأثر، بالغ الذهول، حتى إننى لم أجد كلمة أجيبها بها.

ولم ألبث، للأسف أن نسيت صديقتى العجوز! فقد كنت قد غادرت المدينة، وسلكت حياة مختلفة كل الاختلاف. فما أن عدت إلى مسقط رأسى، حتى تزوجت وعشت حياة سعيدة للغاية. وكان بيتًا فسيحًا مشمسًا، مليئًا بجمهور من الأصدقاء. وكان كل ما فيه يفيض بالبهجة والشباب: وكان به أثاث فاتح اللون بسيط التكوين مريحًا للنظر، ونباتات خضراء فى أصص زاهية الألوان.

ومع ذلك فقد كان يحدث لى فى بعض الأحيان أن أشتاق إلى التحف القديمة التى كانت موجودة فى المنزل الرمادى القديم، كما كنت أشتاق إلى الجمال البالى، ورائحة الناردين والنفتالين التى كانت تنبعث من المنزل. ولمواساتى، كانت زوجتى تشير لى بإصبعها، إلى الحارس الليلى الصغير وتلومنى وهى تضحك لأننى لم أستطع أن أستعلم عن قصته، التى كانت تشك أنها قصة عاطفية. وكان علىّ، عند سماعها، أن أستعيد أسرار العانس وأقص من حياتها الجانب الذى يتصل بالحارس الليلى.

وظل هذا الحارس صامتًا مستغلقًا. ولم يكن يذكرنا بشىء، نحن معشر الآخرين، بل لم يكن يذكرنا حتى بالوقت المتأخر، أو مرور الزمن. إن الشخص الوحيد الذى بدا أنه كان يوليه بعض الاهتمام كان عم زوجتى. فما كنت أبدأ الحديث عن الآنسة "جيندين"، حتى أسمع رنين ضحكات زوجتى، لقد كانت علاقتى بالمالكة العجوز تسليها

بطريقة عجيبة. وكانت هذه السخرية الخفيفة غير المكترثة، وتهكمات أصدقائى الذين كانوا لا يتركون فرصة دون أن يعاكسونى بسبب "جميلتى ذات الخشب النائم"، كانت كل هذه الأمور تترك فى نفسى شعوراً خفيفًا بالمرارة. فمما لا شك فيه أننى أضعت وقتًا طويلاً فى ذلك المنزل، وكان هذا التهكم يمنعنى من التحدث عن ذلك. ولكن الشىء الغريب هو أن هذا التمثال كان يجذب عم زوجتى، لذلك فقد رويت له كل ما كنت أعرفه عن تلك التى أعطتنى إياه، وهى الآنسة "سيبيل جيندين". فبدت عليه الدهشة البالغة لسماع قصتها، وغير موضوع الحديث بطريقة توحى بالتأثر والاحتداد. ومع ذلك، فإن الاهتمام الذى أولاه للتمثال، والأذن الصاغية التى استمع بها إلى قصته أثارا فى نفسى تلك الذكريات القديمة التى كنت أظن أنها دفنت إلى الأبد فى عالم النسيان.

كان عمى هذا رجلاً بشوشًا محبًا للفكاهة، وكان على الرغم من سنه، لا يزال يتطلع إلى الفتيات الجميلات اللاتى يصادفهن فى طريقه... وكان يقول، إنه لم يكن فى حياته ذا طبيعة عاطفية، لذلك فإن الحب، فى رأيه، يطرد الحب الآخر. أما الآن، فوا أسفاه! لقد مضى زمن الحب، وكان يدرك ذلك ويأسف عليه.

لقد ظهر أن وصفى للسيدة العجوز قد سبب له اضطرابًا عميقًا. وبعد ذلك بفترة عاد إلى داره.

وذات يوم، لاحظت أننى أشعر برغبة عارمة فى رؤية المدينة الصغيرة الساحرة ومنزل الآنسة " جيندين " الرمادى القديم. ولما كان ينتابنى شعور غامض بأننى قد أصل بعد فوات الأوان، فقد كتبت إليها فى الحال. وسرعان ما جاءنى الرد. تخبرنى فيه بأنها سعيدة للغاية لرؤيتى مرة أخرى وأنها تنتظرنى بفارغ الصبر. فرحلت وقلبى يفيض بالسعادة، وأنا أشعر، بالذكريات تلاحقنى وهى تزداد كلما اقترب القطار من تلك الأماكن التى عشت فيها ساعات كثيرة رائعة.

ووجدتنى، وأنا لاهث الأنفاس بعض الشىء، أمام الجدار المرتفع. وكم كانت دهشتى عندما وجدت أن الباب قد أعيد طلاؤه من جديد وأنه يلف على محوره دون أن يصدر عنه أدنى صرير. وكانت ثمة ستائر جديدة، ذات رسوم حديثة، تتدلى من النوافذ. وللوهلة الأولى، لم يكن داخل المنزل قد تغير. ولما لم تقو الآنسة "جيندين" على كتم فرحتها، فقد تركت كرسيها بمجرد أن لمحتنى وأقبلت للقائى، ووجهها يفيض بالسعادة، ورأيتها وهى تتقدم نحوى، فى مشيتها العرجاء. وضمتنى بين ذراعيها. ولقد شعرت ببعض الخيبة، لأنها كانت قد هجرت زينتها القديمة التى كانت تناسبها كثيراً، وارتدت ثوباً من آخر طراز تقريباً، ولقد أفقدها هذا التغيير كثيراً من جاذبيتها القديمة.

وقالت لى بعد ذلك بقليل:

– هل تعلم أننى أردت أن أرى العالم مرة أخرى؟ فبعد رحيلك بقليل، استأجرت عربة وقمت بجولة فى المدينة. كان قد مضى زمن طويل منذ أن اعتزلت كل تلك الأشياء التى تتصل بالماضى.

وألقيت نظرة على المعزف، فلقيته خالياً. وكانت تتابع نظرتى فقالت:

– نعم، كنت قد ضحيت بتمثالى المفضل، وعلى ذلك، فلم تعد للتماثيل الأخرى أى قيمة فى عينى. فطلبت من خادمتى أن تذهب لتبيعها لأحد تجار التحف القديمة. إن مكانها لم يعد هنا.

وابتسمت لى "سيبيل جيندين" فى رقة.

وبعد أن استأذنتها، رحت أهيم طويلاً فى طرقات المدينة الصغيرة. وبعد ذلك وجب علىَّ أن أفكر فى العودة. ولما كان العم قد علم بزيارتى للآنسة "جيندين"، فقد كان فى انتظارى على رصيف المحطة فى صحبة زوجتى. ومضت عدة لحظات قبل أن يجرؤ على إخبارى بسبب حضوره إلينا. لقد اعترف لى بأن صورة تلك السيدة العجوز، كما

وصفتها له، وهى تعيش وحدها مع ذكرياتها، قد أثر فيه تأثيراً شديداً حتى إنه يريد أن يعرف، عن طريقى، الجو الذى تعيش فيه. كنت لا أزال تحت تأثير زيارتى للآنسة "جيندين"، فكنت مفعمًا بالانطباعات الحية، وبمساعدة خيالى، رسمت له المدينة الصغيرة.

كنا معًا نسير فى الطرقات الضيقة التى كانت تؤدى إلى المنزل الساكن، وطفنا حول البئر القديمة ذات الشكل الأثرى، وانحنينا على حلقتها ونحن نمس الحجارة التى تكون ملتهبة فى الصيف، وباردة فى الشتاء، والتى لا يستطيع أحد أن يجلس فوقها. كان ميدان السوق يمتد أمام عيوننا، بحوانيته الصغيرة الجذابة، ذات النوافذ التى تلمع تحت أشعة الشمس. وفجأة أدركت الشعور الذى أبقانى طويلا مشدودا إلى كل تلك الأشياء. وكانت المنازل العسلية اللون أشبه بفتيات يرتدين الزى الوطنى، ويرقصن فى دائرة وقد تشابكت أيديهن، وثبتن على هذا الوضع الرائع بتأثير السحر. ولقد كنت متألما حقًا لأن ما قامت به السيدة العجوز من بيع التماثيل وقطع صلتها بحياتها الغابرة، قد أفسد بعض الشىء تصورى للمدينة الصغيرة. ولقد حزن العم نفسه وهو ينصت لى.

خلال الشهور التالية، كنت أعمل كالمجنون، لا أكاد أدرك الزمن الذى كان يمضى حثيثًا. وفيما بعد، أخبرونى بأننى استعدت مقدرتى فى التصوير.

ولم نعد نسمع شيئًا عن العم. ولأقلها بصراحة، إننا لم نكن نستوحش له. وبعد موته، تلقينا وصية من نوع غريب، صندوقًا يحتوى على جميع التماثيل الخزفية التى كانت تملكها الآنسة "جيندين". وكان مرفقًا بها خطاب يقول: "إننى لم أنظر فى حياتى إلى أى ذكرى باعتبارها شيئًا مقدسًا، ولم أسع قط لأن أظل حيًا فى ذاكرة أى إنسان. كان الماضى بالنسبة لى شيئًا لا أكترث له، المستقبل وحده كان يستهوينى، ولهذا السبب لم أعرف فى حياتى أى إنسان معرفة حقة. وخلال سنوات حياتى الأخيرة، تألمت لهذه الحالة. لأن وحدتى كانت تبدو أسوأ من الموت. لذلك قمت برحلتى الطويلة

إلى المدينة الصغيرة، مدينة... واشتريت كل هذه الأشياء التى تمثل ذكريات حب قديم. وأعتقد أنكما متلهفان لاستقبالها. وكما أدركتما، إنها تماثيل الخزف التى كانت تملكها الآنسة العزيزة التى ظلت تحتفظ بها طويلاً فى قلبها".

إن التماثيل لا تزال موجودة فى أحد أركان المسكن، ولقد قررت زوجتى أن من الواجب أن أقوم بزيارة الآنسة وأخبرها بنبأ الوصية التى تلقيناها. فمن المؤكد أن هذا سيدخل السرور على قلبها ويملأ حياتها. وفى النهاية سافرنا إلى المدينة الصغيرة الحبيبة.

ولقد تأثرت العجوز لقصتنا تأثراً بالغًا. ورأيت دموعًا غزيزة تسيل فوق خديها المغضنتين. فنهضت فى عسر وصعوبة. وراحت، عيناها مبللتان بالدموع، تتحسس بيديها باحثة عن منديل، مع أنه كان ثمة منديل فوق الكرسى، فى متناول يديها. وتزعم زوجتى أن هذا المنديل الذى كانت الآنسة "جيندين" تحتفظ به بالقرب منها، باعتباره عزيزاً عليها، كان منديلى، ذلك المنديل الذى كان فعلاً ناقصاً من دستة مناديلى.

***

بمناسبة دييجو سوواريز

تأليف: أورفورد جون Orfors John

من جامايكا

كانت شقراء، عليها لفحة شمس سمّرتها. كانت تتفحص الرمال بكل دقة وعناية.

– صديقة لى فقدت خاتمًا فى الرمال.

كانت تحمل اسمًا فرنسيًا، لكن لهجتها كانت تدل على أنها من "فيين".

– ولقد عثرت عليه فى المكان نفسه، بعد سبع سنوات.

فقال البارون ذو اللحية:

– أنا فقدت خاتماً فى دييجو سوواريز.

فأردف قبطان الباخرة قائلاً:

– اللعنة على الخواتم. وما فائدة محلات ميامى إن لم نشتر منها الخواتم التى نحبها؟

وتفحصت الشقراء حفرة لأبو جلمبو، لكنها لم تجد فيها أى خاتم. فشعرت بالضيق. أما البارون الملتحى فقد التقط قطعة صغيرة من الشعاب أكسبها البحر شكلاً غريبًا. وقدمها إلى الشقراء. فقد وجدها جميلة، ووجد أن من الخسارة تركها فى

الرمال. لكنه لم يرغب فى الاحتفاظ بها. فلم يكن لها مكان بين حاجياته. وقد وجدتها الشقراء جميلةً أيضا، لكن لم يبد عليها الرغبة فى الاحتفاظ بها، فأعادتها إليه. ولم يعرف ماذا يصنع بها، لكن من المؤكد أنه لم يشأ أن يلقى بها.

كان الوقت صباح يوم أحد حاراً، فى نهاية شهر سبتمبر، استوائيًا. كان الهواء خانقًا وذباب الرمال لحوحًا. فتوجهوا إلى مشرب الشاطئ. حيث لم يكف القبطان الأمريكى عن الشرب منذ الليلة السابقة، وطلبوا مشروبات. وكان البارون الملتحى شارداً، لكنه وافق على أن يشرب. أما السمراء ذات الشعر المسترسل فلم تمس كأسها. وكانت تفضل أن تستمع إلى الآخرين. وأما الفتاة ذات الشعر الأصفر الشاحب، فلم تكن قد كشفت عن هويتها بعد، ولم تكن تفتح فمها. وكلما قدموا لها كأساً، نظرت إلى الشقراء المسمرة من الشمس، فتومئ لها برأسها: "نعم". وقد لاحظت السمراء ذات الشعر المسترسل هذه الحركة. وقال البارون الملتحى:

- فى دييجو سوواريز الجو أكثر حرارة من هنا.

فأضاف قبطان الباخرة قائلاً:

- أكثر حرارة من الجحيم.

وعقبت الشقراء المسمرة من الشمس قائلة:

- أنا لى صديق فى باريس كان مهتمًا بدييجو سوواريز. على ما أعتقد بسبب الأعمال، البيزنس.

فعلق قبطان الباخرة قائلاً:

- وبالذات، النساء.

فقال البارون الملتحى:

- توجد نساء جميلات فى دييجو سوواريز.

وقال قبطان الباخرة بلهجة قاطعة:

- ما من أحد يستطيع أن يمس نساء المارتينيك.

فقال البارون الملتحى بلهجة التحدى:

- أنا أختلف معك فى ذلك.

فسأله القبطان:

- هل سبق لك أن ذهبت إلى المارتينيك؟

فأجاب البارون:

- كلا.

- إذن، أنت لم تر شيئًا. إن الفتاة التى رأيتُها الليلة الماضية ... كان يجب عليها أن تسأل أمها.

- تسألها ماذا؟

- تسأل أمها، إذا... أعتقد أنه كان بإمكانى أن... لكنها كان يجب أن تسأل أمها.

فقالت الشقراء المسمرة من الشمس:

- فى باريس، أى فتاة مؤدبة، تستأذن من أمها دائمًا.

- هناك أشياء لا نستأذن فيها الأم، حتى فى باريس.

- هذا شىء يرجع إلى الوسط الذى ننتمى إليه.

- والأوساط تختلف، يا حبيبتى.

- بصراحة، أنا لا أفهم شيئًا.

- صحيح.

فقال البارون الملتحى:

- ربما.

كان غير مقتنع بباريس كمادة للمناقشة. فقد كان ذلك حرياً بأن يثير عواطفه. إن دييجو سوواريز أسهل.

فهمهمت الشقراء المسمرة:

- كان ينبغى حقًا أن أذهب إلى باريس. حقًا، كان ينبغى ذلك.

وتساءلت السمراء ذات الشعر المسترسل عن السبب. كان من الواضح أن حاجتها إلى ذلك شديدة؛ وأنها وضعت جميع بيضها فى هذه السلة الواسعة، وأنها غير راضية تماما لتركها تنساب من بين أصابعها. كانت السمراء ذات الشعر المسترسل تدرك ذلك. وهنا سأل القبطان الأمريكى الفتاة ذات الشعر الطويل الأصفر الشاحب. فوجّهت الفتاة نظرة مستفسرة إلى الشقراء المسمرة من الشمس، لكنها لم تقل شيئًا.

وودّ البارون الملتحى أن يكفوا عن الكلام عن باريس. فقد كانت تثير عنده ذكريات أليمة. فهو يفكر فى باريس قبيل عام ١٩٤٠، وفى باريس ما بعد الحرب العالمية. وفكر فى المرأة التى كان يود أن يتزوجها وفى المرأة التى تزوجها. لقد شوّهوا له باريس التى يحبها. إن دييجو سوواريز ليست مدينة تلتصق بجلدك. وهو ينوى أن يعود إليها. لقد شاهد فى دييجو سوواريز عراكًا وقد انفعل لذلك، لكن تلك أشياء لا تترك فيك آثاراً عميقة، هى ذكريات لا نخشى أن تنتأ جروحاً وتثير أشجانًا. ومع ذلك فهى تستحق أن ترتبط بها وتحضّك على أن تعود إليها لترى إذا كانت ساحة المعركة القديمة لا تزال فى مكانها.

حينما هبطنا من الباخرة فى ميناء دييجو سوواريز، لم نكن ندرى أين نذهب. كل ما هناك أنهم وجهونا نحو (موياسا). وحينما وصلنا ركبنا طوربيداً.

كانت السمراء ذات الشعر المسترسل موافقة. وفجأة لم يعودوا يتكلمون عن باريس ولا عن دييجو سوواريز.

وقال قبطان الباخرة:

– آه من فتاة أمس تلك. يمكن أن نقول إنها أدهشتنى. لقد كلمتها عن جميع الأماكن التى ذهبت إليها... كلا، لم أحدثها عن دييجو سوواريز. كلمتها عن جميع الأماكن الأخرى، وعن النساء فيها. حدثتها عن الصين، عن اليابان، عن أورليياندا الجديدة وسان فرانسيسكو وهونولولو ومارسيليا... لقد قمت بأسفار لا بأس بها. إذن، فقد حدثتها عن كل ذلك. تصوروا. ومع ذلك فلم أحدثها عن إنجلترا. هل تعرفون لماذا... إن إنجلترا شىء آخر. على أى حال هذا ما يقال. مع أن المرأة هى امرأة أيضاً فى إنجلترا. على أى حال، لم أعد أذكر شيئاً عن إنجلترا.

فقالت السمراء ذات الشعر المسترسل:

– كلا.

وقال البارون الملتحى:

– كلا. أنا لا أستغرب ذلك.

وفى لحظة معينة، بدا له أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يذكره عن إنجلترا. كان هناك فيض من الذكريات عليه أن ينساها. آلام ما حدث، وآلام ما كان يمكن أن يحدث. الزواج الذى لم يتم والزواج الذى تم. فشل زواج يبدو أنه شىء مهم للإنسان، لكنه شىء عادى بعد آلام الحرب. إن العواطف الانفعالية تفجر القرارات المفاجئة، وقد تقبل ثلاثة أشخاص جحيمهم الشخصى بهدوء نسبى. وجمال باريس يبرز ويمحو ما عداه، ذلك الجمال الذى قد لا نعرفه أبدا؛ كانت خلفية اللحظات الأخيرة هى المساحات

الخضراء الإنجليزية. لم يكن هناك ما يستحق أن يذكره عن إنجلترا. وفى هذه الحالة، لا ينبغى أن يذكره.

القيمة المتغيرة للحب والإخلاص والعزة والامتلاك. انهيار شىء ما كان موضع فخار الأسرة طيلة أجيال متعاقبة، وتعيّن أن يباع فى المزاد، والقلب يُنهش فى ساحة السوق. دييجو سوواريز هى التى كان من الممكن أن تعطى معنى ما لهذا العفن.

وقالت الشقراء المسمرة من الشمس بنبرة آسفة:

– كان من الممكن أن أذهب إلى شنغهاى.

فسألها القبطان:

– وماذا منعك من ذلك؟

– مشكلات جواز السفر دائمًا. أنت لا تعرف هذه المشكلات.

– أما هذا فلا. ولكنك أيضًا لا تعرفين شنغهاى.

– فى باريس، كانوا ظرافًا لطافًا، لكن.

– صحيح؟

– كان لى نفوذ أكبر فى إنجلترا.

نفوذ إنجلترا. لقد عاد ذلك خفية للانتقام من نسيان السنوات الخمس الماضية. منزل طراز جورجى وأشجار منغولية حول الجدران. وشجرة قرو عتيقة. وأسرّة من الياقوت ورائحة السوسن. والصيف الباسم الذى يشارف الانتهاء، وأوراق الشجر التى تحمرّ وتترك الأغصان عارية فى المسالك المبللة فى شهر نوفمبر. كل هذه الأشياء التى تعود إلى الطفولة، من خلال نار تتراقص فى المدفأة، ومشاهد أخرى كان من المفروض أن تكون فى طى النسيان، لكنها تظهر مع هدوء نهاية الصيف، نهاية الصيف هذه التى

لا يوجد فى المناطق الاستوائية. والأشياء الصغيرة التى تحدث خلال ليالى الشتاء، وأعياد رأس السنة والجمل القصيرة التى تنير حجرة عائلية، حيث الأثاث الذى داعبته القرون قد خدشته يد طفل صغيرة.

وحينما وصلنا ركبنا طوربيداً.

- أنت سبق أن قلت ذلك.

كانت الشقراء المسمرة من الشمس هى التى قالت ذلك. لكنها لم تكن تخاطبه، وإنما كان ذلك بمناسبة شيء قاله قبطان الباخرة عن النساء. لم تكن هناك علاقة بين النساء وبين دييجو سوواريز فيما يخصه. دييجو سوواريز كانت خلية من الحركة. لمظلات جميلة ورجال محترمون.

ليس فى دييجو سوواريز ما يمكن أن يخرج من الماضى ليضايقك، ليس فيها ما يمكن أن يذكرك بحب ضائع؛ أو حياة ولت ومضت إلى غير رجعة. لكنها كانت تضم نوعًا من الكمال فى حد ذاتها، كنا فى حاجة إليه ونحن فى برزخ الحياة هذا الذى يبدو أنه لا يفضى إلا إلى صحراء قاحلة. ماذا يمكن أن نقول فى مدح دييجو سوواريز؟ لماذا يرد دائماً ذكر دييجو سوواريز؟ هل سيتحول ذلك إلى فكرة متسلطة؟ بكل بساطة لأنه نوع من الأماكن الذى يشعر المرء فيه بأنه وحده الذى ذهب إليه؟

وقالت الشقراء:

- كانت باريس كذلك بالنسبة لنا عام ١٩٣٦.

- ليس من الضرورى أن نكون فى عام ١٩٣٦ لكى تعيدنى إلى باريس. فباريس موجودة دائماً، مفتوحة على مصراعيها، أليس كذلك؟

فقالت السمراء ذات الشعر المسترسل بنبرة ليّنة على غير عادتها:

- طبعاً. ولكن هناك باريس وباريس.

– لو سمحت، لا تحدثينى بالألغاز. ماذا تريدين أن تقولى بالضبط؟

– لا تنس أنك تتحدثين عن باريس إلى قوم منفيّين.

– منفيين؟ هذا ليس له معنى بالنسبة لى. حينما أتحدث عن باريس إلى سيدات، فليس هناك سوى باريس واحدة.

ولم يرد أحد، فاستطرد القبطان يقول:

– معظم السيدات يتشابهن فى باريس، كما فى... ما هذه الفتحة التى أحدثتها؟ أوه، دييجو سوواريز. لقد ذهبت إليها فى الماضى.

ولم يهتم البارون الملتحى بالرد.

– ولكن فتاة الأمس تلك. آه. كانت حاجة أخرى! فى نحو السابعة عشرة. شعر طويل أصفر. مثل هذه الفتاة. وعيناها، آه من عينيها! لقد سرحت بها كما يقولون. فحدثتها عن فتاة لوس أنجلوس، وعن فتاة شيكاغو، وعما قالته لى فتاة جوانتانامو، وتلك التى قابلتها فى برشلونة، وتلك التى عانيت من ألاعيبها فى ... أعفيكم من ذكر التفاصيل. يجب أن يرى المرء عينيها الواسعتين اللتين كانتا تزدادان جحوظًا شيئًا فشيئًا. وفجأة شعرت بالعجز حينما تبين لى أننى أروى لها أشياء لا تخصها فى شىء. حينئذ صححت من المسار واقترحت عليها أن تذهب لتنام.

وحركت النسمة أوراق شجرة الجوز محدثة حفيف المطر، لكن أحداً منهم لم يرتعش.

– هل تعرفون ما أجابت به تلك الفتاة؟ آه، أقسم لكم، لقد قالت: "سأذهب لأسأل أمى". كأنما حياتها لا تخصها هى. "هل نذهب لننام يا عزيزتى؟ يجب أن أسأل أمى"، حينئذ قلت: لها، إذن سأسألها أنا. ما ظنكم...؟

وتكلمت الفتاة ذات الشعر المسترسل للمرة الأولى فقالت:

أين توجد دييجو سوواريز يا أستاذ؟ أنا لم يحدثنى أحد عنها.

فقال البارون الملتحى:

دييجو سوواريز. ليس هناك شيء مهم فى...

وأردف القبطان قائلاً:

- هل تعرفون ماذا حدث. حينما سألت أنا أمها، قالت لى، بالنسبة لهذا الموضوع فهى لا تمانع. ولكن هناك مشكلة صغيرة خاصة بجواز سفر أمريكى تحتاج إليه. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لتحصل على جواز سفرها الأمريكى، وكنت قد بدأت أحاول أن أحل المشكلة!

فتمتمت الشقراء المسمرة من الشمس قائلة:

- إن "رأس المال الصغير" الخاص بالفتاة له دائمًا قيمته التجارية عند الزواج، حتى فى العصر الغريب الذى نعيش فيه مضطرين. وقد أبدو لك غير محتشمة. ولكن المنفيين يعيشون فى ظروف معنوية صعبة. أما فيما يخصنى، فإن ثمنى لم تعد له أهمية ولا حتى بالنسبة لىِ أنا. فلم يعد لنا ماضٍ. ولكن لا يزال هناك جواز سفر. قد يبدو لك هذا الأمر غريبًا أنت المواطن فى الدولة التى اشترت العالم. إننى أتساءل منذ متى أسرتك أسرة حرة فى الولايات المتحدة. إن أسرتى فخورة جدًا، ونحن الآن قوم لا ننتمى لأى بلد. فحيثما ذهبنا علينا أن نعترف بأننا شاكرون لاعتبارنا ضيوفًا. قد يبدو لك غريبًا أن عزتنا تسمح لنا بأن ننسى ما كناه فى الماضى، وأن تنمحى من ذاكرتنا حياة لم يعد لها وجود. وألا نقيم وزنًا لأنفسنا حينما يثار موضوع تافه كموضوع جواز السفر من أجل حياة جديدة. لقد شاهدت نساءً مثلى سقطت حياتهن فى الحضيض فى منفى الحثالات. مازلت أحتفظ بشيء ما من طبيعتى كامرأة ولى ابنة. ونحن لا ننوى

أن نتردى فى الفساد. فمن الطبيعى إذن أن ابنتى فى ظروف معينة تسألنى رأيى حتى فى موضوعات قليلة الأهمية.

– ربما تكونين على حق ...

– أنت كونتيسة.

– أنت كونتيسة.

كان البارون الملتحى يلعب بقطعة صغيرة من الشعاب المرجانية أكسبها البحر شكلاً غريباً. كان يحاول أن يكسرها لكنه لم يفلح ... وحينما غادروا المشرب، ألقى بها فى الرمال. فالتقطتها السمراء ذات الشعر المسترسل. لم تكن تستمسك بها كثيراً، لكنها وجدت أن من الخسارة أن تتركها. وكانت لا تزال تتساءل أين توجد دييجو سوواريز؟

***

دين قديـــــم

تأليف: يازوشـى إينـو Yasushi Inoue

من اليابان

فى السـاعـة الثـالثـة من ذلك اليـوم، كـان "سـينجيـرو سـاكو" فى مـطار "إيتـامى" ليستقل الطائرة إلى طوكيو.

كانت الأيام الثلاثة التى قضاها فى "أوزاكا" حافلة بالأعمال. وكان فندق "طوكيو"، وسط المدينة، معروفًا بضخامته والسرعة التى تم بها تشييده على أثر انتهاء الحرب. وكان ذهاب صاحبنا وإيابه فى ردهة الفندق، وهو واثق من نفسه، أحرى بأن يثير غيرة النحلة النشيطة فى فصل جمع الغذاء.

كان قد تلقى ثمانى زيارات، وزار ست شخصيات فى مختلف مقار الشركات وفروعها وإداراتها، وحضر أربع سهرات، وأثنى على المزايا التى تتمتع بها الكراسى التى تقوم شركته بصناعتها، وشرح المبادئ التى تقوم عليها شركته، وتحدث عن مستقبلها.

وفى اليوم الرابع، لم يعد لديه ما يفعله. فتناول الغداء فى هدوء، فى أحد أركان مطعم الفندق. وسأل مدير الفندق قائلاً:

– من أين جاء هذا البطيخ؟

كان "سينجيرو ساكو" أشيب الشعر، فى نحو الستين من عمره... وكان نشيطا، محبًا للنظام. ولقد قام بواجبه خير قيام، وكان راضيًا عن الناس. وللمرة الأولى أصبح بوسعه أن يتحدث فى موضوعات لا علاقة لها بالأعمال:

– من "كوبيه"، على ما أظن.

– إنه أصفر جداً. لا بد أن السبب يعود إلى التسميد. كان يجب أن يكون أكثر نضجًا.

ليس ذلك لأنه يهتم بصفة خاصة بالبطيخ. وما أن انصرف مدير الفندق، حتى أخذ منه قضمة كبيرة. فراح البطيخ اللذيذ المفعم بالعصارة يذوب فى فمه.

وما أن انتهى من الغداء، حتى خرج إلى الردهة، وأشعل سيجارا، ثم أخرج مفكرته من جيبه الداخلى. وكانت كل عبارة فى القائمة مشطوبة بخط أحمر. فقد أنجز كل شيء. وفى الخريف سيقوم بافتتاح فرع لمصنعه فى " أوزاكا ". لكى يغطى السوق فى منطقة "كانزيه" ونظر فى ساعته. كادت الثانية عشرة ونصف ظهراً. إن حافلة المطار تخرج من أسفل المدينة قبل رحيل الطائرة بساعة تقريبًا. فلا تزال أمامه ساعتان.

وعاد فصعد إلى حجرته، ووضع ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان، وبعض الحاجيات الأخرى داخل حقيبته، ثم أغلق الباب ونزل إلى مكتب الفندق ليسدد الحساب. وكان قد عزم على قضاء هاتين الساعتين فى نزهة على طول نهر "دوجيما" الذى يخترق وسط المدينة، بالقرب من الفندق.

وكان ثمة طريق محفوف بالأشجار مزدحم بالعجلات والسيارات يسير بحذاء النهر، وأسفل منه قليلاً وعلى الشاطئ، يوجد ممر ضيق ينزل فيه المتنزهون فى المساء أزواجًا أزواجًا. أما فى النهار، فيكون خاليًا كأنما قد نسيته المدينة. وبعد عشر دقائق،

ار سينجيرو ساكو " يتمشى على طول هذا الممر. ولم يكن يبدو فى الأفق متنزهون آخرون.

كانت ظلال أشجار الصفصاف المغروسة على مسافات متساوية بطول الطريق الحاوى، تسقط فى خطوط متشابكة على الممر. وفوق النهر كانت تطفو بعض المخلفات، إلا أن شمس مايو كانت تعكس أشعتها على سطح الماء فى نقط من الضوء أشبه بأصداف السمك، وكانت النسمة منعشة. فى ذلك الحين قابل صاحبنا الرجل ذا الندبة.

كان وجهه عاديًا، فى نحو الأربعين من عمره، وكان الرجل قد نزل إلى الممر، على بعد بضعة أمتار من "سينجيرو ساكو"، مستخدمًا أحد السلالم الحجرية التى كانت تقوم على مسافات متباعدة وتفضى إلى الشارع العلوى، ولكنه كان بالنسبة "لسينجيرو ساكو" كأنما قد هبط من السماء.

وتقدم الرجل ذو الندبة فى بطء نحو "سينجيرو ساكو" الذى تنحى جهة النهر ليفسح له الطريق.

كان القادم الجديد يبدو منهكًا قد استنفده العمل والهم. فلم يتنبه لوجود "سينجيرو ساكو". ومضى، وهو حانى الظهر قليلاً. خافض العينين، دون أن يتطلع إليه.

ولكنه قبل أن يتقدم خمس خطوات، التفت "سينجيرو ساكو" خلفه فجأة، وتراجع خطوة إلى الوراء وصاح فيه قائلاً:

- عفوًا! أنا أعلم أنها قلة ذوق من جانبى، ولكن ألم تكن يومًا فى مدينة "أكيتا"، قبل عشرين عامًا؟

فرمقه الآخر لحظة بارتياب. ثم قال بغشم الشخص الذى لم يتعود على آداب اللياقة ومقتضيات الذوق:

– أكيتا؟ نعم، لقد عشت فيها عندما كنت شاباً. أنا مولود فيها.

ولقد بدا عليه الضيق قليلاً بسبب هذا السؤال الدخيل، ولكن مما لا شك فيه أن الندبة التى بوجهه كانت تسهم فى خلق هذا الإحساس. فيبدو أن وجهه كان دائمًا يوحى بتعبير يشوبه القلق والارتياب.

– آه!

صرخة مكتومة، شديدة، أطلقها "سينجيرو ساكو".

– هو ذلك إذن. أعلم أنه سبق لى أن رأيتك. كنت أفكر فيك طوال تلك الأعوام العشرين. وكنت أتمنى دائمًا أن أراك مرة أخرى. لقد قابلتك فى "أكتيا" وأنقذت أنت حياتى. لا تؤاخذنى، ما اسمك؟

– "تاكيزو كيكوشى". ولكن لا بد أنك مخطئ.

كرر "سينجيرو ساكو" الاسم كما لو كان اسم صديق حميم. ثم بذل مجهوداً ليهدئ من روعه. وكان يتساءل كيف يبدأ.

فى إحدى ليالى ديسمبر، قبل عشرين عامًا مضت، كان "سينجيرو ساكو" يتنزه فى شارع صغير منعزل من شوارع "أكتيا" وفى رأسه أفكار عن الانتحار. كان يعمل فى "أكتيا" فى أحد فروع شركة صناعية فى طوكيو. واستخدم أموال الشركة فى المضاربة على أخشاب البناء، وانتهت المضاربة نهاية غير محمودة، فأصبح مطارداً من الدائنين، ومهدداً باكتشاف الاختلاسات، وأغلقت فى وجهه كل السبل.

صادف ذلك أيام الاحتفالات التى تقام فى نهاية العام، ومضى صاحبنا، تحت الجليد الدقيق، يسير بلا غاية خلال المدينة فى شارع رمادى اللون، وقد ضاق عليه الخناق وهو بين الحياة والموت. وكان سيختار الموت لولا أنه فكر فى زوجته الشابة التى

ام الآن حتى لتعلم شيئًا عن مشكلاته. هذه الفكرة وحدها كانت تحتجزه على شاطئ الحياة.

"يا للراحة التى سألقاها فى الموت! يا للراحة!...".

هذه اللازمة السوداء، كان يرددها فى هدوء، فى قرارة نفسه. ولكنه إن مات اصبحت زوجته بلا مورد.

- عفوًا؟ هل معك كبريت؟

فعاد "سينجيرو ساكو" إلى نفسه. ونقب فى جيبه. كانت كرات دقيقة من الجليد تراقص داخل دائرة النور التى كان يرسمها عود الثقاب ومصباح كان يحمله الرجل الذى اعترض سبيله.

وحدث "سينجيرو ساكو "نفسه قائلاً : "لا بد أننى أهيم تحت هذا الجليد منذ ساعات". وأعاد الرجل إليه علبة الثقاب.

- شكرًا!

ولما مضى الرجل الآخر، وهو مائل قليلاً إلى الأمام، ظهر وجهه فى دائرة الضوء التى كان يرسمها المصباح. ورأى "سينجيرو ساكو" باشمئزاز، أن جانبًا من وجه الرجل مشوه بصورة بشعة بسبب ندبات خلفها حريق قديم. كان الرجل فى ريعان شبابه، وكان يرتدى زى موظف بالسكك الحديد. وعندئذ لاحظ "سينجيرو ساكو" أنه يسير فى شارع شبه مهجور وراء المحطة. فقد كانت هناك أسلاك مرتفعة تسير بحذاء أحد جانبى الشارع، وسمع "سينجيرو ساكو" صوت صفارة بعيدة لإحدى قاطرات السكة الحديد.

كان المصباح ينير بضوء شديد مخزنًا للبضائع، بدأ الشارع من بعده يتفرع إلى اليمين وإلى اليسار. وكان "سينجيرو ساكو" وهو يحدّق فى النور الذى كان يبتعد

يتساءل عن الوجهة التى سيتخذها نور المصباح الذى كان يحمله الرجل ويقول فى نفسه: "إذا اتجه إلى اليمين سأنتحر، أما إذا اتجه إلى اليسار فسأواصل الحياة".

إن الطريق الذى سيتخذه النور لم يكن فى ظاهره ذا أهمية على الإطلاق. ولكنه كان يركز نظره عليه فى اللحظة التى كان يقترب فيها وهو يرتجف من مفرق الطريق وانعطف النور إلى اليسار واختفى مع البعد شيئًا فشيئًا.

فقال "سينجيرو ساكو" لنفسه: إذًا، يجب أن أواصل الحياة. ولكن هذا القرار كان مصحوبًا بنوع من السأم عندما تذكر العذاب الذى سيظل يلازمه.

ومع ذلك فإن نبذة لفكرة الموت فى تلك الليلة هى التى جعلته يتغلب على الصعوبات ويحصل فى نهاية المطاف على هذا المركز المحترم بعد عشرين عامًا من الحادث.

لقد أصبح رجل صناعة من الطراز الأول، وعندما يذهب إلى المسرح أو إلى أحد المطاعم، كان يجلس فى كرسى موسد - يحمل العلامة المميزة لشركته. لقد أصبح قوة. وكان من الواجب أن يكون فى عداد أعضاء الغرفة التجارية.

وكان "سينجيرو ساكو" يحب أن يروى هذه القصة. كان يرويها بانفعال وحماسة فى أغلب الأحيان حتى إن الأصدقاء كانوا يبادرونه قائلين:

- إذن، سنسمع مرة أخرى قصة الرجل ذى الندبة!

ولكن زوجته لم تكن تمل من القصة التى كانت تنتهى دائمًا بهذه الكلمات:

- وكانت فى وجهه ندبة فظيعة.

وكانت زوجته تكرر هذه العبارة:

- إنك مدين بالكثير لهذا الرجل. هل تعرف كيف أصبح الآن؟

- إننى أود أن أعثر عليه مرة أخرى.

- لو حدث هذا، فلا بد وأن تكافئه بأية وسيلة.

كانت زوجته امرأة ضخمة، تكرس حياتها لأعمال الخير، وكانت جمهور له.

ومما لا شك فيه أن "سينجيرو ساكو" قد قام بعملية بحث محدودة داخل "أكيتا" ولكنه لم يعثر مطلقًا على أثر للرجل ذى الندبة. أما بالنسبة لزوجته، فإن هذا الاختفاء التام أضفى على القصة طابع الغموض الذى يزيد من إثارتها.

ولكى يروى قصته هذه، كان "سينجيرو ساكو" قد جلس على درجات السلم الحجرى المؤدى إلى النهر الذى كان مجراه العريض يمر أمامه فى هوادة. أما الرجل المسكين، الذى كان منقذه فيما مضى، فقد كان يجلس إلى جواره.

- إننى أود أن أفعل شيئًا من أجلك إن استطعت.

كان "سينجيرو ساكو" يكرر الجملة الذى قالها وأعاد قولها سنوات بأكملها لزوجته ولأصدقائه.

أما بالنسبة "لتاكيزو كيكوشى"، فقد كان الموقف ضربًا من الوهم أو الخيال. فلم يكن بوسعه أن يصدق ما كان يحدث له، وكان يتساءل إذا كان لا ينبغى عليه بكل بساطة أن ينهض وينصرف إلى حال سبيله.

كان قد غير مهنته نحو اثنتى عشرة مرة منذ بدأ حياته فى سكة حديد "أكيتا"، ولكن ما من تغيير من هذه التغييرات جلب عليه السعد، وهو الآن، سمسار تأمينات، يكسب بالكاد ما يضمن لأسرته المسكن والمأكل.

وخلال التغييرات المحمومة التى كانت تطرأ على وظيفته ومحل إقامته، سعيًا وراء متنفس فى تلك المعركة التى يخوضها ضمانًا لحياته وحياة أفراد أسرته، كان سوء الطالع يطارده. فلم يكن بوسعه أن يفر من تلك الندبة البشعة التى تشوه خده والتى تقع مسئوليتها على أم مهووسة، وكان مقتنعا بأنه لن يستطيع على الإطلاق أن يفر من

سوء الحظ، ومن العمل المضنى ومن الفقر. كان يشعر بأن الحياة لا تتضمن معنى حقيقيًا وبأنه لا أهمية لكونه حيًا أو ميتًا. وكان يتصور فى بعض الأحيان أنه إذا ترجمت الصرخة التى ترك بها أحشاء أمه، فإن معناها سيكون: "لا أريد. لا أريد".

وها هو ذا من جاء يخبره بأنه قد أنقذ، دون علمه، حياة شخص آخر، وأسهم فى تكوين مركزه المرموق وحياته السعيدة الرغدة.

وراح يتأمل قدميه فى حذائه البالى فلاحتا له وكأنهما قدمان جلبتا الحظ لرجل آخر، ولكنهما لم تصنعا شيئًا من أجل صاحبهما.

وسأله الرجل العجوز قائلاً:

- هل لك أسرة؟

- زوجة وأربعة أبناء.

- ليس من شأن هذا أن يجعل أمورك سهلة ميسرة. أرجوك، قل لى كيف أستطيع مساعدتك. ضع جانبًا كل حرج أو ضيق.

إن "تاكيزو كيكوشى" ينصت الآن بشعور بالأمل يضخم صوت هذه الرؤيا المذهلة. وعض على شفته لكى يتأكد أنه متيقظ فعلاً. وكان يشعر برغبة تدفعه إلى أن يصيح من الفرحة. وبدلاً من أن يفعل ذلك، قال مترددًا:

- إنها ستندهش عندما تعلم بهذا!

كان يفكر فى زوجته.

وفجأة، فكر "سينجيرو ساكو" فى زوجته هو.

- لماذا لا تأتى معى إلى طوكيو؟ إننى أحب أن أقدمك إلى زوجتى، كدت أنوى أن أسافر إلى طوكيو الليلة.

كان "تاكيزو كيكوشى" ينتظر، فى القريب العاجل، طفلاً خامساً. وكان لا بد له من تدبير بعض النقود. وكان يتعشم أن يستطيع اقتراض بعضها من عم له يدير متجراً فى طوكيو. لم يكن هذا العم غنيًا، ولكن حالته كانت تسمح له بألا يحمل هم الوجبة المقبلة.

- عظيم!

ونظر "سينجيرو ساكو" فى ساعته. كانت تقترب من الثانية.

- سأستقل الطائرة بعد ظهر اليوم فلماذا لا تأتى معى؟

- فى الطائرة؟

لم يكن " تاكيزو كيكوشى " قد سافر بالطائرة أبداً. فكانت فكرة إمكان حدوث هذا الأمر تبدو له شيئًا غريبًا، بل خارقًا للعادة.

- إنها تقلع فى الثالثة، هل تستطيع أن تأتى مباشرة؟

- أخشى ألا أستطيع. فلدى أعمال كثيرة يجب أن أؤديها بعد الظهر.

وفى الواقع، كانت لدى "تاكيزو كيكوشى" أعمال عليه أن يؤديها. فقد كان عليه أن يطلب يومين إجازة من رئيس عبوس، ويقترض نقوداً من أحد المرابين، ويحمل النقود إلى زوجته.

ونظر "سينجيرو ساكو" فى ساعته مرة أخرى ومكث مفكراً لحظة.

كان نادراً ما يغير جدوله من أجل أى شخص كان، ولكنه سيخرج على القاعدة من أجل منقذ حياته.

ونهض الاثنان. ووعد "تاكيزو كيكوشى" بأنه سيكون فى الفندق فى الساعة الخامسة، وانصرف بخطى أكثر خفة ورشاقة. وكان يشعر مقدمًا بأنه يكاد يحلق فى السماء.

وتناول رجل الأعمال ومنقذه الغداء معًا فى مطعم الفندق. وكان الغداء بالنسبة "سينجيرو ساكو" وجبة رائعة لا تتكرر فى الحياة كثيراً. ولم تعد ندبة ضيفه تثير نفوره. بل لقد كان "سينجيرو ساكو" يتصور أن بوسعه أن يعطى "لتاكيزو كيكوشى" عملاً فى مصنعه دون أن يثير بذلك اشمئزاز العمال الآخرين. كان يحدث نفسه ويقول: "كم ستفاجأ زوجتى عندما نظهر أمام الباب".

كانت زوجته فى هذه السنوات الأخيرة قد فقدت عادة الاندهاش وأخذت فى السمنة كما لو كان هذا هو مشغوليتها الوحيدة فى الحياة. وإن مفاجأة سارة تفيدها خيراً من كل ما يمكن أن يتصوره.

أما عن "تاكيزو كيكوشى"، فإنه لم يتصور أن تتاح له فى حياته مثل هذه الوجبة مرة أخرى. ولولا شعوره بالحرج بسبب إحساسه بثيابه الرثة وحذائه البالى لكان فى قمة السعادة.

كان يفكر فى كل ما فقده طوال تلك السنين، وهو يدير ظهره للحياة والناس. وكانت المشروبات اللذيذة تجعل ندبته تلمع مثل المنارة. وكانت الأطباق التى تتتابع - وأى أطباق، إنه لم ير فى حياته مثيلاً لها - تدير رأسه.

- قد يكون من الواجب أن أبعث ببرقية إلى زوجتى لتعلم بمجيئك.

ولكن سمسار التأمين لم يكن ينصت له، ولم يسمع رفيقه وهو يرسل الغلام بالبرقية، وكان الرجل العجوز يتحدث، ويتحدث، غير أن "تاكيزو كيكوشى"، ومن علياء نعيمه، لم يلحظ، من وقت لآخر، سوى حركة شاربه الأبيض وكأنها عنصر مكمل لنشوته الذاتية.

وبعد السابعة بقليل، توجها إلى المحطة واستقلا حافلة المطار.

وألقى "تاكيزو كيكوشى" نظرة إلى السماء وهو يدخل الحافلة فسقطت حبة من المطر على جبينه. لم تكن هناك رياح، ولكن كانت ثمة سحب تزحف فى اتجاه الشمال الشرقى وسط سماء المساء الجميلة.

كانت الطائرة متأخرة عن موعدها بعشرين دقيقة. ولم يلحظ "كيكوشى" الوقت الذى أقلعت فيه.

- سنكون فى مطار "هانيدا" بعد ساعة ونصف.

كانت كلمات الرجل العجوز تبدو غريبة عجيبة. فإن أعباء كل هؤلاء الأبناء لم تمكن " كيكوشى" مطلقًا من أن يسافر فى مجرد قطار سريع.

وانقضت الساعة والنصف.

وأنارت العلامة التى تدعو إلى ربط أحزمة المظلات، إلا أن الطائرة لم تتهيأ للهبوط.

فقال "سينجيرو ساكو":

- يبدو أننا تأخرنا قليلاً.

ثلاثون دقيقة مضت وما من علامة تبشر بالهبوط. ونظر من النافذة الصغيرة. لم يكن يظهر تحت الطائرة إلا امتداد مظلم للبحر. ونظر فى ساعته عدة مرات وبدأ يشعر بقلق غامض. فأوقف المضيفة الجوية الشابة عندما خرجت من حجرة القائد وسألها:

- ماذا حدث؟ لقد تأخرنا، أليس كذلك؟

- إننا لا نستطيع أن نهبط بسبب السحب، ولكننى لا أعتقد أن هناك ما يدعو للقلق.

إن إجابتها التى كانت أميل إلى الالتباس قد أثارت قلق "سينجيرو ساكو". كان يبدو أن هناك مغزى وراء عدم قولها بكل بساطة: "ليس هناك ما يدعو للقلق".

- هل ظللنا طوال الوقت نحوم فوق "هانيدا"؟

- نعم يا سيدى.

- عظيم. ولكن يبدو أن هذا الوضع سيجلب علينا المتاعب.

وبدأ يندم على تغيير جدوله.

وإلى جواره، كان "تاكيزو كيكوشى" مكتئبًا منحرف المزاج.

ونظر من النافذة فوجد أن المروحة الخارجية لم تعد تدور.

لقد توقف أحد المحركات فهم لا يستطيعون الهبوط. وانقبض قلبه عندما أدرك معنى ذلك. وراح الاضطراب والقلق يسيطران على الطائرة. وبدأ الركاب الأربعون يستشعرون الخطر.

وألقى "سينجيرو ساكو" نظرة على رفيقه. كان وجه "تاكيزو كيكوشى" أبيض من الشحوب وفمه متقلصًا.

لقد لاح "سينجيرو ساكو" وكأنه وجه الهلاك الأبدى، وجه شيطان لسوء الطالع. إن ما حدث كان نتيجة مباشرة لمقابلة اليوم.

وبغتة، قفز شيطان سوء الطالع على قدميه وهو يرفع ذراعيه إلى السماء.

فهدأت المضيفة من روعه. فعاد إلى الجلوس، وسكن فى مكانه وحدث نفسه قائلاً: "لماذا يحدث هذا؟ إن حياتى لم تكن سعيدة، ولكن لم يحدث لى قط أن وجدت نفسى مهددًا بخطر ميتة عنيفة. لو تحطمت الطائرة، ومت، فستكون غلطة هذا الشيطان الجالس هنا إلى جوارى".

ثم التفت ونظر إلى "سينجيرو ساكو" بعينين متوهجتين. فرد له "سينجيرو ساكو" نظرته. وخطر له أنه ليس متأكداً على الإطلاق أن هذا الذى أمامه يمكن أن يكون ذلك الشخص الذى قابله فى "أكيتا" قبل عشرين عامًا. وإذا كان هو فعلاً، فما أثر تلك الانعطافه إلى اليسار فى حياته أو موته؟ فقد كان من الممكن جداً أن يقوم كلب بهذه المهمة، فى تلك الليلة. وراح "سينجيرو ساكو" يلعن سذاجته وطيبة قلبه اللتين قادتاه إلى هذه الكارثة. وانفجر سمسار التأمين قائلاً، وقد عجز عن الاستمرار فى ضبط نفسه:

– إننى لم أكن أرغب فى ركوب أى طائرة!

كانت لهجته قد تغيرت تمامًا. وكان وجهه يعطى الإحساس بأنه على أهبة أن ينقض على شخص ما.

وكردّ فعل على هذا الموقف، خلد "سينجيرو ساكو" إلى هدوء بارد كالجليد. وتطلع فى ازدراء إلى شيطان سوء الطالع هذا الذى فقد السيطرة على أعصابه بهذه الطريقة.

ثم حدث نفسه خلسة: "إن مقاعد الطائرة تدفع إلى الأمام وتوحى بعدم الاطمئنان. لو خرجت سالمًا من هذا المأزق، فإننى سأتخذ فى المصنع الإجراءات اللازمة لصناعة مقاعد للطائرات، أفضل من هذه المقاعد. ولكن من الجائز أن الأوان قد فات للتفكير فى مثل هذه الأمور". وتحول تفكيره باشمئزاز عن هذا الموضوع.

وبدأت الطائرة تفقد توازنها؛ فزادت مخاوف الرجل العجوز. سمع صوت المضيفة فى مكبر الصوت، وكأنه صوت ملاك حارس:

– نأسف لإزعاجكم، الطائرة ستهبط فى "هانيدا" بعد خمس دقائق.

أما "سينجيرو" و"تاكيزو" فلم يفتح أيهما فمه خلال الدقائق التالية.

وخرجا من الطائرة، وقد افترقا وسط زحام الركاب. وكان "سينجيرو" يبحث بعينيه عن شبح زوجته الضخم، بين الجمهور الذى كان ينتظر فى مدخل الردهة. فنادته بمجرد أن لمحته.

– لقد تأخرتَ ساعة. كنت فى غاية القلق. ولكن أين فاعل الخير الذى أحسن إلينا؟

وراحت تتطلع حولها، متلهفة لرؤية ذلك الشخص الذى تدين له بالكثير.

أما رجل الأعمال العجوز، وسمسار التأمين، فقد رمق كل منهما صاحبه بنظرة وهما يدخلان الردهة. وافترقا دون كلمة واحدة.

لقد خيل لـ "سينجيرو ساكو" أنه فى هذه النظرة الأخيرة رأى شخصًا جديدًا كل الجدة، ما من شك فى ذلك. لا المنقذ الذى تناول معه الغداء فى "أوزاكا" قبل ثلاث ساعات، ولا شيطان سوء الطالع الذى كان جالسًا إلى جواره فى الطائرة. لقد رأى ما كان يجب أن يراه منذ البداية؛ مجرد سمسار تأمينات حقير لا يثير اهتمامه فى شيء. وبالمثل، كان "تاكيزو كيكوشى" يرى فى "سينجيرو" رجل أعمال عجوزًا، لا تربطه أى علاقة بحياته البائسة. وأشاح بوجهه مع رجفة من أهدابه ملؤها الارتياب.

وسألت مدام ساكو مرة أخرى:

– أين هو؟ أين فاعل الخير الذى أحسن إلينا؟

كان "تاكيزو كيكوشى" فى تلك اللحظة يدخل الحافلة. وكان يحدث نفسه قائلاً:

"يا له من يوم قذر! لقد نسيت أن أسترد ثمن تذكرة السكة الحديد التى اشتريتها قبل يومين".

***

ســــــاحـرة

تأليـف: تاتوزو إيشـيكـاوا Tatsuzo Ishikawa

من اليابان

إحساس ما كان ينتابنى منذ فترة من الوقت، ومع أننى لا أثق بسائر أحاسيسى، ' أن هذا الإحساس كان يشقينى.

كانت "مازاكورينو" صديقتى، وهى فتاة رقيقة، كثيرة الكلام، ذات بشرة صافية ون، ناعمة الملمس أشبه بأوراق الورد. فعندما كنت أضمها بين ذراعى، كنت أشعر سدها مرنًا طيّعًا لدرجة كنت أعتقد معها أننى أحس به يذوب على صدرى، وكنت د بين ذراعى جسدًا مستسلمًا، جسد امرأة غائبة عن وعيها، كان يوحى لى بأننى تضن طيفًا. وكان ثمة شعور يلازمنى وهو خوفى الشديد من أن أراها فجأة تنساب ن أصابعى كحفنة من الرمال. وقد أثبتت التجربة صدق إحساسى هذا؛ تزوجت ازا"، دون أن تخبرنى، من "كيجى كياما" وذلك حتى قبل أن أعلم أنها تعرفه وأنه رفها.

وانقضى الخريف، وأقبل الشتاء. فتجمدت الشمس نفسها من شدة البرودة، صبحت الرياح محملة بكرات البَرَد. الشتاء يعتبر فصلاً قاسيًا بالنسبة للعاطلين. ت أرفع ياقة معطفى البالى القديم وأهيم فى شوارع طوكيو الضيقة أقتل الوقت، خل الحانات القذرة، فى احتساء مشروب "الساكى" الرخيص.

كانت فى جيبى بعض "الينات" التى حصلت عليها فى مقابل كمية من دمى. لقد غرزت الممرضة الأمريكية إبرتها فى ذراعى الهزيلة فسحبت منها ٢٥٠ سنتيمترًا مكعبًا، من الدم، دون اكتراث وكأنها كانت كوبًا من عصير الطماطم. ولقد كافحت الدوار بأن أحللت كمية من مشروب "الساكى" النّفاذ محل الدم الذى فقدته.

ثم أمضيت الليل هائمًا فى الطرقات. وها هى طوكيو التى أحالتها الحرب منذ سنوات إلى رماد، قد أصبحت الآن مدينة مهووسة تزينها أنوار النيون المتنوعة، وتعانى من كثافة السكان. إنها أشبه بجحيم لم يتمكن فيه الرجال والنساء الذين يشبهون البهائم من مواصلة حياتهم إلا بعد كفاح مرير. وكنت أجد فى هذا الانحطاط نوعًا من السلوى، كما أشبعت غريزة الانتقام عن طريق بيع دمى. ولقد كان خلل عقلى يدفع جسدى نفسه إلى اليأس، فكنت أهيم فى حالة فراغ مادى ومعنوى فى الوقت نفسه.

وذات يوم، توقفت إحدى السيارات بالقرب منى فجأة. وعندما التفتت رأيت "مازاكورينو" تخرج منها. ولقد ظننت فى بادئ الأمر أن فقر الدم والدوار يمكران بى مرة أخرى. كانت "مازا" ترتدى معطفًا من الفرو أميل إلى القصر، وكان جسدها النحيل، تحت ألوان النيون التى كانت تضىء الشارع، يعكس ألوان قوس قزح، وراحت وهى تدس ذراعها تحت إبطى تطلق ضحكة رزينة.

– أخيرًا، عثرت عليك. منذ شهور وأنا أبحث عنك. لقد غيرت مكانك، على ما أظن.

كانت بصوتها نبرة عتاب، خفية بعض الشىء، جعلت الرعدة تسرى فى جسدى. ولقد تمنيت أن أهرب، فلم يكن فى العالم إنسان لا أرغب فى لقائه مثلها. وعندما تناولت يدى شعرتُ بعينىّ تفيضان بالدموع.

– كم أنت شاحب! هل أنت مريض؟ لماذا ترتعش هكذا؟

فأجبتها فى تهكم وازدراء:

– لقد بعت دمى. إن المسئولين فى المستشفى الأمريكى لا يشكون فى جودة السلعة التى تسيل منى فاشتروها بألف "ين". والآن فإن دمائى لا بد أنها تجرى فى عروق جندى أصيب فى كوريا.

فقالت "مازاكورينو":

– هذا جميل لقد كان فى جسدك دماء أكثر من اللازم، وإن عملية سحب الدم سيكون من شأنها أن تخفض الضغط عندك. ولن تموت بسبب ذلك. إننى مدعوة إلى حفل راقص مع صديقى الأجنبى. ولست أرغب كثيراً فى الذهاب إلى هناك.

– اذهبى بسرعة، فإننى أرغب فى البقاء بمفردى.

فهمهمت وهى تضغط على ذراعى:

– لا تقل لى ذلك، ستجعلنى أبكى حزناً.

لو كانت صادقة، فلماذا هجرتنى لكى تتزوج من "كيجى كياما"؟ ولكن المناقشة كانت ضرباً من العبث؛ كانت أشبه بالسائل، ليس لها شكل معين، لذلك فقد كانت تجيد التكيف مع الإطار والظروف. وكانت السعادة، بالنسبة لها، أمراً يسيراً.

ودخلنا أحد البارات وطلبنا كأسين من "الساكى". وكنت وأنا أشرب، أنصت إلى "مازا" وهى تثرثر بصوتها العذب.

– أنت غاضب، أليس كذلك؟ ولكن ذلك كان خارجاً عن إرادتى. دعنى أشرح لك:

إن "كياما" واحد من أصدقائك، وعلى ذلك، فأنت تعلم مكان عمله. إنه يعمل لحساب مخابرات جيش الاحتلال. ولقد كان له فى الماضى أصدقاء من حزب اليسار المنحرف، الذين يبغضونه فى الوقت الحاضر. ولكن هذا بالذات ما جعلنى أقرر الزواج منه، لأن لى ثأراً عند السوفييت. ففى نهاية الحرب قتل جنود الجيش الأحمر أهلى فى

"منشوريا"، وأنا أريد الثأر. ولقد سافر "كياما" إلى موسكو حينما كان منضمًا للشيوعيين، وهو يتحدث الروسية بطلاقة، ولديه معلومات كثيرة، عما يجرى فى روسيا. ومن هنا كانت فائدته للمخابرات. وللسبب نفسه أيضًا كنت على استعداد لعمل أى شىء من أجل "كياما". إن الأمريكيين، كما تعلم، هم الذين سيثأرون لى. هل فهمت؟

فأجبت:

– كلا. إن المرء لا يشيد بيتًا وأسرة على مبادئ من هذا القبيل. هل تريدين أن تقولى إنه إذا ترك "كياما" المخابرات، فإنك ستنفصلين عنه؟

– بكل تأكيد.

فأخذت فى الضحك قائلاً:

– وحينئذ ماذا تصنعين؟

– أصبح زوجتك. فأنت الشخص الذى أحبه. ألا تفهم؟ ألا تريد أن تصدقنى؟

من البديهى أن الزواج يجب أن يكون هدفًا فى حد ذاته. ولكن "مازا" كانت من تلك النساء اللائى يتجاوزن فى غير مشقة حدود الذوق العام، ويتجاهلن بمسلكهن القيود التى يفرضها الواجب، والأخلاق والحياء. لقد كان يبدو لها زواجها من "كياما" وسيلة للثأر من روسيا. ولم تكن ترى فى نظرتها للأمور شيئًا يخالف الصواب أو يشذ عن المألوف.

وبالإضافة إلى ذلك، وجدت نفسى عاجزًا عن توجيه اللوم إلى شذوذها وعدم وفائها. لقد كانت وعودها وحججها أشبه فى تأثيرها بجرعة محببة، ففى تلك الليلة أصبحت جبانًا يرتضى أن ينتظر دوره عندما يتم انفصال "مازاكورينو"، "أنت الشخص الذى أحبه"، هكذا كانت تقول لى، وكان هذا يرد إلىّ الأمل. كان يكفى أن أنتظر؛ فمن المؤكد أنها ستعود لى.

ولكن، مع مرور الزمن، دفعنى هذا الأمل نفسه إلى اليأس. فإننى لم أكف عن التفكير فى "مازا"، ولقد فقدت فى هذا التفكير كرامتى، وثقتى بنفسى، والتحكم فى مشاعرى. فكنت أغلق نوافذ حجرتى المظلمة، الشبيهة بالزنزانة، وأقضى أيامى متمدداً فوق فراشى، لا أدرى ماذا أصنع بجسدى المسكين. ولقد انتهى بى الأمر إلى اتخاذ قرار بعدم رؤية "مازا" بعد ذلك، لأنها ستكون سبباً فى هلاكى. وحتى مع افتراضى أنها ستعود لى، لم أكن واثقاً من قدرتى على الاحتفاظ بها. ففى يوم ما، ستنساب من يدى مثل الرمال.

فى تلك الأثناء جاءتنى "مازا" دون إخطار سابق؛ فهل كان ذلك من أجل سعادتى أم من أجل شقائى؟ كانت ترتدى معطفاً رمادياً من معاطف الربيع وتمسك بيدها باقة من القرنفل. وكان كتفاها يبدوان أكثر نحولاً، وكانت ثمة تجاويف تحت وجنتيها. وكانت عيناها الواسعتان تتأملان وجهى بنظرة ملهوفة.

فبادرت بسؤالها قائلاً:

- ماذا حدث؟ لقد ضعف جسمك كثيراً.

فأكدت وفى صوتها ليونة ملاطفة أعرفها جيداً:

- لم يحدث شىء

- ولكنك تبدين مريضة.

- أنا لست مريضة، بل أنا حامل.

- صحيح؟ مبروك.

- متشكرة.

- آه... ولكن متى تنوين أن تتركى "كياما"؟

قالت وهى تشيح بوجهها:

- الأمل ضعيف فى تركه. فكما تعرف، إنه يحبنى. يقول إنه يحبنى بجنون. وذات يوم، عندما حدثته فى موضوع انفصالنا، امسكنى من نحرى. وهو يزعم أنه يفضل أن يقتلنى على أن يفقدنى. وأنا لا أحب أن أموت. والآن، ماذا تريد منى أن أصنع؟

عندئذ فهمت. لقد غُرر بى. فلم تكن "مازا" تنوى صراحة أن تهجر زوجها. ولم يمنعها هذا من أن تأتينى فى حجرتى لتستثيرنى وتحاول أن تعكر حياتى. فقد كانت تجد فى هذا العمل نوعًا من اللذة. كانت لعبة قاسية. وحدثت نفسى قائلاً "إن اليأس وحده سينقذنى"، وكشخص يدمن المورفين ويتمسك - مستميتًا - بالجرعة ولا يعود إلى صوابه إلا إذا وجد نفسه محرومًا منها، رأيت أننى لن أعود إلى صوابى إلا بعد أن أفقد "مازا".

فقلت:

- إننى أرى أنه لم يعد لدى ما أقوله لك. وابتداء من الآن، فإننى سأبتعد عنك.

حاولى يا "مازا" أن تكونى أمًا صالحة وكرسى بقية أيامك لزوجك "كياما".

فقالت وهى تبتسم:

- أوه.. كلا، لن أصبح أمًا صالحة. فغدًا سأدخل المستشفى لأتخلص من الجنين، وسينتهى كل شىء بعد أسبوع.

وانفصلتُ عن "مازا". إن جسدها الغض الساحر، وصوتها الضعيف الرخيم، ومائعة شخصيتها، كل ذلك لم يعد يشقينى. واستعدت طاقتى. وزرت أصدقائى لكى أطلب إليهم أن يجدوا لى عملاً. ووجدت عملاً عند مهندس معمارى وكنت أقضى نهارى أمام لوحة الرسم فى تنفيذ تصميمات عمارة كبيرة. وكانت طوكيو تبعث من رمادها،

وكان سكانها يزدادون كل عام بمقدار أربعمئة وخمسين ألف نسمة. كانت المدينة فى حاجة إلى أرضٍ ومنازل. فكان لا بد من تشييد عمارات كثيرة الطوابق لإقامة سكانها الذين لا يكفون عن الزيادة.

وأقبل الصيف، ثم أعقبه الخريف. وكنت لا أزال أواصل عملى فى التصميمات دون أن أهتم بشىء آخر. وكنت قد استعدت استقلالى آخر الأمر. وكنت أجهل ما كانت تعمله "مازاكورينو"، بل لم أكن أعلم أين كانت تقيم. وكانت حياتى تسير نحو الاستقرار وكنت أحدث نفسى قائلاً: "فى العام المقبل، سأتزوج من فتاة عاقلة، وسأقوم بتشييد بيت صغير لنا".

وذات يوم، تلقيت مكالمة هاتفية فى مكتبى، فانقبض قلبى عندما تعرفت الصوت الذى كان يهتف باسمى: كان صوت شيطان. فإن "شكسبير" يقول إن الشيطان عندما يريد أن يغوى إنسانًا فإنه يتخذ صورة ملاك. كان الصوت الذى أتانى فى الهاتف وجعل قلبى يقفز صوتًا رقيقًا عذبًا كصوت الملاك، كان هذا الصوت هو صوت "مازا".

– أنت لطيف هذه الأيام. أنا أعرف ذلك. إننا لم نلتق منذ زمن طويل، ولكنك لم تفارق عينى. سرعان ما سأترك "كياما"، هذا صحيح، وسأصبح زوجتك. كيف... كيف؟ نعم، "كياما" يحبنى، ولكنك أنت الشخص الذى أحبه. لماذا لا تريد أن تصدقنى؟ لا بد أن أراك فى ظرف عدة أيام.

– ولكن أنا لا أريد أن أراك.

– أنت مجنون؟ إلى اللقاء يا حبيبى.

واستولت علىّ "مازا" من جديد، فلم يعد باستطاعتى أن أفلت منها. ففى النهار كانت تسيطر على أفكارى، وكنت أحلم بها فى الليل. وفى غمرة يأسى هذا، بدأت أشرب "الساكى" وأنام فوق أحد مقاعد الحديقة العامة. وفقدت سيطرتى على نفسى

تمامًا، فغرقت فى حالة من الفجور والفسق عشرة أيام. وفى هذه النكسة الأخيرة أضاع منى تصميم العمارة ففقدت عملى.

ولما كنت عاجزاً عن الحصول على عمل آخر، فقد شعرت باقتراب الشتاء. وعلى ذلك فقد عدت إلى المستشفى الأمريكى. وبعت قليلاً من دمى واشتريت بالنقود التى أعطونى إياها مشروب "الساكى". وكان يلوح لى أننى لا أملك سوى وسيلة واحدة للإفلات من "مازا"، وهى أن أفقد نفسى كلية، وأن أنحدر من مستوى الإنسان إلى مستوى الحيوان. ولكن الواقع هو أن العذاب الذى كنت أعانيه لم يكن سوى امتداد للتأثير الخفى القوى الذى كانت تمارسه علىّ هذه الأنثى.

وترديت فى هذا الحضيض أكثر فأكثر. وأصابنى البرد وبدأت أعانى من صداع عنيف. وذات أمسية باردة، كنت متمدداً وأنا جائع محموم، فوق فراشى الحقير أنصت إلى مطر الشارع البارد، وإذا بمن يطرق الباب طرقًا رقيقًا.

ودخلت "مازا". وكانت متدثرة فى معطفها الفرو وتحمل حقيبة من الورق مليئة بالفاكهة. وأما وجهها النضير الذى اعتنت بزينته فكان يبتسم ويهش للقائى.

ودون أن أنطق بكلمة، أخذتها بين ذراعى، عازمًا، هذه المرة ألا أتركها، حتى ولو كان ذلك مقابل إنقاذ روحى. ولكن "مازا" لم تكن من تلك الفتيات اللائى يثرن بسهولة، لقد كانت لا تزال غضة رقيقة عنيدة. وعلى الرغم من عناقى واندفاعى فقد كانت تحتفظ بابتسامتها وسيطرتها على مشاعرها.

وهمهمت قائلة:

– انتظر، انتظر قليلاً، أرجوك. انتظر حتى بعد الغد.

– وماذا سيحدث لو انتظرت إلى ذلك الحين؟

– سأصبح زوجتك.

- ولماذا بعد الغد؟

- هناك احتمالات لأن يحدث شىء مهم غداً. هذا صحيح. ومن الأفضل أن نظل اليوم فى هدوء. سأقابلك بعد غد فى مكان ما. اتفقنا؟

ولكننى لم أكن أنصت إليها. كنت أسمع المطر البارد الذى كان يتساقط فى الخارج بينما كنت أحتفظ بـ "مازا" بين ذراعى، فى حجرتى الصغيرة المظلمة. ونسيت كرامتى، واعتدادى بنفسى، نسيت كل شىء.

وفى اليوم التالى، كانت جريدة المساء تدّخر لى مفاجأة، فقد ألقى القبض على "كياما" بواسطة الشرطة العسكرية لقوات الحلفاء بتهمة التجسس. فبينما كان يعمل فى المخابرات الغربية، قام بتوصيل أسرار قوات الاحتلال الأمريكية إلى السوفييت. أما اسم "مازا" فلم يأت ذكره، لكننى شعرت بأنهم قبضوا عليها هى أيضاً.

ومع كلٍّ، ففى المساء، الذى حدد موعداً للقائنا، وجدت "مازا" تنتظرنى داخل المطعم الذى كان من المفروض أن نلتقى فيه. وفى ذلك المكان الحافل بالأنوار كانت تبدو سعيدة.

فبادرتها قائلاً:

- ما هذه الأخبار التى نشرتها الصحف؟

فسألتنى وهى تضحك من كل قلبها:

- هل فوجئت بذلك؟

فأردفت قائلاً:

- إذن فقد كنت على علم بذلك أول أمس؟

- طبعاً، ما دمت أنا التى فعلت ذلك؟

– ماذا تقصدين؟

– سأشرح لك... عندما أباد الجيش الأحمر أهلى فى "منشوريا"، عدت إلى هنا، بمفردى وعشت ستة أشهر مع عمى. وقد كان عمى رئيسًا لإحدى فرق شرطة العاصمة حتى هذه الأيام الأخيرة.

– تقصدين أنه طلب منك أن...

– دعنى أتكلم إذن!

هكذا قاطعتنى بلا رقة.

– قبل الحرب، كان "كياما" شيوعيًا، كما تعرف. لهذا السبب كان مكتب الأمن التابع لقوات الحلفاء يشك فى أمره. فطلب الحلفاء من شرطة العاصمة أن تقوم بالتحريات فى هذا الشأن، ولكن التحريات تمت بعناية، وفى سرية تامة، فلم يشك هو فى ذلك.

وذات يوم، عرفنى عمى بضابط عظيم يعمل فى المخابرات. ودعانى الضابط لحضور حفل صغير فى بيته... وهناك قابلت "كياما". وبالطبع كانت مقابلتنا قد أعدت مقدمًا. فبالنسبة لى، كان كشف أحد الجواسيس السوفييت، وسيلة لجعل الروس يدفعون ثمن موت أهلى فقبلت المهمة التى كلفونى بها. وكان "كياما" سهل القياد. وكان يجهل كل شىء عما يحاك حوله. ولم يشك فى أمرى على الإطلاق. وقبل أن ينقضى شهر على مقابلتنا الأولى، طلب أن يتزوجنى. ولكنه حتى ذلك الحين لم يعهد إلىّ بسره.

– ولكنك فى النهاية تمكنت من كشفه، أليس كذلك؟

– لقد كلفنى هذا الأمر عامًا كاملاً. ولكنه حتى النهاية، ظل يجهل كل شىء عن الدور الذى قمت به فى هذا الموضوع. ففى صباح الأمس، فى الوقت الذى

كانوا يتأهبون للقبض عليه، التفت ناحيتى وهو بادى الحزن وقال لى. "إننى حزين، يا مازا. سامحينى. يجب أن تنسينى وأن تعيشى كما يحلو لك".

كنت مبتئسة من أجله، ولكننى لم أقل شيئًا، فقد رأيت أن من الأفضل ألا يعلم شيئًا ... والآن، لقد أوفيت بعهدى، أليس كذلك؟ فسنتزوج، هذه المرة.

وفي هدوء، وضعت فنجان الشاى الذى كان بيدى فوق المائدة. إن المشكلات العالمية والصراع بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية قد جعل من هذه الفتاة شيطانًا. ونهضت من فوق الكرسى. إننى لو غفرت لها، لما أصبح هناك إيمان ممكن بالعواطف الإنسانية، إذن لفقدت إيمانى بالحب وبالوفاء إلى الأبد. فألقيت بها أرضًا. فصاحت، وبدأ الناس من حولنا يتركون موائدهم. وبعد لحظة وصلت الشرطة وألقى القبض علىّ.

ها أنذا قد نجوت الآن. وعندما قادنى رجال الشرطة لم أشعر بضميرى يؤنبنى على الإطلاق.

***

لوحات معرض

تأليف: تاتسوو ناجاى TATSUO NAGAI

من اليابان

فى الوقت الذى يبدأ فيه التكييف عمله فى الصباح، يسود فى هذا المعرض الفنى الصغير نوع من الهدوء ومن السكينة حيث لا يصرفك شىء عن هذه الرائحة الغريبة التى تتموج فى الهواء.

إنها رائحة ليس فيها شىء يخص اليابان، ومع ذلك فهى ليست رائحة كريهة. رائحة عطر مسكى يومئ بالحنين، يذكّر بأشياء أسدلت عليها ستائر النسيان منذ زمن بعيد.

ومهما استمرت المعارض ستة أسابيع، أو شهراً، فإن الرائحة، العطر لا يختفى. هذا الجو المعبق لا يطرده الجو البرانى المجلوب الذى تشيعه لوحات كل من "سيزان" و"فان جوخ" و"بيكاسو" أو "ماتيس".

فى ذلك الصيف، يكفيك أن تدخل، لترى بنظرة واحدة الوجه الخزفى الوردى والقرد الخزفى الوردى أيضاً؛ يكفى أن تأتى لتعجب بالأوانى الفخارية اليابانية القديمة المعروضة... الرائحة، العطر، أكثر تأثيراً من أى وقت مضى.

وجه المرأة هذا والقرد، اللذان وجداً كلاهما داخل مقبرة، كانا يجذبان الاهتمام بالضرورة. خمسة عشر قرنا مرت على القشرة الصلبة لهذين العملين. لكن المتعة التى شعر بها الفنان وهو يصنعهما ما زالت تلاحظ.

هاتان العينان والفم (العينان ثقبان فى السطح) تجعلك تعتقد أن المرأة تبتسم لك، أو، من زاوية أخرى، أنها تهمس بشىء فى أذنك.

أما القرد، فيكفى الطريقة التى يرفع بها رأسه لتعلم أنه كان يفكر فى تلك اللحظة فى سيده المدفون فى القبر نفسه. يكفى رؤية الآثار الحمراء التى لم تنْمح تمامًا لتجعلنا نفكر فى الموت وفى الحياة فى وقت واحد، وفى الطريقة التى يمضى بها كل شىء بطريقة لا رادّ لها...

وإذا كان هذا المعرض الفنى بيتًا قديمًا، فهو يرجع إلى ما بعد الحرب. وفى الفناء بعض التماثيل بالحجم الطبيعى تعرض ظهرها الأبيض والجاف للشمس الحامية أيام الحر الشديد.

وحول المعرض، المدينة... وسيخبرك المرشد السياحى أن هذه المدينة كانت قبل ثمانية أو تسعة قرون مضت، مقر الملكة، وأن من حولها يتناثر بعض المساحات القديمة للحروب، وبعض المعابد البوذية.

وقبلنا بقليل نجت هذه المدينة الملكية من قاذفات القنابل الأمريكية. وعلى بعد فراسخ، فى يوكوهاما، لم يتبق سوى ميناء تتناثر عليه أشجار العوسج والأتربة. فالأشجار ما زالت تنبت هنا.

ويقع المعرض فى منتصف غابة. أما الأعمدة التى تحمله فترتفع فوق بحيرة. تميل عليه شرفة الطابق الأول.

وفوق الأقداح الضخمة التى كانت تستخدم فى شرب الشاى، وفوق الزهريات التى ربما كانت نساء المحاربين القدماء ينسقن فيها الأزهار البرية المقطوفة من المروج، تسود السكينة المعتادة لهذا المكان.

الوقت صباح. موظفتان فقط موجودتان، أما الثالثة فمن المفروض أن تصل فيما بعد.

من الصعب التعايش فى تفاهم تام حينما نكون ثلاثة. ومع ذلك فالموظفات الثلاثة متفاهمات فيما بينهن منذ افتتاح المعرض. وقد تعاقد المدير معهن دون أن يعرفهن، فقط بالاطلاع على شهاداتهن. ومنذ ذلك الوقت وهن يقمن معًا بإدارة صالون الشاى الملحق بالمعرض.

فى كل صباح، تأتى الأرملتان الأكبر سنًا، أو إحداهما مع الأرملة الثالثة التى يبلغ عمرها نيّفًا وثلاثين عامًا، إلى صالون الشاى لإعداد المرطبات، وتنظيف المكان، والأرملة الثالثة لا تصل بعد الأخريين إلا بنحو ساعة. ذلك هو النظام.

فى صباح اليوم، إليكم ما كانت تتحادث فيه الأرملتان الأكبر سنًا:

– ماذا فعلت أمس؟ كان ما حكيت لى، أو شىء آخر؟

– كلا! لم أعثر على القماش الذى كنت أبحث عنه – وقد بللنى المطر. وفسد كل شىء.

– طيب. والألم الذى فى الكتف؟

– مازلت أشعر به ... ولا أدرى ماذا أفعل.

– هل ذهبت لقياس ضغطك؟

– حسنًا! هذا ما يحدث بالضبط؛ كلما فكرت فيه زاد الألم. كنت أريد أن أذهب إلى الطبيب لكن مدام ميزونو رفضت أن تحل مكانى.

- رفضت؟

- رفضًا باتًا.

(مدام ميزونو هى أصغر أرامل الحرب الثلاث الموظفات فى صالون الشاى بالمعرض)

- ولماذا رفضت؟

- أظن أن لديها ما تعمله هذا الصباح.

وفكرت ثانيةُ الكبيرات مليًا، ثم قالت مندفعة:

- أنا أتساءل إذا كان هذا الشاب سيأتى اليوم؟

- لعلهما يتنزهان معا الآن. اذهبى وانظرى!

***

وهبت الريح ورفعت مفارش المناضد، وجعلت سجف المظلات تطرقع فى الشرفة.

أما الببغاء فقد جعل يضرب بمنقاره. ثم يطلق صياحًا غير مفهوم. ومنذ فترة طويلة لم يقل شيئًا. ولكى يلفت الأنظار، ها هو ذا يصرخ قائلاً:

- إلى اللقاء! إلى اللقاء!

(هذا الببغاء يخص أرملة رابعة؛ أرملة ضابط بحرى. ومنذ عشر سنوات وهى تمتلك هذا الببغاء. فى كل صباح تأتى مبكرة جدًا فتعلقه على حائط الشرفة. وفى المساء، تأتى لتأخذ الطائر العزيز قبل أن تعود إلى بيتها)

- نعم، لقد بدأ يأتى إلى هنا منذ ثلاثة أشهر.

– جميل أن يكون هناك شخص كهذا يأتى لرؤيتك دائماً... ويعود.

واختفت البحيرة الصغيرة تحت غطائها؛ لوتس أحمر، لوتس أبيض، نباتات مائية صغيرة.

ومن الشرفة شوهدت الأسماك البلطى التى تسبح. ونقر الببغاء بعض القشور. ورفع رأسه وتفكر، ودمدم، ثم أطلق القشور فى الهواء وبدأ من جديد.

امرأتان عجوزان وببغاء... هذا كل شىء؟ كلا! هناك أيضًا فوق غصن شجرة الصفصاف صرصور ترك غنيمته قبل قليل وجعل يستريح فوق الغصن، ينتظر.. يكسوه درعه النحاسى اللون. ينظر إلى اليوم الجديد فى هذه الحياة الجديدة. وفرد جناحيه الشبيهين بالدنتيلا الخضراء. وجحظ عينيه الحمراوين. وتحول لون جناحيه فى الشمس فأصبحا سمراوين نحاسيين مثل بقية جسمه. واعتادت عيناه النهار. وجعل يعد لحظاته الثمينة، ويكتم فرحته.

كان بعض الصراصير الأخرى تغنى حول البحيرة. كانت كثيرة العدد، وفجأة أحدثت ضوضاء عالية أشبه بوابل من المطر.

صعدت مدام ميزونو السلم الذى يفضى إلى المعرض وطوت مظلتها. هناك مدخل للخدم. ومنذ ركب جهاز التكييف أصبح من المعتاد الدخول من المدخل الكبير. فنعبر قاعة المعرض ونتنعش قبل أن ننزل إلى صالون الشاى. الحمد لله! لا يوجد حارس عبوس يرمقك بنظرة استهجان كما يحدث فى معرض المدينة.

منذ ثلاثة أو أربعة أيام وشىء ما يشغل اهتمام مدام ميزونو. فى ذلك اليوم، كما فى الأيام السابقة، تقدمت مدام ميزونو نحو الواجهات الزجاجية (الفترينات) وحرصت على ألا تحدث أى ضوضاء فى أثناء سيرها.

وابتسمت مدام ميزونو للوجه الخزفى الوردى.

وابتسم الوجه الخزفى الوردى لمدام ميزونو.

هذه الأشكال الصغيرة، بطبيعة الحال، لا ترجع إلى اليوم، بل ولا حتى إلى هذا القرن العشرين. فى الأصل، كانت مخصصة لمصاحبة الذين ينتقلون إلى العالم الذى لا يعودون منه. واعتقدت مدام ميزونو أن هذه الابتسامة تعبر بوجه خاص عن الرضا من أداء الواجب. وهذا الوجه يمكن أن يعود إلى فتاة فى السابعة عشر من عمرها، كما يمكن أن يعود إلى سيدة تبلغ نيّفًا وثلاثين عاماً.

فسألته مدام ميزونو:

– وما الذى يجب أن أفعله؟

وكررت مدام ميزونو السؤال مرة أخرى.

لكن عينى التمثال الغائرتين وفمه ذا التعبير العذب الذى كان يبدو دائمًا على أهبة الاستعداد للرد، لم يفعل من ذلك شيئًا.

– أخبرنى، ماذا ينبغى أن أفعل؟

ولم تشاهد مدام ميزونو وجهها الذى كان ينعكس فى الواجهة الزجاجية. هل هى قامت بجميع واجباتها نحو زوجها الراحل؟ بماذا يجب أن ترد على هذا الرجل الآخر الذى ظهر فى حياتها؟ ذلك ما تود مدام ميزونو أن تعرفه.

لكن التمثال الخزفى الوردى، الوجه الخزفى، اكتفى بالابتسام. وسرعان ما تعيّن على مدام ميزونو النزول إلى صالون الشاى.

***

الصيد بالشباك

تأليف: مولدى T. MOLDI

من أيسلندا

كانت مركب الصيد "بريندیس" راسية أمام مرطم القرية، تتهيأ للإبحار. وعند آخر رصيف الميناء، كان هناك صبى فى السادسة عشرة، عريض المنكبين، ينتظر، وبجواره مخلة قشيبة؛ لكن نظره كان مصوباً نحو بيت صغير أحمر يقوم فوق ربوة. كان يتعشم، بأمل ضعيف، أن تظهر أمه "كريسترون" من نافذة البيت.

لم تكن فى العادة تميل كثيراً إلى المظاهر العاطفية، ومع ذلك، فاليوم، ونظراً لأهمية المناسبة، فقد كان من المفروض عليها أن تظهر وتلوّح له بيدها لتودّعه وتتمنى له حظاً سعيداً؛ وعلى كلٍ، فقد كانت تلك هى المرة الأولى يخرج فيها إلى البحر. وتخيل الصبى لحظة وجه أمه البارد، أشبه بجمود التماثيل. حسنا . لا جدوى من طول الانتظار. وفى حركة سريعة، رفع الصبى مخلته على ظهره، ثم قفز إلى الجسر.

- هنا ستلقى الشباك.

وبلغوا أماكن الصيد. وظهرت فى الأفق أخوات بريندیس، المراكب الخمس الأخرى، بأشكالها الغامضة.

وغشيت الظلمةُ المشهد، ولم يبق سوى تنظيم كل شيء لمواجهة الليل الذى يعلن عن قدومه. وتوقف ضجيج المحرك، وأغلقت الدفات. وبدأ المصباح ينير نجمة فى أعلى الصارى الكبير.

كان سطح المركب الأمامى صغيراً حيث لا يتسع لمائدة. فراحوا يأكلون والأطباق فوق أرجلهم. وكان كل شىء على ما يرام. وكان الموقد الصغير يصدر طنيناً لطيفًا، وينشر نوراً أحمر يتراقص فوق رءوس الطاقم، عاكساً فوق الجدران والسقف خيالات متحركة غريبة الأشكال. كان "جوكول"، قائد المركب، يلزم الصمت. كان بطبعه رجلاً صموتًا؛ عملاق يرتدى ثوبًا أسود ووجهه قاتم، بارز الملامح. أما الطباخ، فكان حدثًا ضئيل الحجم، تلوح عليه علامات الضعف، وكان يلزم الصمت هو أيضًا. أما الميكانيكى ويدعى "ليكافرون" فكان كثير الكلام. وجعل الصبى يرمق عينى الرجل ويقرّ أنه لم يسمع فى حياته أجمل من هذا الصوت الذى يجمع بين الدفء والنبرات ذات السحر الغريب، التى تنشر فى المكان شعوراً باطمئنان عجيب.

وترك أفراد الطاقم الميكانيكى يتكلم، واكتفوا، من حين لآخر، بالتصديق على ما يقول بإيماءة من رءوسهم دون إبداء الرأى. وأخيراً قال "جوكول" للصبى:

– قم يا "مار" إلى فراشك. فعليك الدور فى الحراسة ومراقبة العوامات.

وتسلل الصبى إلى مرقده. وجعل يستمع لحظة للأمواج التى كانت تلعق جوانب المركب، ولصرير الحبال فوق ظهر السفينة. كانت المركب العتيقة تهدهده برعاية زائدة. وما لبث الصبى أن شعر كأنه فى بيته. وفى اللحظة التى كان يستسلم فيها للنعاس، جاءه صوت القائد يقول فى نبرة قاسية:

– أنا لا أحب هذا الهدوء الممل.

وسُمع الجرس يقرع أربع مرّات. وشعر الصبى بيد تحط خفيفًا على كتفه ويد أخرى تتناول معصمه؛ فاستيقظ من فوره، ورأى "جوكول" الذى كان يميل عليه، يضع

ساعة فى معصم يده. وكان القائد يتحدث بصوت خفيض كما يفعل المرء، على الرغم عنه، فى حجرة ينام فيها آخرون.

– أيقظنا فى الساعة الرابعة، وتصرف لكى تعد لنا ماءً ساخنًا على الموقد. وإذا اقتربنا من سفينة، فأخبرنى.

ووضع الصبى الماء فوق الموقد. ثم صعد إلى ظهر المركب وجلس فوق الممر. كان هدوء الليل شاملاً والسماء مرصعة بالنجوم. لم يكن ليقطع الصمت سوى طقطقة أخشاب السفينة الهادئة، وتلاطم الأمواج الأبدى على جوانبها. كان يبدو أن المحيط يهمس فى الليل بأسرار رهيبة. وكانت السفينة العتيقة تصدر زفرات عميقة ويخيل للمرء أنه يسمع من وراء هدير الأمواج نحيب طفل يبكى. ولمح الصبى فى جهة المشرق نجمة ذات بريق عجيب لا يذكر أنه شاهد مثلها. ومن فوق سطح المحيط الأزرق الأسود الشاسع، جاءه، من مركب أخرى لا يُرى منها سوى النور الأحمر، جاءه بعض نغمات من أغنية لصياد من كابرى تقول:

ماريا، يا جميلة، يا جميلة،

قد أبحر الصيادون.

كانت "كريسترون" عارية القدمين، فى قميص نوم أبيض، قابعة قرب النافذة الصغيرة، تاركة نظرها المفكر يهيم فوق البحر الأملس كالمرآة. وهى فى مثل هذه الساعة تكون عادة فى فراشها، لكنها لم تتمكن من النوم. فاليوم مضت من عمرها مرحلة؛ اليوم ولآخر مرة، شاركت فى تربية ابنها، بعد ذلك سيتولى "جوكول" رئيس المركب الجهم مهمة المرحلة المقبلة. وهمست قائلة:

– خمس عشرة سنة.

تبدو طويلة هذه المدة، لكنها لا تعدو شيئًا حينما نحصى السنين الماضية؛ خمس عشرة سنة منذ أن جاءت تقيم فى هذه القرية. كانت تنتمى إلى أسرة طيبة تمتلك

ضيعة وافرة الإنتاج فى ناحية أخرى من البلدة، وقد هربت من بيت أسرتها لكى تتزوج من الريّس "ماينوس" على الرغم من معارضة والديها وجميع أهلها، وأصبحت تلك المرأة ذات العينين السوداوين، التى لا تسأل أحداً الرأى، وتعتزل سكان هذه القرية من الصيادين؛ أصبحت قطعة من فلكلور القرية. وقال عجائز البلدة حينما علموا بقصتها، إن مثل هذا السلوك لا يجلب خيراً. والعجائز ليسوا دائمًا على حق. فهناك من الناس من يخدمهم الحظ، وآخرون يخونهم. ولكن إليكم ما حدث فى هذه الحالة بالذات: لقد أصبحت المرأة أرملة بعد عام من زواجها. وبدأت تعمل فوق رصيف الميناء مجرد صيادة. ومنذ البداية، لفت جمالها أنظار رجال القرية، وأثار عند النساء نوعًا من القلق، وكان كبرياؤها يمنعها من أخذ المبادرة فى أى حديث. وكانت تقابل أى محاولة للتودد إليها بنظرة متعالية من عينيها السوداوين. ولم يلبث الناس أن عرفوا حقيقتها وتعودوا تركها فى حالها. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن يربطهم بها شىء، ولم يكن يربطها بهم شىء. كانت فى كل صباح، تهبط من بيتها، وفى المساء تعود إليه حيث يكون فى انتظارها ابنها الصغير.

ثم حلت الأزمة، ومعها ألوان الحرمان. فالقرية تتعرض فى بعض الأحيان للمجاعة، حيث إن السلطات تضطر إلى القيام كل فترة بتوزيع المؤن مجانا على السكان؛ ولكن المرأة كانت تنأى بنفسها عن ذلك وتدبر أحوالها دون مساعدة من أحد. وتقدمت بها السن فى ظرف سنوات، لكن ابنها الصغير كان يكبر. وإذا كانت المرأة وابنها لم يموتا جوعًا، فقد كان ذلك بفضل أكياس السمك التى يأتى أحدهم فى عتمة الفجر كل يوم ويضعها أمام بيتهما، وذلك طوال سنوات القحط. لم تكن "كريسترون" تعرف من يكون، ولم تحاول أن تعرف. ومع ذلك فقد خمنت أن يكون الريس "جوكول". وهكذا مرت السنون. وشيئًا فشيئًا، دخلت امرأة الربوة المرتفعة فى صميم الفلكلور المحلى للقرية؛ بل لقد أشاع بعضهم أنها ساحرة. واعتادت نساء القرية أن تستعملن اسمها لتخويف الأطفال الصغار الذين يخالفون أمهاتهن.

فتحت "كريسترون" النافذة وأحست بنسمة الخارج فوقها. نعم، كان الصبى فى أيدٍ أمينة مع "جوكول". سيبقى معه سنتين أو ثلاث سنوات، ثم يدخل مدرسة القباطنة فى جنوب البلد. وفتح لها مستقبل ابنها أبواب أحلام كبيرة. كان قويًا وناجحًا فى جميع مشروعاته؛ كان كريم الطبع رضى الخلق، يتقدم زملاءه فى الفصل ويحصد الميداليات فى المنافسات الرياضية خاصة السباحة. فى حقيقة الأمر، ليس لديها ما يدعوها للشكوى؛ فالابن لم يخيب أملها. وهذه الفكرة وحدها كانت كفيلة بأن تبعث فى أوصالها شحنة من الكبرياء والشموخ أشبه بما شعرت به قبل قليل، فى اليوم نفسه، حينما لمحته من وراء الستائر، واقفًا فى آخر الرصيف، منتصبًا جميلاً مثل أبيه، فى هيئة رأسه وكتفيه سحر لا يوصف - لقد راحت "كريسترون" تتخيله قبطانًا لسفينة كبيرة، تمخر عباب الماء فى عرض البحار... ولدها!

وأغلقت النافذة ودخلت لتنام. وارتسمت على شفتيها ابتسامة - الأولى منذ سنين.

ونظر "مار" فى ساعته، لقد حان وقت إيقاظ الآخرين. وفيما كان ينهض، لاحظ أن السماء فى الشرق قد تغير لونها، وأن كتلاً من السحب تتلاطم عبرها. ودوى صوت جعله يرفع بصره إلى السماء؛ كان ثمة سرب من الطيور البيضاء يمرق بأقصى سرعة فوق المركب فى اتجاه الأرض، كما لمح نجمًا يسقط فيرسم قوسًا هائلاً فى عرض السماء.

وفجأة كفت الأمواج عن مداعبة السفينة مثل أيادى الأطفال الصغيرة، وشرعت تدق جدرانها دقًا. وجعلت طرطشة الأمواج تملأ فم الصبى ومنخريه بطعمها المرّ. وهبت ريح عاصفة فغاصت داخل ثيابه السميكة. وعلى حين فجأة، مالت المركب بزاوية كبيرة حيث إن المصباح لامس الصارى. وألقى "مار" نظرة من حوله قبل أن ينزل، لكنه لم يلمح أى أثر للأرض فى الأفق.

راح الريس "جوكول" وهو معتمد على مرفقه يرهف السمع. وظلت المركب تتلقى الرياح العاصفة الواحدة تلو الأخرى، وقال فى نفسه: إن الريح تشتد "وانسل من مرقده إلى الخارج ليوقظ الطباخ والميكانيكى:

– لا بد من إحضار الشباك حالاً.

ولبسوا ثيابهم المشمعة. وبعد لحظة، خلا سطح السفينة الأمامى.

– أسماك القرش.

ورفع "جوكول" إلى أعلى ظهر المركب شبكة ضخمة ممزقة. فلمحو على الفور قراصنة الأعماق يحومون حول المركب. وتراقص المصباح ثم تحطم فى الصارى، وتناثرت قطع الزجاج فوق المركب.

وبدأت المركب تهوى. وتعلقت فوق قمة موجة، ثم سقطت وضربت سطح الماء محدثة فرقعة هائلة. ثم ارتفع البحر كجداًر مائل للخضار من الزجاج الزيتى. وراحت المركب ترتعش كبهيمة تشرف على الموت، وانقض طوفان من الماء المالح فوق أفراد الطاقم. وشعر "مار" فى صدره بألم يحرقه، وخارتِ ركبتاه، وسقط على أربع، وتقيأ بين المدوزات وطرطشات الماء. وعلاه عرق بارد، ولكن على الرغم من كل شىء، جعل يرفع الشباك بكل ما أوتى من قوة. إنها أول تجربة له، وعليه أن يثبت أنه على مستوى الأحداث، عليه ذلك، وسيقوم به، ولا شك أنه كان يجهل السيول وأجنحة أسماك القرش، كان نظره فقط موجهاً صوب الشباك، ولا شىء غيرها. المزيد من الشباك.

وفجأة تعطلت بكرة الحبال، ورفع الفتى بصره؛ وإذا بعاصفة رهيبة من المطر تكسح المركب التى تنيرها البروق التى تتوالى بإيقاع يزداد سرعة. ولمح "مار"؛ "جوكول" يجرى حاملاً بلطته نحو مقدمة المركب. كانت الشباك تثقل المقدمة مما جعلها تغوص. وخارت الحبال محدثة طرقعة هائلة. وهنا لمح الفتى على ميمنة المركب كتلة هائلة مهدّدة

تقوم فوق المركب – فإذا بها رغوة. وغاص "مار" في الكوة. وسمع صوت طقطقة خشب هائلة وتحطم الصارى. وصاح "جوكول":

– أين الغلام؟

وبلغ "مار" صوت الريس.

– هل سحبته المياه.

ودلج "جوكول" و"ليكافرون" داخل الكوة. وجذب "جوكول" الغلام، وخرج به عدواً وأمر الميكانيكى أن يطفى النار ويبقى مع "مار".

وأسرع "ليكافرون" إلى الموقد. وما أن شرع في إخماد النار حتى انقضت موجة ثانية فوق المركب. ومن الضوضاء التى أحدثتها، أدرك القوم مدى الخسائر التى سببتها. وسمع صوت صدمة على باب سطح المقدمة الذى فتح بدفعة من كتف قبْل أن يتمكنوا من فتحه. وإذا بهم أمام "جوكول" الذى كان وجهه يقطر دمًا. وصاح فيهم يأمرهم بأمرٍ ما، لكن كلامه ضاع فى فرقعة العاصفة المدوية. وانقضت موجة أخرى على المركب، وحملت الريس وراحت المركب تميل على جانبها والبحر يغوص فى شلالات فى مقدمة المركب.

حينما عاد الغلام إلى الوعى، وجد نفسه متعلقا بالصارى عند منتصفه، بينما رجلاه قد اشتبكتا فى الحبال والشباك. يبدو أن المركب تعرضت لعملية قصف بالقنابل أو المدافع. وعلى ظهر المركب لم يبق قائمًا سوى الدفة والصارى. كل شىء كان محطماً، وكانت المركب طافية أشبه بحطام تتقاذفه الأمواج. وظهرت رأس، ثم كتفان، منكفئة نحو الأرض، على عتبة سطح المقدمة. كان ذلك هو الميكانيكى. فصاح الغلام منادياً بصوت مخنوق:

– ليكافرون! ليكافرون!

لكن الميكانيكى لم يرد، وعرف "مـار" أخيـراً أنه غرق فى سطح المقدمـة. كـانت الجثـة طافية على ظهر المركب، ثـم صعدت على الميسرة، حيث تراقصت بعض الوقت قبل أن تختفى من أعلى المركب. ومن قاع السفينة، صعد الماء حتى بلغ مقدمة السطح، وشعر الغلام بأن المركب تنهار تحت أقدامه. فأغلق عينيه وتشبث بالصارى بكل قوته، حيث أصبح هو والصارى شيئًا واحدًا. وجاء صوت رعد يمزق الفضاء من فوقه، وإذا بنور يضىء الحطام الذى يغرق، وفى الواجهة شاطئ صخرى يرسم عليه مرْدودُ الأمواج خطا أبيض.

وفى اليوم التالى فى منتصف النهار تقريبًا، عادت أخوات "بريندیس" إلى الميناء، الواحدة تلو الأخرى. لقد أصيبت جميعها بأضرار تتفاوت فى حجمها. وفى المساء، "بریندیس" وحدها هى التى لم تصل. وشيئًا فشيئًا بدأ الأمل يتضاءل فى عودتها. كثيراًت هن الحوريات (هذا هو الاسم الذى يطلقونه على مراكب الصيد) التى ضاعت فى البحر. وانتاب الجميع شعور بالجزع والحزن. كانت العاصفة لا تزال مستمرة، ولم يكن من الممكن أن تبدأ أعمال البحث قبل أن تهدأ العاصفة.

وفى البيت الذى يعلو الربوة. كانت " كريسترون " تنتظر، وتتأمل البحر بعينيها الغائرتين فى قناع الوجه الأبيض. ظلت طوال الليل جالسة فى الظلام، ساكنة، على أمل أن يتيح لها الفجر أن ترى الأفق. توقفت العاصفة، ولكن لا تُرى مراكب على مرمى البصر، لا شىء، ولا صارى واحد فى أى اتجاه. وخلال لحظات، بقيت المرأة فوق الكرسى كالمبهورة. ثم، وفى رعشة، نهضت وهى تنتفض وتشبثت يداها الضعيفتان بكل قوة بمعتمد النافذة.

وصل.. وجعلت تنتفض دون أن تقوى على أن تمنع نفسها من ذلك. ووضعت يدها على قلبها. **لقد سارت الأمور على هذا النحو.. لقد ضلت المركب طريقها، لكن ابنها وحده خرج من المحنة. فهو شاب وقوى. أما الآخرون فقد غرقوا. "مار" قفز إلى الماء وراح يسبح.**

"كريسترون" تراه. ها هو ذا، تلفه الرغوة، شعره الأشقر يلمع مثل البلاتين. إن ابنها يجيد السباحة مثل سبع البحر. كريسترون تبكى من فرط الاعتزاز وتشجعه:

أكمل يا مار. **لا تستسلم.**

وجعلت تواصل عبارات التشجيع حتى اللحظة التى طرحت الأمواج ابنها فوق الصخور السوداء اللامعة على شاطئ مجهول.

ونهض. لقد مزقت العاصفة ملابسه؛ فهو شبه عريان، وهى بكل فخر تتأمل عضلاته القوية وبشرته الفتية السمراء، بشرته التى تشبه بشرة "كريسترون" تماماً.

إنه جميل، أجمل وأقوى فتيان القرية، وسيعود إليها. وإذا بالأم تضحك وتبكى معًا.

الآن هو فى أمان. هناك بيت قريب من الصخرة والناس يساعدونه فى الدخول. لكنه يشعر بتعب شديد حيث غلبه النعاس قبل أن يخبرهم باسمه. ونام أربعًا وعشرين ساعة – يومًا كاملاً وليلة، ولكن هذا شىء طبيعى. وبعد لحظة سينهض من النوم – فى هذه اللحظة بالضبط ويخبرهم باسمه وبقصته كاملة. واتصل الناس هاتفيًا بمكتب البريد، والبريد سيبلغها رسالة بعد قليل.

ونظرت "كريسترون" إلى ساعة الحائط. الساعة الثامنة وعشر دقائق. لقد فتح مكتب البريد منذ عشر دقائق. ولن تتأخر عاملة التليفون عن الوصول. ابنها "مار" سيعود إليها.

وتوجهت الأم بطيئًا نحو نافذة المطبخ، وارتفع صدرها بزفرة هائلة. صبى يلف وهو يركض متجهًا نحو البيت. وأسرعت "كريسترون" تفتح الباب الخارجى. شفتاها تتحركان ولكن لا تنبسان بشفه. الصبى لا يزال يجرى ويتجاوز البيت، الأم تعرفه، إنه ابن "أرنى" صانع البراميل، يتوجه نحو الشاطئ حاملاً مركبًا صغيرة تحت إبطه.

وفى خطوة متعبة، عادت " كريسترون " إلى المطبخ، شفتاها لا تزال ترتعدان. وشيئًا فشيئًا، قسّت ملامح وجهها. وعادت نظراتها إلى هيئة الحجر المنحوت مرة أخرى، ولم يعد بمقدور أحد أن يقرأ فيها شيئًا. عرفت الأم الآن أن ابنها لن يعود. وعادت هى إلى دلو الماء الموجود وسط المطبخ، حيث تركته صباح أمس. وبكل هدوء، وبحركة متشنجة، ركعت على ركبتيها وجذبت الفرشاة وجعلت تدعك الأرضية الخشبية القاسية، وهى تتوقف، من آن لآخر، وقفات طويلة. وفتائل الفرشاة تنبسط تحت اليد القوية التى تعمل.

***

الجنية الزرقـــــاء

تأليف: جوشوم م. إجـچـرتسون JOCHUM M. EGGERTSSON

من أيسلندا

يسمونها "جزيرة الشمس". وعيناها تلمعان حينما تبتسم خلال دموعها. تقوم جزيرة الشمس فوق مستوى البحر، وهناك حيث جبل الجليد يرتسم على السماء الزرقاء، لا تصبح الجزيرة أرضاً "أرضيّة" وإنما مزيجاً من الأرض والسماء. واسم هذه المنطقة الساحرة هو "أيسلندا" أى أرض الجليد. هناك ينتشر الجمال، بعيداً عن هموم العالم وشجونه. هناك تقيم الجنيات وهناك تقيم الجنية الزرقاء.

فى جزيرة الشمس هذه وهى أيسلندا، يحكى كيف ولدت الجنيات.

فيما مضى، قام الرب القادر على كل شىء بزيارة آدم وحواء. وصل تعالى ممتطيا ظهر حمارة إيسلندية، أقوى من الحصان وأسرع من العنزة.

كان ذلك فى العصر الذى لم تكن توجد فيه سيارات على الطرق ولا طيارات فى السماء، ولم يكن أحد يتخيل هذه الأشياء العجيبة.

حينما لمح آدم وحواء الرب فوق حمارته القوية، اعتقدا فى بادئ الأمر أنها رؤيا شارل دى كوت أو صمويل جارهما المزارع. خرجا من بيتهما لاستقبال الضيف، متوقعين سماع ضحكته الطفولية وهو يروى لهما آخر أخبار البلد؛ ولكن حينما أدركا

أنه الرب القادر بشخصه أسرعت حواء إلى الكوخ لكى ترتبه وتعدل من زينتها وتنظف الأولاد.

وقام آدم وحواء باستقبال الرب بكل حفاوة وترحيب، واصطحباه فى جولة فى الضيعة. وقدما إليه أبناءهما بكل اعتزاز وافتخار.

وأثنى عليهم الرب قائلاً بأنه يبدو عليهم النجابة والذكاء. وقد أثلج ذلك صدر الوالدين، خاصة حواء، لأنها كانت تقدر أن الأولاد هم أولادها كما هم أولاد آدم سواء بسواء وسأل الرب حواء إن كان لديهما أطفال آخرون خلاف الذين قدمتهم إليه. فأجابت بالنفى. والحقيقة أن كل شىء مر سريعًا حيث إن الوقت لم يسعفها لكى تهندم جميع الأطفال، فأخفت بعضهم، لأنها خجلت أن تقدمهم إلى الرب القادر وهم بعبلهم. والله تعالى يعلم ذلك، فقال لحواء:

- الذين ظننت من الأفضل إخفاءهم عنى سيصبحون غير مرئيين. سيعيشون فى الغابات وفوق قمم الجبال وفى الصخور. ومن هؤلاء الأبناء الذين فقدتهم حواء على هذا النحو خرجت جميع الجنيات. لكن الآدميين المنحدرين من الأبناء الذين قدمتهم حواء إلى الرب، أى البشر، لن يستطيعوا رؤية نسل الجنيات إلا إذا أراد هؤلاء ذلك، فى حين أن الجنيات يستطعن رؤية البشر والظهور لهم إذا كانت تلك رغبتهن.

تلك هى الأسطورة التى تقوم عليها الحكاية التى سنحكيها الآن، حكاية جنية أيسلندية وصديقتها الإنسية، زوجة كانت تشعر بالعزلة مع أنها متزوجة من رجل همام يعمل مزارعًا وصيادًا.

كانت هذه الزوجة آتية من بلد التلال، بعيداً عن البحر. فى ذلك العصر، كان الناس يعيشون على الزراعة والصيد.

أما شبه الجزيرة الموجودة فى الجنوب الغربى التى تسمى شبه جزيرة الجنوب، فهى مغمورة بمياه بحر هو أكثر البحور تقلبًا وتبدلاً. تراه يومًا فتثنى على هدوئه ووداعته، فهو أكثر البحور هدوءًا ووداعة، حيث يخيل للمرء أنه طفل يحلم فى مهده. ولكنه فى ظروف أخرى يصيبك بالفزع، بتحوله الفجائى، من النعاس الباسم إلى يقظة وحشية مصحوبة بهياج شديد يصيب المياه والرياح.

حينئذ تنقض الأمواج العاتية على شبه جزيرة الجنوب. فتحطم قمتها المزبدة الصخرة، وتغمر الشاطئ برذاذ الماء. أما الشاطئ الذى حاول المقاومة، فيصرخ تحت وطأة هذا الهجوم العنيف. وهذا التحول من الهدوء إلى الغضب يتكرر عامًا بعد عام؛ من جيل إلى جيل، من قرن إلى قرن. والواقع أن ذلك ليس ذنب البحر. السبب هو أن إله البحر "آجير" فى بعض الأحيان يصحو من نومه جائعًا، حينئذ، ودون أن يفكر فى البشر، يتفجر من بين الأمواج ويعض الشاطئ. أما زوجته "ران"، إلهة البحر فهى كأى زوجة صالحة، تصحب زوجها على عربته، ورغوة الأمواج التى تتحطم ليست فى الواقع، سوى انعكاس شعرها الفضى الذى يتماوج بفعل الرياح.

وهكذا، وعلى الرغم من فترات الهدوء التى تمر بها شبه الجزيرة، فقد تآكلت بسبب حالات الجوع الشديد التى تصيب "آجير" وزوجته، فإن مساحات شاسعة من الأرض كانت فيما مضى ضياعًا خصيبة، التهمتها المياه المدمرة. إحدى هذه الضياع كان يشغلها قصر ساند سبيت. وهو الآن ليس موجودًا، لأن القصر الجميل وملحقاته والأراضى الخصبة اختفت تحت البحر، وأصبحت الأسماك تسبح فى الأماكن التى كان أمير القصر وزوجته يتنزهان فيها، ويتحدثان عن طيبة الجنية الزرقاء وعن غنائها الذى كان يشفى النفوس من الأسقام.

والحقيقة أن قصر ساند سبيت، فى العصر الذى نتحدث عنه، كان فى حالة دمار شديد. والمراعى لم تكن كافية لغذاء القطعان. أما أمير القصر، وكان شابًا قويًا يقضى معظم وقته فى البحر على ظهر مركب الصيد، فقد تزوج من فتاة رائعة الجمال. كانت

ابنة لمزارع فى الشرق، حيث الأراضى المرتفعة، ولم تكن الفتاة قد اعتادت حياة شبه الجزيرة، حيث يعمل السكان فى الزراعة والصيد معًا، ولكنهم يصطادون أكثر مما يزرعون.

وقد حاول زوجها أن يعمل كل جهده لكى يرضيها، لكنها كانت معتادة على سكان الأرض، على الأسرة التى تجتمع، صباحًا ومساءً، لتناول الوجبات وتبادل الأخبار والأحاديث والضحكات. لم تستطع أن تتحمل غياب زوجها الطويل. وكان البحر يخيفها. ولم تكن ترى أى جمال فى هذه الكتلة المائية الهائلة التى تتحول فجأة من الأزرق البارد إلى الرمادى المدمر، ومن الهمس الهادئ إلى الصراخ الراعد المميت. كانت تشعر بأنها وحيدة. وقد صرف مزاجها هذا الجيران عنها. وكانت هى تزدرى سكان البلد، ولا تشعر بأى شىء يجمع بينها وبين حياة أهل البحر هؤلاء. كانت تبغض البحر الهائج المتوحش الذى يسلبها زوجها على الدوام، وبلا رحمة.

وقد زادت هذه الأحوال سوءًا، فصارحت بها زوجها، الذى أصبح بدوره أكثر توترًا وصمتًا، كلما بدت زوجته أقل رضى وسلوى. وانطوت أميرة القصر على نفسها، وازداد شعورها بالحنين إلى مسقط رأسها والفصول التى أمضتها هناك. وبدأت تفكر فى الجنية الزرقاء التى كانت تراها فى الحلم حينما كانت طفلة صغيرة والتى يبدو أنها لم تفارقها أبدًا، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منها.

كانت الجنية تتهادى فوق مستوى التلال والأودية أشبه بنسمة رقيقة عذبة. كانت تظهر فى نور المساء، وحينما كانت الشمس تشرق على الوادى العميق، كانت تظهر أيضًا هناك. كانت تظهر فى كل مكان... دائمًا فى رداء أزرق، وكانت تبدو جميلة، خاصة فى الربيع – فى ليالى الربيع – حينما تبنى الطيور أعشاشها، وتولد الحملان، والشمس فى الأفق تسهر طول الليل وتغمر العالم بالأسرار والمغامرات.

ما أشد اختلاف الفصول فوق شبه الجزيرة! ففى حين، هناك فى البلد، بين الجبال والبحيرات والأنهار والجداول والغابات والمراعى، كل شىء يحاول أن يبعث الحياة، يحدث العكس هنا على هذا الشاطئ الذى يدمره البحر، كل شىء يبدو أنه يدمر الحياة.

هذه الأفكار، وهذا الشعور بالحنين كان له مصدره فى أعماقها. فقد كانت عاشقة فى شبابها للأراضى المرتفعة وكل ما ينمو. ولم تجد له أى صدى فى هذا البلد الغريب، حيث الناس يتحولون، أكثر فأكثر، إلى البحر، كلما تقلّصت الأرض من تحتهم. كانت تشعر بذلك كله، وكان ذلك مرتبطا بشعور قديم بأنها لها شخصية أخرى؛ تلك الجنية التى كانت تزورها فى أحلامها، وتربط بينها وبين شعور السعادة والرضى الذى طالما أحست به قبل أن تتزوج وتغادر الأراضى المرتفعة إلى هذا الشاطئ.

والغريب أن الجنية لم تكلّمها أبدا. هذه المخلوقة من بنات أحلامها وعقلها الباطن كانت تتوحد مع نوع من الموسيقى الساحرة، أنغامها السحرية كان يبدو أنها تخرج من الأرض، من الجذور ومن الأزهار. هذه الألحان كانت تترنم أحيانًا وبعمق فى الأرض تحت قدميها؛ حينئذ كانت ترتمى على الأرض وتدس وجهها فى العشب الرطب، وتنصت حتى تتحقق أن الذى تسمعه إنما هو نبض الدم فى شرايينها، صدى ضعيف لأنشودة الشكر للخالق، الذى يهب الحياة، أغنية حب يفعم قلبها.

ثم تذكرت أيام الربيع، حينما كانت تتفتح أوراق الصفصاف، وتفتح الزهور كئوسها الصغيرة المستديرة فتأتى الفراشات الصغيرة والنحل لينهل من رحيقها. آه ما أجمل ذلك!

وذات ليلة من ليالى الخريف، رأت سيدة القصر الجنية الزرقاء فى النوم. كانت الجنية كبيرة وجميلة وكما هى دائمًا فى ثوب أزرق، لكنه أزرق أكثر برودة. تطلعت الجنية إليها بحزن، وكلمتها بصوت أشبه بالموسيقى الناعمة.

– أنت تبحثين عما لا يمكن أن يُنسى فى حبنا، ما ليس له اسم، لكنه يعيش فى أعماق جميع الكائنات. لذلك، أنا جئت إليك من الأراضى المرتفعة، لأننى لا أستطيع أن أراك وحيدة هنا، على هذا الشاطئ القاسى. نحن الجنيات أيضا، تعودنا عادات البشر، لأننا ننتمى إليهم، هذا قدرنا.

"لقد وهبنا الله روحًا خالدة وجسدًا؛ لكننا لم نعد نملكهما. فنحن مجرد نزوات من نزوات الطبيعة، بينما أنتم، أنتم أرواح خالدة، إمكاناتها فى النمو والتطور لا تنتهى. لذلك، فنحن نحاول أن نكتسب عاداتكم وسلوككم، لأن ما نصبو إليه ونتوق إليه هو أن نعود، كما كنا، بشرًا، وتصبح لنا مثلكم أرواح خالدة."

"أحيانا نستولى على "الأنا الآخر" فيكم، وهذه الأنات الأخرى تعيش معنا حياة مستقلة، وتنمو وتتكاثر معنا. لكن هذا لا يكفينا، لأن الأنا الآخر للكائن البشرى ليس سوى طيف وليس روحًا، وأجساد أناتكم الأخرى تشبه أجسادنا".

"أنا حارستك الخفيّة وأنا أتبعك حيثما تذهبين، دون أن ترينى. وسكنى بالقرب منك. وأنت أيضا حارستى وتابعتى، دون أن تعرفى".

"أنت حزينة، وأنا أريد مساعدتك. غدًا حينما يعود زوجك من البحر، حينما يُقسّم الصيد ويحصل كل فرد على نصيبه، ستبقى سمكة. هل تعطيننى رأسها؟ سآتى لأخذها، إذا تركتها فى مكان الإقلاع".

ونهضت المرأة من نومها، وجعلت تفكر فى حلمها وكان واضحًا كل الوضوح، أوضح من واقعها البائس فى حياة يقظتها. كانت تعرف أن الجنيات يحببن أن يقدم لهن البشر الهدايا. فذلك دليل على أننا نفكر فيهن ونحس نحوهن بمشاعر الود والصداقة. وكانت تعرف أيضًا أن الجنيات من جانبهن يبادلن البشر المقربين لديهن الهدية بالهدية فى حالة استطاعتهن.

لكن الجنيات لا يطلبن الهدية إلا لأن لديهن هدفا من وراء ذلك، واعتقدت المرأة أن الجنية الزرقاء تضعها أمام اختبار، وأنها قطعت كل هذه الرحلة الطويلة، وأنها حزينة مثلها على هذا الشاطئ الغريب الذى تدمره الأمواج، وأنها ستبقى، ينبغى عليها أن تبقى على هذا النحو حتى تتمكن صديقتها الإنسية المختارة من الانتصار على شعورها العميق بالوحدة والحرمان.

الجنيات تقدّرن الهدايا، ليس بموجب قيمتها، وإنما بموجب الفكرة التى وراء الهدايا. ولا يمنع أن هدية بسيطة مثل رأس سمكة يمكن أن تكون أغلى وأجمل هدية. وبدأت المرأة تفكر فى كل ما كان زوجها يرويه لها عن الصيد فى البحر وتجارة السمك. لا بد أن تكون هذه السمكة هى سمكة هاليبوت، أكبر الأسماك وأضخمها، وألذّ سمك هذا البحر.

فى اليوم التالى، خرج رب القصر إلى البحر منذ الصباح الباكر. وقد تمكن هو ورجاله من جمع صيد ممتاز. وما أن عادوا إلى البر وقاموا بقسمة السمك، نزلت الزوجة إلى الشاطئ، وتوجهت نحو زوجها وسألته إن كانت قد تبقت سمكة بعد عملية التقسيم. فأخبرها بأنه قد بقى فى المركب سمكة هاليبوت كبيرة لم تدخل فى القسمة. فسألته إن كان من الممكن أن تأخذ رأسها. وروت له حلمها. فأخبرها بأنها يمكن أن تأخذ السمكة كلها إن رغبت فى ذلك، من أجل جنيتها، وسيتصرف هو مع رجاله. فشكرته، وقالت إنها ستترك السمكة على الشاطئ هذه الليلة. وفعلاً، تركتها. وفى الصباح اختفت السمكة.

وانقضى الشتاء، ومع الربيع عاد الجو الجميل، والبحر الهادئ، والصيد الطيب لسكان شبه الجزيرة. ومع ذلك فقد شعرت الزوجة الشابة بوحدتها تزداد وبحرمانها يتفاقم، حيث تجنبت الاختلاط بالناس.

وذات يوم، ذهبت إلى مزرعة أخرى على الشاطئ لكى تروّح عن نفسها، وهناك قضت اليوم كله تقريبًا ولم تعد إلى قصرها إلا فى المساء. وعلى طريق العودة، جلست تستريح قليلاً بالقرب من التلال. وجعلت تبكى من التعب والوحدة. وقالت فى نفسها: "لا بد أن صديقتى الجنية ماتت هنا، وإلا لما تركتنى وحدى".

ونهضت تستأنف السير. ولكنها، وعلى حين فجأة، رأت أحد التلال ينشق عما يشبه الباب الكبير. وإذا بطريق منير، وفوق النور لمحت سيدة طويلة ممشوقة القوام، تلتفت نحوها. فعرفت فى ملامحها وهيئتها، وثوبها الأزرق، جنية أحلامها، صديقتها. وإذا بها تشير إليها بالدخول. فاتجهت المرأة بأقصى سرعتها نحو التل، واجتازت عتبة المكان مقر الجنية التى كانت تبتسم وهى تتحدثها، وكان حديثها كالموسيقى.

– أنت صديقتى. وعلى كل منا أن تعتنى بصاحبتها. أستطيع الآن أن أشكرك على الهدية التى قدمتها لى وعلى ثقتك بى. أنا أعرف أنك غير سعيدة مع زوجك فى هذا البلد القاسى الصعب، الذى يقاوم البحر. لكننى لم أستطع أن آتى لمساعدتك قبل ذلك.

حينئذ تناولت الجنية قنينة عطر، وطلبت من الزوجة أن تغمض عينيها. ثم مست جفنيها بالعطر الشافى وقالت:

– من الآن فصاعدًا، ستنظرين للحياة بعينين مختلفتين، وأعلنك رسميًا بأن الحظ السعيد سيتبعك أينما تذهبين، أنت وذريتك.

وجعلت الجنية تغنى وتقول:

لا حزن ولا شجن بعد اليوم

بل سلام ووئام

يحلّ بالبيت وأهله.

وظلت الزوجة مغمضة العينين تستمع إلى الكلام الجميل الذى تردده الجنية. وحينما فتحت عينها، وجدت نفسها أسفل الربوة التى كانت قد أغلقت، واختفت الجنية. لكن الزوجة شعرت بأنها خفيفة كأنها استيقظت من كابوس ثقيل صباح يوم جميل من أيام الربيع. وبينما كانت تسرع للعودة إلى قصرها، شعرت بأنها تتحرك فى عالم جديد ساحر فاتن.

ودهش الزوج لهذا التحول العجيب. وكاد يطير فرحًا حينما أخبرته بأنه سيصبح أبًا. وتفرغت لبيتها وعكفت على العناية به وبزوجها. وفى بعض الأحيان، كانت تجد نفسها تترنم بأغنية الجنية الزرقاء التى رسخت كلماتها فى ذاكرتها، وعاشت سعيدة مع زوجها حتى آخر أيامها.

***

الحب كلام فارغ

تأليف: ســـــونـّــا Sunna

من أيسلندا

فى فناء مزرعة "جرينووتر"، كان جواد القس فى انتظار سيده الذى كان ماثلاً عند رأس سرير المزارع الكهل. وكان القس قد انتابته هزّة عند رؤيته لوالد "كاترين" الذى كان المرض قد غيره تمامًا. وهاهى نظرته التى كانت قاسية غامضة فى الماضى، معلقة بالفضاء، مستقيمة أمامه. إن شفتيه الزرقاوين، ولونه الرمادى، وشعره الذى كان يسقط فى غير نظام فوق جبينه المبتل، كل ذلك كان يشكل تناقضًا صارخًا مع الصورة التى كان القس يحتفظ بها لعدوه الكهل.

لم يتنازل المريض بالرد على تحية القس. وكان يتابع ابنته " كاترين " بعينه وهو يتساءل إذا كانت قد بكت مرة أخرى.

وقدّمت "كاترين" كرسيًا إلى القس، وهى تهمهم بصوت رقيق:

– إن والدى اليوم ضعيف للغاية.

ثم استدارت وخرجت مسرعة، تحت نظرة الرجلين.

كانت "كاترين" هذه فتاة لطيفة. وكان القس يعرفها خير المعرفة. ولو كان قدّر للمزارع العجوز الصعلوك أن يموت قبل عشر سنوات مضت لكانت "كاترين" الآن زوجة

القس، ولكن الأب الشيخ، فى ذلك العصر، لم يحاول أن يفهم أبدًا. كان قد أعلن أن ابنته لن تتزوج سوى مزارع. ولم تستطع توسلاتهما، ولا دموع "كاترين"، أن تثنى الأب عن قراره. وكان يجيب عن كل توسلاتهما بهزة من كتفه، وهو يقول:

- الحب... كلام فارغ!

وجلس القس عند رأس سرير المريض. كانت هذه المرة الأولى يجتاز فيها عتبة المزرعة منذ عشر سنوات. إن وجوده مرة أخرى فى هذا المكان، بالقرب من رجل عرف عنه الشدة والبأس، قد ولد عنده شعورًا بالشماتة والانتصار.

وحدث القس نفسه قائلاً، وهو يشعر بالشماتة: "وأخيرًا".

وبرق شعاع ضئيل فى عينى العجوز المظلمتين:

- ومع كل فقد حضرت، هه؟

كان صوتًا خشنًا قويًا.

فأجاب القس بنبرة رقيقة:

- طبعًا، لماذا أمنع مساعدتى عن رجل يموت؟

- ما هذه القصة؟ من قال لك إننى سأموت؟ إننى أعلم تمامًا أن موتى سيسر الجميع سرورًا بالغًا. إننى من الآن أرى عمالى وهم يعبرون عن بالغ فرحتهم.. إن قلبى يحدثنى أنهم الآن يتسكعون ويضيعون الوقت سدى بدل أن ينصرفوا إلى أعمالهم. عندما يغيب القط.. عندئذ، سترقص طربًا عندما أموت. يا للجاهلة المسكينة التى لا تستطيع حتى أن تحافظ على نفسها. كلا، لا تتصوروا أننى سأعجل بالموت لكى ألقى السرور فى قلوبكم.

فأعلن القس بلهجة من يلقى حكمة:

– الحياة والموت بيد الله.

فزمجر الشيخ قائلاً:

– خزعبلات. إنك تعلق أهمية كبرى على القدر والغيبيات. سأكون أنا المخطئ، إذا مت، لأننى سأكون مثل الأبله. مثل غبى هالك بينما عمالى يضيعون الوقت، آه يا للكسالى!

وألقى القس بنظرة قلقة على الرجل وهو يتساءل إذا كان لا يهذى. وانفجر الشيخ صائحًا:

– إلى الشيطان!

وقطب الحاجبان الكثيفان، وجمدت تجاعيد الفم.

وارتعد القس لهذا الصوت القوى، وتأكد أن السنين والمرض لم تخفف من حدة طباع الشيخ. فلا يزال الطبع العنيف، المتحكم، ولا يزال النزوع إلى الثورة والتجديف.

ولبث الرجلان صامتين. وكان المزارع ينظر أمامه فى غموض واكتئاب. وبدأ القس يشعر بالضيق. وتجرأ وقال:

– لقد أرسلت فى طلبى؟

فرمقه الآخر بعين سوداء قائلاً:

– ليس ذلك لأننى أريد أن أعقد الصلح معك، صدقنى. إننى لازلت أعتبر أنك لا تصلح زوجًا لبنتى "كاترين"، إن "كاترين" فتاة مجتهدة فى عملها، مقتصدة فى نفقاتها. إن لها عقلاً تفكر به، وعضلات. وهى تعرف كيف تدير المنزل. إنها كنز حقيقى.

فأجاب القس:

- إننى أعرف هذا كله.

- لقد جريت وراءها فى الماضى، لأنك كنت تعلم أنها سترثنى.

وبذل القس مجهوداً ليملك نفسه. وقال بصوت يرتعش من الغضب:

- كلا، أنت مخطئ.

- كنت تعلم أنها سترث مزرعة "جرينووتر" وكل ما أملك.

فزعق القس قائلاً:

- هذه وشاية!

ثم نهض محتداً. فقال الشيخ:

- هيه، أنت كغيرك من الناس، أيها القس الصغير العزيز. إننى آخر من يلومك على ذلك.

وزرر القس عباءته، وأعلن غاضباً:

- لا داعى لوجودى هنا. وهمّ القس بالانصراف، ولكنه استعاد ضبط نفسه. فلم يكن من اللائق أن يتشاجر مع رجل يموت.

- ليس بهذه السرعة، يا قسنا العزيز، إننى لم أنته بعد من حديثى؛ قليلاً من الصبر.

ورفع الشيخ يداً هزيلة مشيراً إليه بالجلوس من جديد.

فأطاع القس. إن الشيخ كان العقبة الوحيدة أمام سعادته، ومع أنه، لهذا السبب، كان يمقته من كل قلبه، فإنه كان لا يريد أن يجازف ويتعجل بإثارة هجوم. فقال وهو ينتقى كلماته:

– أظن أنك تريد أن تتلقى سر القربان؟

– لا. سأرحل كما أنا. إن كل ما صنعته فى حياتى كان فى طريق الخير.

– هل أنت واثق تماماً أنك أحسنت التصرف عندما فرقت بين "كاترين" وبينى؟

– نعم. لقد قلتها لك، "الحب كلام فارغ". على الأقل، كان هذا رأيى فى الماضى.

فسأله القس وهو يطير فرحاً:

– وهل غيرت رأيك!

ولم يجب. ومرت عدة لحظات قبل أن يقرر الكلام. ثم قال فى بطء:

– كنت لم أكد أكمل العشرين من عمرى، عندما جئت للمرة الأولى إلى "جرينووتر". ولقد راقنى المكان فى الحال. كانت لدى صاحب المزرعة فكرة طيبة عنى. وكانت "مارجريت" ابنته الوحيدة. وكان الناس يقولون إنها جميلة. ولم أكن أعيرها كثير اهتمام، حتى ذلك اليوم الذى أدركت فيه أن الفتاة والمزرعة يشكلان حصة لا تقبل القسمة، وأننى لن أحصل على المزرعة أبداً إن لم آخذ الفتاة أيضاً. فقررت أن أطلب يدها. وتحدثت فى بادئ الأمر إلى والدها ووجدته موافقاً.

فهز القس كتفيه باشمئزاز، وقال:

– و"مارجريت"، هل كانت المزرعة بالنسبة لها أثمن من سعادتها هى أيضاً؟

– هذا ما كان يجب أن تفكر فيه فعلاً. ولكننى أعتقد أنها لم تكن تعبأ بالمزرعة. وفى الواقع، أنا لا أدرى من ذلك شيئاً؟

– الحب... ليس على لسانك إلا هذه الكلمة، وهل أنا أعرف حتى معنى الحب؟ لم يكن لدى الوقت لشعور من هذا النوع. أننى أذكر، ذات مساء، بعد العمل، أننى كنت جالساً عند سفح التل أخطط مشروعات للمستقبل. كان مساء جميلاً.

وكانت الشمس تنشر أشعة ذهبية فى كل مكان.

وكنت أتطلع إلى المزرعة وإلى الأراضى. كم كان كل ذلك جميلاً! كنت أرتب فى رأسى أكداسًا من المشروعات من أجل تجميل المزرعة عندما يحين الوقت.

وعلى حين فجأة، إذا بذراعين تحيطان برقبتى، من الخلف، واسمع صوتًا مرتعداً يهمهم قائلاً:

– هل تحبنى؟ هل تحبنى الآن؟

ظننت أنها "لينا"، تلك الفتاة التى كانت تغمز لى بعينيها طوال فصل الصيف. ولقد غضبت لأنها أزعجتنى على هذا النحو. فدفعتها عنى، وحتى دون أن ألقى عليها نظرة من فوق كتفى، قلت لها ببرود:

– دعينى إذن فى هدوء. إن الحب... كلام فارغ!

إننى أتذكر سير الخطى فوق العشب... لقد أقبلت بلا ضوضاء وعادت فى سكون كسحلية صغيرة. وسرعان ما نسيت المقاطعة وعدت إلى التفكير فى الماشية، والحقول، ومبانى المزرعة التى كانت فى حاجة إلى الإصلاح. كان لا بد من بذل مجهود ضخم واستثمار مبلغ لا بأس به من الأموال. تصور، كان من الضرورى إقامة مزرعة جديدة، وتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض حول المسكن.

وعندما رجعت، كان الجميع نائمين. وفكرت فى "لينا". كنت فى النهاية قد تخلصت منها، تلك البلهاء. هل تجرؤ على ذلك؟ تأتى فتحيط رقبتى بذراعيها لتحاول إغرائى! فى تلك الليلة، رأيت فى المنام أننى أصبحت سيد "جرينووتر". كنت قوياً، محترماً.

وفى صباح اليوم التالى، بينما كنت أعمل فى الحقول، رأيت صاحب المزرعة يقبل نحوى وقال لى بلهجة غاضبة:

- لا فائدة مع الصغيرة. الحال لا تسُر.

ورفعت المنجل، فسمعته وهو يقول ساخطًا:

- فلتصيبنى اللعنة إذا كنت أفهم أمور النساء. إنها لم تلبث فى بادئ الأمر أن وافقت دون حاجة إلى توسل أو رجاء، ولكنها الآن لا تريد أن تسمع شيئًا فى موضوع زواجك منها.

فتوقف تنفسى، وأظن أننى شحبت. وليس ذلك من الندم على فقدان "مارجريت" ولكن تلك الأراضى والضياع، وتلك المزرعة، ها هو كل ذلك يضيع منى. كل أحلامى استحالت إلى تراب... ولم أستطع إلا أن أغمغم قائلاً:

- وما السبب؟

- إنها تؤكد أنك لا تحبها. لا تهتم يا صديقى.

وتناول العجوز ذراعى وأضاف قائلاً:

- ربما تستطيع أن تقنعها وتعيدها لصوابها. إننى أنصحك بالذهاب إليها الآن فورًا.

كان قد انتابنى شك رهيب. وأخذت الطريق إلى المنزل بخطى سريعة، والعجوز يلهث فى أثرى ودخلت الدهليز مباشرة فصدفت "مارجريت" وهى تخرج من الحجرة المشتركة. فتظاهرت بأنها لم ترنى. وتأهبت للانصراف دون أن تقول لى كلمة. ولكننى أمسكت بذراعها وجذبتها إلى داخل حجرتها وأغلقت الباب. وبلهجة جامدة، سألتنى عن بغيتى فقلت:

- يجب أن أتحدث إليك.

فأجابت:

– إننى لا أرى شيئًا يمكن أن تقوله لى.

فملت عليها وسألتها:

– هل أنت التى جاءتنى، مساء أمس، ووضعت ذراعيها حول عنقى؟

فقالت غاضبة:

– كيف لم تعرفنى؟!

– صفح الله عنى، لقد ظننت أنك " لينا " الصغيرة، تلك الشيطانة الوقحة.

فسألت فى لهفة:

– صحيح؟ صحيح؟

فأجبت فى وقار:

– أقسم لك.

فسألتنى وفى عينيها شك:

– ماذا بينك وبين "لينا"؟

فطمأنتها فى الحال:

– أبدًا! لقد كانت هذه المجنونة تلاحقنى طوال الصيف، دون أن تلقى منى أدنى تشجيع. ولقد رأيت أنها تستحق درسًا جيدًا.

فقالت "مارجريت" وهى تبتسم فى ظرف:

– أجل، كانت تستحق هذا الدرس.

ووضعت رأسها فوق صدرى وتنهدت قائلة:

– إننى سعيدة للغاية، سعيدة للغاية.

ثم رفعت عينيها نحوى وسألتنى بصوت ضعيف وجل:

- أتحبنى إذن؟

هذا سؤال أخرق. كانت تمعن النظر إلىَّ، كما لو كانت تريد أن تستشف أخفى أفكارى. ورأيت أنه ليست أمامى وسيلة للخروج من هذا المأزق.

فقلت متلعثمًا والعرق يتصبب فى ظهرى:

- إننى لم أعرف نساء غيرك.. إننى أكن لك حبًا كبيرًا.

وتبع ذلك صمت طويل. أما أنا، فكنت أرتجف من الخشية، لأن الغنيمة كانت تستحق ذلك. وفى تلك الأثناء كانت اللحظات تمضى دون أن تتخذ "مارجريت" قرارها. وأخيرًا أعلنت قائلة:

- مما لا شك فيه أنك تحبنى. ثم أضافت بلهجة قاطعة، وهى تتعلق بى بذراعيها:

- وإذا لم تكن تحبنى الآن، فإن هذا سيحدث يوما ما.

وجذبتها بين يدى وأنا مجنون من الفرحة، ورفعتها عن الأرض، ثم وضعتها فى حذر وطبعت قبلة على فمها.

وصمت الشيخ. وغرق القس فى أفكاره. ولم يكن يدرك السبب الذى راح الشيخ من أجله ينبش كل هذه الذكريات المعفرة. ومع كل فإنه لم يبعث فى طلبه فقط لكى يروى له قصة زواجه. وكان يشعر بنوع من الإعجاب لهذا العجوز الجرىء، القاسى عديم الشعور، ولكنه شريف مع نفسه، لا يستطيع مهما كانت النتائج أن يتظاهر بشعور لا يحس به، وأن ينطق بالكلمة التى يمكن أن تفتح له الطريق لكل ما يشتهيه فى العالم.

- وأخيرًا أصبحت سيد "جرينووتر" ومضت الأعوام. وكان زواجنا موفقًا. وتبين أن "مارجريت" زوجة ممتازة، وشريكة مخلصة. ولم تقم بيننا أى سحابة.. حتى

ذلك اليوم الذى اعتقدت فيه "كاترين" أنها تحبك. كانت زوجتى قد وافقت عليك من الوهلة الأولى، وطلبت منى أن أوافق. وذات يوم، شرعت تحدثنى فى هذا الموضوع وتتوسل إلى أن أمنحك موافقتى، فأجبتها وقد أغاظنى إلحاحها الشديد.

- الحب... كلام فارغ!

كانت بالضبط الكلمات نفسها التى نطقت بها قبل عشرين عاما وأنا أظن أننى كنت أتحدث إلى "لينا". فرمقتنى زوجتى بنظرة تقطر ألما وقالت:

- أكان هذا رأيك عندما جئت تطلبنى من أبى؟

فتوقف تنفسى من الذهول. وهكذا لم تكن نسيت شيئًا لأنها لم تكن قد نسيت الماضى.

ثم استطردت تقول:

- ربما لم أكن أنا التى كانت تهمك فى ذلك الوقت، ربما كانت المزرعة هى التى كانت تعجبك أكثر.

فانصرفت دون أن أجيبها. ولم تكن الأيام التالية أيامًا بهيجة. وكانت زوجتى تعبس فى وجهى ولا تنفك تضغط على أسنانها. وكانت "كاترين" تبكى. وكان ذلك كله يمثل قمة السخرية. فلم يكن لدى "كاترين" أى سبب للشكوى. فبفضلى، كانت "جرينووتر" قد أصبحت أجمل ضيعة فى سائر الإقطاعية. كنت قد قمت بتجفيف المستنقعات، وتمهيد الأرض المجاورة للمبانى. وكنت أقتنى فى الحظيرة خمسمئة خروف وعشرين بقرة، وعشرة جياد داخل الإسطبل، وخمسين دجاجة فى خن الدجاج، وخمسة عشر خنزيراً فى حظيرة الخنازير. ولم يكن هناك دين، ولا رهن. كانت "كاترين" هى التى سترث ذلك كله عندما تحين الساعة؟ قصارى القول، لقد كنت أعمل من أجلها، من أجل مستقبلها، وها هم يتهموننى بأننى سبب شقائها وأفسد حياتها.

هيا إذن! إن فتاة لها مثل هذا الميراث لا يمكن أن تكون تعسة. هذا ما كنت أقوله لنفسى عندما كنت أتأمل مزارعى الواسعة، والمراعى التى كان العشب فيها يجف تحت الرياح.

كان القس ينصت حائراً. لهذا العجوز الأنانى الذى دمر حياة ابنته، ولا يبدى الندم على ذلك حتى وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت.

– ولم تُعدم "كاترين" من الخُطاب. ولكنها كانت تصرفهم جميعًا. أما أنا فلم أكن أتدخل، ولكن عندما جاء "بجورنسون"، نصحتها بقبوله زوجًا. إنه مزارع حسن ذكى، موفق فى عمله. كان من الممكن أن يصبحا زوجين رائعين. له هو، كنت أعهد بالمزرعة عن طيب خاطر. ولكن "كاترين" للأسف رفضت أن تطيعنى. إن هذه الفتاة عنيدة كالبغلة. هل تعرف ماذا قالت لى:

– إذا أجبرتنى على الزواج منه، فسألقى بنفسى فى النهر.

ولقد أذهل هذا التهديد زوجتى. وربما لم يكن سوى مظهر للإصرار، أو ربما كان رغبة فى معاندتى. ومع كل، فقد كنت خائفًا، أنا أيضًا. إنها تشبهنى إلى حد كبير، هذه الشيطانة، إنها لا تنزل عن رأيها أبداً. وهذا ظاهر من الطريقة التى ظلت بها مخلصة لك طوال كل تلك الأعوام. وإننى أتساءل حقًا ما الذى يعجبها فيك.

فقال القس فى هدوء:

– فليباركها الرب على كل هذا الوفاء.

– على كل حال، إنك لم تتقدم خطوة واحدة منذ عشر سنوات.

فأجاب القس:

– إن الآلام الكبرى التى تترك الندبات، ولكنك لا تستطيع أن تفهم هذا.

- كلا بكل تأكيد. كل هذه المشاعر الجميلة ليست من مستواى. لم يتصور أحد أننى كنت أتألم أنا أيضاً. لم أكن أشكو أبداً، لكننى أستطيع أن أقول صراحة إن حياتى كانت قد أصبحت لا تطاق. وكان ذلك بسببك. فلولاك لظلت حياتنا سعيدة. ولتزوجت "كاترين" من أحد المزارعين! لقد كنت ألعنكما دائماً بلسانى وبقلبى.

ودمدم القس وهو يحدق فى المزارع العجوز بنظرة صافية:

- إننى لا أبالى بلعناتك.

- إنك تعتبر نفسك قديسا!

- دعنا من المبالغة. لقد اجتهدت دائماً فى أن أتصرف وفقًا لضميرى.

- ما فائدة اجتهادنا إذا لم نتوصل إلى الحصول على ما نحب. أنا مثلاً لم أحاول أن أحارب طبيعتى الحقيقية. فهل تظن أن ما ترويه لهؤلاء الأغبياء المساكين - أقصد مريديك - هو انعكاس للحقيقة.

- نعم.

- فما قولك إذا لاحظت يوماً أن كل تعاليمك إنما هى قصص نساء طيبات لا تستند إلى أساس متين من الواقع.

فأردف القس وهو ينهض من فوق الكرسى:

- إننا نضيع وقتنا.

لم يكن يشعر بأى رغبة فى مواصلة الحديث مع ذلك العجوز الزنديق الذى لم يقترب من المائدة المقدسة أبداً، وينهال بالسخريات اللاذعة على الكنيسة المقدسة وتعاليمها.

وكان الشيخ يتفحصه بعين ساخرة.

ثم قال بلهجة آمرة قاطعة:

- اجلس!

فسأله القس:

- لماذا تريد أن أبقى واستمع إلى تجديفك؟

- حسن، حسن. ربما كنت تود أن أباركك لأنك قضيت على سعادة أسرتى. ولكن لنكمل. إننى لم أنته بعد من حديثى، فأرجوك أن تنصت لى حتى النهاية.

ولما كان القس يخشى، إن هو عارضه، أن يزيد من تفاقم مرضه، فقد جلس ثانية على الرغم منه. وبعد ذلك، ماتت " مارجريت " فجأة، كما لا بد أنك تذكر. لقد رأيتها تسقط أمامى، هنا، وعندما انحنيت عليها، كانت فاقدة الوعى.

ولقد ظل الناس يتصورون أننى لم أسكب عليها دمعة واحدة.

والحقيقة، أننى عندما رأيتها ميتة، سرى فى جسدى شىء ما. ومنذ ذلك اليوم لم أعد ذلك الشخص الذى كنته قبل ذلك تمامًا. وحينما أرقدوها على فراش الموت، ظللت ساهرًا عليها طوال الليل. وعند الفجر فقط رضيت أن أغادر الحجرة.

وبعد الجنازة، بدا المنزل فى نظرى فارغًا. ولقد انهلت على العمل كالمجنون. وكان يحدث لى فى بعض الأحيان أن أنسى أن "مارجريت" ماتت. فعندما كنت أعود إلى المنزل، كنت أناديها بأعلى عقيرتى:

- "مارجريت" أين أنت؟

فتصل "كاترين" وهى تهرول مذعورة وتقول:

- آه، بابا، إنك تعلم جيداً أن أمى ماتت.

وعندئذ أدفع "كاترين"، وأدخل حجرة نومنا وأوصد الباب. لم أكن أدرك شيئًا من موقفى. وكما قلت لك لم أكن أعشق زوجتى. ولم أهتم قط بمعرفة ما إذا كانت جميلة أم لا. وعندما كان يسألنى أحد عن لون عينيها، كنت أجد مشقة فى الإجابة. كلا، لقد كنت أجهل معنى الحب.

وحاولت أن أخفف من شجنى، ولكن ما الفائدة؟ لم أكن أفكر إلا فى "مارجريت" بل لقد انتهى بى الأمر إلى إهمال عملى. وكنت أمكث راقدًا مدعيًا المرض، وكنت أعتكف فى حجرتى، دون طعام أو شراب.

وبدأ الناس يرمقوننى بنظرات غريبة. ونصحنى بعضهم باستشارة أحد الأطباء. ولم أكن أعبأ كثيرًا بآرائهم... مدركًا أن أى طبيب لا يمكن أن يشفينى. وكان عزائى الوحيد هو أنه ما من أحد كان يخطر بباله نوع المرض الذى كنت أعانيه. وكان يحدث لى فى لحظات الوحدة أن أجوب الدار كلها، هائمًا من حجرة إلى حجرة. وكانت "مارجريت" تفعل ذلك، فقد كانت تحب أن تقوم بالتفتيش فى المنزل لتتأكد أن كل شىء فى مكانه. وكان يبدو لى فى بعض الأحيان أن "مارجريت" ترافقنى، فكنت أسمع خطوات خفيفة بالقرب منى، أو بجوارى تمامًا أو خلفى، وفى بعض الأحيان كان يبدو لى أنها تمر أمامى. وكان ثوبها يحف عند مرورها. عندئذ كنت أجلس وأجول بعينى من حولى. فقد كنت دائمًا أتمنى أن أمسك صورتها لحظة واحدة.

وفى الغالب، كانت تأتى "كاترين" قلقة بعض الشىء، وتسألنى عما إذا كنت أبحث عن شىء ما. وكنت أجيبها بلهجة متقطعة:

– أنا؟ كلا. لا أبحث عن شىء. كل ما هنالك أننى أنظر لأتأكد أن كل شىء فى مكانه. إننى أريد أن أعرف ما إذا كنتِ سيدة بيت ممتازة مثل والدتك.

ولست أدرى إذا كانت تصدقنى أم لا. ومن المؤكد أن الناس بدءوا يوجهون إلى أنفسهم فيضًا من الأسئلة بشأن حالتى. كنت أرى ذلك فى عيونهم، مع أنه ما من أحد منهم جرؤ على مصارحتى بالحديث.

كنت أجبر نفسى على البقاء فى الحقول والعمل مع الآخرين منذ مطلع الشمس حتى مغيبها. ولكن العمل لم يعد يثير اهتمامى على الإطلاق. ولم تكن بى سوى لهفة واحدة هى أن أعود، أن أعود إلى البيت. ولست أدرى لماذا كان يبدو لى أننى بمجرد أن أعود إلى المنزل سأجد "مارجريت" وفى غالب الأحيان كنت أعتكف طوال اليوم فى حجرتى. وكنت أعلم تمامًا أن العمال يستغلون ذلك وأن العلف لن يخزن فى الوقت المطلوب، ولكن الأمر كان بالسبة لى سيان.

وفى بعض الأحيان وعندما كنت أتأكد تمامًا أن أحدًا لن يأتى ليزعجنى، كنت أفتح الدولاب وأخرج منه ملابس "مارجريت" قطعة قطعة، وأضمها إلى خدى، وأداعبها برقة. وكنت أقول كلامًا لم يخطر ببالى أبدًا فى حياة "مارجريت"، كلامًا كنت أحمر له خجلاً لو سمعه أحد. وكنت أبكى ولكن ذلك لم يكن يريحنى.

ونظر القس مليًا إلى الشيخ:

– والآن، لعلك تدرك ما عانيناه نحن، كاترين وأنا، طوال كل تلك السنين.

فصاح المزارع بلهجة ازدراء:

– تقول إنك عانيت؟ ولكنك لم تفعل شيئًا منذ عشر سنوات من أجل تصحيح هذا الوضع.

فهمهم القس بطريقة آلية وهو بادى الذهول:

– ماذا كنت تريد منى أن أفعل؟ لقد كانت "كاترين" ترفض أن تتزوجنى ضد رغبتك.

– أنت لست مقداماً، يا صديقى. كلا، لن أقدم لك النصح، إنك لا تستحق ذلك.

إن الحب لا يجرؤ على فعل شيء، الحب الذى يخاف، والذى يتوارى، هذا الحب فعلاً كلام فارغ. إننى على ثقة من أن أغلب الناس يشاركوننى رأيى. إن الحب الحقيقى يرفع الجبال، إنه قوة لا يقف فى سبيلها شيء، هذا هو رأيى. والآن، أنا على استعداد لأن أهبك مزرعة "جرينووتر" – دون ندم – وأهبك كل ما أملك مقابل أن أرى من جديد عزيزتى "مارجريت".

ومال القس على الشيخ، وصاح فى خبل والشرر يتطاير من عينيه:

– هل غيرت رأيك؟ هل تريد فعلاً أن تعطينى "كاترين"؟

– كلا، أنا لم أغير رأيى. إنك لست أبداً، وأكررها، إنك لست أبداً الرجل الذى أتمناه صهراً لى. إننى لا أرجع عما سبق أن قلته. لقد تغيرت مشاعرى فيما يتعلق بموضوعات أخرى، أما فيما يتصل بك أنت، فقد كونت رأيى. لا تعتقد أنك تثير إعجابى بوفائك الجميل. لقد كنت طوال حياتى أحتقر أولئك الذين يتخلون عن المعركة بمجرد أن تصادفهم أول عقبة. وبوسعى أن أخبرك بأننى لو كنت أحب "مارجريت" عندما طلبت يدها وتلقيت من والدها الرفض الذى تلقيته أنت منى، لما استطاعت قوة بشرية أن تفرق بيننا. ولما ظللت عشر سنوات جالساً على مؤخرتى فى انتظار تطور الأحداث.

وعند سماع هذه الكلمات نهض القس قافزاً، وصاح بأعلى صوته:

– لقد بدأت أفهم. إنك تفضل أن تموت على ألا ترجع عن موقفك. ولكنك لن تجد الوقت الكافى لكى تسخر منى. انتظر قليلاً.

وبينما كان الباب يصطك خلف القس، تراقص شعاع بهيج فى عينى الرجل الطيب الذى همهم من بين أسنانه:

- "هيه حسن، كان لا بد له من الوقت لكى يفهم".

أما الفلاحون الذين كانوا يعملون فى الحقل، بالقرب من المنزل، فقد شاهدوا القس يجتاز الباب خارجاً وهو يضم "كاترين" بين ذراعيه ويرفعها إلى جواده، ثم يقفز على السرج خلفها، وينطلق راكضًا بأقصى سرعة. ومن وراء ستائر حجرته، كان الشيخ يتابعهما بعينيه وهو يبتسم بكل تجاعيد وجهه.

***

زهـور وحـب وحـنيـن

تأليف: أو. ميـجا O. MEGA

من أيسـلندا

كنا نتنزه على صهوة جوادين بحذاء "الفونس". فى هذه النقطة من الطريق، ترتفع الهضبة فوق مستوى وادٍ متسع وخصيب، فى ثلاثة انحدارات رأسية وعرة تتخللها صخور بارزة تشق الأراضى الخضراء وأشواك العوسج. و"الفونس" هو نهر صغير يجرى بين شاطئين تحف بهما الأشجار؛ يهبط من الجبال، ومجراه كله محفوف بالمساقط المائية والشلالات الساحرة. وما أن يصل المرء إلى نهاية المنحدر الأخير، حتى يكتشف، فوق مستوى الوادى، امتداد الهضبة كلها، وتضم عينه سلسلة من السهول الحجرية قليلة النباتات، تتخللها هنا وهناك مستنقعات وبرك، وعلى مدى البصر، أشجار القرو فوق الجبال العالية. الجو الصحو الجميل والنور الصافى يجعلانها تبدو أقرب مما هى عليه فى الواقع. وفيما وراء الجبال، تبزغ القباب السماوية الزرقاء للجبال الثلجية من الداخل، ذلك عالم القمم بكل روعته وجماله وسحره؛ وهو أكثر جمالاً فى هذا اليوم المنير من أيام الصيف، بلا غيوم، حيث يذوب كل شىء فى كتلة من درجات اللون الأزرق الفاتنة.

حينما يتقابل صديقان من أصدقاء الطفولة، بعد فراق دام سنوات عديدة، فإن شعوراً بالحرج يفسد صراحة انفعالاتهما الأولى. كيف يتكلم المرء بحرية بعد كل هذه السنين من الأحداث التى لم يشارك فيها الآخر؟

"فين فاججيرستون"، عالم النبات، كان قد جاء ليقضى عدة أيام عندى. كنا قد كبرنا معًا، جنبًا إلى جنب، ومزرعة والده، فى ذلك الزمان، كانت بجوار مزرعتنا. وأنا حاليا أقوم بإدارة مزرعة أبى، لكن والد " فين " وهو أستاذ جامعى، كان قد غادر البلدة منذ زمن بعيد، ليقيم فى إقليم آخر فى منطقة نائية. ولم يعد "فين" إلى الناحية أبدًا. وكنت قد سمعت بأنه بعد أن انتهى من دراسته الجامعية، أقام فى الخارج. ثم سافر إلى آسيا عضواً فى إحدى البعثات العلمية. وكان قد عاد إلى أيسلندا منذ عدة سنوات، حينما قرر أن يقوم بزيارتنا.

لطالما فكرت فيه، واندهشت لأنه فضل أن يقيم فى الخارج على أن يبقى فى مسقط رأسه. وكنت قد تزوجت من أخته ماريا، ولما كان من واجبى، طبقًا لخطة قديمة، أن أخلف والدى فى إدارة ضيعة الأسرة، فقد كنت أعيش مع ماريا فى هذه المزرعة الكبيرة مع والدىّ اللذين مسهما الكبر. كنا دائمًا نتحدث عن "فين"، وكنا نشعر بالأسف لأن دراسته فى علم النبات جعلته يقيم بعيداً عنا هذه السنين الطويلة. وكم كانت مفاجأتنا وفرحتنا إذن، حينما قرر "فين" ذات يوم أن يقوم بزيارتنا.

فى اليوم التالى ليوم وصوله، اقترح علىّ أن نقوم بنزهة على صهوة الجواد، ورحلنا معا، كان يرغب فى أن نسير بحذاء النهر ونصعد إلى الهضبة. وقد رحبت بهذه الفكرة. وخيل لى أننا فى عزلة الجبال، وفى ذلك الجو الأليف لشبابنا الأول، وفى هذه الطرق التى كنا دائمًا نحب أن نتجول فيها بالساعات، يمكن أن نستعيد شيئًا من صداقتنا الأولى التى كنت أعتز بها كثيراً. كان كلما صعدنا نحو قمة الهضبة، تغير موقفه. وأصبح أكثر تلقائية وابتهاجًا.

– عجبًا، لم أكن أعتقد أن ذكرياتى بهذا الوفاء... وأرانى لم أنس شيئًا، ولا واحدة. كأننى لم أتغيب أكثر من يوم أو يومين. هذه المناظر كلها أليفة لى كما كانت قبل عشرين عاما. وهذا اللون الأزرق، الأزرق العجيب الذى نجده هنا فى كل مكان. رائع أن يرى المرء كل شىء بالعينين نفسها كأن شيئًا لم يتغير. والواقع أن شيئًا لم يتغير.

الطبيعة لا تتغير فى عشرين عاماً، أو تتغير قليلاً جداً حيث لا نلحظ ذلك، إلا إذا وقع زلزال أو انهيار أرضى، أو إذا انحسرت الغابات تاركة مساحات منها تتحول إلى الفلاحة والمراعى كما لاحظت فى ضيعتك. أنظر... هذا حدّ هيجسلوب. وأشار بإصبعه إلى كومة من الحجارة المهجورة.

– فيما مضى كانت حداً مرتفعًا كثيفًا من العسير أن يدمّر.

فقلت :

– مع الوقت، نالت منه العواصف، وانهار فى النهاية بالكامل. ومع ذلك، فهى خسارة كبيرة. كان ينبغى أن أتنبه لذلك وأعيده كما كان.

وابتسم "فين".

– سنتوقف عند عودتنا وسنحاول أن نرمّمه.

كنا قد بلغنا سهل الرمال والحصى، وجعلنا الجوادين يسيران خبًا. وعند نقطة معينة، توقف "فين" وجعل يتطلع حوله. وتغيرت ملامحه ورأيته حزينًا. فاحترمت شعوره، وسرت خلفه دون أن أقول شيئًا. وراح يتطلع حوله ويبدى بعض الملاحظات حول ندرة النباتات التى تنمو فى جانب الهضبة. وبلغنا مجرى النهر. وهنا توقف "فين" ونزل من فوق الجواد وقال:

– فلنحاول ألا نجعل الجوادين يدوسان الزهور.

وأمسكنا الجوادين من اللجام، وجعلنا نجتاز الطريق حريصين على ألا نمشى فوق الزهور. كنا نتقدم ببطء، وكان لا بد لنا من بعض الوقت لكى نبلغ الموضع الذى يلتقى عنده فرع النهر الفاتر بالنهر نفسه. وما أن وصلنا، حتى جلس "فين" على حجر منبسط.

وضع مـرفـقـيـه على ركـبـتـيـه وسند ذقنه على يده، وراح يتـأمل حـوض الزهور والنباتات والنهر الذى كان يجرى حول الصخور. لم نكن نتكلم. وقد شعرت بانفعال شديد من صفاء هذه الواحة الجميلة، الذى كان اكتشافها فى هذا المكان غير المأهول شيئًا مثيراً. كنت قد عشت كثيراً فى هذه الناحية من البلدة وطالما اجتزت هذه المرتفعات على صهوة الجواد، وكنت أعتقد أننى أعرف كل تفصيلة فيها، لكننى لا أذكر قط أننى رأيت هذا الموضع. وقررت الآن أن أعود إليه إذا أتيحت لى الفرصة بصحبة ماريا لكى تشاهد معى هذا المكان الساحر الذى كنا لا نعرف بوجوده. وبينما أنا غارق فى أفكارى، كنت أنصت لخرير الماء فى النهر، حينما نبّهنى صوت صاحبى يقول كأنما يحدث نفسه:

– هيه، نعم، هنا.

– ماذا تقصد؟

– آه! لو رويت لك القصة لاتهمتنى بالجنون. وقد يكون معك حق. مع مرور الزمن، بدأت أقول لنفسى إن ذلك كان من عبث الطفولة. ثم إننى ما كنت أتصور أننى سأعود إلى هنا أبداً. هل تذكر فتاة تدعى إليزابيث كانت قد جاءت لقضاء الصيف عندنا أثناء إقامتى الأخيرة فى الضيعة؟

– نعم، أذكرها، اذكر إليزابيث. أذكرها جيداً. كانت فتاة شقراء جميلة زرقاء العينين... أشبه بياقوتتين. نعم. وكنت أنا أحب ماريا فى ذلك الوقت، وكنت أريد الزواج منها. كنت قد قررت أن أقضى حياتى كلها معها. فى حين كانت إليزابيث تلك... اسمع إذن، أظن أنك كنت تخرج معها دائمًا فى ذلك الوقت. أخبرنى يا "فين" هل كنت تحبها؟

فهمهم "فين" بصوت مكتوم، دون أن ينظر نحوى.

– لم أكن الوحيد. يا إلهى، كم كانت جميلة! ولكن، ماذا أقول؟ كانت فاتنة... ساحرة. وكنت مجنونًا بها.

– أعترف بأنها كانت جميلة. ولكن لا شىء كان يوحى بأن إعجابك بها سيدوم طويلاً. كانت فتاة غريبة الأطوار. كانت لا تتحمل أن يراها شاب ولا يقع فى غرامها. فمع أنها كانت تعرف أننى خطيب ماريا، فإن ذلك لم يمنعها من عمل مقدمات وتمهيدات.

– صحيح؟

– صممت أن أقبّلها. لكننى قلت فى نفسى لو أننى قبّلتها، فلن ترد لى القبلة كنوع من التدلل والغرور. هكذا كانت. لذلك حرصت على ألا أقبّلها. فاضطرت إلى البحث عن غيرى.

– كانت لديك ماريا. فكان بوسعك أن تقاوم. ولكننى أتساءل بصراحة إن لم تكن قد أشبعت رغبتها. لا يهم. استمع إذن لقصتى معها.

"ذات يوم، عرضت علىّ أن نقوم بنزهة على صهوة الجواد، فوافقت وأنا أطير فرحًا. ورحلنا. كنت أنا أعرف هذه المنطقة، وكنت أحب أن تراها معى. كانت ركنى السرى، فقلت لنفسى إن جمال المكان قد يؤثر فى الفتاة ويقرّب من قلبينا. تعرف أن ذلك حدث قبل عشرين عامًا – وكنت أنا فى العشرين من عمرى – والمرء يكون ساذجا فى هذه السن. لم أكن غادرت أيسلندا أبدًا، ولم أكن صاحب خبرة بعالم البنات وكنت قد وقعت فى غرام إليزابيث بمجرد أن رأيتها للمرة الأولى. وأمام أول تشجيع منها وهو لا يعدو أن يكون الحيلة التى كان يحلو لها أن تلعبها معك – لقد أدركت ذلك الآن – فقدت صوابى بالكامل. وقررت أن تكون هى زوجة حياتى، وأن أضع مصيرى بين يديها. كنت أذوب حبًا من أجلها، ولم يكن هناك ما هو أهم من ذلك بالنسبة لى. لم يكن

ذلك مجرد نزوة مراهق رومانسي، كنت أحبها حقًا، وما زلت أحمل آثار ذلك، ولا أعتقد أن هذه الآثار ستنمحي أبدًا.

"كنت أحاول أن أخفي عنها مدى حبي لها خشية أن أغضبها أو أن تنفجر ضاحكة؛ ولكنني كنت أشعر بأنها تستطيع أن تقرأ أعمق أسراري. وكانت كل نظرة منها، كل كلمة تقولها، تبدو لي محملة بالسخرية".

"كان قد مضى على وجودها في المنطقة فترة غير قصيرة، حينما طلبت مني ذات يوم أن أقوم معها بهذه النزهة على صهوة الجواد.

لم أصدق! إليزابيث، تلك الإلهة المعبودة، تختارني أنا، العاشق الولهان، لأصحبها في نزهة. وما أن بدأنا الطريق حتى جعل حديثها يأخذ منحى شخصيا، لم تمر دقيقة واحدة دون أن تتحدث عنك. كانت تقول لي إنها تجد لك ملامح جذابة... إلخ، وأنها تحسد ماريا لحصولها على مثل هذا الفارس الساحر. حيث فهمت أنها كانت مفتونة بك.

فصحت قائلاً وأنا أضحك:

"هذا جنون. صحيح أنني كنت أجدها جميلة، وربما جرى بيننا بعض المغازلات، لكن ذلك كله لم يكن بشكل جاد. كانت تعرف أنني أحب ماريا. أراهن على أنها كانت فقط تريد أن تثير غيرتك، أو تفتعل بعض القصص، وكان ذلك من طبيعة خلقها.

واستطرد "فين" وهو يقطب جبينه:

– فكرة أنك خطيب ماريا، ما كانت لتصرف إليزابيث إذا كانت تريد حقًا أن تكون لها.

باختصار... حينما وصلنا إلى هذه البقعة المنخفضة، نزلنا من فوق الجوادين كما فعلنا الآن؛ كل ما هناك أننا بدلاً من أن نربط الجوادين، تركناهما يسيران براحتيهما

فوق البساط الأخضر. وجلست أنا فوق هذا الحجر نفسه. وجلست هى أمامى فوق هذا المرتفع الصغير. وكانت النسمة تداعب شعرها. هل تذكر شعرها؟ وعينيها! مازلت أرى الآن نظرة عينيها اللطيفة وهى تبتسم لى. ولا تفصيلة واحدة انمحت من ذاكرتى! شىء غريب! مازلت أرى كل ملمح من ملامحها، كل تعبير، حتى حركات رأسها وجسدها، حتى مداعبة الريح لشعرها. ذراعاها الطويلتان النحيلتان... يداها الرقيقتان. وصدرها المستدير... ساقاها الساحرتان. كنت فى غاية التأثر، ومع أننى كنت أود أن أقضى الساعات أتأملها دون أن أقول شيئًا، فقد حاولت أن أنظر بعيدًا حتى لا أضايقها أو أن أثير سخريتها. كيف تمكنت من أن أحتفظ فى ذاكرتى على مدى عشرين عامًا، بجميع دقائق حالتى النفسية؟ يبدو لى أن ذلك كان بالأمس... كان قلبى ينبض فى أذنىّ وكانت هى ترمقنى بنظرة خبيثة. كنت أشعر بالخجل والشحوب... كنت أحاول يائسًا أن أستعيد رباطة جأشى. فقد كنت أخشى سخريتها... وبقينا صامتين. وبطبيعة الحال، كانت تنتظر أن أبدأ الحديث.

كنت أفتش فى رأسى عن شىء أقوله لها، بينما كانت تتأملنى من خلال رموشها الطويلة وتبتسم لى دون أن تحاول مساعدتى، كانت تتركنى أصارع، ولعل ذلك كان الجانب القاسى من طبيعتها. وفجأة وبينما كان ينظر كل منا إلى الآخر، أو لا ينظر، تبعًا للحظة، رأيتها بيدها اليمنى التى كانت مدسوسة فى العشب خلفها، تنتزع بعض الزهور وتلقى بها فى النهر وهى لاهية. كانت أصابعها تنتزع الزهور من منابتها وتلقى بها فى النهر. كنت أتابعها بعينى، وأراها وهى تطفو فى المجرى حزينة كاسفة، بعضها يتمزق وبعضها يحتفظ بنفسه سليمًا من أى ضرر

وشعرت بإحساس غريب. خيل لى أننى نمت فترة طويلة، وأننى نهضت بعد غروب الشمس. كنت أرتعد. كل هذه الزهور، هذه المخلوقات الحية الضعيفة التى نسحقها بكل هذا الاستهتار وهذه اللا مبالاة، وكل هذه القسوة. كنت قد صحبت إليزابيث إلى هذا الركن الجميل معتقدًا أنها ستعجب بجماله وسحره، وأن روحينا، كم كنت رومانسيا!

ستتوحدان لحظة أمام هذا المشهد الرائع، مشهد هذه الزهور المتفتحة فى عزلة هذه الهضبة النائية. أذكر الآن الصدمة التى انتابتنى وأنا أرى تلك اليد الرقيقة الحانية، التى كان مجرد مسها الخفيف يملأنى بالسعادة، تتحول أمامى إلى مخالب طائر جارح. لقد ثرت لذلك.

لعلنى أكون حساسا بطبعى. لكن الزهرة بالنسبة لى مخلوقة حية، من حقها أن تعيش. والزهرة التى نجحت فى أن تولد هذا الميلاد المعجز وأن تتفتح بين هذه المرتفعات الحجرية، هى أحق بالحياة، وتستحق معاملة أفضل من هذه المعاملة البلهاء. إنها لم تقاوم الأسابيع والشهور، البرد والرياح، لكى تأتى إنسانة مستهترة وعمياء لتلهو باغتيالها وهى منصرفة إلى التفكير فى شىء آخر.

"هذه الخواطر لم تدم أكثر من ربع الثانية. وتملكنى الغيظ، وقبل أن يسعفنى الوقت لأدرك ما كنت أفعل، سمعتنى أعلن لهذه الفتاة التى كنت أعبدها قائلاً: ماذا جرى لك لكى تنتزعى هذه الزهور على هذا النحو وتلقى بها فى النهر؟".

ولا بد أن الغيظ قد أثر فى صوتى وفى تعبيرى، لأنها ظلت مأخوذة عدة لحظات. لم تكن تلك هى العبارات التى كانت تتوقع أن تسمعها، ورأيت أن ملاحظتى وقعت عليها وقع الصفعة القوية. فتأملت أصابعها بصورة آلية. ثم حطت عينيها علىّ مرة أخرى. وطرحت رأسها إلى الوراء فى غضب، وضاقت عيناها شيئًا ما أشبه بعينى القط، وقطب حاجباها واحمر وجهها. وبدت مجنونة من الغيظ، ولكن يجب أن أعترف بأن الغضب كان يزيد من جمالها.

وقفزت واقفة. ورمتنى بصوت حاد قائلة: "كيف تجرؤ على مخاطبتى بهذه اللهجة؟ هل فقدت عقلك؟ أنتزع زهوراً... حلوة! وكنت أظن أنك رجل، إنك حقًا... أيها المسكين الصغير! تسمى هذه زهوراً، هذه الأعشاب التافهة! وأنا التى كنت قد بدأت أشعر

نحوك بشيء من الحب. ظننتك رجلاً. ما كنت أتخيل أنك لست سوى طفل صغير ينتحب بالبكاء لأننا آذينا زهوراً تافهة".

وهكذا. وضربت إليزابيث الأرض بقدمها، وهي في قمة غضبها، وأشاحت عني بوجهها وأسرعت إلى جوادها ودست قدمها بعنف في ركاب السرج، وقفزت فوق الجواد. ورحت أتابعها بعيني. يا إلهي، كم كانت جميلة، وكم كانت حركاتها فاتنة! حورية بحق. لم أعرف في حياتي امرأة بهذا السحر.

"وجعلت أنادي عليها يائسا: "إليزابيث، حبيبتي، لا تتركيني، اسمعيني!".

وبصوت يبحّه الغضب، صاحت بي قائلة: "كنت أظن أنك رجل. كنت أظنك جديراً بأن أحبك، جديرًا بأن تحبني. الآن أنا أكرهك... أنت لست سوى منافق! وألهبت الجواد بضربة من السوط فانطلق يعدو نحو الوادي. أما جوادي، فقد انتصبت أذناه، وراح يتابع بعينيه الفارسة وجوادها اللذين كانا ينطلقان بحذاء النهر. كان يبدو عليه أنه يتساءل عن معنى ذلك كله، ولماذا يهجروننا على هذا النحو".

وصمت "فين" ونظر إليّ مبتسماً، وقال:

– هذه هي القصة. من أجل بعض الزهور البرية، فقدت حب حياتي.

فسألته قائلاً:

– هل كان ذلك يستحق؟ لعلك أنت الوحيد الذي يعرف ذلك.

ولما لم يرد، فقد نهضت وامتطينا صهوة الجوادين. وظللنا نسير لحظات ولحظات، حينما قال:

– أعرف تمامًا أن ملاحظتي جرحتها جرحًا عميقًا، فقد رأت أنها ملاحظة غير لائقة، في غير مكانها، في مثل تلك اللحظة. هل أحسنت صنعًا بتصرفي هذا؟ لا أدري.

وهنا قلت أذكره :

- يجب ألا ننسى أن نرمم الحد المنهار عند عودتنا . وبالمناسبة. إليك قصة قد لا تهمك. فقد حدث قبل عامين، أن جاءت إليزابيث بصحبة زوجها لزيارتنا . وطلبت جواداً، وشاهدناها تنطلق وحدها بحذاء النهر فى اتجاه الهضبة - إنها حتى لم ترض أن يلحق بها زوجها . ولمّا لم تعد، بدأنا نشعر بالقلق، ورأينا أن نخرج للبحث عنها . لكننا رأيناها تعود عند هبوط الليل، وعلى الرغم من إلحاحنا، أصرت على السفر فوراً إلى العاصمة. وكادت تتشاجر مع زوجها حينما وجدت أنه متباطئ فى الرحيل.

فهمهم "فين" قائلاً:

- عجبا!

واستأنفنا طريقنا فى صمت. وحينما وصلنا قرب الحد المنهار، هز رأسه قائلاً:

- أعتقد أن من الأفضل ألا نمسه، فلنتركه كما هو.

***

ترومبـــــــا

تأليف: ج. نافيس G. NAVES

من مدغشقر

منذ فترة طويلة، كانت السماء قد تحولت إلى ما وراء الخط الأزرق الذى تمثله التلال التى توشّى الأفق. وفى الغابة المعبّقة بعطر نباتات الفصيلة السحلبية التى بدأت تتفتح، ثمة موجات من نور القمر يبدو أنها حجّرت بعض الأشباح.

أما القرية القابعة أمام ستار حقولها من السافانا، حيث خيال الخنزير الوحشى يتحرك خفية، فهى ساهرة لا تنام.

وفى البيوت أطفئت النيران، وشرعت الناموسيات. ومع ذلك فثمة لغط غامض يجرى حول أحدها. ومن الأركان المظلمة كانت تنطلق ضحكات متشنجة لبعض نسوة يتعرض للدغدغة، وهمسات صبية يتحرشون بالجميلات، وسباب مكتومة لصبية يتنازعون عقب سيجارة وطنية.

جمهور فى حاوية من التنورات المزركشة. والأجسام شبه العارية، والشعور المضمخة حديثًا بالزيوت أو الدهون. جمهور وسط طنين مكتوم لأصوات بشرية مختلفة تتخللها مطالع أغنيات أو صيحات. جمهور من الرجال فقط حول كوخ. وجمهور بالداخل، لكنه هذه المرة يتألف أغلبه من النساء.

نداءات تتصادم وصيحات تختلط. نتبيّن بينها الأجنبى أو الغريب؛ بعض جاء من أقصى البلاد، ولأسباب؛ لأن هذا المساء يقام احتفال القرية، احتفال على دقات الطام طام وأغانٍ قديمة من العصور الغابرة. والليل ستّار، والفتيات متساهلات وسيسيل الخمر أنهاراً... ربما لأن الشراب لا يمكن فصله عن المباهج البشرية.

ووصلت آخر مجموعة من القادمات الواحدة تلو الأخرى، فتكدّسن فى الحجرة الوحيدة التى تمثل الكوخ. وفى الخارج، الرجال يجلسون القرفصاء بدورهم، ويسود الصمت الذى يشوبه همهمة خفيفة.

ثلاثة ذكور أو أربعة من العارفين بالأمور صحبوا النساء إلى الحجرة. هم وحدهم يتمتعون بهذه الميزة هذا المساء.

وسرعان ما خرج أحدهم، والتفت نحو الغرب، ووضع فمه على صدفة ضخمة، نوع من الودع البحرى، راح رنينها يختلط بالريح فيخرج نغمات حزينة.

إنها الانتيسفا، آلة موسيقية مقدسة يجب - بأى حال - ألا تستعمل بعد غروب الشمس، اللهم إلا فى احتفال الترومبا.

الترومبا! موضوع احتفال الليلة. سيظهر الشيطان الخفى من كائن بشرى، وأطلقت آلة الانتيسفا نداءها إلى الأرواح الغابرة نحو الغرب... ولعل ذلك فى ذكرى تلك الأرض الإفريقية التى جاء منها أسلاف قبيلة ماكوس على هيئة عبيد.

وجعلت آلة الانتيسفا تبكى وتصدر نغمات حزينة تجتاز حدود الأشجار الضخمة التى تنام فى فرشها المعلقة فى الغابة، ثم يختفى الصوت بعيداً فى طيات الأمواج التى تغوص فيها النجوم.

وكإشارة بدء، ومن بين الجموع المنتظرة، دوّى صوت بالغناء. وفى البيت جعلت عشرون يداً نسائية تصاحب الغناء بالدق دقّاً متصلاً مضاعفاً على الطام طام فى

منتصف الحجرة. إيقاع سريع، متصل، بنغمات مختلطة ومقاطع متهرئة وأصوات نشاذ تشد الأعصاب وتصيبها بالخدر على المدى، وتخلق نوعًا من السحر الذى لا يقاوم.

وحول ضاربات الطام طام الجالسات القرفصاء، يتكدس الحضور قدر الاستطاعة، وسط رائحة وحشية من الزيوت والعرق المختلطة بالدخان. وثمة رجل يعزف على آلة تذكر بالغابات، وآخر يبحّ صوته بلحن أفريقى قديم.

وفوق الكوبانا، وهو فراش حشيته من البامبو، يجلس زعيم القرية فى مكان الرئاسة وبجواره أمبيلوزا تتفكر. فهى التى يقام الترومبا من أجلها.

حاليًا، هى تتفكر، وهى تشعر برضى غامض فى أعماقها، وجعلت تتأمل تحركات الأجسام المتلاصقة. سينجح الاستقبال.. وتحركت برهة وهى تشعر بشىء من القلق على الرغم من كل شىء، وتفكر فى ذنبها، الذنب الذى اقترفته وأغضبه، هو، الترومبا الخاص بها... خوف غريزى يمتزج به شعور بالمتعة المحرمة الغامضة.

أمبيلوزا... المرأة الكاملة... كان لها اسم آخر، فى الماضى، أيام الأجانب.

***

كان الساحر إيجابيًا وقال لها:

– ستدمّرينه إذا رفضك. وسيرفضك، لأنه يعرف الطقوس.

وتنهدت قائلة:

– وهى؟ ألا أستطيع أفعل شيئًا ضدها؟ بمجرد أن ترحل، سيعود لى؟

وحرك الرجل أكوام الحبوب الصغيرة المصقولة، وغاب فى تأملها. وقال:

– سترحل. لكنه لن يعود إليك.

واصطبغت عيناه الصغيرتان بنوع من السخرية.

- ولكن.

- ولكن ماذا؟

- أستطيع أن أعطيك حجاباً.

حجاب؟ نعم، هو ذاك. ذلك كل ما كانت تريده. ووافقت. واتفقت على الثمن. ثم أضاف العجوز قائلاً:

- انتهى، الطالع ليس فى صالحك. تريدين أن تتسلقى جميع الدرجات فى غمرة عجلتك المتلهفة لاكتشاف سعة السماء. ستتوقفين فى السحب وستذكرين أنك فى قاع الوادى تلمحين وسط ضباب السحاب، قطعة من اللازورد لن تعثرى عليها بعد ذلك.

ولم تحاول أن تفهم كثيراً، لكنها بكل بساطة أخذت الحجاب الذى قدمه لها فى مقابل ورقة مالية والديك الأسود الخاص بالطقس، ثم توجهت إلى البيت الأبيض ضائعة وسط الشمس المحرقة، ذلك البيت الذى كانت تعتقد أنه بيتها إلى الأبد، والذى تهيمن عليه الآن الأجنبية الدخيلة كما كانت تهيمن على قلب الأجنبى ومشاعره.

بياتريس، هذا اسمها، وهى كجميع النساء البيض، كانت تشعر بالفخر والاعتزاز، جميلة، هكذا يصفها السيد. وكانت أيضاً هشة كالطفل الوليد، ولها نزوات كثيرة. أما هو فقد كان يخضع لها، هو الذى كان فيما مضى الآمر الناهى، القاسى فى بعض الأحيان. إن أمبيلوزا لا تفهم لماذا اتخذها صاحبة فى حين كانت لديه زوجته التى يمتلكها، الخاضعة الوفية الملبّية لجميع رغباته. لا بد أن البيضاء أسقته شراب السحر. لا شىء غير ذلك. "لكن شرابى سيكون أقوى".

تسللت إلى البيت كالعادة، وبدأت تمارس عملها اليومى المعتاد، عمل الخادمة المطيعة التى صارت إليه. كان الحجاب المسحور الذى يغلى فى صدرها يضرم حنقها الدفين.

وقالت فى نفسها وهى تعالج المكواة فوق الموقد: "يجب أن أضعه فى أحد أشيائه".

وحينئذ وقعت الكارثة. شىء ما سقط فوق رأسها، فانتفضت، وتبين لها أنها نقطة من دهن الخنزير الذى كان ينضح وهو معلق فوق مستوى الفرن.

الدهن! هذا الحيوان النجس! لقد مست يدها الحيوان النجس. وندت عنها صرخة مدوية، فى حين كان يعتصر قلبها وسائر أعضائها ألم مفاجئ.

ونسيت كل شىء. لم تعد تذكر شيئًا... هل يمكن أن يكون غير ذلك؟ لقد قاما بطردها، هو وهى. لكن الحجاب كان قد أفرغ فى أحد الدواليب.

***

كان الزعيم، بجوارها، قد نهض وجعل يوزع على الدائرة محتوى القرعات المليئة بمشروب العرق والعسل والتمر. وسمعت صيحات تقطع الغناء وراح كل شخص يجاهد لكى يحصل على جرعة. أما أمبيلوزا، فقد بقيت وقد جف حلقها، تحسد فى ضميرها صاحباتها اللائى يشربن، فى حين كان عليها أن تكتفى بالانتظار.

ولكن سرعان ما التهبت أكفّ الضاربات على الآلات من جديد. وسمعت أنشودة حزينة يصحبها كورس بأصوات حادة. والجميع يتمايلون برءوسهم وقد أدفأ بطونهم الخمر اللاذع الحريف.

ومضى الوقت، بلا أدنى عجلة، تتخلله ترنيمات ودعوات وابتهالات. وحمى الوطيس والتهبت الأيدى بالقرع والحلوق بالنبيذ، فى انتظار المجهول.

وهاهى أمبيلوزا تتفكر، وبجوار أذنها الغناء والطبول. وفى الخارج الريح تهب. لكنها تنصت فى أعماقها فيما وراء النبض المتسارع، فيما وراء اللحن المستمر.

ذكرى الساعات العصيبة التى تلت المخالفة اللا إرادية للتابو أو المحظور. فترات الهدوء التى تلتها الأزمات العنيفة التى كانت تنتابها، وليس لها دواء سوى عملية التعزيم والسحر التى تجرى هذا المساء.

وهمهمت قائلة "ترومبا...".

وغامت عيناها وانتكس رأسها فى هدوء.

ثم، وفجأة، انتصبت واقفة. وعوت بصوت ليس فيه شىء من أصوات البشر وتوترت جميع عضلاتها توترًا شديدًا، وقفزت قفزة دخلت بها حلقة الطام طام. وراحت يداها تدق حتى دميتا، وتراقصت أشباح غامضة على وجهها الذى تبدّلت ملامحه، وخرج من فمها زبد قليل.

وارتفع إيقاع الغناء، وجاوبته فى الخارج ريح عصفت فجأة. وصاحت صيحة أخرى رهيبة ... ونهضت، وقد شحبت وجنتاها وتقلصت يداها. وحول جسمها، جعلت ثنيات التنورة تنقل رعشة الساقين الشديدة، وهما ثابتتان بشكل غريب.

ومكثت على هذه الحال متشنجة، فريسة رعب لا تصفه الكلمات. واستمر الطام طام يدوى والأنغام تتوالى. وإذا بلهاث مكتوم ينفخ صدر المرأة. وصاحت مرة أخرى وحشرجت فى شبه نحيب ضعيف.

وفجأة شرعت تدور. فى رقصة ليس لها اسم ولا وصف. تشنج يشبه أزمة الكزاز. ورقصت. وبدأت هزات ارتجاجية تسرى فى كتفيها العاريتين البرونزيتين. وخرجت

منها كلمات بلا تتمّة، متقطعة تصاحب الدق المجنون للأرض الذى تؤديه الساقان اللتان تدوران فى سحابة من العفار.

وفى الخارج، انطلقت عاصفة هوجاء عفرت بالرمال الأجساد المكدسة، وتزلزلت الأكواخ الضعيفة، كأنما أثارتها الأنّات المسحورة.

وانبهر الحضور بالمشهد وطأطأوا الرءوس، بينما العيون مصوبة على المرأة. ورقصت هى فى دوامة شيطانية، تتخللها وقفات مفاجئة عنيفة تصيب بالتوتر جميع أوصالها التى راحت تهتز هزات تكاد تحطمها تحطيماً. وفجأة انقضت على الضاربات وفرضت على الطام طام إيقاعًا سريعًا يصيب بالدوار.

وفى الخارج ضاعفت العاصفة من ضجيجها وجعلت تلهب الأكواخ والأعشاب فى صفير يصم الآذان.

عاصفة عاتية تزمجر فيها جميع قوى الليل البهيم، ونهضت أمبيلوزا منتصبة. وراحت ترهف السمع فى سكون، وعيناها مخبولتان، تمثال من الرعب يسيطر عليه الشيطان الرجيم. ثم ضحكت ضحكة رهيبة، إبليسية عبرها نفثُ المجهول.

وضحكت - بكاء أم نحيب؟ - صراخ أم أنين؟ فى حين استمرت يداها تشرشران التنورة. وصال الطام طام وجال، وسمع تهكّم عجيب، كأنه الصدى، خرج من السافانا التى تعصف، عاقدة حناجر الكلاب التى تعوى عواء مستميتاً.

إنه سبت مجنون يدمر كل شىء.. بينما هى ترقص. حفلة باخوسية يتصل فيها الجسد بالخفى عن الأنظار فى حركات محمومة ولهاث شهوانى يتمخض عن ضحكة مجنونة.

وفى حشرجة ضعيفة خلعت ثيابها. وبدأت ترقص عارية، وأصابعها تعبث بطريقة محمومة بصدرها بثدييه القاسيين، وبطنها الذى سرت فيه رعشة شديدة. استمرت

ترقص والطام طام يدق. ترقص، كتلة من اللحم والأعصاب الثائرة تنهشها الرغبة والدعوة.

وسرعان ما جرى العرق خطوطاً لامعة وتناثر فوق الشعر الأشعث، واصطبغت وجنتاها بلون النار، وراح الجسد يتلوى لدعوة أو لقربان. وندّت عن شفتيها المضمومتين بشكوى غريبة غطّت على ضجيج الغناء والموسيقى. وبدأت تغنى خطيئتها، وتوجه لنفسها السباب. إنه ترومبا قرينها الذى يتكلم بلوغاريتمات غير مفهومة، عويل تقطعه الدموع، عجز كائن يتعذب... واستمرت ترقص وتصرخ فى عريها المنتصر.

وحول بعض مصابيح الغاز ونار الحطب، تكدست النسوة خشية أن تنقض عليهن المرأة. لأنها كانت تبحث ... وعيناها فى كل اتجاه تدوران، تحملقان، بحثًا عن عصى أو مطرقة أو أى شيء تضرب به أو تجرح به نفسها. لقد حضر ترومبا قرينها، بداخلها، ويجب أن يضرب، أن يعاقبها على الخور الذى أيقظه.

وجعلت تدور والعرق يتصبب منها، تفجرُ قوىً غامضة. زلزلة جسد تغلى فيه عصارة ملعونة.

وجعلت الأيدى فوق آلات الموسيقى تزداد سرعة فى طنين مكتوم، امتزجت فيه جميع الإيقاعات. لم يعد هناك سوى مجموعة من الأصوات النشاذ المكهربة حيث يبلغ الخوف والهوس قمتهما.

واستمرت تبحث... تتحرر... تهتك هذا المقر، هذا السجن الذى جُنّ فيه جنون الآخر، وقد أسكره الهياج. وحلّ النحيب محل الشكوى على شفتيها... تتحرر.

وأومأ الزعيم بإشارة إلى الرجال. وفى اللحظة نفسها، راحت وهى تعول تلقى بنفسها على الجدران. ولكن سبقتها عشرة صدور جعلت من نفسها سوراً. حاجزاً. واستمرت تحاول.. صدمات مكتومة بالرأس على الأجساد الجامدة.

وارتدت، وعادت إلى منتصف الحجرة، أشبه بقاراقوز يتفسخ وينعقد فى أوضاع شهوانية أو فاضحة. وجعلت تتوسل فى حين انطلقت الدعوات والابتهالات الجماعية.

وبعد دوامة أخيرة من الفخذين المتوترين، جمدت بعنف، على جسد مقوس، ويداها تحرثان الثديين.

وفى آخر هبّة، زلزلت الريح البيت، وارتدت هائجة إلى النخيل، ثم فرّت فى موجة هائلة فى السافانا، نحو الغرب، هناك، فوق المحيط، حيث لا تزال السماء الصافية تحمّم نجومها.

وصمت الطام طام. وسرت ضحكات يشوبها القلق بين الحاضرين. لقد حل الهدوء فجأة، سكون غريب.

وإذ أصابها الإرهاق والتعب، انهارت المرأة. وظلت لحظة تنتفض، ثم هدأت أعصابها وتراخت عضلاتها. ونهضت، بنظرة غائمة، كالشبعانة الراضية. وألقت إحدى صويحباتها إليها بتنورة ... لقد تم كل شىء. لم يبق سوى طقطقة النار التى يسعّرها بعض، وضجيج الجمهور الذى يفيق من نومته الغريبة، وفوق كل شىء، سكون الخلاء النائم الذى تشعشعه أصوات الصراصير.

وعاد عازفو الطام طام من جديد. وبدأ توزيع القرعات والسجاير. وشربت أمبيلوزا بدورها.

والآن، قد يبدأ ترومبا آخر لشخص آخر... ربما من الآن وحتى الفجر... هناك وقت للانتظار. وهناك شراب التوكا، ولا أحد يرغب فى النوم.

وفكرت فى خطيئتها، فى الصديق الأجنبى الذى بقى هناك، فى مدينة نكدة، تحت الشمس، نكدة كأفكاره هو، لأن المرأة البيضاء قد ذهبت. رحلت، طردها الأودى.

وفكرت أمبيلوزا، وقد تطهرت، فى كلام الزعيم... "ستدمرينه إذا رفضك.." دُمّر؟ لقد دمّر بما فيه الكفاية من الشراب والحزن والهجران. وبقى الأبيض وحده، يفكر فى المرأة التى اختفت، فى ثرائه الذى يتبدّد، وربما من يدرى؟ فى فتاته السمراء الشهوانية التى يسمونها أمبيلوزا.

***

شـــمـــس

تأليف: إيزابيل جراندامى ISABELLE GRANDAMY

من مدغشقر

خفّ ضجيج العجلات، ثم اختفى. وابتعد الطريق عن البحر؛ ثم التقى معه مرة أخرى بعد خمسة كيلومترات أو ستة، فى قرية أمبانالانا الصغيرة. ومنذ اختفت المنازل الأخيرة، لم يعد الطريق ممهداً، ولكن الأرض المدكوكة على الجانبين المنخفضين كانت ناعمة بالنسبة لعجلات الدراجة، هذه الدراجة التى تحمل معها كل صباح إلى أمبانالانا عالماً من الأفكار السوداء والرومانسية الهائجة، نعم، الرومانسية، على الرغم من هذه المظاهر الرياضية وهذا الشورت وهذا الظهر البرونزى الجميل.

يا إلهى، ما أشد الحرارة! هذا طبيعى يا سيدتى، فى شهر نوفمبر فى تاماتاف، حتى فى الساعة الثامنة صباحا. لقد نبهك زوجك لذلك. روبير المسكين! ذهب إلى المكتب فى الوقت الذى كنت تخرجين فيه الدراجة؛ وقد عاد أدراجه لكي يقبّل، بكل رقة، وبكل حنان، ظهرك العارى؛ إنه يتألم حينما يشعر بأنك بعيدة عنه ويكره نظام حياتك الحالى؛ لكنه يحبك ويريد أن تعرفى أنه يغفر لك.

المنزل؟ المنزل الذى لا تهتمين به يمشى تقريبا؛ فقد تلقى الطباخ أوامرك مساء أمس، والدادة تهتم بالأطفال جيداً... جيداً... هل مثلك؟ أوه! أعرف أنك عديمة الإحساس بوخز الضمير، وأنت تتألمين كثيراً من التفكير فى الأطفال، وأنك مريضة، أيتها الفتاة

الجميلة، بمرض فى الروح يجعلك لا تكترثين للحزن فى نظرة الرجل الذى يحبك، بل لا تكترثين لحنان صغارك. أنت لا تعرفين نفسك، ولم يبق أمامك سوى الرغبة فى تحليل نفسك، وأن تلاحظى فيها هذا الديكور الجديد، هذه الأنانية التى حتى لا ترعبك، بل تقرّفك بكل بساطة؛ ولكن المرأة منا يمكن أن تجد متعتها فى أنها تشعر بالقرف.

نعم، تلك المرأة الخلاسية الضخمة الخائرة فى عربتها ذات العجلتين، هى قمة القبح وقمة البلاهة... وليس هذا سبباً يجعلك تدخلين فيها؛ لقد تفاديتيها فى آخر لحظة؛ والسباب الذى وجهته إليك من شأنه أن يسلّيك إذا كان بإمكانك أن تسلى نفسك. أنت تهينين أقدس مبادئها، وأنت تعرفين ذلك جيدا، بتحدّيك للحياء والشمس فى وقت واحد؛ شبه عارية بلا غطاء رأس ولا نظارة. وهى لا تعرف أن الشمس تحبك، وتحب أن تصبغ باللون الذهبى ثديبك اللذين تقدمينهما إليها كل صباح، وفخذيك الطويلتين. وهى لا تعرف شيئًا عنك... لا تعرف أنك تفكرين فى الاختفاء، لكن هذه الرغبة ليست من القوة بحيث تدفعك إلى ارتكاب فعل حاسم؛ وهذا داؤك: الرغبة فى لا شىء، ولا حتى فى الموت؛ الملل، الملل الذى لا ينتهى من إحساسك بأنك لم تعودى تحبين شيئًا وتعتقدين أنك غير قادرة على التألم، أيتها الطفلة الصغيرة السعيدة جداً... وأصبحت لا ترغبين إلا فى الوحدة والتمرينات البدنية، كعلاج.

... نعم، أحب كثيراً هذا الممر تحت أشجار المانجو؛ النور أخضر وأنا أتقلب فى بقع هائلة من الشمس... والواحة علمتنى أخيرا أن أحب". لا أستطيع أن أقطع هذا الجزء من الطريق دون أن أقول هذا البيت الأبله من الشعر الذى جاء على خاطرى المرة الأولى التى مررت بها من هنا؛ أريد أن أقاوم هذا الشكل التلقائى فى التفكير الذى أجده أحمق ومهينًا، ومقاومتى له تضطرنى إلى استعمال هذه الجملة التى أرددها الآن عند كل لفة عجلة. حسنًا! ها قد سقطت سوبيكتى! الحقيقة أننى لا أكون واثقة من نفسى بتاتًا وأنا على الدراجة. وهذه صراحة كبيرة مع نفسى، لأننى أفضل أن أموت ؤألا أعترف بها علنًا: يكفى أن أرى حفرة أو حجراً كبيراً فأتوجه إليه مباشرة؛ أنجذب؛

وفى اللحظة الأخيرة أعمل عادة الحركة الضرورية لتجنبه، ولكن يبدو لى دائمًا أن شخصًا آخر هو الذى حوّل عجلة القيادة بدلاً منى وأنقذ الموقف.

هذه هى أول أكواخ قرية أمبانالانا؛ وأنا أتساءل كم من الوقت أنفقوا لبناء أحدها؛ ثلاثة أيام؟ الأعاصير ليس لها أى أهمية؛ قرى الشاطئ ساحرة، نظيفة جدًا بالنسبة لقرى الهضاب العالية؛ ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أحقق ما يعمله بكل بساطة هؤلاء الناس الذين أنظر إليهم من أعلى هذه الحضارة التى أميل إلى الاعتقاد بأننى فى قمتها.

كلما ازددنا حضارة، ازددنا غباوة وعجزًا أمام الطبيعة. هذا كوخ صيادى؛ لم يعد بعد من صيد السمك؛ اليوم المفروض أن يحضر لى جمبرى. هذه شمسيتى، وزيتى، وتنورتى الخاصة بالبلاج، وحبتا جوز الهند. سكينتى... فتحة، فتحتان... كم هو طيب ومنعش! أى شخص يمكن أن يسرق دراجتى التى أتركها على الطريق؛ لن يفعل ذلك أحد. هذه ميزة أخرى فى صالح البدائيين.

"الشمس والبلاج ملكى، ملكى أنا وحدى. بلاج طويل يمتد تحت الشمس بين البحر وبعض أشجار الجوز الخجولة التى لا تجرؤ على التقدم وتحافظ على مسافة احتراما. ما أغباها! الرمل ناعمة وساخنة.

آه، هذا صياد! يمر بطيئًا؛ يرتدى رداءه "السالاكا" أفتح قليلاً من بشرته الكستنائية. وهو يحمل على كتفه عصا بامبو فى طرفها خُرْج قديم؛ وماذا بداخله؟ لقد مرّ. لم يرفع بصره نحوى وأنا عارية. فيما مضى كنت آتى حركة لأغطى نفسى بمئزر؛ حركة فاجرة من متحضرة وجودها غريب هنا. إن الملاجاشى البدائى لا يندهش من عريى تمامًا كما لا يندهش من الطائرات التى يراها أحيانًا فى السماء، هذه "شئون البيض" التى لا تخصه، التى لا يحاول أن يفهمها ولا يبالى بها.

"أحب جسدى. زيت الجوز الذى دلّكت به نفسى يجعل جسدى لامعًا وناعمًا ولينًا كالثعبان؛ لكنه ساخن، والشمس تصبغه بلون الذهب فى رفق. أحيانًا تعضّنى خفيفا، كعاشق حقيقى. وجهى فقط وبالذات عيناى لا أتركهما لها تمامًا؛ أحيانا تكون قاسية. برازيلاس، عزيزى برازيلاس يجب أن يكون سعيداً لأننى أقرأ هنا سطوره المضيئة، هو الذى طالما أحب حرارة الرمال، وطعم الملح على الظهر، والشمس - والحياة. قد لا يحب روحى؛ إنها بقعة قاتمة فى هذا الضوء.

قد يكفى أن تدعى صديقتك الشمس تتسرب إليه يا سيدتى... لكنك لا تريدين، لكنك تعجبين بنفسك وأنت داخل هذه الودعة السوداء، ولا ترين العالم إلا من خلال ثقب لم يغلق بعد. الحمد لله، شعاع النور هذا الذى يسرى هناك هو خلاصك؛ انظرى، أيتها اللعينة من هذا الثقب الصغير؛ ماذا ترين؟

... أرى نقطة من العرق بين ثديىّ؛ تتردد ثم تهبط، تهبط، وتضيع. سيتعيّن علىّ أن أغوص فى الماء لكى أنتعش... شىء رائع، هذا الإحساس بالانتعاش العابر فى جسد مبلل بالأمواج... موت فى غاية السهولة... سبب أبله يمنعنى... الخوف من أسماك القرش.

ولم هذه الكارثة؟ نعم، لم هذه الكارثة؟ إن سبب مرضى نفسه يدهشنى ويحبطنى. أنا مبللة تمامًا وساخنة وأستبصر على حين فجأة؛ ولا حتى حب كبير. ولا حتى ولد مثير للعواطف. كلا.. مغامرة صغيرة دون أجنحة مع ولد تصرّف كالحمار معى. حتى لو كانت القصة جميلة! ولكن لا.

فقدت حبى لزوجى، حبى لأبنائى (لا أكاد أجرؤ على قول ذلك. ومع ذلك أعتقد حقًا أننى لم أعد أقوى على حبهم)، حبى للحياة؛ لم يعد لدى شىء. هل أحببته على الأقل لحظات؟ كنت أحب هذا الوجه، وجه الطفل الشهوانى العبوس، وشفتيه... وشعره. كم كان غبيًا! يا إلهى، كم كان غبيًا! كان بإمكانه أن يحصل منى على كل

شىء، بشىء من المهارة: ماذا أقول؟ جلافة أقل. كان يكفى أن يتركنى أحلم، مجرد ألا يقطع حلمى. لم يفهم. كلا إنه لم يتركنى أجّمل على طريقتى مغامرتنا بشىء من الشاعرية، لكنه سفّه كبريائى. جرحنى وتألمت كثيراً. وخاب أملى حيث لم أستطع أن أجد الشجاعة لأسبح ضد التيار. والآن، وأنا أسير على غير هدى.

... انتعاش لبن جوز الهند حينما يكون المرء عطشان... لا أجيد الشرب بإلقاء الشراب فى حلقى دون أن تمسه شفتاى، فأسقط بعضه فى رقبتى فيسيل حتى فخذىّ. ثقيل، غير مريح، لكننى لا أستطيع أن أنزع القشرة السميكة الخضراء اللبنية التى تحيط بالجوزة، لأنها تحافظ على انتعاشها. حسنًا. لقد خدرتنى الحرارة قليلا. أشعر بأننى سحلية، صحيح إننى كلّى سحلية، وأنا ممتدة على بطنى، لا أشعر إلا بإحساس الشمس التى تلهب جسدى، يتشرّبها جسدى وتليّننى كورقة النشافة المبللة. لم تعد بى قوة. ولا تفكير.

بل ولا حتى أن أذهب لابتل فى الماء. لطيف أن يرى المرء العالم من منظور السحلية. الرمال أمامى ترتفع بالجنب على السماء؛ تتناثر عليها حجارة بيضاء، تلمع كالنجوم، وبقايا أصداف وردية. ثلاث مجموعات من نخيل بلا جذوع معلقة فى السماء أعلى أفقى من الرمال على بعد خمسين سنتيمترًا من عينى.

يا لها من صورة عجيبة يمكن أن نلتقطها. وغرست فى رفق يدى فى الرمال الساخنة، فشعرت بشىء صلب أخرجته إلى النور... حجر صغير مستدير أملس، ناعم، لعب به البحر ثم طرحه على الشاطئ، أى جريمة ارتكبتها أيها الحجر؟ كان بإمكانك أن تذهب بعيدًا، بعيدًا، تقوم برحلة جميلة! ما أغباك!

وفوق ذلك، غباوة الكتابة! تصرف أخرق - بل سماجة - فى كل مرة أقرأ فيها هذه الرسالة، أشعر بالجرح نفسه، ودائمًا الابتذال نفسه. نعم، وهذه الطامة الكبرى، لا طاقة به. لأننى أعرف أنه كان يشتهينى، أحب هذا الشعور، وأحب أن يشتهينى. وليس

بمستبعد أن أهبه نفسى يوماً من الأيام. إذن، إذن، هذا الذى كتبه، هل هو خطير إلى هذا الحد؟

لم أكن صريحة مع نفسى كما أنا الآن، ولكن لا أحد يفهمنى. أستطيع أن أقول كل شيء ويجب أن أفهم، أن أفهم نفسى. أيتها الشمس التى تسربت بداخلى، لقد جعلتنى فجأة شفافة. لن أدافع عن نفسى بعد الآن. باختصار هذا الانقلاب الكبير قد لا يكون سببه سوى قلة ذوق ... لكنها قلة ذوق تعنى الكثير حول هذا الحجر الصغير الأبيض، وتثبت أننا لسنا من تكوين واحد، من جنس واحد ... قرون تفصل بيننا؛ كنا بعيدين كل البعد عن بعضنا بعض، لم يكن بمقدورنا أن نتلاقى؛ هذا الخطأ، سوء الفهم هذا، شعرت به على حين فجأة وأنا أقرأ هذه الرسالة الرهيبة؛ شعرت بأننى تزلزلت، انسحقت، تمزّقت. القسوة ضارة دائمًا... لقد ترنحت، وفقدت اتزانى لأننى أعيش فوق رمال متحركة، ملأى بالأحلام، وأننى لست مرتبطة بالواقع بأى أساس صلب. كان ينبغى أن يشعر بذلك، هو. أوه! أى جبلّة تلك التى يتصف بها مرء يكتب لامرأة عاشقة، عاطفية، مضطربة، تشعر بوخز الضمير على حافة الخطيئة التى تجتذبها: "هل تريدين أن تنامى معى، نعم أم لا؟ إذا نعم، قررى، إذا لا فوداعا".

"هو لم يعبر بالضبط هكذا. لكن هذا هو المعنى. أقل ما أستطيع أن أقوله هو أنه كان غبيا للغاية. شعرت بخيبة الأمل، بخيبة أمل كبرى. لم يكن بيننا شيء مشترك. ربما كان هناك ما عرضه علىّ؟ لكننى حتى ذلك اليوم، كنت دائمًا أخلط بين ما هو من شأن الروح وما هو من شأن الجسد. ربما كنت أنا المخطئة أيتها الشمس، يا صديقتى، التى امتلكتنى بالكلية، تزعمين أننى أخطأت..." وضحكت شمسى الأخيرة فى خاتمها الضخم. ومع ذلك يكفى أن تصبحى بنفسجية فى جمشتى الكبير حتى أصبح أنا التى على حق وأن أعود أميرة نائية - بلا فارس، للأسف!

لماذا، للأسف؟ أيتها الشمس، أيتها الشمس، أنا فى الخامسة والعشرين من عمرى، حان الوقت لكى أكف عن الطفولة وأن أثق فى حقيقتك، وأن أطلّق كل هذه

الرومانسية الزائفة. إن عناق السحب خداع - خاصة حينما لا نملك طاقتها ومداها؛ جناحاى أصغر من اللازم. لو كنت شاعرة، لنسيت أسماك القرش ولوثقت فى البحر الذى سيجذبنى بعيداً، بعيداً عن العالم. جميل أن أهبه جسدى الساخن الذى يهدهده لحظة، برقة، ليطرد منه كل الشمس التى تتشربه حتى يصبح بارداً، بارداً كحجر جميل أبيض. أعرف أننى لن أفعل ذلك. فأنا من الأرض وأنا من الحياة وسأمتثل للشفاء بفضلك، أيتها الشمس؛ ينبغى أن أمزق هذه الرسالة التى احتفظ بها إلى جوارى وأخفيها كداء يثير الخجل - يحلو لنا أن ندميه. مات الوحش، وتبخّر سمّه، وسيكون فى مقدورى من جديد أن أعود إلى "روبرت"، استسلم لرقته وأولد من جديد مع الحب.

"هذه الرسالة التى لا ينبغى أن يعرفها، هى سرّ يفصل بيننا. وما دمت أنا أحتفظ بها، لن نكون صديقين. يجب أن أتخلص منها. أوه! أيتها الموجة النهمة التى فى جسدى، لن أهبك هذا الجسد اليوم. الغواية السيئة تنمحى وتتبدد أشبه بالحلم؛ هى الشمس التى أذابت كل ما كان بى من زيف، كبريائى الزائف، خيالى المريض؛ وها هو عقلى يصحو من خدره، ويستعيد انتعاشه وتألقه، خالصاً صافياً من كل ظل طفيلى. ومع ذلك فسأعطيك شيئًا أيها البحر الكبير الخائن! سأعطيك من أجل أن تحطمها، بكل هدوء، هذه الورقة المغضنة التى ألقى بها بعيدا بقدر ما تملك قواى، وبداخلها، ليثقلها، حجر جميل أبيض".

***

مشـــاركـة

تأليـف: هـــ أ. كـوتيـن H. A. Cutten

من نيوزيلندا

أعلن "سام" بلهجة متفكرة وهو يعتمد على جاروفه:

- يوجد كاوتشوك طيب فى الغابة. لن يلبث المستنقع أن يتحول إلى بحيرة ولم نعد نجد كاوتشوك فى الأراضى المرتفعة.

وتطلع إلى رفيقه وقال:

- لماذا نتعفن هنا فى الوحل طوال الشتاء إذا كان بإمكاننا الحصول على تصريح باستغلال أشجار الكورى فى الغابة؟

ونزع "جول" بكل هدوء حربته من الطين وانتصب وهو يدمدم قائلاً:

- ولكن الغابة بعيدة جداً.

فأردف سام ساخراً:

- بعيدة جداً عن ماذا؟

وخاض الشريكان فى الوحل حتى كاحل القدمين.

وكانت يد جول تضغط على مقبض الحربة.

- يا إلهى!

كانت تنتابه أحياناً رغبة عنيفة فى أن يزرع حربته فى ظهر سام، وأن يسمّر شريكه فى العشب الكثيف. سبحان الله! تلك هى نتيجة أن يقع رجلان فى حب امرأة واحدة! ولا يكف "سام" لحظة واحدة عن إثارة زميله، والسخرية منه بلا رحمة، ومن شعوره الرقيق نحو ابنة اللويتسكى. أما "جول" فقد ندم على تفكيرهما فى العمل فى حقول الكاوتشوك، إذن لما عرف "صوفى". ذلك هو مصدر الشر كله.

كان "سام" يتقدم دائماً، يغرس حربته بطريقة علمية. وقال بغلظة:

- جول يا صديقى، يجب أن نعرف كيف نقدم التضحيات، إذا أردنا النجاح. العمل قبل المتعة، أليس كذلك؟ (قالها بتهكم) ولا تنس أننا إذا حصلنا على تصريح فسنصبح كلانا على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً من صوفى. أليس فى ذلك سلوى؟

وقال جول فى نفسه "هو على حق"، ولا حاجة لحساب الساعات والتعذيب كالمحكوم عليه بالإعدام حينما يكون "سام" فى المدينة، ولا حاجة لمراقبته خفية وتفحص وجهه حينما يعود ليلاً إلى الكوخ وعليه علامات الرضا والثقة بنفسه. إذا لم يقابل صوفى فى المدينة، أيام البريد، فإن سامى أيضاً لن يقابلها.

ولحق بصاحبه.

كانا يتقدمان بصعوبة، جنباً إلى جنب، والطين الذى يتقطّر من حذاءيهما يشكل خلفهما بركاً صغيرة رمادية. كانا يميلان إلى الأمام، بينما الحربتان تغوصان ببطء فى الطين، مترقبين اللحظة التى يصل فيها القضيبان إلى الكاوتشوك بعد أن يغوصا فى الجذور والطبقات والصخور، وهى عملية معقدة للغاية. ومرة كل مرتين يعتقدان أنهما على الكاوتشوك، فإذا بهما لا يجدان سوى بعض جذوع الشجر المتفحمة.

وسرعان ما غادر سام المستنقع وهو يخوض فى الوحل، ووقف فوق التل، وراح يجول بنظره ناحية الجنوب.

– يوجد كاوتشوك طيب فى الغابة، فى متناول اليد؛ تراه بالعين المجردة ولا تحتاج إلى الخوض فى الطين، كالخنزير، لكى تجمعه، نحن هنا نشقى ولا نقيم أودنا، بصرف النظر عن حسابنا فى البنك الذى لا يرتفع قيد أنملة.

وظل جول مزروعًا فى الماء الموحل، شارد البال، زائغ النظر فيما لا نهاية، فيما وراء كآبة حقول الكاوتشوك.

– وكم من الزمن يلزمنا لذلك؟

فأجاب سام على الفور:

– ثلاثة أشهر. ولعلها تكون فرصتنا الأخيرة لاستغلال الأشجار.

وألقى مهمازه وجاروفه وحربته بجوار خرجه، وأخرج من علبة التبغ قصاصة ملفوفة من صحيفة، وقال:

– خذ! اقرأ هذا.

ولحق به جول فوق التل. ولما كان ضعيفًا فى القراءة، فقد اجتهد، وجعل يتعتع فى القراءة، معطيًا لنفسه الفرصة بين كل كلمة والأخرى للتفكير والفهم.

– "تقرير حول غابة أشجار الكورى فى ويبويا. ويللينجتون، فى ١٨ مارس ١٩٠٨.

"تقرير البروفيسور ل. كوكين حول غابات الكورى فى الشمال يثبت بوضوح أننا ينبغى أن نتوقف عن إصدار تصاريح شتوية للباحثين عن الكاوتشوك الفقراء. يبدو على ضوء هذا التقرير أن قطع أشجار الكورى انتشر كثيرًا، وما هى إلا مسألة وقت، حتى...".

وهنا قاطع سام صديقه وقال:

- أنت قرأت ما فيه الكفاية لكى تفهم ما أريد أن أقوله. من المحتمل أنهم فى العام المقبل لا يصدرون تصاريح للشتاء بعد ذلك.

ولوّح سام بقصاصة الصحيفة وضرب بها على ركبته وقال:

- هذا الأستاذ، هذا العالم، بكلامه هذا الطنّان الرنان، يريد أن يقول إن أشجار الكورى ستختفى من الوجود إذا لم يمنعوا من هم على شاكلتنا من قطعها.

ودمدم جول ونزع، وهو يتفكر، بقع الطين الملتصقة ببنطاله.

- أين يمكن أن نحصل على هذا التصريح؟ من أين يجب أن نبدأ؟

وانتصب سام بنوع من العجرفة، وألقى خرجه فوق ظهره وقال:

- أنا عملت كل شىء فعلاً، لم يبق سوى أشياء بسيطة.

فدمدم جول قائلاً:

- أنا شككت فى الأمر منذ البداية. أنت قررت الحصول على هذا التصريح، هه؟

فرد صاحبه قائلاً:

- يجب أن نحصل على بعض النقود، بطريقة أو بأخرى، أليس كذلك. على أى حال، "مات" سيرحل غدا بالبريد، بإمكانى أن أصحبه فأقضى الليل عند "شارلى" حيث أجد فراشًا وإفطارًا، وسأعود غدا مع غروب الشمس.

وأعطى جول موافقته بإيماءة من رأسه، وألقى بخرجه على ظهره. وتوجها فى بطء نحو كوخهما.

وأضرم سام النار، وأشعل جول شمعة جديدة ثبتها بعناية فى عنق الزجاجة؛ فانتشرت على الفور سحب من الدخان داخل الكوخ. وشرع جول يسعل ويتأوه.

– قلت لك ينبغى أن نرمم هذه المدفأة. حينما تهُب ريح الشرق تطال قمة المدفأة فترتد إلينا وتؤذينا.

– حسنًا، يا صديقى، حسنًا. لن نعفن هنا على أى حال، أليس كذلك؟ قلت لك سنحصل على تصريح فى الشتاء.

وغرق جول فى أفكاره؛ وبعد شرب الشاى، وبينما سام ينام وهو فى ملابسه، شرع يحك الكاوتشوك وهو يتفكر فى صوفى.

كان كل سبتين، ومعه دفتر الشيكات، يقطع مسافة خمسة كيلومترات التى تفصله عن المدينة، ليأتى من هناك بالبريد وبالتموين؛ وهناك يقابل صوفى لويتسكى صهوة جواد يجر عربة. أنها أول امرأة يراها فى البنطال.

كان جول يجهل كل شىء عن صوفى. أهلها وأصلها وأخلاقها، كل ما كان يهمه هو أن يمتلك هذه الفتاة ذات الساقين الطويلتين. وهو حاليا يكتفى بالسير بجانبها. يوم السبت، ويده فوق ركاب السرج الجلدى وكتفه تمس ركبتها.

وكان إذا وصلا إلى حيث تسكن أسرة صوفى، على ارتفاع الطريق، يقيد العربة فى الشجرة ثم يحاول أن يقبل الفتاة بين العشب المرتفع. أما هى فتطوح شعرها بشىء من اللوم الرقيق والضحك الجميل. وتسبقه إلى الجواد قبل أن يمسك بها. ثم تلتفت إليه موجهة بعض عبارات المزاح وتلوح بيدها حتى تختفى تمامًا فوق قمة التل.

وكل سبتين، كان "سام" أيضًا ومعه دفتر الشيكات، يتوجه لإحضار التموين. بينما "جول" ينتظر عودته وهو يغسل الكاوتشوك ويحكه. غارقًا فى أفكار سوداء تدور كلها حول الموضوع نفسه: ماذا كان يفعل "سام" وهو فى المدينة؟

وفى صباح اليوم التالى، فوجئ "جول" حينما نهض من النوم بسام الذى كان قد سبقه إلى النهوض، وهو منهمك فى حلق لحيته على نور الشمعة. وهما لا يحلقان إلا اليوم الذى يذهبان فيه إلى المدينة. ثم عادت له ذاكرته، وظل وهو متمدد فى الفراش

يرقب صاحبه: إن حقده القديم يصعد إلى حلقه فى موجات من الغيظ حينما يرى أن "سام" يعدّ البنطال والحذاء المخصصين ليوم الأحد، ويهتم، فوق ذلك، اهتمامًا بالغًا بقصّ شاربه.

أما "سام"، وهو لا يدرى أن هناك من يراقبه، فكان يحلق ذقنه بفن وهندسة. فيسرى الموسى الطويل فوق خده فى بهجة وحبور.

وقال "جول" متهكمًا:

– هو حفل عرس إذن أم جنازة؟

فانتفض "سام" وجرح أذنه. وحينما شاهد "جول" الدم يسيل من "سام" شعر بارتياح غريب. وأردف يقول بلهجة ساخرة، وهو يقفز من فراشه على الأرض:

– الأستاذ عصبى؟ أعتقد أنه لا ينبغى الاعتماد عليك لإعداد الفطور، هه؟

قالها وهو يخرج لإحضار الماء.

شعر "جول" بالسعادة حينما رأى "سام" يتهيأ للرحيل. أما "سام" فقد انصرف إلى تجهيز خرجه. ووضع فى جيبه المفاتيح ودفتر الشيكات والغليون وعلبة التبغ. ثم انصرف. كان عليه أن يقطع كيلومترين قبل أن يصل إلى العربة ذات الحصان الخاصة باللبان الذى يصحبه فى طريقه. وما أن وصل "سام" المدينة حتى أسرع إلى عربة البريد التى تتجه إلى الجنوب، وبعد يومين، سيعود ومعه التصريح.

فى ذلك المساء، أوى "جول" إلى الفراش مبكرًا، وفكر مليًا فى غابة أشجار الكورى، ورأى نفسه عائدًا من جولتهما حاملاً حصادًا هائلا من الكاوتشوك، وبعد ذلك وحينما غلبه النوم، كان قد با ع الكاوتشوك بسعر ممتاز، وبنى لنفسه كوخًا جميلاً من حجرتين، وعلى الباب كانت تنتظره صوفى.

***

كان "سام" قد رحل يوم أربعاء؛ ولدى عودته كان ينبغى أن يشترى التموين والتجهيزات الضرورية لرحلتهما إلى "ويبورا" حيث أشجار الكورى. ولكن حينما حل مساء الجمعة، لم يكن قد عاد من سفره؛ وبدأ "جول" يشعر بالحاجة إلى التبغ فقرر أن يذهب إلى المدينة فى اليوم التالى ليشترى ما يريد. ثم تكون فرصة أيضًا ليرى "صوفى". "صوفى" التى يشتهيها منذ زمن بعيد.

لكن "صوفى" لم تحضر إلى المدينة فى ذلك اليوم، فعاد جول بخفى حنين إلى الكوخ. وأنفق نصف الليل فى تنظيف الكاوتشوك قتلاً للوقت.

وفى صباح الاثنين، بينما الكاوتشوك الذى كانا قد جمعاه مكدس حول الكوخ، أقبل "سام" يتمخطر فى مشيته وهو يصفر مبتهجًا. وكان فى غاية الاهتمام بهيئته، لدرجة أن "جول" ظنّه تاجر كاوتشوك جاء من المدينة.

وتقدم نحو جول بخطى واسعة وهو يخبره بأنه عليه أن يستعد للرحيل، لأن "مات" ينتظرهما على الطريق ليوصلهما.

فاعترض "جول" وهو يكدس الكاوتشوك فى الجوالات:

– أنت قلت إنك ستعود يوم الجمعة. وها أنت تعود اليوم؟

فأجاب "سام" فى لهجة اعتذار:

– أنت لا تعرف يا صاحبى، هذه الموضوعات تحتاج إلى وقت. أشياء كثيرة يجب تسويتها، وأوراق كثيرة لا بد من توقيعها.

ودار على عقبيه وقد دس إبهاميه فى صديرته ممثلاً دور رجل الأعمال الخبير. ثم ذهب ليغير ملابسه، وارتدى ملابس العمل ثم انصرف. وفى الطريق شرح سام لصاحبه فقال:

– سيقوم "مات" بجمع الكاوتشوك لدى عودته. وسيضع النقود فى حسابنا.

فأمّن "جول" على كلامه. وتساءل لماذا يتهكم عليه "سام". كانت هذه الفكرة تنغص عليه طول الطريق.

وأوصلهما "مات" بالضبط قبل الغروب، فى المكان الذى يبدأ عنده الطريق الذى يفضى إلى طرف الغابة الشرقى. كان الجو بارداً.

وعلق "مات" الذى كان يرتعد من البرد قائلاً:

- **إن جمع الكاوتشوك هواية يجب أن يكون المرء عاشقًا لها. أما أنا يا أصدقائى، فأفضل وضعى على وضعكما. وأتمنى لكما التوفيق.**

فقال "جول":

- **لا تنتظرنا قبل ثلاثة أشهر. سنعثر فى الغابة على ما يكفى من الخنازير ومن الأصداف على الشاطئ. سندبر أمورنا حتى لا نموت جوعًا.**

وقال "سام":

- من يدرى؟ قد نرحل قبل ذلك بكثير.

فتحير "جول" من هذا القول، وبدأ يفكر فيه.

وفى صباح اليوم التالى، وبعد أن سار سام عدة كيلومترات نحو الجنوب، توغل فى الغابة فى اتجاه الساحل الغربى.

- هل تذكر حينما جئت لعمل جولة هنا فى شهر مايو تقريبا، لكى أجمع المعلومات؟ لقد قمت حينئذ بعمل بعض الحزوز فى بعض الأشجار هنا وهناك. كنت أمهد الطريق.

- دون تصريح؟ ما كان ينبغى أن تفعل ذلك. هذه مخاطرة كبيرة.

- هل تظن! الأشجار موجودة تقريبا على حافة الشاطئ. ولا أحد يمكن أن يغامر إلى هذا الحد. نحن الآن ذاهبون إلى هناك، المفروض الآن أن يوجد الكاوتشوك بكميات ضخمة على الجذوع.

ومع أن الشك كان يساور جول، إلا أنه تبسط ولم يحاول، ثم توغلا أعمق فى أنحاء "ويبورا" المعزولة، البرية الفاتنة. واجدين مشقة كبيرة فى شق طريق لهما من خلال تشابك الأشجار المختلفة بأوراقها التى تحجب الرؤية، خاصة فى تلك المناطق التى لا تتسلل إليها الشمس. وكان سام يتفحص الأشجار من حوله ويتعرف هنا وهناك على بعض الشقوق ذات الشكل الخاص وعلى بعض العلامات الأخرى التى كان قد علّم بها طريقه حينما جاء فى المرة السابقة.

وبلا تردد، توجه "سام" مباشرة إلى مجموعة من أشجار الكورى المنتصبة فى إحدى البقع المكشوفة من الغابة. وألقى صرّته على الأرض ورفع رأسه. ويزغ أمامهما عامود قطره ثمانية أقدام دون أى حز، يرتفع أملس نظيفًا مستقيمًا حتى ارتفاع شاهق يبلغ سبعين قدمًا حيث ينبت أول فرع. وسأل جول:

- أين وضعت الشق؟

- لا أرى أىّ حز.

وجعلا معًا يتفحصان الجذع الطويل الرمادى الذى تحيط به ظلال الغابة. وهنا أردف سام بلهجة تحدٍ:

- فى الفروع!

فهمهم "جول" قائلاً:

- أنت تعرف أن من المحظور عمل شقوق فى الفروع. فيبدو أن هذا يجعل المطر يتسرب إلى داخل الخشب مما يفسد الشجرة كلها.

فصاح "سام" باستخفاف قائلاً:

- يا سبحان الله! هذه الأشجار تنتشر على آلاف وآلاف الهكتارات، أليس كذلك؟

وفى غمرة استعجاله، فتح خرجه بدفعة واحدة وأخرج منه تمهوكا(*) وحبلاً ضخمًا. ثم هدأ قليلاً.

- على أى حال، نستطيع الآن وقد حصلنا على التصريح أن نشق الحزوز فى المناطق المسموح فيها أسفل الجذع. ولكننى لكى أرى فقط، سأتسلق إلى أعلى. والآن، ارجع أنت إلى الوراء.

وحاول "سام" أن يلقى بالحبل ليتعلق بالفرع لكنه لم يفلح. فتخلى عن الحبل لـ"جول" الذى حاول من جانبه ونجح فى تعليق الحبل بأول فرع فى الشجرة. وهنا قام "سام" بعمل العقدة وتأكد منها. ثم بصق فى يديه وتعلق بالحبل وبدأ الصعود. ظل يصعد مستعملا يديه وركبتيه وقدميه، يصعد عاليًا عاليًا.

وبدأ "جول" يشعر بألم فى رقبته من فرط النظر إلى أعلى. فتراجع قليلا وانتظر سقوط أول قطع من الكاوتشوك.

وفجأة بلغه صوت "سام" وقد طغى عليه انفعال شديد:

- أصعد بسرعة يا "جول". الكاوتشوك هنا موجود بكثرة، أكثر من طاقتى. هنا محجر حقيقى من الذهب! نحو خمسة وعشرين كيلوجراما، وربما أكثر. هات خرجك وأسرع، قبل أن يهبط الليل.

وبدأ "جول" يتسلق نحو غسق القمة ضاغطًا على الحبل بيديه وركبتيه. وقد أصابه جراء ذلك بعض الوخزات فى فخذيه مما شعر معه بمتعة حسية غريبة. وسرعان ما

(*) فأس يستعملها الهنود الحمر سلاحا وأداة.

برزت الأغصان فوق رأسه، وحينما نظر إلى أسفل وجد، على بعد خمسة وعشرين مترا من تحته، أرض الغابة تتماوج ضعيفًا فى نوع من الغيوم.

ونسى "جول" مؤقتًا الكاوتشوك. وانصرف إلى ما حوله من مناظر رائعة تكونت بفعل القرون. وخيل إليه أنه يستطيع أن يظل هكذا معلقًا إلى ما لا نهاية دون أن يمل النظر حوله. كان يدرك بطريقة غامضة ما يقوم به "سام" من عمل فى تقطيع الكاوتشوك.

وهنا جذب انتباهه شىء ما. مظروف لعله سقط من جيب "سام" أثناء صعوده. وفى مكان العنوان وجد أن الأمر يتعلق بكشف حسابهما فى البنك، الخطاب من المفروض أن يكون وصل أمس مع البريد. وهو موجه إلى الرجلين وهو مفتوح. لعل.. لم يجد "جول" فى ذلك شيئًا غير عادى ولم يشك فى شىء. كل ما هناك أنه مد يده وجذب المظروف وأخرج منه ورقة مطوية ففضها فى بطء.

وصعد قلبه إلى صدره. وصعد معه الحقد الدفين والغيظ المكبوت منذ شهور، أطبقت هذه المشاعر على حلقه وخنقته. وفى عنف الانفعالات التى تستبد به، غفل عن كل ما دون ذلك، وسمع نفسه يصدر صرخات ضعيفة غير مفهومة.

كان حسابهما فى البنك صفرًا. فانفجر لاعنًا:

– ابن الـ

وأدار "سام" نحوه؛ رأسه بشعره الرمادى اللامع ووجد أن أمره قد كشف. فتقدم نحو "جول"، ونفخ صدره وابتسم، علامة التحدى وقال بسادية واستخفاف:

– حسنًا، ماذا كنت تريد أن أصنع؟

– فهمت الآن لماذا بقيت فى المدينة كل تلك الفترة أيها الخنزير. وسكرت أيضًا، هه؟ أمن أجل ذلك ظللنا نعمل كالزنوج طوال الصيف؟ آه، يا إلهى! ألا تخجل، قل، ألا تخجل؟

– أنا لم أشرب نقطة واحدة من الخمر.

قالها سام وهو يهز رأسه عنيفا. ثم أضاف منافقًا:

– كنت فى حاجة إلى النقود، ماذا تريد! الزواج يكلف كثيراً.

فأسرع جول مستفسراً وهو ينهار على ركبتيه:

– ليس صوفى؟ تعمل هذه العملة... تأخذ المال وصوفى؟

فرد سام برقة وهدوء:

– نعم، المال وصوفى، وثلاثة أيام فى الجنة...

وصاح "جول" وهو ينهال عليه بالبلطة:

– حسنًا، والآن، اذهب إلى الشيطان!

خرج فى هذه الصيحة كل الحقد الدفين والغيرة المتراكمة منذ شهور. واقترب من "سام" على ركبتيه وهو يترنح ويتمايل، ولهيب القتل فى عينيه.

وعلى الفور غير "سام" من وضعه. وأنساه الخوف حتى ذكرياته، وشرع يدفع بطول الفرع، باليدين اللتين تتحسسان من خلفه، وبقدمه راح يبحث عن الحبل وعيناه مسلطتان على ذلك المخلوق المخبول الذى يقبل عليه زاحفًا فوق الطحلب، وفجأة شعر "سام" بأن قدمه تخونه. فأطلق عويلاً من الرعب وتشبث يائسًا بالفرع، قابضًا على كل ما تقع عليه يديه، نباتات وجذور وصدوع فى القشرة، بينما "جول" مائل عليه يقطع يديه بضربات البلطة.

وأخيراً عثرت قدماه على الحبل، فترك نفسه ينزلق فى الفراغ؛ ويداه الداميتان تحتكان بالحبل فتلتهبان بطريقة فظيعة، لكن تفكيره منحصر فى الهرب بأسرع ما يمكن، بأسرع ما يمكن.

وظل "جول" مائلاً فوق الفرع، وقد تملكه غيظ جنونى إذ يرى "سام" يهرب منه. لقد أصبح بعيداً عن متناول يديه، على بعد عشرة أقدام أسفل منه. وما هى إلا لحظات حتى يكون قد نجا بجلده.

وهنا تطلع "جول" إلى عقدة الحبل فوق الفرع، على بعد بضعة سنتيمترات من يديه. فراح يضرب بالبلطة بصورة وحشية ضرباً شديداً، بينما سام يترنح ويدور وهو يعول من الرعب.

وانقطع آخر رباط فى الحبل، فسقط سام كالحجر؛ ودوّت أنـّة طويلة رفيعة عبر الأشجار، وتردد صداها بعيداً فى الغابة.

ثم حل السكون التام.

وإذا بجول وهو راقد على بطنه يلهث، يتطلع إلى الشىء الميت على مسافة خمسة وعشرين متراً أسفل منه فوق أرض الغابة.

وأخيراً، رفع رأسه. فإذا بطرف الحبل المقطوع يتجه نحوه فى هدوء ورقة ليداعب خده.

عودة الجندى

تأليف: جورج جوزيف GEORGE JOSEPH

من نيوزيلندا

الموسيقى النشاذ التى يحدثها الصلباب المحتك بالصلب - الإيقاع المندفع الذى يهدأ ويبطؤ كلما تسلق القطار الارتفاع - وفى النهاية (كريشندو) ارتفاع متدرج انتصارى عند قمة المنحدر. تطلع من النافذة إلى الحقول التى سمرها الخريف، والخراف أشبه بحيوانات صغيرة خزفية، ذات لون أبيض قذر، تتجمع تحت أغصان الكوهاى(*) الجرداء بعين عابسة غير مبالية. ورأى السياج الخشبية الرمادية التى تقطع امتداد المراعى فى لا نهائية من المناديل الكاكية وقال فى نفسه: "الموسم كان جافا". صوت صفارة حاد... عرف أنه يقترب من المفترق وأن القطار بعد لحظات سيجتاز مزرعة "ستودّارت" العجوز. وتساءل هل العجوز ما زال حيًا. لقد كان الرجل الطيب قبل عامين عجوزًا منحنى الظهر - ثم استطرد فى نفسه: إذا لمحت "ستودّارت" العجوز فى حظيرة أبقاره، وإذا رأيته يتطلع نحو القطار، فمعنى ذلك أن كل شىء سيكون على ما يرام فى البيت. وإلا... ومال إلى الأمام. نعم، المزارع العجوز هناك، فى الشمس، وقد وضع يديه حول عينيه ليرى جيدًا. وعجب للانفعال الضعيف الذى شعر به حين رآه.

(*) أشجار مزهرة.

لقد علّمه الرجل العجوز السباحة وركوب الخيل وصيد السمك.. لقد كان فـى ذلك العصر عجوزا. كلا، حقا، لم يشعر بأى انفعال، وتساءل موضوعيا إذا كان كل شىء قد مات فيه فى اليوم الذى فقد فيه ساقه فى حقل الأرز. ذلك الذى تصعد منه رائحة كريهة.

وخفّ ضجيج القطار ليتحول إلى أنين طويل عابس. ونهض ويده على شبكة الحقائب وسحب حقيبته المصنوعة من القماش وعصاه. وأطلق القطار تنهيدة ضعيفة. واستند تحسّبا لآخر هزة قصيرة عنيفة. وقال بصوت مرتفع:

- "لقد وصلنا".

وبدأ يبتعد عن القطار بطيئًا وخرجه على ظهره، متطلعًا حوله - المحطة المصغرة، المقعد الخالى الذى كان قد حفر عليه الحروف الأولى من اسمه قبل اثنتى عشرة سنة. لم يكن أحد قد جاء لانتظاره. ولم يسبب له ذلك أى شعور بالمرارة، ولا خيبة أمل. لعل ذلك أفضل. ثم رأى رجلاً يقبل نحوه بخطى واسعة، وسمع صوتًا حبيبًا يقول:

- كيف حالك يا تاهو؟

وشد الرجل بقوة على يده. كان طويلاً، صدره أقرب إلى الضيق، من عمر تاهو تقريبًا.

- أهلا يا سام.

- سعيد لرؤيتك يا تاهو. أنا أخذت الحافلة. أعطنى الخرج.

- كنت تعرف أننى سأصل؟

- طبعًا. الأم العجوز أخبرتنى. بل هى التى طلبت منى أن آتى لانتظارك.

- كيف حالها؟

وشعر بأن الرجل يتردد قليلا.

- فى الحقيقة، ليست على ما يرام. يجب أن نعترف بأنها لم تعد شابة. هى الآن تناهز الكم؟ عامها السبعين؟

- لست أدرى. وكيف حال الآخرين؟

- ماشى الحال. "رانجى" أصبح شابا. سيذهب إلى الكلية العام المقبل، أما توى فلم تتغير. أنت تعرفها، فهى لا تتحدث كثيراً. الفصل كان جافا، ولكنه على أى حال كان طيبًا، بصفة عامة ليس هناك ما يدعو للشكوى.

كانا جالسين فى الشيفروليه موديل ٣٨. ولمح سام بزته لحظة وهو يهم بتشغيل السيارة.

- الميدالية الحربية. هه؟ كنت أتوقع لك ذلك. أبى حصل عليها عام ١٤ فى جاليبولى. كيف حال ساقك؟

- تعودت عليها.

ومضت دقائق كان يقود خلالها فى صمت. كانت السيارة كأنها تتحسس كل حفرة فى الطريق، قبل أن تنطلق.

- الحرب كانت قاسية، طبعًا؟

- رهيبة. ليس عندك فكرة عنها.

وضاق الطريق. وصارت العلامات التى تتركها السيارات خلفها أكثر عمقًا، وجعلت السيارة تتقدم باحتراس.

- حسنًا، ها قد وصلت يا تاهو، الكوخ لم يتغير، هه؟

وتأمل المنزل الصغير ذا الجدران الصفراء، ولفافة الدخان التى تصعد ملتوية من المدفئة الصغيرة. وتأمل حواجز السياح التى لم يُعتنى بها منذ مدة طويلة، والمسالك العشبية المتآكلة، وأحواض الوزّال التى نبتت من كل ناحية. وشعر بأن رفيقه يضطرب، على غير سجيته. وقال كأنما ليبرّر موقفه:

– كنا نأتى من آن لآخر لمساعدتهم. عملية صعبة بالنسبة لتوى ورانجى. حلب الأبقار والعناية بالماشية. لا يزالان يواصلان. كل مرة يأتى أحدنا ليعينهم، ويدرس التبن وغير ذلك، لكن...

فقال فجأة:

– نعم، أفهم. كم قيمة الوقود؟

– لا شىء. الأسبوع الماضى نامت "بيريل" وهى مصابة بنزلة شعبية. وقد أحضرت لنا الأم العجوز ذكر بط وبيضة. لطيف من جانبها.

***

كان الباب مفتوحًا؛ فدخل فى هدوء. فرآها جالسة بالقرب من المدفأة. وبينما كان ينظر إلى الوجه العجوز المجعد، والعينين الصغيرتين اللامعتين، واليدين الملساوين، ظل قلبه فارغًا باردًا. وقال فى نفسه: "أجل، سام على حق، لقد كبرت أمى. ومع ذلك فثمة شىء ما فيها لا يستسلم؛ عزة نفسها، عزة نفسها الغريبة". وانتظر أن تتكلم، وهو يعلم أنها تنتظر، من جانبه، أن ينطق الكلمات الأولى. ومع ذلك فكانت هى التى قطعت الصمت:

– صباح الخير، يا تاهو.

– صباح الخير، يا أماه

تكلمت بلغة البيض، وكذلك هو. وترك خرجه على الأرض، واعتمد بكل ثقله على العصا؛ فقد أصابه فجأة إرهاق شديد. وبإصبعها أشارت إلى الكرسى أمامها، فجلس. وفيما كان يبسط ساقه الصناعية، رأى الشفتين المجعدتين ترتعشان:

– أين توى ورانجى؟

– فى الحظيرة. هذا وقت حلب الأبقار. لقد اضطررنا إلى ذبح بعض الحيوانات. وماتت ثلاثة بعد رحيلك.

وشعر فى صوتها بشىء من التأنيب:

– لم يبق سوى عشرة.

وحل الصمت بينهما. وبدأ دق ساعة الحائط فوق المدفأة يعلو متجاوزاً الحدود. واستهلت على استحياء قائلة:

– وساقك.

– لا تقلقى. أمرها لا يزعجنى البتة.

وسمع وقع خطوات، ودخلت "توى" ومن خلفها "رانجى"، ابنها. كانت "توى" هى أرملة أخيه الكبير الذى مات. تقدمت نحوه ومست يده دون أن تقول شيئًا. فقال فى نفسه: "لقد زادت نحولاً عن ذى قبل". والتفت إلى رانجى الذى بقى على استحياء قرب الباب. خلال عامين، أصبح غلاما قويًا طويلاً كبير العضلات، جميل الوجه. وابتسم له بشىء من الخشية. وقال تاهو فى نفسه: إن من الواجب التعرف على رانجى. كأن أحدهما لا يعرف الآخر، لأن الفجوة التى تفصل المراهقة عن الطفولة شاسعة. وتذكر تاهو بوضوح العصر الذى تحول فيه هو نفسه إلى رجل، والتغيير الذى طرأ على حياته العاطفية فى ذلك الوقت. كان ذلك بمثابة انقلاب عميق، بعده لم يعد الرجل يتعرف على

الطفل الصغير الذى كان. وتطلع إليه رانجى منتظراً أن يبدأ الرجل الخطوة الأولى. فقال تاهو مبتسماً:

- أهلا يا رانجى.

وبسط يده نحو الشاب. فأشرق وجه رانجى وأسرع نحوه.

***

بعد الفراغ من الطعام. شرعت توى فى رفع الأطباق. وتابع تاهو بنظره أمه التى كانت تعود بصعوبة إلى كرسيها فى ركن المدفأة. ونهض ووضع كمية من الحطب فى الموقد، وحطم بساقه، ساقه التى من اللحم والدم، الشظايا التى كانت تتناثر خارج المدفأة. ثم جلس وحشى غليونه. وقال لأمه:

- يخيّل لى أن الموسم كان جافًا أعجف.

فهزت العجوز رأسها.

- منذ شهر تقريبًا لم تسقط نقطة مطر.

وتجرأ رانجى وقال:

- نحن نشترى السماد والعلف للحيوانات من شركة الألبان

فقال:

- لماذا؟

ولم يزد حتى رأى ملامح الرعب على وجه الشاب. فنظر إلى أمه وقرأ فى عينيها الاتهام الذى لا تجرؤ على توجيهه. " نعم، لقد اضطررنا إلى شراء الغذاء الصناعى

لتغذية الحيوانات، لأن ابنى غادر القرية ليشارك فى حرب لا تخصه. تاركًا لامرأتين وطفل مهمة فلاحة حقله".

وفى صمت، سحب نفسًا من الغليون، حينما فتح الباب. فنهض فى بطء ووضع غليونه فوق المدفأة. ونظر إلى العجوز الطويل الفخور الذى ظهر على الباب. وحتى دون أن يلتفت، فقد أدرك أن رانجى يترك الحجرة على أطراف أصابعه. وتحدث إليه العجوز بالإنجليزية:

- تبدو فى أحسن حال، يا تاهو.

- شكرًا. وأنت أيضًا يا أريكى تومِوانا.

- الزمن رحيم بى.

وجلس على الكرسى الذى تركه تاهو. ونهضت الأم العجوز إلى المنضدة. ونظر إليها تاهو وهى تثبت المصباح حيث يسقط النور على وجهها. وجلس مكان أمه، ورأى من فتحة الباب شجرة البوهو توكاوا المزهرة التى على شكل شمعدان، والقمر فى ربعه الأول يسطع فى برودة سماء بلا سحب. وسمع نباح كلب بعيد، وما عدا ذلك لم يكن سوى صمت، صمت زاده عمقًا طقطقة فتيلة المصباح، وتكتكة ساعة الحائط العالية.

وقال أريكى:

- أعتقد أننا سنرزق المطر هذا الأسبوع. لقد عاودتنى الآلام.

فهمهم تاهو معلقًا:

- حقق الله ظنّك.

وقال فى نفسه: "ها قد حانت ساعة الحساب... لم يضيعوا وقتهم. لكنه لم يشعر بالمرارة ولا بالندم؛ بل لقد كان راضيًا لأنه فى النهاية يستطيع أن يبرر موقفه.

وبدأ الرجل العجوز قائلاً:

- سنتان. ظللت غائباً مدة سنتين يا تاهو.

كان صوته جميلاً رخيماً، وهو يتحدث لغة البيض.

- نعم.

- ذات يوم، قبل سنتين، سافرت فى عطلة إلى أوكلاند. وهناك قررت أن تنضم للجيش، جيش البيض. وظللنا ننتظر فى القرية بلا فائدة. سافرت على ظهر سفينة إلى كوريا، ذهبت لتشارك فى حرب البيض.

- نعم.

- وفى أرضك، لم يبق لفلاحتها سوى امرأتين، إحداهما عجوز والأخرى مريضة، وطفل صغير. هل فكرت فى ذلك؟

وبدأ الصوت يحمل نبرة القسوة.

- بيعت بعض المواشى من أجل دفع الضرائب؛ وقضى المرض على بعضها الآخر. ولم تعد الحقول تفلح. لقد ظلت حقولك يا تاهو بورا، لأنه لم يكن هناك رجل يقود المحراث.

وتوقف أريكى عن الكلام فى انتظار رد تاهو.

- قيل لى ذلك.

كان هذا كل تعليقه.

- لماذا حدث كل ذلك، يا تاهو؟

وظل تاهو صامتا لحظات. لم يكن يشعر بأى خشية، ولا أى شك. وقد سرّته هذه الملاحظة.

– نعم، سافرت إلى أوكلاند وأصبحت جنديًا.

وتوقف إذ لاحظ أنه يتحدث بلغة آبائه. كانت تلك المرة الأولى منذ عامين، التى يتحدث فيها لغة "الموري". وكانت الكلمات تنساب من بين شفتيه بلا أى مجهود، وبلا أى حاجة للتفكير.

– سافرت إلى كوريا بحثًا عن المغامرة. كنت أشعر بالملل من حياتى فى القرية، الملل من الحصاد، ومن حلب الأبقار، ومن التعب فى الحقول. لكننى حينما وصلت كوريا، كان الظمأ إلى المغارة قد انطفأ فى داخلى. لقد اكتشفت بلدا غريبًا – جبال حمراء، عسيرة، مستنقعات تخرج منها رائحة كريهة، أرض ضعيفة لا تنتج شيئًا يذكر. كان ذلك مختلفًا كثيرًا عن حقولنا الغنية الخصيبة. لكن شعب كوريا يحب بلده كما نحب نحن بلدنا. بيننا وبينهم عادات مشتركة، وفى لغتهم بعض مفردات من لغتنا (مع أنهم ينطقونها بطريقة مختلفة) لقد أخبرنى ضابط أمريكى وهو أستاذ فى الجامعة، بأن شعبنا وشعب كوريا ربما ينتمون إلى منطقة واحدة من الأرض. وشعرت بالتعاطف مع هؤلاء الناس.

وتوقف، ولاحظ أن الرجل العجوز يراقبه باهتمام. وسمع أمه تتحرك، وحينما استأنف حديثه، كان صوته قد أصبح أشبه بالهمهمة.

– أنا أذكر الحكاية التى كنت ترويها لى وأنا صغير... هل تذكر؟ حكاية الأرونيين والبوكيتيين.

وهز الرجل العجوز رأسه.

– قبل عدة قرون، كان الأرونيون يمتلكون سهولاً خصيبة. فقد كانوا مزارعين ممتازين، وكانوا قومًا مسالمين. كان جيرانهم البوكوتيون من صيادى الأسماك ومن المحاربين. وكانوا يأكلون لحم البشر ولا يزرعون أراضيهم. ولشعورهم بالغيرة من ثراء جيرانهم، فقد كانوا يتمنون امتلاك سهول الأرونيين الخصيبة.

وذات يوم انقضوا عليهم وأبادوهم عن آخرهم واستقروا فوق أراضيهم.

وتوقف تاهو، واستأنف الرجل العجوز حديثه بصوت رنان وينمّ عن الفخر.

– وذات يوم، وقع زلزال عنيف حول السهول الخصيبة الخضراء إلى صحراء قاحلة تتصاعد منها أبخرة الكبريت. ومات البوكوتيون من الجوع والمرض.

– تلك هى الحكاية التى كنت ترويها لى يا أريكى. وأنا فى كوريا كنت أحارب مع الأرونيين ضد البوكوتيين. كان إخوتى الكوريون مسالمين، يكتفون بفلاحة أراضيهم الفقيرة، وزراعة الأرز وعبادة آلهتهم كما كان يفعل آباؤهم؛ كانوا يحترمون القوانين التى وضعوها، ولا يطلبون شيئًا من أى أحد. وقد انقض عليهم جيرانهم الأقوياء واعتدوا عليهم، وقد أدركت عند وصولى هناك أن واجبى هو أن أحارب إلى جوار الأرونيين حتى لا يتعرضوا للأضرار التى عانت منها بلادنا فى الماضى.

وساد صمت طويل. ولم تعد النار سوى كومة من الجمر يخرج منها أحيانا لهب قصير أزرق. ومال الرجل العجوز إلى الأمام. وحطت عيناه السمراوان المتباعدتان على عينى تاهو بفخر واعتزاز كأنما لسبْر أغوار نفسه .

– صحيح كل هذا يا تاهو؟

– نعم صحيح كل هذا .

وندت زفرة طويلة مرتعشة من بين شفتى الأم. لقد فهمها، لكنه لم يلتفت إليها .

ونهض الرجل العجوز ونصب كتفيه. ورمق تاهو لحظات. ومال نحوه برأسه. وشعر تاهو بأنف العجوز يمس أنفه، وفاض قلبه بالفرحة حينما سمعه يقول:

– أهلا بك يا بنى.

***

الجسر المعلق

تأليف: توى آن هواخ دان ThuyAn Hoang Dan

من فيتنام

كانت طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات... وفجأة، اقترنت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان، لا يعلم مصدرها إلا الله. أما سكان القرية الذين لم يرحلوا بعد، فلم يجدوا وقتًا للتفكير أو الجدال.. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى يتردد فى جميع الطرق المفضية إلى خارج القرية الصغيرة، والرعب والكرب يضاعفان صراخهم: "لقد أصبحنا فى قلب النار... لقد زحفت إلينا الجبهة". واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء - عند مدخل القرية - يسرعون إلى بيوتهم، ليحملوا منها كل ما تصل إليه أيديهم.

وبقى بعض منهم فى المؤخرة، ليساعدوا المسنين، وليحملوا الأطفال.. وكدست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعة. بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها... وراح الجميع يتدافعون فى عجلة - فرارًا من القرية المهددة، دون أن تكون لدى واحد منهم فكرة محددة عن الوجهة التى يقصدها... فكانوا ينضمون - بلا وعى أو إرادة - لأكثر الجماعات الهاربة عددًا، دون أن يعطوا لأنفسهم فرصة ليسألوا: من أى نواحى الجبهة ينبعث ضجيج المعركة؟ وإلى أى مسافة من القرية وصل المحاربون؟ كان كل همهم أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين، حاملين أبناءهم وزادهم وأمتعتهم.

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية، في وقت واحد، تصحبها جلبة وسائل النقل التي كانت تتناهى إلى أسماع القرويين. فكانوا يحسون بها - أكثر مما كانوا يسمعونها - إذ كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم... وفي تدافعهم واضطرابهم، كان بعضهم يسقط فوق بعض الآخر، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم، والأمهات ينفصلن عن أولادهن... فتتصاعد النداءات الملتاعة الملهوفة... وكلما قطعوا شوطًا، انضم إليهم فريق جديد، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء:

- لقد بلغوا الجسر... لديهم مصفحات... إنهم يطلقون النار على القرية.

وتأكيداً لهذا الخبر الأخير، مرقت فوق رءوس النازحين - وهم مصطفون على ضفة النهر - مجموعات من القنابل القاصفة، فانبطحوا جميعًا على الأرض. وأطلقت النسوة عاصفة من الصراخ والعويل:

- لقد أحاطوا بنا! لقد حوصرنا! يجب أن نعبر النهر، فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة.

وفي حركة واحدة، اندفع المهاجرون نحو حافة النهر، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حمله من حزم ... والكهول منهم يئنون، والأطفال يبكون. ودوت من إحدى النساء صرخة ملتاعة، فارتفع صوت رجل يقول: "أغلقن أفواهكن أيتها النسوة! إنهم إذا سمعونا فسيقصفوننا بالقنابل، فيمزقوننا إربًا إربا". وإزاء هذا التحذير، كتم الكهول آناتهم، وأخذت الأمهات يُسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم.

وعلى طريق الجسر، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو مختلطة بطلقات الرصاص، تعزف موسيقى الموت... واستمر الضجيج الرهيب في الاقتراب والارتفاع.

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر - أسفل طريق الجسر- لم يلبثوا أن هدءوا وكأنهم أيقنوا أنهم بلغوا - في النهاية - مأوى آمنًا... وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التي

كانوا قد ألقوها أرضًا ... وأسرع الأقوياء من الرجال إلى قواربهم المستديرة - الشبيهة بالسلال - فشرعوا ينقلون الهاربين، ويجدفون بكل ما آتاهم الله من قوة.

وفى لحظة وجيزة، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللاتى حملن أطفالهن على أكتافهن ... أما الشبان، فاندفعوا إلى الماء، يعبرون النهر سباحة. وأفراد القارب الأخير للأمتعة التى يلتقطها أصحابها... وحين أصبحت القوارب فى عرض النهر - وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر - أخذ العابرون يرتجفون خوفًا، إذا فطنوا إلى أنهم أصبحوا فى منطقة مكشوفة، مما يجعلهم هدفًا سهلاً للقنابل.. ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة أو الشاطئ الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب، ينتظرون دورهم فى العبور، وهم نهب للرعب خشية أن يصيبهم العدو، قبل أن تعود إليهم القوارب... ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت، فعادت القوارب مرات... وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر، وتم نقل جميع الأمتعة إلى الضفة الأخرى، استرد الهاربون هدوءهم، وانبطحوا على الأرض، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها إلى غير عودة.

***

كانت سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان أسود تمزقه من حين لآخر ألسنة اللهب. وأخذت أعمدة الدخان وألسنة اللهب تتماوج وتتلوى كالأفاعى المذعورة ... وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية، حتى بلغت المبانى الرئيسية فيها، ثم تشبعت فانتشرت فى جميع الأنحاء، واجتاح الدخان كل شىء... وحملت الرياح الرماد إلى ضفة النهر، ثم عادت به إلى الضفة الأخرى لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى ألم وذهول، وقد سمرّتهم إليها فجائية الأحداث والدمار.

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد، ثم أخذ يصرخ، وهو يحدق فى يده:

- "انظروا... ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء، تتلاشى فى الدخان... أهذا مصير العمل الدائب والحرمان؟ يا إلهى!".

وسمع كل امرئ هذه الحسرة، فكأنما كانت إشارة بدء، إذ أخذت الدمع تسيل من العيون... وأفلتت من الرجال زفرات أسى.

ولكن أحد المبرزين فى القرية، صاح بصوت قوى: "إن المصيبة مصيبة الوطن بأسره، فلا تعتقدوا أن منازلكم وقريتكم وحدها هى التى أصابتها النيران".

وبينما هو يتكلم، صرخ أحد الموجودين: "انظروا. هناك، رجل على الشاطئ.. ومعه ثور".

واتجهت الأبصار جميعًا إلى الضفة المقابلة... كان هناك رجل حقا، لاح من خلال الدخان وهو يقود ثورًا، ويسير فى خط متعرج، كأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها إليه خصم متوار عن الأنظار.

وعرف القرويون الرجل... إنه "ترونج به"؟ وثوره... وراحوا ينادونه، ويحيطون أفواههم براحاتهم، حتى تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطئ الآخر للنهر. ولكن... أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة؟

ولوح "ترونج به" بيده. ثم شد الحبل ليقود الثور إلى منحدر يفضى إلى حافة النهر. ولكنه ما لبث أن غير اتجاهه فجأة، ولاح أنه أراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان. وفجأة، أنزل يديه وألصقهما ببطنه، بينما انتفض الثور جامحًا، وأفلت. وانطلق مترنحًا، وكأنه أصيب هو الآخر... وأيقظ هذا المشهد الذعر بين القرويين من جديد، وأيقنوا أن الخطر يلاحقهم. فانطلقوا يجرون على غير هدى، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها.

***

من خلال أحراش الغاب، تراءت - أخيراً - منازل سمراء وحمراء ... تلك كانت طلائع منازل قرية "تكون"، وقد بدت بمتانة بنيانها بمثابة ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذى كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى.

وأخذوا يركضون إلى "تكون" بأقصى ما فى وسعهم من سرعة، وقد تقطعت أنفاسهم، وتصبب عرقهم أنصابا... وكان القادرون يأخذون بأيدى المسنين، ويجرون وراءهم الأطفال... ولكنهم، وبعد أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة، فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من أحد الأدغال إلى يمينهم.

وخيل إليهم أنهم ينظرون إلى صورتهم فى مرآة؛ كان الآخرون مثلهم، جمهرة من الناس مثقلين بالأدوات والحزم، يفرون والموت فى أعقابهم... فمن الجانب الآخر للدغل، كان ثمة خط من النيران، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة. وصاح شخص ما: "إنها عملية تطويق، فهم على جانبى النهر... كيف السبيل إلى النجاة؟".

وأدرك الفارون أنهم وقعوا بين نارين، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا ملجأ أميناً، فى قرية منعزلة عن المعركة.

كيف السبيل إلى النجاة؟

وتجمدوا فى أماكنهم، لا يدرون إلى أين يذهبون... وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة... وازداد ارتفاع قصف المدافع، وهى تقترب من ناحية "تكون".

وانبعث من الفريق الآخر من الفارين صيحات التحذير:

- اتبعونا، فنحن على دراية بكل الطرق...! إننا نيمّم شطر (بين دا)، لنختبئ فى الجبال.

وعادوا إلى الجرى، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية.

***

أخذت حدة الشمس تخف فوق مزارع الأرز، وهدأت حرارة الجو.. ولم يجرؤ أحد من القرويين على التوقف، على الرغم مما أصابهم من إرهاق. بل إن أحدًا لم يعد يحفل بأنين الشيوخ. وعويل النسوة والأطفال.. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر، المترامى.. وزاد الطين بلة، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف ثم تساقط المطر مصحوبًا ببرد قارس... ولكن، ماذا يهم المطر والبرد؟ لم يكن القوم يفكرون إلا فيما بقى من مسافة بينهم وبين الملاذ الآمن.

ولما كان القادمون من "نجين" يجهلون موقع "يين دا" فقد كانوا يسألون العارفين، فيجيبونهم:

- لا تزال المسافة بعيدة.. هناك جسر معلق فى الفضاء، فوق مجرى مائى عندما تجتازونه، تكونون قد وصلتم إلى مقاطعة "يين دا".

وما لبث الجسر الصغير أن لاح - خلال ستار المطر وضباب المساء - وكأنه يطفو فى الهواء، وعوارضه الرقيقة، المصنوعة من الغاب، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر... والليل يهبط مسرعًا، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة، ينعكس عليها وهج النيران... فكأنما السماء وحش خرافى مرعب، ينبعث منه دخان ولهب.

***

وازدادت معالم الجسر وضوحًا، فابتسم بعض الهاربين، وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم. كان قصف القنابل لا يزال مركزًا، ولكنهم شعروا بأنهم تجاوزوا نطاق الخطر... وراح بعض المسنين يلهجون بالدعاء، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود.

***

على أن الحيرة عاودت القوم، عندما بلغوا الجسر المعلق... لم يكن مجرى الماء واسعًا، ولكنه كان بالغ العمق... وكان التيار سريعًا وقويًا، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لا تتجاوز الشبر. ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد. كان مكونًا من سيقان من الغاب طويلة بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب، غرست فى المياه لتكون دعامات... وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط على جانبى الجسر، ليتكئ عليه العابرون. وفى غمرة القلق، انبعثت نصائح الفارين وتساؤلاتهم:

- والآن... ألم يبق إلا أن نجتاز الجسر؟

- بلى. هذا أمر يسير على الشبان... ولكن... النساء والشيوخ والأطفال؟ وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر؟

وسأل أعيان القرية زملاءهم من قرية (نكون):

- أما من طريق آخر لعبور النهر؟ ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعا، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحدًا واحدًا، فوق هذا الجسر الضعيف.

وفجأة وقع انفجار رهيب وراء القوم، على مسافة مئة متر تقريبًا، فقطع الحوار. ونثر الوحل فوق رءوس الهاربين. وتوالت الانفجارات... ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافًا من الشاطئ الآخر، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه عليهم، فاستبد بهم الذعر، وعلا صراخهم، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة، وتدافع بعض الآخر نحو الجسر، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم.

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم، وراحوا يحاولون إقرار قسط من النظام، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج: "اعبروا الجسر فرادى... واحد واحد، ولا تثقلوه، وإلا غرقتم جميعا".

هذه التحذيرات كانت ستذهب دون تأثير، لو أن مجموعة أخرى من القنابل تبعت الأولى... ولكن القنابل انقطعت... غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقنوفات، إذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة، وكأنه وشيك الانهيار وما كان انهياره فى المياه السريعة الجريان - ليثير دهشة أو عجباً من التزاحم والاضطراب.

وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد، تقدمت إليه عجوز تحمل على كتفها عصا طويلة من الخشب، علقت على طرفيها سلتين. وكان الليل قد لف المكان، فلم ير الرجل - الذى كان خلف العجوز - شيئًا من محتويات السلتين. وقال للمرأة:

- ألق بهذا فى النهر! ستكونين سعيدة الحظ لو استطعت العبور وحدك دون أن تثقلى الجسر بالسلتين.

وتشبثت المرأة بالسلتين فى إصرار، وقد رابها قول الرجل الذى لم تكن تعرفه. وكأنما أثاره إصرارها فهز السلتين بخشونة، وإذا بصراخ طفل ينبعث من إحداهما، فصاح الرجل: "ماذا تحملين فيهما؟".

ورأى المحيطون بها طفلاً - فى نحو الثالثة أو الرابعة من عمره - قابعًا فى إحدى السلتين... بينما استغرق فى النوم - فى السلة الثانية - وليد صغير.

- يا الله! كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين؟

وأجابته السيدة فى جفاء:

- "سأفعل... لقد عبرت - من قبل - جسوراً أسوأ حالاً، بأحمال أثقل".

وأخذ القوم يرقبون المرأة، بانفعال بالغ، وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب تحت ستار المطر الدقيق، الذى تخلله ضوء القمر الشاحب... كانت محاولتها ضربا من المجازفة... وقال بعض الحاضرين لأنفسهم، وهم يقدّرون الاحتمالات: "إن نجاحها فى

بلوغ الشاطئ الآخر بسلام – لو استطاعت – فأل حسن يبشر المهاجرين بأنهم سيبلغون قرية "يين دا"، دون خطر.

ولكن القنابل عادت تستأنف قصفها فجأة، وقد ازدادت قربًا... وقبل أن يجد أحد فرصة للانبطاح فوق الأرض، انفجرت قنبلة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر. وفى غمرة الاضطراب الجنونى، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى الماء، بينما تدافعت أعداد كثيرة نحو الجسر.

والتفتت السيدة خلفها بعد أن بلغت منتصف الجسر، وقد شل الذعر حركتها. وتشبثت بكل قوتها بسور الجسر الذى بدأ يتأرجح فى عنف بسبب تدافع الفارين. وفجأة، مالت إحدى السلتين ميلاً شديداً، فاختل توازن العصا فوق كتفى السيدة فسقطت مع السلتين فى الماء. وضاع صراخ الأم وعويلها وسط ضجيج الناس وقصف القنابل.

***

السمندل الذى اختار مصيره

تأليف: هوهيو تووغ HO HUU TUONG

من فيتنـــام

على مشارف طريق صحراوى منعزل لا يفضى إلى أى مكان، ونادرًا ما يطرقه المسافرون، يوجد معبد صينى صغير شُيد منذ ثلاث سنوات، يقيم فيه راهب بوذى يعيش فى عزلة تامة. ويمر العام الكامل دون أن يأتى أحد لزيارته. وأمام المعبد كومة من الأخشاب صُفت بعناية داخل حوش مربع كبير.

وذات يوم، وعند الغروب، بعد أن أوقد الراهب مصباحه، وصل غريبان بادراه بالتحية من عند عتبة الباب، وخاطباه على النحو التالى:

- أبانا الورع التقى، لقد أرشدنا إلى هذا المكان نور مصباحك، فجئنا نطلب ضيافتك لنا هذه الليلة. وسنستأنف طريقنا عند الفجر.

وبكل رقة، أجاب الراهب، وقد عقد يديه أمام صدره:

- فليباركّما اسم بوذا المقدس. إن بابه مفتوح دائمًا للمسافرين الراغبين فى الراحة.

وبعد أن تردد لحظة، كأنما ليعطى لنفسه الوقت الكافى للاستمتاع بالسعادة التى شعر بها، استطرد قائلاً:

– منذ إقامة هذا المعبد قبل ثلاث سنوات، لم يأت أحد لزيارته. لقد حققت زيارتكما اليوم دعواتى وابتهالاتى. إن هذا اللقاء لا بد كان مكتوبا فى سجل القدر.

ثم انشغل بإعداد وجبة خفيفة لضيفيه الطارئين. وأثناء العشاء، تطرقت الأحاديث إلى موضوعات شتى، وقد وجه إليه الضيفان وابلاً من الأسئلة، ثم هذا السؤال:

– أبانا الجليل، ما نوع الصلاة التى تؤديها؟

فأجاب الشيخ بكل بساطة وطلاقة، كأنه يتحدث مع صديقين قديمين.

– منذ شبابى الأول، ظللت وفيًا للإله دامينا. وأستطيع أن أؤكد أننى استثمرت غابة الرحمة بكل اتساعها الرحيب. وقد شملتنى البركة منذ ثلاث سنوات. ومنذ ذلك التاريخ، انقطعت لصلاة "ميتريبا" لا أؤدى سواها.

فسأله أحد المسافرين:

– هل يمكن أن تخبرنا بالسبب؟

– تبارك اسم بوذا المقدس! لو أن كلمة واحدة تكفى لإنقاذ الروح، ما كنت ألزم الصمت؟ سأخبركما بكل شىء وبكل سرور. حينما كنت أدرس فى الكتب المقدسة، اكتشفت هذه التذكرة التى يقدمها "ساكيا مونى" بعد أن صبأ وتحول إلى حياة التقشف والزهد: "بعد ألفين وخمسمئة عام ستتفرق البوذية إلى شيع وطوائف، وسيكون ذلك زمن اضمحلال الشريعة. وسيعود "ميريبا" إلى عالم التراب هذا من أجل إنقاذ جميع المخلوقات وإقامة الطريق".

"وإذا لم يجانبنى الصواب، فإن هذا الزمن أصبح قريبًا جداً. فمن المؤكد أن "بوذا ميتريبا" قائم بيننا من أجل إنقاذ أرواح الذين يتوقون إلى الكمال. لذلك فقد نذرت أن أتلو جميع المتون التى تخصه ألف مرة. وإذا أوفيت هذا النذر، سأصل إلى بغيتى".

وهنا سأله المسافر الآخر:

- كم مرة تلوت هذه المتون حتى الآن؟

- تلوتها ٩٩٩ مرة حتى الآن. لم يعد أمامى إلا أن أتلوها مرة واحدة، وسأفعل ذلك الليلة. أنا على ثقة من أنكما، فى حياتكما السابقة، قد فعلتما خيرا كثيراً. من أجل ذلك، كتب لكما أن تشهدا تلاوتى الألف والأخيرة.

وفرغوا من العشاء على هذه الكلمات الأخيرة. ولما كان المسافران يشعران بالتعب، فقد نهضا لكى يخلدا إلى الراحة. أما الراهب، فانصرف إلى تنظيف المعبد بكل عناية، واقترب من الهيكل وأوقد فتيلة المصباح الزيتى، ثم فتح الكتب وبدأ التلاوة. وقبل أن ينام المسافران، أراد كل منهما أن يعبر عن انطباعاته للآخر، فقال الأول:

- مسكين هذا الراهب العجوز مع تطيراته وخزعبلاته. إن عينيه اللامعتين ما زالتا مغمضتين. من المؤكد أن الشريعة التى مضى عليها الآن ألفان وخمسمئة عام بها أخطاء، ولا بد أنها تتعارض مع متطلبات هذا العصر. لذلك من الطبيعى أن يدرك العلماء هذه التناقضات، ويحاولوا إيجاد حلول لها من أجل سد الثغرات وتدعيم البناء. من هنا جاءت الاختلافات بين المذاهب والمعتقدات، هذه الاختلافات أدت إلى ظهور الفرق والمبتدعات. ومن هنا كان اختلاف الأديان. وليس من المستغرب، والحال هذه، أن يكون فى غابة الرحمة أربعة وثمانون ألف فرع مختلفة.

فقال الآخر:

- أنا متفق معك تماماً فى هذا الموضوع. لكنى أعتقد كذلك، أنه إذا كان "بوذا ميترييا" سيأتى إلى هذا العالم الترابى، فإن مهمته الكبرى ستكون إقامة الشريعة، حيث تتفق مع كل التقدم الذى حققناه فى جميع المجالات، منذ أكثر من ألفى عام. وسيكون من واجب كل بوذى أن يتهيأ، فى جسده وفى روحه،

لتلقِّى الشريعة الجديدة.

ترددت هذه العبارات فى سكون المعبد، ولم يكن يدور بخلد أحد أن هناك مخلوقًا يسمعها. كان ذلك المخلوق هو سلامندل، كانت قد اختارت مقرًا لها هذا المعبد منذ إنشائه، وقد سمعت تلاوة متون الراهب ٩٩٩ مرة. وقد علّمها ذلك فهم لغة البشر وتفكيرهم. وقد أخرجتها انتقادات المسافرين من نومها. وكانت من قبل قد عرفت بالنذْر الذى قطعه الراهب على نفسه بمجرد أن ينتهى من تلاوته الألف، فقد قرر حينئذ أن يصعد فوق المحرقة ليحرق نفسه حيًا. وقالت السلامندل فى نفسها: لقد أعمت الخزعبلات بصيرة الراهب وهو لا يزال فى عماه. فإذا حرق نفسه حيًا كما يريد، فكيف يأمل أن يدخل فى النيرفانا؟(*) أجل، لا بد أن تجد وسيلة لمنع حرق الراهب العجوز، على الأقل حتى يستنير عقله. وعقدت عزمها على ذلك. لقد قررت السلامندل بأى حال من الأحوال، أن تمنع الرجل من إتمام تلاوته الألف. ولذلك تخيلت السيناريو الآتى: ستذهب إلى هيكل بوذا وتستولى على المصباح الزيتى وتشرب كل ما فيه من زيت للوقود. وبذلك ينطفئ المصباح، ولا يتمكن الراهب من القراءة.

كانت هناك قوة عجيبة تدفع الحيوان إلى تنفيذ هذه الخطة التى وضعها. وبشفطة واحدة أفرغت المصباح قبل أن ينتهى الراهب من نصف تلاوته. وفوجئ الرجل بانطفاء المصباح، واتهم فى نفسه المسافرين، واعتقد أنهما من الأشرار الذين لا يستحقون أن يكونوا شهودًا على صعوده إلى القداسة. إذن، من الأفضل أن يغلق كتابه وينتظر رحيلهما ليكمل قراءته.

(*) السعادة القصوى فى البوذية عن طريق قتل الشهوات.

ولكن الذى حدث أن الليالى التالية ظل المصباح ينطفئ قبل أن يتمكن من ختم القراءة. ففكر الراهب فى أن يقوم بهذه القراءة فى النهار، لكنه لم يستطع أن يخالف النذر الذى قطعه على نفسه بألا يقرأ إلا فى سكون الليل.

وذات ليلة، وقد استولى عليه القلق. لم يستطع أن يمنع نفسه من إلقاء نظرة خلسة على المصباح أثناء القراءة، لعله يكتشف سبب انطفائه. وهكذا فاجأ الراهب السلامندل فى اللحظة التى مدت فيها رقبتها لكى تشرب زيت المصباح. حينئذ استولى عليه غضب شديد، فكف عن القراءة وجعل يكيل السباب للحيوان:

– أيها الحيوان القذر، أنت إذن الذى تقف فى طريق خلاصى. وتناول قادوما وأنهال به على رأس الحيوان الصغير، فسقط قتيلاً.

فى تلك الليلة، نفسها، وبمجرد أن انتهى الرجل من تلاوته الألف، صعد فوق المحرقة التى كان قد أعدها، وأوقد فيها النار، وأحرق نفسه.

***

فى تلك الليلة، ظهر الروحان أمام محكمة لوتس. ونادى قاضى القضاة على الراهب أولاً، وخاطبه قائلاً:

– أنت الذى كرست حياتك منذ نعومة أظافرك للتأمل والعبادة، مازلت تجهل أهم مبدأ فى شريعتى. إن تحقيق صفاء النفس يستلزم القضاء على جميع الرغبات، وأنت ملىء بالرغبات. لأن الرغبة فى تحقيق الصفاء، والدخول فى كنف بوذا، رغبة، هذه الرغبة أثارت فى نفسك الطمع، وهذا الطمع هو الذى قادك إلى الغضب، وإلى الضرب، وإلى العنف، وهذا العنف هو الذى جعلك تعتقد أنك بقتلك للسلامندل ستكون فى حلٍ من الصلاة والدعاء، وأنك بذلك تبلغ حالة الصفاء؛ هذا محض غباء. طمع، وعنف، وغباء. كل ذلك جعلك تسىء إلى

الحياة. كان بإمكانك أن تقضى حياتك كلها فى التنسك، دون أن تكفر عن هذه الخطيئة.

"جريمتك جريمة كبرى. يجب عليك أن تتوب توبة نصوحًا، وتعيش حياة فاضلة عمرًا طويلاً إذا أردت أن تحصل على الغفران. لذلك قمت بتوجيه أوامرى إلى القديس "ديامان" وإلى الكهان الأرهات بأن يجمعوا رماد جسمك كله وأن ينثروه فى كل مكان. وكل ذرة من هذا الرماد ستصبح كائنًا بشريًا. وحينما يحصل كل منهم على خلاصه، سيعودون جميعًا إلى أصلهم، ويصبحون كائنًا بشريًا واحدًا. حينئذ فقط يمكنك أن تعود هنا وتبلغ الكمال".

بعد ذلك، نادى بوذا على روح السلامندل وقال لها:

- جريمة الراهب العجوز الضال جريمة كبيرة. ولكن أنت التى أُلهمت شيئًا من البصيرة حينما سمعت مناقشة المسافرين... جريمتك أكبر بعشرة أضعاف.

هنا بادر الحيوان قائلاً:

- أوه! بوذا المقدس، ابنتك لم تكن تهدف إلا إلى خلاص هذا الراهب؛ وأنا غير نادمة أنى وهبت حياتى من أجله - ما الخطيئة التى ارتكبتها إذن؟

وهنا أعلن بوذا قراره:

- هناك ألف وسيلة لتخليص الروح. لماذا منعت الراهب من إتمام صلواته؟ صحيح أن مثل صلاته توقع فى الخزعبلات، لكن صلاته كانت صادرة عن عقيدة صادقة. إن مملكتى من الطوبى، فليس من المصرح دخولها للمخلوقات التى لم تحرر تفكيرها. فلأنك لم تستعملى وسائل الحرية، فقد فقدت حريتك لهذا السبب، لا أنت ولا هو، جديران بدخول مملكتى، مملكة الطوبى.

وتنورت بذلك السلامندل. وخرت مرة أخرى راكعة مبدية عميق ندمها:

– أوه، أبى، إن رحمتك واسعة. أتوسل إليك أن تعيد خلق ابنتك فى حياة جديدة لكى تتمكن من استعمال وسائل الحرية، لكى تحمل الخلاص إلى جميع المخلوقات التى ستخرج من الرماد الذى نثره القديس ديامان والرهبان قبل قليل.

فأجابها بوذا قائلاً:

– سأحقق رجاءك. فلقد كدت تمسى شاطئ النور الكامل، إذن، اختارى بنفسك الشكل الذى تعودين فيه للحياة. إن حرية هذا الاختيار وحدها ستسمح لك بأن تحققى كمال نفسك، وأن تكونى جديرة بالدخول فى مملكتى.

منذ ذلك الحين، حملت السحب والرياح روح سلامندل التى ظلت عاجزة عن العثور على ملجأ يجعلها قادرة على أن تستعمل وسائل الحرية لتخلص، بحركة واحدة، جميع المخلوقات التى خرجت من الراهب. ولم تُعرف على الإطلاق روح عانت كل هذه المعاناة.

المترجم فى سطور:

حماده إبراهيم

دكتوراه الدولة فى الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة السوربون بباريس مع مرتبة الشرف الأولى، يوليو سنة ١٩٧٥م .

أستاذ ورئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون (حتى عام ٢٠٠٦ وحاليا أستاذ متفرغ).

التدريس فى جامعات: نابولى بإيطاليا والمنصورة وطنطا والمنوفية والأزهر والمنيا والجامعة الأمريكية بمصر، والإمام محمد بن سعود بالسعودية.

أعمال إبداعية باللغة الفرنسية منها: صامويل بيكت، المعارضة مدخلا للمسرح الجديد، اللغات المسرحية غير الكلامية، جان تارديو كاتبًا باطنيًا.

كتب باللغة العربية: بانوراما المسرح الفرنسى (١- الكلاسيكية ٢- الرومانسية ٣- المسرح الحديث)، اللغة الدرامية، إبداع الأطفال، الأفاعى أولاد الأفاعى.

ترجم العديد من الأعمال منها: الأعمال المسرحية الكاملة لكل من: يونسكو، جارّى، جورج فيدو، جان تارديو. التعبير الجسدى للممثل، فضاءات العرض المسرحى، اليوم السادس، إيزابيل، الإسلاميون الجزائريون.

قدم العديد من الأعمال فى البرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية منذ عام ٦٧ منها: مسرحيات مؤلفة، قصص مؤلفة، مسرحيات مترجمة، قصائد وقصص قصيرة مترجمة.

هذا بالإضافة إلى خمس حلقات تليفزيونية حول خمسة من الحاصلين على جائزة نوبل (الطريق إلى نوبل).

التصحيح اللغـوى : **كريمان البدرى**
الإشـــراف الفنـــى : **حسن كامل**

ثلاث تيمات كبـرى تتوزع فى حكايات هذا الكتاب :

المرأة والطفل والحرب .

المرأة هي الشخصية الرئيسية في أكثر من نصف الحكايات؛ حيث تقوم المرأة بالدور الرئيسي فيها. وفي عدد آخر من الحكايات تكون غائبة، ولكن الأحداث تدور حولها أو هي المحرك لها .

نقرأ في هذا الكتاب قصصا من حوالي عشرين دولة:

إنجلترا، واليـابان وأستراليـا وفنلندا وفرنسـا واليونان والهنـد وألمانيا وبلجيكا والكونجـو والولايـات المتحدة وجاميكا وأيسلنـدا ومدغشقـر ونيوزيلندا والصين وفيتنام .

لوحة الغلاف: بول كلي

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح